تهذيب مدارج السالكين

كتبه

الإمام ابن القيم الجوزية

هذبه

عبد المنعم صالح العلى العزى

الطبعة الشرعية الوحيدة بمصر




بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين ١
الرحمن الرحيم ٢ مالك يوم
الدين ٣ إياك نعبد وإياك نستعين ٤
اهدنا الصراط المستقيم ٥ صراط
الذين أنعمت عليهم ٦
غير المغضوب عليهم
ولا الضالين ٧
١٤٠١

مقدمة .. هذا التهذيب

الحمد لله رب العالمين، الذي ميّز طريق الهداية عن متاهات الغواية، و بيّن محاسن الاخلاق الايمانية، وجعلها مَدارج صاعدة الى جنانه، مفتوحة امام اولى الهمّة من العابدين.

ثم الحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفضل وأزكى مَن حَرص على هذه الاخلاق، فكان اسرع السالكين، وأول الواصلين.

ورضي الله تعالى عن صحابته الطاهرين اجمعين، الذين اتبعوا النور، وامتثلوا الأمر، وعافوا بهارج الدنيا، وتجردوا للعبادة والجهاد، حتى صاروا خير مثال للتربية الكريمة النبوية، وعلى تابعيهم باحسان، ومَن تبعهم من أخيار القرون الاولى، ومَن سار على نهجهم واقتدى بهديهم، من السَّلَف الصالح ومن لحق بهم على مَرّ العصور ، من الفقهاء الزهاد، والدعاة العاملين، والقادة المشمّرين.

وفي رجال الاسلام اليوم بركة، ولهم مِنّا تحية ودعاء.

وبعد :

فان الصحوة الاسلامية الحاضرة التي واكب انتشارها مَقدمَ القرن الهجري المبارك الجديد تُعتبر من اهم أحداث التاريخ الاسلامي المعاصر، وفي سعتها واندفاعتها ما يتيح للحريص على إبرار معالم ماضي الاسلام ان يجعلها تتويجاً ونهاية لسلسلة المفاخر التي قدمتها الدعوة الاسلامية في القرن الرابع عشر، كما ان في مضاء عزمة رجالها و وعيهم لضرورة الجد في استدراك النقص مايتيح من باب آخر للمتفائل ان يعدّها أول تباشير الحقائق التي تؤكد وتجزم باذن الله تعالى بأن المستقبل لهذا الدين القيّم في القرن الخامس عشر.

وصحوة هذا شأنها في تجميل التراث السالف وتقريب المستقبل الباسم من حقها علينا أن نبادر لرعايتها وإنمائها وتمتين عمليتها التربوية التي يُفترض فيها أن ترتقي بمستويات اهلها، وتأخذ منهم مزيداً من العطاء والبذل، وتضرم في افئدتهم لهيباً من الحماسة والشجاعة، مثلما تمنحهم نقاء العقيدة، بارجاعها الى حَدِّها السلفي الاصيل من غير بدعة، وجمالَ الاخلاق، باحياء سمت المروءة ومكارم الاعمال القلبية بلا تكلف، ووضوح الفقه، باسناده الى صحاح النصوص ومقالات جمهور الفقهاء دونما شذوذ، وشمولَ الوعي، بإحلال تناسب في الفن العملي مع أعراف المجتمعات الحاضرة وابعادها المدنية.

ولقد كان من اجتهادنا في ذلك: اختيار كتاب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد

وإياك نستعين» والقيام بتهذيبه، وتقديمه الى شباب الاسلام، عنواناً للمساهمة في هذه التنمية للعملية التربوية، ورديفاً لتهذيب شرح العقيدة الطحاوية.

ولايعرف قيمة «المدارج» حقّ معرفتها إلاّ مَن دَرَج، وكتاب الامام ابن القيم هذا عمل فذ، عزيز المنفعة، بليغ العبارة، وفيه من دقّة استخراج المعاني الايمانية ولطف الاشارات القلبية ماليس في غيره، حتى ان الكتابات الاخرى لابن القيم لاتستطيع أن تُنافِس نَفَسَه فيه، وكأني به قد كتبه واعتكف له في أبهى أيامه وأثناء وصوله الى ذروة صفاء حياته، فان كل مصلح او مؤلف او شاعر يرتفع في حياته مرة الى علو قد لايتكرر، والمدارج نِتاج تأملات تلك الايام العوالي في حياة ابن القيم، حتى انه هو نفسُه لم يستطع الحفاظ على هذا المستوى يوم اختصر المدارج في المختصر الذي سماه: «طريق الهجرتين»، وشتّان مابين الاسلوبين والروحين.

● منازل سير.... وميزان اعتدال

والاصل الذي حَكَم ترتيب كلام ابن القيم هو كتاب «منازل السائرين» لشيخ الاسلام ابي اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الانصاري الهروي الحنبلي الصوفي المتوفى سنة ٤٨١ هـ، فقد قسم طريق سير المؤمن الى الله تعالى الى مائة منزل، هي مثل محطات التزود في اي طريق طويل، او هي منازل طبقية ودرجات صعود ومدارج انطلاق، تتوالى في تتابع، وجعل لكل منزلة مفهوماً وحدّاً يليق لعامة المسلمين، وآخر لخاصة المؤمنين، ثم لخاصة الخاصة، مما اضطره الى كثير من التكلف المعنوي واللفظي الذي تأباه طبيعة السكينة الايمانية.

ولم تكن متابعة ابن القيم للشيخ الهروي هدفاً له، ولاهي من اهدافنا، ولكنه وجد بعض المبتدعة يُرَوِّجون لاخطاء وقع فيها الهروي، وشطحات واوهام جَنَح اليها بسبب مشربه الصوفي، رغم اتباعه لعقيدة وفقه وطريقة سلوك الامام احمد بن حنبل على وجه الاجمال، فَرَدَّ ابن القيم هذه الاخطاء، وأوضح الاوهام، وأدّاه رَدّه وإيضاحه الى استطراد مليء بالمخاطبات القلبية كانت انفع وأهمّ من الرد، وهذه الاستطرادات هي مبتغانا، لقيمتها التربوية، وهي التي أبقى عليها هذا التهذيب.

كان الهروي من أجلّ أئمة السلف، ولكن الله ابى ان تكون العصمة لأحد.

قال ابن القيم:

(صاحب المنازل رحمه الله كان شديد الإثبات للاسماء والصفات، مضاداً للجهمية من كل وجه، وله كتاب «الفاروق»: استوعب فيه احاديث الصفات وآثارها، ولم يُسبق الى

مثله، وكتاب «ذم الكلام وأهله»: طريقته فيه أحسن طريقة، وكتاب لطيف في اصول الدين يسلك فيه طريقة أهل الإثبات و يقرها، وله مع الجهمية المقامات المشهودة، وسَعَوا بقتله الى السلطان مراراً عديدة، والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بَهْت الجهمية والمعتزلة لاهل السنّة والحديث، الذين لم يتحيّزوا الى مقالة غير مادلّ عليه الكتاب والسنّة)(١).

وأكّد ابن القيم انه (بريء مما رماه به اعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل، على عادتهم في رمي اهل الحديث)(٢) (وهو بريء منهم عقلاً وديناً وحالاً ومعرفة)(٣). وفي بعض كلام المروي ما (يدل على رسوخ الشيخ في العلم، ووقوفه مع اهل السنة، وفقهه في هذا الشأن)(٤).

و ينال انصاف ابن القيم اعجابنا واحترامنا، اذ كان صاحب ميزان اعتدال جَعَله شديد الحرص على انتفاع المسلمين من احسان المحسن الذي يختلط صوابه باخطاء، وهو يرى ان ماوقع فيه المروي من مجانبة الصواب انما هو(من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، و يستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الاخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم)(٥).

وتشفع سيرة المروي له شفاعة قوية، وتنتصب مواقفه قرينة ترجح حسن الظن به، وتحمل على الاعتقاد بأنه ضحية التأويل فيما اخطأ فيه، وقد (كان شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: عمله خير من علمه).

قال ابن القيم: (وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد اهل البدع، لايُشق له فيها غُبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله، وأبى الله ان يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لاينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم)(٦).

ومن الخير ان يظل القارىء في عافية من تعكير يولده ذكر هفوات الشيخ المروي، و يكفيه ان يتابع ابن القيم في انصافه والعمل بقاعدة الموازنة بين صواب رجال الاسلام واخطائهم، وعلومهم واعمالهم. ثم اولى له ان يدعو للهروي مع ابن القيم فيقول:(الله يشكر لشيخ الاسلام سعيه، و يعلي درجته، ويجزيه افضل جزائه، ويجمع بيننا و بينه في محل كرامته)(٧).

• منهج هذا التهذيب

وقد حرصنا في هذا التهذيب على تخليص كتاب المدارج من جميع سلبياته التي كانت تقطع

---

(١) الى (٧): مدارج السالكين ١/٢٦٣، ٢/٨٧، ١/٥٠، ٣/٢١٨، ٢/٣٩، ٣/٣٩٤، ٢/٥٢.

على القارىء استرساله واندماجه القلبي مع المعاني الواعظة، فان اخطاء الهروي ومحاولة ابراز المبتدعة لها قد اضطر ابن القيم الى ان يطيل النَّفَس في مواضع كثيرة في فضح عقيدة وحْدة الوجود الزائفة، وإلى ان يبين تهافت من يرى نفي الاسباب، وقد حرصنا على حذف كل ذلك إلاّ نزراً يسيرا، لقلة حاجة المسلمين اليوم الى التفقُّه في الرد عليها، تبعاً لضيق دائرة ذكرها، وانقراض هذا النوع من المبتدعة تقريباً من اغلب بلاد الاسلام، وبروز بدع من جنس آخر، وسيظل كتاب (المدارج) الاصل مُنتصِباً كالمنار يعين مَن يحتاج الى أن يرد اهل وحدة الوجود ونُفاة الاسباب، إن دندن منهم أحد.

ومما حذفته ايضاً: الكثير من كلام الهروي المتكلّف، لامجرد عباراته الخاطئة، وقد رأيت أن أدمج كلماته القليلة مع كلمات ابن القيم من دون حصرها بقوس، حتى عاد لايميزها القارىء، إلا في مواضع قليلة، وربما غيّرت بعض الفاظه الى الاوضح، وانما فعلت ذلك اجتهاداً، طلباً لتمام الاسترسال وقطعاً للتقطيع والاستئناف، ولم أجد في ذلك بأساً كبيراً، إذ أن بامكان من يحتاج تمييز كلمات الهروي ان يراجع الاصل غير المهذّب ليجدها كاملة مفصولة.

وبنفس المقياس عاملت الحواشي التي اضافها الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله خلال تحقيقه للكتاب، فقد حذفت الكثير منها، إما لتكرار المعنى، او لخشونة الفاظه وشدة نقده، وأبقيت على بعضها النافع والضروري، ولكن رفعتها عن الهامش ووضعتها في مواضع لائقة بين كلمات ابن القيم نفسه من دون فصل، ولتمييزها طبعناها بحرف أصغر من الحرف الذي طبع به عموم الكتاب.

والغيت ايضاً: الاستطرادات الفقهية التي لجأ اليها ابن القيم ان لم يكن ذكرها ضرورياً، وهي تستطيل الى عشر صفحات احياناً، وهذه الاستطرادات مليئة بالمنافع وغزيرة الفوائد، ولكنها ليست من أصل موضوع الكتاب.

وكذلك كان حذف الاستطرادات اللغوية، والشواهد الشعرية، والالفاظ الغريبة التي لم تَعُد متداولة، والاصطلاحات الصوفية الغامضة، والاحاديث الضعيفة، والآثار الاسرائيلية، والاقوال المنسوبة الى زهاد مجروحين، والمعاني المكررة، والمنازل التي ظن الهروي انها من منازل الايمان ولكنها مرجوحة اولا تشهد لها النصوص أو آداب السلف.

وكنت احذف احياناً اسطراً لمجرد طلب الاختصار في مواضع التطويل، وجُمَلاً أحس بذوقي وتجربتي صواب رفعها والاستغناء عنها، وابياتاً من قطع شعرية نظمها ابن القيم نفسه، لضعف ملكته في باب الشعر وبرودة اكثر ما أورده.

والسلبية الوحيدة التي لم استطع التخلص منها: مافي الشرح من اضطرار ابن القيم لمجاراة ابي اسماعيل الهروي في استعمال اصطلاحات المتصوفة المهمة، كالسالك، والمُريد، والحال،

والمَقام، وغير ذلك، ولم أرَ في الابقاء عليها شيئاً من الحرَج، طالما لايقترن بهذه الاصطلاحات المعنى الخاطىء، فان هذا الكتاب كتاب سَلَفي على نهج اهل الحديث، ربطت معانيه باصطلاحات يمكننا ان نفهم من مطلق معانيها المعنى الصحيح الذي لاينكره النص وإن أراد بها البعض معنى خاصاً.

و يلحق بهذا السّلب: عدم تحقيقنا للكمية الباقية من الاحاديث النبوية الكريمة او نسبتها الى رواتها، اذ حال دون ذلك عامل السرعة في اخراج الكتاب، مراعاة لفوائد اقتضت التعجيل، وان كان يشفع لنا في ذلك ان معظم هذه الاحاديث هي احاديث صحيحة مشهورة يجدها المتتبع بسهولة في الصحيحين والسنن الاربعة ومسند أحمد، وقد أشار ابن القيم الى صحتها او حُسنها في مواضع كثيرة.

وبمقابل هذا الحذف: أنشأتُ وأضفتُ جميع العناوين الثانوية الجزئية المميَّزة بدائرة صغيرة سوداء بين الفقرات، واخترت لها أجمل العبارات التي تناسب السياق، وهي اضافة اراها مهمة، تزيد الوضوح، وتبرز المعاني، وتؤسس للقارىء انتباهاً متواصلاً. وقد ساعد على نيل هذا الوضوح ايضاً بعض تقديم وتأخير لجأت اليه، ومناقلات من موضع الى موضع، ومن جزء الى جزء، جَمعَت المعاني المتماثلة في مكان واحد، ثم زاد الوضوح بإظهارٍ متناسق لبدايات الفصول والمنازل، وترقيمها، وتجويد ترتيبها.

وهكذا فاني اظن ان كتاب «مدارج السالكين» الصعب المُقَفَّل قد أصبح بهذا التهذيب والترتيب كتاباً بسيطاً سلساً قريباً من الجميع، وصار أهلاً أن أقدمه وأرشحه كمنهج متكامل لمادة الاخلاق الاسلامية، ومنهج اضافي لمادة العقيدة، يُعتمد تدريسه في كليات الشريعة والمعاهد الدينية، وفي جميع مدارس وزارات التربية. كما انه يعتبر مورداً رئيساً ورافداً ثرياً يعين الواعظ، وخطيب الجمعة، وامام المسجد، و يصلح ان يوضع منهجاً تأديبياً لعموم شباب الدعوة الاسلامية، وهو الآن، بصورته المهذبة هذه، من خير ما يُقرأ على الاصحاب والجلساء في مجالس السّمَر العامة في بيوت اهل النُبْل في الحواضر، او في دواوين الضيافة عند رؤساء البوادي والارياف، ووصيتي لدعاة الاسلام خاصة ان يقرأوه مرة، بعد مرة، بعد مرة، وأن يحفظوا المهم من سطوره وشواهده من الآيات والاحاديث، فانهم ــ إن فعلوا ذلك ــ: ارتقوا الى ارفع درجات القدرة على الوعظ والخطابة والتبليغ والتأثير والاقناع.

● لذة الفصاحة العربية

وقد تكون ترجمة هذا الكتاب الى اللغات الاخرى جدّ مفيدة، لتبليغ مَن لايحسن العربية

هذه المعاني الاساسية المهمة، ولكن التذاذهم بها سوف لايرقى الى مثل لذة القارىء العربي، إذ هيهات ثم هيهات ان تُنقل هذه البلاغة الفذة المقتبسة من مشكاة البيان العربي القرآني الى لغة اخرى دون ان تفقد رونقها، فان المروي متفنن في الفاظه، كما ان ابن القيم كان في اقصى انغماسه الايماني حين كتب هذا الشرح، فجاءت عباراته سهلة جيلة ذات طلاوة تمتنع على الترجمة من غير نقصان بهائها. وتتكرر هذه الظاهرة في كتب كثيرة، وهي تهيب بالمسلمين غير العرب ان يتعلموا العربية باتقان ليتسنى لهم فَهْمُ معنى ونيلُ لذة ما هُم بحائزين له ولابنائليها من خلال الترجمات قط.

• اعتراض ... ولكن

وقد يعترض البعض فينتقد هذه الخطة التي اتبعتها في هذا التهذيب لهذا الكتاب القيم، و يأتي المعترض بشواهد من اعراف الناس في الاختصار، او ينطلق من منطق حماسته في التصدي للمبتدعة، إلا ان تجربتي في التربية لاتترك لي مجالاً اتنازل فيه عن الاعتقاد بأن هذا المقدار الذي أخترته من الكتاب، بهذا الترتيب والاحراج، هو انفع لشباب الاسلام من المتن الكامل اضعافاً مضاعفة، وان عدد الذين سيفهمونه منهم هم اضعاف عدد الذين يفهمون الاصل، مع زيادة لذة واندماج مع هذه الاسطر الباقية، في استرسال هادىء يلين القلوب لم يكونوا بواجديه لما كان هذا الكلام مختلطاً بالنقاش مع الفلاسفة والمبتدعة، او لما كان الكلام مُقَطَّعاً بالتفريع، والاستطراد الجانبي، والهوامش، والفصل بين كلام المروي والشرح.

انا لم استصوب أن تقف اعراف المؤلفين حائلاً دون جعل تهذيب المدارج وثيقةً تربويةً سليمةً في يد الشباب المسلم، فان الذين يهذبون الكتب يحرصون على جميع المعاني في الأصل، ولكن في عبارات موجزة، ولسنا نريد ذلك، بل غايتنا اعانة شباب الاسلام على تزكية قلوبهم وتعميرها بأخلاق الايمان، دون إقلاقها بذكر البدع والرد عليها، فان اكثر هذه البدع اليوم تكاد ان لاتجد لها معتنقا، الآ قلة يحصرون انفسهم في دوائر ضيقة، وفي بعض البلاد دون بعض، مما سوّغ لنا ان ندع سمع الشباب في عافية من هذا التخليط الذي فضحه ابن القيم، وأن نترك افئدتهم منسابة مع حلاوة التذكير، دونما نقاش يصحبه التعكير. فمَن وافَقَنا في طريقتنا التهذيبية هذه: كانت موافقته قرينة على مقاربة تجربته التربوية لتجاربنا، ومَن أبى وأنكر علينا ماحذفناه وبدلناه: دعوناه الى ان يعتبر «تهذيب مدارج السالكين» مؤلَفاً جديداً كان

المدارج مصدره الوحيد، ولانحب ان تحول الشكليات دون تعميم الفوائد، وليس المهم أن نحفظ فخراً لابن القيم، لتميز عباراته، ولاسبقاً للهروي، لنبقي على استقلال الفاظه، فان ذلك محفوظ لهما في طبعة المدارج الكاملة، ولكن المهم ان نضع خلاصة تربوية بين يدي المربي والتلميذ معاً، تعين على ترقيق قلوبهم، وتزكية نفوسهم، ولو أني كنت صنعت هذا الذي صنعتُه تجاه كتاب مخطوط لم يُنشر من قبل لجار هذا الاعتراض علينا، ولكني لم أزد على ان اخترت منهجاً من أصل مطبوع متداول يسهل على طالب نصوصه الكاملة ان يظفر به.

• سَلَفي .... وصُوفي .... معاً

وكأن هذا الكتاب سيكون جامعاً ان شاء الله ، تجتمع عليه قلوب اصحاب المشارب المختلفة من المسلمين، فانه مجموعة مَعانٍ وتقريرات سَلَفية، مشروحة مؤداة بلُغةٍ صُوفية.

ولا تعجل فتنكر علينا أن لم نخلصه من هذه اللغة الصوفية، فإن القارىء بروية وإمعان لهذا الكتاب النفيس سيُدرك ــ كما ادركنا ــ انه من ارقى ما دونته المدرسة السلفية، وانه لايمكن تأدية نفس ما أدّاه ابن القيم فيه اذا عرّينا اسلوبه عن هذه الاصطلاحات الصوفية، ولذلك لم نجد في الابقاء على مجاراته لاسلوب شيخ الاسلام الهروي ضيراً، طالما ان ابن القيم كان موفّقاً في هذا الكتاب كما هو موفق في جميع كتاباته لبيان خطل البدع والتمثيل والتأويل والتعطيل.

ويملكني شعور في النهاية بأن فضل الله تعالى عليَّ كبير حين ألهمني ان أجعل لاخواني دعاة الاسلام وعموم العابدين شغل خير بتهذيب المدارج والاشراف على طبعه، والترويج له، والحث على مطالعته، منذ سنوات من قبل طبعه، فملأتُ أوقاتهم بالنفع وخواطر الجد، وروّضتُ ألسنتهم على التلفظ بالاقوال اللطاف والرقاق الواعظة، فضيّقتُ على وساوس السوء الثغرات التي تَلِج منها، وعزّلت الفاظ الشيطان ان تتحرك بها الالسنة، وتلك نعمة يجب عليّ شكرها، وحسنة وُفقتُ لها يحق لي أن أملأ قلبي سروراً بها، وانا أرجو كل منتفع من هذا التهذيب ان يطيل الاستغفار لي، ثمناً لتمهيدي درب فراره الى الله عز وجل، وأن يشكر لوزارة العدل والشؤون الاسلامية والاوقاف بدولة الامارات العربية المتحدة حُسنَ احتفالها بمَقدم القرن الهجري المبارك الخامس عشر، وحرصها على المشاركة في تمهيد الطريق للسالكين من خلال المساهمة بتبنّي الطبعة الاولى من هذه التوطئة لمدارج الايمان.

وكذلك هو الطريق الأعلى دائماً، يوصلنا اليه التواضع، والسجود، وخفض الجناح، والإخبات.

وفي كل آخر يليق استئناف الحمد لرب رؤوف رحيم .

عبد المنعم صالح العلي العزّي
خبير البحوث الاسلامية
بوزارة العدل والشؤون الاسلامية والاوقاف
بدولة الامارات العربية المتحدة
محرم الحرام ١٤٠٢ هـ

مقتبسات من مقدمة

الشيخ محمد حامد الفقي

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين. والعاقبة للمتقين. ولاعدوان إلا على الظالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين، وإمام المهتدين. من اصطفاه الله ربنا، فأرسله رحمة للعالمين، وأحسن قدوة للمتقين. عبدالله ورسوله محمد، وعلى آله أجمعين. وجعلنا من آله وحزبه المفلحين في الدنيا و يوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب «مدارج السالكين» تأليف شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق ونصر الدين. الذاب ــ بما أوتي من قوة ــ عن سنة سيد المرسلين، الطاعن بسنان قلمه الحاد في نحور المبتدعين، القاطع بسيف حقه البتار أعناق المخرفين، ترجمان القرآن. ذي الفنون البديعة الحسان. الملهم من ربه القيام بالهدى والبيان ، المؤيد من الله بواضح الحجة وناصع البرهان أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، المعروف بمواقفه الخالدة:

ابن قيم الجوزية

غفر الله لنا وله وللمؤمنين، واسكنه فسيح جنته. وألحقنا به على صادق الايمان حاول فيه ــ رحمه الله ورضي عنه ــ أن يحمل من كتاب «منازل السائرين» لأبي إسماعيل ــ عبد الله بن محمد بن على الهروى الحنبلي، المتوفى في سنة ٤٨١ هجرية ــ منارا يهدي إلى الرشد، ودليلا الى صراط الله المستقيم.

وإنما يقوم هذا الإسلام على العبودية التامة بكل خصائصها للجميع، وأن تكون في كل مواقفها صادقة، بكل ذل وحب، واستسلام وإذعان وانقياد، وطاعة تامة لله رب العالمين. الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. و (ليس كمثله شيء. وهو السميع البصير) لاتجهل ولا تغفل ولا تنسى. ولا تقول على الله وفي الله ، الا ماقال الله. وقال رسوله . تشكر نعمة الله على الجميع في الإنسانية السميعة البصيرة العاقلة المميزة الكريمة . وفي هدى الفطرة وهدى الرسالة وتحرص أشد الحرص على إعطاء كل ذي حق حقه. مؤمنة بأن الله ماخلق

السموات والأرض وما بينهما باطلا. وإنما خلق كل شيء بالحق الثابت الذى لايتغير بهوى الإنسان وجهله، وباطل أمانيه، فالله ربنا هو الحق، ووعده الحق وقوله الحق، وكتبه الحق، وقضاؤه الحق.

• • •

ودين الجاهلية، دين شياطين الإنس والجن، دين أعداء الله وأعداء رسله. وأعداء أنفسهم: يطرد كذلك. ويحاول أن يغلب ويتمكن (لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. ولاتجد أكثرهم شاكرين) ويروج هذا الدين ويقوم على سوقه ويشتد كلما تكاثفت ظلمات الجاهلية التقليدية. وكلما انتشر عفن الإعراض والعمى عن آثار أسماء الله وصفاته في الأنفس والآفاق. وعن سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق. وعن كتبه وفهمها وتدبرها، وعن هدى رسله. فيضل الناس حينئذ طريق الرشد والخير ويعموا عن الحقائق الثابتة في السموات والأرض، وفي أنفسهم. ويشقون بتغرقهم وراء عدوهم الشيطان في كل واد من أودية الهلكة. معرضين غافلين ناسين لآيات الله — في الأنفس والآفاق — التي تذكرهم بأسمائه وصفاته (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى، وقد كنت بصيرا؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى).

• • •

ومن أمعن النظر والفكر في آيات الله الكونية. وآياته القرآنية. وتأمل وتدبر صادقاً مخلصاً — بما آتاه الله من أسباب العلم والهدى في سمعه وبصره وعقله هو — في آى القرآن وقصصه وتذكيره ووعيده ونذره وعبره. وألقى السمع وهو شهيد. فإنه ينكشف له تمام الانكشاف: أن كل ما تشقى به البشرية اليوم — وفي كل عصر — من الكفر، والفسوق، والعصيان. إنما تولد كله بحذافيره من طريق التقليد الاعمى، الذي زينه وأوحى به أعداء الرسل من شياطين الجن والإنس. وزخرفوا القول به غروراً (ولو شاء ربك مافعلوه. فذرهم ومايفترون. ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة. وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون) من بدع يشرعونها، وخرافات وأهواء يستحسنونها، وشهوات يروجونها، حتى تقسو عليها القلوب، فتظلم النفوس، وتعمى القلوب التي في الصدور. وما أصدق نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس لو عقلوا ونصحوا لأنفسهم. إذ قال «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها نهارها. لايزيغ عنها إلا هالك» وقال «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي» .

فما أشد حاجة البشرية ــ في شرق الأرض وغربها ــ اليوم إلى الرجوع إلى هذه المحجة البيضاء . مستمسكين بحبل الله المتين. من هدى كلامه ، الذي لايزال غضا طريا، كما نزل به جبريل على صفوة خلقه، وأكرم عباده، وخاتم رسله، من عند الله رب الناس. ملك الناس، إلـه الناس ,ــ هدى وشفاء لما في الصدور، وهاديا لهم إلى التى هي أقوم في كل شان وكل عمل. إنهم ــ والله ــ لو فعـــلوا ، ورجعوا إلى ربهم وإلى فهم كتابه صادقين مخلصين، ولأنفسهم ناصحين: لهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد.

* * *

وفي الحق أن كتاب «مدارج السالكين» من خير ما كتب الإمام ابن القيم ــ وحسبك بابن القيم ــ في تهذيب النفوس والأخلاق والتأدب بآداب المتقين الصادقين. مما يدل أوضح دلالة على أنه كان من أولئك المهتدين الصادقين. الذين طابت نفوسهم بتقوى الله، واستنارت بصائرهم بهدى الله. وأنه ــ إن شاء الله ــ في جنة الرضوان مع المتقين الصادقين.

* * *

ولما كان مكان كتاب «مدارج السالكين» كذلك. وكانت الطبعة الاولى ــ التى طبعت في مطبعة المنار سنة ١٣٣٤ هـــ قد نفدت ، واشتد حرص الناس عليه، وعظمت حاجتهم إليه بالأخص في هذا العصر الذي أغرق الناس فيه طوفان المادة، واشتد تعلقهم بها، وتعليق نجاحهم في كل شأن من الشؤون بأذيالها. فاشتعلت نيران العداوة والبغضاء بينهم، واستشرت الوحشية في كل مجتمعاتهم. واشتدت لذلك متاعبهم، وتضاعفت همومهم، وتراكمت أسباب الشقاء، ونكد العيش، وتضافرت المحن والفتن، وألحت عليهم من كل ناحية، متولدة من احتكاكات المادة، وتركيز الانظار إليها، وتكريس الجهود فيها. حتى صارت إلههم المسيطر على قلوبهم.

لأجل ذلك توجهت الهمة إلى طبعه هذه الطبعة المجودة الأنيقة. ليسد الحاجة الماسة إليه في عصر المادة. راجيا أن ينفع الله به، ويجمع به إلى هذا النشاط المادي عند الناس، صفاء الأرواح ، وتقوى النفوس، وتهذيب الأخلاق. حتى يجعل الله للعرب والمسلمين ــ فيما آتاهم من الأسباب المادية، والغنى والثراء الحاضر، والمنتظر في المستقبل ، إن شاء الله ــ حياة عزيزة كريمة طيبة آمنة في ظل الإسلام ، على مثال ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم، الذين جمع الله لهم الدين والدنيا. فمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم. وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، لأنهم كانوا يعبدونه لايشركون به شيئاً.

وكتبه فقير عفو الله

محمد حامد الفقي

١٣٧٥ هـــ ١٩٥٥ م

القاهرة

مقدمة ابن القيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين. ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولاعدوان إلا على الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك لهُ رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السموات والأرضين. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، والشك واليقين. أنزله لنقرأه تدبرًا، ونتأمله تبصرًا، ونسعد به تذكرًا، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه. ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكم من بين رياضه وأزهاره. فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يغلق إذا غُلّقت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذي لاتميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنُّزُلُ الكريم الذي لايشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تُقلِع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولاتختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا وتفكيرا، زادها هداية وتبصيراً. وكلما بَجَّست مَعينهُ فَجّر لها ينابيع الحِكمة تفجيراً. فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجَواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادى الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادى بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حَيَّ على الفلاح. نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم (٤٦: ٣١ **ياقومنا أجيبوا داعىَ الله وآمنوا به يَغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم**).

ولقد كان كمال الانسان بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى (**والعَصْرِ إن الإنسانَ لفي خُسْرٍ. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتواصَوْا بالحق وتواصوا بالصبر**) أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كَمَّل قوته العلمية بالايمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره

بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولايتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما ـــ كان حقيقاً بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره ـــ بل أنفاسه ـــ فيما ينال به المطالب العالية، ويخلُص به من الخسران المبين. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه. فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد.

ونحن ـــ بعون الله ـــ ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ماتضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وماتضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال. وماتضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، وبيان أنه لايقوم غير هذه السورة مقامها، ولايسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولافي الإنجيل ولافي القرآن مثلها.

والله المستعان، وعليه التكلان. ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

فَاتِحَةُ المَطَالِبِ العَالِيَة

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن .

فاشتملت على التعريف بالمعبود ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها. . وهي «الله ، الرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ «اياك نعبد» مبني على الإلهية. و «إياك نستعين» على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الامور الثلاثة. فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها. وتفرُّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق ، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله «مالك يوم الدين».

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سُدًى هَمَلاً لايُعرِّفهم ماينفعهم في معاشهم ومعادهم ومايضرهم فيهما، فهذا هَضْم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى مالا يليق به. وما قَدَره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود. ولاسبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب ، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، واخراج الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه اولو الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات؛ و يعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة

الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. و بهم استُحِق الثواب والعقاب. و بهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأ برار إلى النعيم. والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله «إياك نعبد» فإن ما يُعبد به الرب تعالى لايكون إلا على مايحبه و يرضاه. وعبادته ـــ وهي شكره وحبه وخشيته ـــ فطرى ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد ومايعبد به لاسبيل إلى معرفته إلا برسله و بيانهم. وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول. يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله «اهدنا الصراط المستقيم» فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة . ولاسبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب. وجعله مؤثراً له، راضياً به. راغباً فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لايحصل الفلاح إلا بهما . وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالا. وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لا تباعه ظاهراً و باطناً. ثم خَلْقُ القدرة على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم ادامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، و بطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم . ومالا نريد فعله تهاوناً وكسلا مثل مانريده، أو أكثر منه أو دونه. ومالا نقدر عليه ـــ مما نريده ـــ كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الامور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة اخرى ـــ وهي آخر مراتبها ـــ وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها، فمن هُدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه ، هُدى هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط . فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حَبْوا، ومنهم المخدوش المسلّم، ومنهم المكردس في النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْو القُذّة بالقذة، جزاء وفاقا (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون؟).

وليـنـظـر الـشـبـهـات والـشـهـوات الـتـي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الـكـلالـيـب التي بجَنبَتي ذاك الصراط ، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك (وما ربك بظلاّم للعبيد).

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول. وهو الصراط المستقيم. ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة امور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب ، وسعته للمارين عليه، وتعيُّنه طريقا للمقصود. ولايخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو اقرب خط فاصل بين نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سَعَته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفهُ بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تَعَيُّنه طريقا.

و «الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى (٦:١٥٣ وأن هـذا صـراطي مستقيما) وقوله (٤٢:١٥٣ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم: صراطِ الله) وتارة يضاف إلى العباد ، كما في الفاتحة. لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعَم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال.

فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الاقسام الثلاثة. لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق. أو جاهلا به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفاً له. فهذه أقسام المكلفين. لايخرجون عنها ألبتة. فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح. وهو المفلح (٩١:٩ قد أفلح من زكاها) والعالم به المتبع هواه : هو المغضوب عليه. والجاهل بالحق: هو الضال . والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به. ومن هنا كان اليهود أحق به. وهو متغلظ في حقهم . كقوله تعالى في حقهم (٢:٩٠ بئسما اشتروا به أنفسهم: أن يكفروا بما أنزل الله بَغْياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب) وقال تعالى (٥:٦٠ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مَثوبة عند الله؟ مَنْ لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت. اولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل) والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى (٥:٧٧ قل يا أهل الكتاب لا تـغلُوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد

ضلّوا من قبل وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل) فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود . والثانية : في سياقه مع النصارى. وفي الترمذي وصحيح ابن حِبّان. من حديث عدي ابن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليهود مغضوب عليهم. والنصارى ضالون».

ففي ذكر المنعَم عليهم ـــ وهم من عرف الحق واتبعه ـــ والمغضوب عليهم ـــ وهم من عرفه واتبع هواه ـــ والضالين وهم من جهله ـــ : ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة . لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه.

منها: أن النعمة هي الخير والفضل. والغضب من باب الانتقام والعدل. والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما. وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم اليه. وحذف الفاعل في مقابلتهما. كقول مؤمني الجن (٧٢: ١٠ وأنّا لاندرى أشرٌّ أريد بمن في الأرض، أمْ أراد بهمْ ربهم رَشَداً؟) ومنه قول الخَضِر في شأن الجدار واليتيمين (١٨: ٨٢ فأراد ربك أن يبلغا أشُدَّهما ويستخرجا كنزهما) وقال في خرق السفينة (١٨: ٧٩ فأردت أن أعيبها) ثم قال بعد ذلك (وما فعلته عن أمري).

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم (١٦: ٥٣ ومابكم من نعمة فمن الله) فأضيف إليه ماهو منفرد به. وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومَجْرى للنعمة . وأما الغضب على اعدائه: فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وانبياؤه وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له: من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها ـــ ماليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه ماليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعَم عليه والاشادة بذكره، ورفع قدره، ماليس في حذفه، فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ، ورفع قدره فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ماتمناه. كان أبلغَ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أُكرم وخُلع عليه وشُرِّف وأُعطي.

وتأمل سراً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره . فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التي هي العلم النافع والعمل الصالح. وهي الهدى ودين الحق. و يتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة . ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين .

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضا أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية

العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولاضلال؛ فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الايجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالثاني كقوله (٢:٤ أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون) وقوله (٨٢:٦ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) والأول كقوله تعالى (٤٧:٥٤ إن المجرمين في ضلال وسُعُر) وقوله (٧:٢ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة. ولهم عذاب عظيم) وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله (١٢٣:٢٠ فإما يأتينكم مني هدى، فمن اتبع هداي فلايضل ولايشقى) فهذا الهدى والسعادة. ثم قال (١٤:٢٠٠ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال: رب لِمَ حشرتني أعمى، وقد كنتُ بصيراً؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنْسَى) فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

• الهداية تورث الاستعلاء

وذكر «الصراط المستقيم» مفرداً معرفاً تعريفين: تعريفا باللام، وتعريفاً بالاضافة. وذلك يفيد تعيُّنه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه يجمعها ويفردها، كقوله (١٥٣:٦ وأنَّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله) فوحَّد لفظ «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود «خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سُبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وهذا لأن الطريق الموصل الى الله واحد. وهو مابعث به رسله وأنزل به كتبه. لايصل إليه أحد إلا من هذا الطريق. ولو أتى الناسُ من كل طريق، واستفتحوا

من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة، والابواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله. قال الله تعالى (٤١:١٥ هذا صراط علي مستقيم) قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم. وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض فقامت أداة «على» مقام «الى» والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أي صراط موصل إليّ. وقال مجاهد: الحق يرجع الى الله، وعليه طريقه، لايتعرّج على شيء. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه. وهو من أصح ماقيل في الآية. وقيل: «عليّ» فيه للوجوب ، أي عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه . والقولان نظير القولين في آية النحل. وهي (١٦:٩ وعلى الله قَصْد السبيل) والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد ــ وهو المستقيم المعتدل ــ يرجع إلى الله و يوصل إليه . قال طُفَيل الغَنَوي.

مَضَوا سَلفاً ، قَصْدَ السبيل عليهم وصَرْفُ المنايا بالرجال تَشَقْلَب

أي ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا . وقال الآخر:

فهن المنايا: أيُّ وادٍ سلكتُه عليها طريقي، أو عليّ طريقها

فإن قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة «على» التي هي للوجوب. ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال (٨٨:٢٢،٢٣ إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم) وقال (٣٠:٢٣ إلينا مَرْجعهم) وقال (٦:١٠٨ ثم إلى ربهم مرجعهم) وقال لما أراد الوجوب (٨٨:٢٦ إن علينا حسابهم) وقال (٧٥:١٧ إن علينا جمعه وقرآنه) وقال (٦:٣٨ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ونظائر ذلك؟.

قيل: في أداة «على» سر لطيف. وهو الاشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين (٢:٤ أولئك على هدى من ربهم) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٢٧:٢٩ فتوكل على الله إنك على الحق المبين) والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة «على» على هذا المعنى ماليس في أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً. وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق، وعلى الهدى؟.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه. فكان في الإتيان بأداة «على» مايدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب. فإنه يؤتى فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى (٩:٤٥

فهم في رَيْبهم يترددون) وقوله (٦ :٣٩ والذين كذبوا بآياتنا صُمٌّ وبُكْم في الظلمات) وقوله (٢٣ :٢٤ فذَرْهم في غمرتهم حتى حين) وقوله (٤٢ :١٤ وإنهم لفي شك منه مُريب).

وتأمل قوله تعالى (٣٤ :٢٤ وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفلا، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

• إن ربي على صراط مستقيم

والصراط المستقيم: هو صراط الله. وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن: في هود، والنحل. قال في هود (١١ :٥٦ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ان ربي على صراط مستقيم) وقال في النحل (١٦ :٧٦ وضرب الله مثلا: رجلين، أحدهما أبْكَمُ لايقدر على شيء، وهو كَلٌّ على مولاه، أينما يوجِّهْه لايأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟) فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع. ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، و يضعه و يقيمه ويخدمه. فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني. وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله. فقوله صدق ورشد ونصح وهدى. وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة. هذا أصح الأقوال في الآية. وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره.

ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يتأقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال : وقيل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لايناقض القول الأول. فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه. فإنه لايأمر ولايفعل إلا مقتضاه وموجبه. وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لايقدر على هدى ولاخير. ولإمام الأبرار، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول : يكون مضروباً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان.

فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية. قال، وقيل : كلاهما للمؤمن والكافر، يرويه عطية عن ابن عباس. وقال عطاء: الأ بكم أُبيُّ بن خلف، ومن يأمر بالعدل : حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت : والآية تحتمله، ولايناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادى . وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة في القرآن .

وأما آية هود: فصريحة لاتحتمل إلا معنى واحداً . وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم . وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة (١١٥:٦ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا**) وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير. فالشر لايدخل في أفعاله ولا أقواله البتة ، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله ؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وفي أقواله.

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام «**لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**» ولايلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لايتقرب به إليك ، أو لايصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدرا. فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابِقْ بين هذا المعنى وبين قوله (**إن ربي على صراط مستقيم**) وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله (٥٦:١١ **إني توكلت على الله ربي وربكم**) أي هو ربي، فلا يُسلمني ولايضيعني. وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني. فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئاً بدون مشيئته. فإن ناصية كل دابة بيده، لايمكنها أن تتحرك إلا بإذنه . فهو المتصرف فيها . ومع هذا ، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم. لايفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة . ولو سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ماله الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لايظلم ولايفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة.

• وَحْشَة التَفَرُّد عِلاجها عدم الالتفات

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمر أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريق ، مرافقُه فيها في غاية القلة والعزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه

الله سبحانه على الرفيق في هذا الطريق، وأنهم هم الذين (أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحَسُن أولئك رفيقاً) فأضاف الصراط الى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه. وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدرا، وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ،ولا تغتر بكثرة الهالكين» وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عمن سواهم . فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين . فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لايريد غيرها. فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاما يؤذيه. فوقف ورد عليه، وتماسكا . فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الاول ، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزمته. فان كان له معرفة وعلم راد في السعي بقدر التفاته او أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت : لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعياً من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد : أن في ذكر هذا الرفيق: مايزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «اللهم اهدني فيمن هديت» أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقاً لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت ، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم. وعلمني في جملة من علمته. وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

• نتوسّل الى الله باسمائه وبعُبوديّته

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب ، ونيْله أشرفَ المواهب: علّم الله عباده كيفيةَ سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده. ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم. توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لايكاد يرد معهما الدعاء. و يؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه . والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبدالله بن بُريدة عن أبيه قال «**سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب ، واذا سئل به أعطى**» قال الترمذي: حديث صحيح. فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته» وفي رواية عنه «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل «هو السيد الذي انتهى سؤدده» وقال سعيد بن جبير «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله» و بنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله «ولم يكن له كفواً أحد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة. والتوسل بالايمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس «**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنّان، بديع السموات والأرض. ذا الجلال والإكرام ، ياحي ياقيوم. فقال: لقد سأل الله باسمه الأعظم**» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد ، والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب ـ وهو الهداية ـ بعد الوسيلتين. فالداعي به حقيق بالإجابة .

ونظير هذا : دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل. رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس «**اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد،**

انت الحق، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق، والجنة حق ، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت. وبك خاصمت ، واليك حاكمت . فاغفر لي ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه و بعبوديته له . ثم سأله المغفرة.

فاتحة التوحيد

تشتمل الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

والتوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الارادة والقصد. و يسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإرادي. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة . وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان : مجمل ، ومفصل.

أما المجمل : فإثبات الحمد له سبحانه . وأما المفصل : فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الاسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لايحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لايحصي احد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لايحصيها سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدى ، ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام ، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا. فقال تعالى حكاية عن خليله ابراهيم عليه السلام في محاجته لأبيه (١٩ :٤٢ **يا ابتِ لم تعبد مالا يسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئا؟**) فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر عليّ؟ لكن كان – مع شركه – اعرف بالله من الجهمية وكذلك كفار قريش كانوا – مع شركهم – مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه . وقال تعالى (٧: ١٤٨ **واتخذ قوم موسى من بعده من حُليهم عجلا جسداً له خوار. ألم يروا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلا؟ اتخذوه وكانوا**

ظالمين) فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

فإن قيل : فالله تعالى لايكلم عباده.

قيل: بلى، قد كلمهم. فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى . ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي. وهم الأنبياء. وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله . فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه.

وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم. ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلما فقد أنكر رسالة الرسل كلهم. لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة. وقال تعالى في سورة طه عن السامرى (٢٠:٨٨ **فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا، ولايملك لهم ضراً ولا نفعاً؟**) ورَجْع القول: هو التكلم والتكليم. وقال تعالى (١٦:٧٦ **ضرب الله مثلا: رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء، وهو كَلٌّ على مولاه، أينما يوجهه لايأت بخير، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم؟**) فجعل نفى صفة الكلام موجبا لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لايكون إلهاً، ولا مدبراً، ولا رباً، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لافي الأولى، ولافي الآخرة. وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد. ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدا. لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توحيده: اثبات صفات كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيداً. وجعلوا إثباتها لله تشبيها وتجسيماً وتركيباً. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيباً فيه، وزخرفاً يُنفِّقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه. والناس أكثرهم ليس لهم نقد النقاد (١٨:١٧ **من يهد الله فهو المهتدى . ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً**) والمحمود لايحمد على العدم والسكوت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لاحمد فيه، ولامدح ولاكمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له. فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى (١٠:٦٧ **قالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه، هو الغني . له مافي السموات ومافي الأرض**).

وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لايوصف بها غيره، فيكون شريكا له . فلوعدمها لكان كل موجود أكمل منه. لأن الموجود أكمل من المعدوم. ولهذا لايحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمناً لثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لايموت لتضمنه كمال حياته . وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سِنة ولانوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته. وحمد نفسه بأنه لايعزُب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، لكمال علمه وإحاطته . وحمد نفسه بأنه لايظلم أحداً، لكمال عدله وإحسانه. وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار ، لكمال عظمته، لايُرى ولايدرَك ، كما أنهُ يعلم ولايحاط به علما. فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال. لأن العدم لايرى. فليس في كون الشيء لايرى كمال ألبته. وإنما الكمال في كونه لايحاط به رؤية ولا إدراكا، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده.

فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال ، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

• لاننفي معاني الاسماء

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبنى على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات. فهي اسماء، وهي أوصاف. وبذلك كانت حُسنَى، إذ لو كانت ألفاظاً لامعاني فيها لم تكن حسنى، ولاكانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفرلي إنك أنت المنتقم. واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها. قال تعالى (٧: ١٧٠ وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون) ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها. لكن الله اخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى (٥١: ٥٨ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فعلم أن «القويَّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة. وكذلك قوله (٣٥: ١٠ فلله العزة جميعا)

فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قوياً ولاعزيزاً. وكذلك قوله (١٦٦:٤ أنزله بعلمه) (١١: ١٤ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله لاينام، ولاينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهارقبل الليل ، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» فأثبت المصدر الذي اشتُقّ منه اسمه «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضى الله عنها «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات».

وفي الصحيح حديث الاستخارة «اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك» فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى (٧: ١٤٤ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة ، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي» وهو الحكيم الذي له الحكم (٤٠: ١٢ فالحكم لله العلي الكبير) وأجمع المسلمون أنه لوحلف بحياة الله، أوسمعه، أو بصره، أوقوته، أوعزته، أوعظمته: انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأيضا : لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع و يرى، و يعلم و يقدر و يريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضاً فلولم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، و بَهت بَيِّن. فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطي» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها.

• ضرورة فهم لوازم الصفات

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم. فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن ، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة . و يدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. و يدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته. ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة ، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة : أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ماينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه ، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار . فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لايكون فوقه شيء، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «**وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء**» بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولايصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال : الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوّق اظهر من الفائق فيها، ولايصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

● دلالة اسم (الله) على جميع الاسماء الحُسنى

إذا تقرر هذان الأصلان . فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص . ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى **(٧: ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى)** و يقال «الرحمن والرحيم . والقدوس والسلام ، والعزيز ، والحكيم» من أسماء الله، ولايقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولامن أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الالهية، التي اشتق منها اسم «الله» واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعاً ، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولاسميع، ولابصير، ولاقادر، ولامتكلم، ولافعال لما يريد، ولاحكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة ، وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان ، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذاناً بثبوت الوصف، وحصول أثره ، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى **(٣٣: ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيما)** **(٩: ١١٧ إنه بهم رءوف رحيم)** ولم يجيء رحمان بعباده، ولارحمان بالمؤمنين، مع مافي اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف ، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلىء غضبا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك، فبناء فَعْلان للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الإسم كثيرا، كقوله تعالى **(٢٠: ٥ الرحمن على العرش استوى)** **(٢٦: ٥٩ ثم استوى على العرش الرحمن)**

فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات ، قد وسعها . والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى (٧:١٥٦ ورحمتي وسعت كل شيء) فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء. وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ «فهو عنده على العرش».

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك و بين قوله (الرحمن على العرش استوى) وقوله (٢٥:١٥٦ ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها، أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، ولتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وماقبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

• معنى الرب والرحمن

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الاسماء الثلاثة. وهي «الله والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر ، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع . ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهورب كل شيء وخالقه، والقادرعليه، لايخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء ، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو ، الذي لاتنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف ، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدين والشرع ، والأمر والنهي ــ مظهره، وقيامه ــ: من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله . وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله و بين عباده. فالتأليه منهم له. والربوبية

منه لهم. والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه. وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. فـ (الرحمن على العرش استوى) مطابق لقوله (رب العالمين، الرحمن الرحيم) فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لايخرج شيء عنها اقتضى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه رباً للعالمين مايدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

• المحمود

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: مايدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى (والله غني حميد) (والله عليم حكيم) (والله قدير والله غفور رحيم) فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً. وقدرته كمال ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة (٤: ١٤٩ **إن الله كان عفواً قديراً**) واقتران العلم بالحلم (٤: ١٢ **والله عليم حليم**).

فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليما، ولا كل حليم عالم. فما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة (٢٦: ٩ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم**) ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام (٥: ١٢١ **إن تعذبهم فإنهم عبادك. وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**) احسن من ان يقول: وان تغفر لهم فانك انت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهي كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني لايكون قادراً حكيماً عليماً. بل لايكون ذلك إلا عجزاً فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان في هذا — من الاستعطاف والتعريض

بطلب المغفرة لمن لايستحقها ـــ ماينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولداً، واتخذه إلهاً من دونه فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة. وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام (١٤: ٣٥و٣٦ **واجنبني وبَنيَّ أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس. فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم**) ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ماذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

مراتب الهداية

مراتب الهداية الخاصة والعامة عشر مراتب:

● المرتبة الاولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة ، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال الله تعالى (٤:١٦٣ **وكلم الله موسى تكليما**) فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية. ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعاً لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام ، أو اشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم . فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز. قال الفراء: العرب تسمي مايوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل. ولكن لاتحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالارادة. يقال: فلان اراد ارادة، يريدون حقيقة الارادة. و يقال: اراد الجدار، ولايقال: ارادة. لانه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه. وقال تعالى (٧:١٤٢ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه، قال : رب أرني أنظر إليك**) وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون. وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لافي الأول. وفيه أعطي الألواح. وكان عن مواعدة من الله له. والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة. وفيه قال الله له (٧:١٤٣ **ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**) أي بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه وناجاه . فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب.

وفي حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية، قال: «**وذلك بتفضيله بكلام الله**» ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ماحصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى. ولا كان يسمى «كليم الرحمن» وقال تعالى (٤٢:٥١ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا، أومن وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء**) ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

● المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال الله تعالى (٤:١٦٣ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**) وقال (٤٢:٥١ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ــ الآية**) فجعل الوحي في هذه الآية قسماً من أقسام التكليم. وجعله في آية النساء قسيماً للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو ايصال المعنى بطرق متعددة.

والوحي في اللغة: هو الاعلام السريع الخفي، و يقال في فعله: وَحَى ، وأوحى . قال رؤبة «وَحَى لها القرار فاستقرت» وهو أقسام ، كما سنذكره.

● المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري. فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء ، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلا، يراه عياناً ويخاطبه. وقد يراه على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، و يوحى إليه مايوحيه، ثم يفْصِم عنه، أي يقلع . والثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم.

● المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث . وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «انه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ «إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الامة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدَّث ولا مُلْهَم، ولا صاحب كشف ولا منام ، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدَّث : هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف . فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره و باطنه للرسول صلى الله عليه وسلم.

قال: وكان هذا المحدث يعرض مايحدث به على ماجاء به الرسول . فإن وافقه قبله، وإلا رده . فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما مايقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فاذا قال «حدثني قلبي عن

ربيه كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم انه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الامة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوّه به يوماً من الدهر. وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يوماً «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال «لا. امحه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء» وقال في الكلالة «أقول فيها برأيي. فإن يكن صواباً فمن الله. وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان».

فانظر إلى مابين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين. وأعط كل ذي حق حقه، ولاتجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.

● المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى (٢١:٧٨، ٧٩ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكما وعلماً) فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة. وقال علي ابن أبي طالب ــ وقد سئل «هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟» ــ فقال «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لايقتل مسلم بكافر» وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما «والفهم الفهمَ فيما أدلى إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله في قلبه. يعرف به ، و يدرك مالا يدركه غيره ولايعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره ، مع استوائهما في حفظه . وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نَعْيُ الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك ، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ و يدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره . ولايقع الاستغناء بالنصوص في حقه. أما في حق صاحب الفهم: فلايحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه . بحيث يصير مشهوداً للقلب ، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لايعذب أحداً ولايضله إلا بعد وصوله إليها .

قال الله تعالى (٩: ١١٥ **وما كان الله ليُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون)** فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم ، فلم يقبلوا مابينه لهم، ولم يعملوا به . فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات في هذا الباب. وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده. والقرآن يصرح بهذا في غير موضع ، كقوله (٦١:٥ **فلمازاغوا أزاغ الله قلوبهم) (١٥٥:٤ وقولهم قلوبنا غلف. بل طبع الله عليها بكفرهم)** فالأول: كفر عناد . والثاني: كفر طبع، وقوله (١١٠:٦ **ونُقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون)** فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل. فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى (١٧:٤١ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)** فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لاموجب. فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء . وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة، و بيان بالآيات المشهودة المرئية. وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه . ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه . وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل. وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، و بعد ذلك يضل الله من يشاء. قال الله تعالى (٦٤: ٤ **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم. فيضل الله من يشاء و يهدي من يشاء. وهو العزيز الحكيم)** فالرسل تبين . والله هو الذي يضل من يشاء و يهدي من يشاء بعزته وحكمته.

● المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهوليبان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة. قال تعالى في هذه المرتبة (٣٧:١٦ **إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدي من يضل)** وقال (٥٦:٣٨ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)** فالبيان الأول شرط . وهذا موجب.

● **المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى (٢٣:٨ ولو علم الله فيهم خيراً لاستمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون)** وقد قال تعالى (٢٢:٣٥ **ومايستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. ومايستوي الأحياء ولا الأموات . إن الله يُسمع من يشاء. وما أنت بمسمع مَن في القبور. إنْ أنت إلا نذير)** وهذا الاسماع

تختص من إسماع الحجّة والتبليغ . فإن ذلك حاصل لهم، و به قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله (٢١:٢ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم) وهذا السماع لايفيد السامع الا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه (٤٧:١٦ ماذا قال آنفاً؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم).

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن ، ومرتبة الإفهام أعم. فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه. ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر . وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته. ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب و يترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن ، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة .

● المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام. قال تعالى (٩١:٧و٨ ونفسٍ وماسواها. فألهمها فجورها وتقواها) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم «قل: اللهم ألهمني رشدي ، وقني شر نفسي».

والالهام أعم من التحديث ، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الايمان . فأما التحديث : فالنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» يعني من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص. وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالى (٢٨:٧ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقوله (٥:١١١ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي و برسولي) وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى (١٦:٢٩ وأوحى ربك إلى النّحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) فهذا كله وحي إلهام.

وصورته الشائعة: ان يكون خطاباً يُلقى في قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور : «إن للملك لَمّة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد» ثم قرأ (٢:٢٦٨ الشيطان يَعِدُكم الفقر و يأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) وقال تعالى (٨:١٢ إذ يوحي ربك إلى الملائكة: أني معكم. فثبتوا الذين آمنوا) قيل في تفسيرها : قوّوا قلوبهم،

وبشروهم بالنصر. وقيل : احضُروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين. كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى ضرب مثلاً: صراطاً مستقيما. وعلى كَنَفَتَي الصراطِ سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حَدِّ من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن» فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما لَمّة الشيطان فهي وعده وتَمْنيته حين يَمِدّ الإنسي ، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى (٤: ١٢٠ يعدهم ويمنيهم. ومايعدهم الشيطان إلا غروراً) ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمه — وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه — «إني لأظن الشيطان — فيما يسترق من السمع — سمع بموتك. فقذفه في نفسك».

وعلامة هذا الشيطاني أن خطأه كثير، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن صائد «ماترى؟ قال: أرى صادقاً وكاذباً. فقال: لُبِّس عليك» فالكشف الشيطاني لابد أن يكذب. ولايستمر صدقه ألبتة.

● المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»

والرؤيا: مبدأ الوحي. وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً. وهي عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطىء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته مايغني عن الرؤيا.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قيل: وما المبشرات، يارسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما أُروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم مُتَحَرِّيها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان»

والرؤيا كالكشف، منها رحماني. ومنها نفساني. ومنها شيطاني. وقال النبي صلى الله عليه

وسلم «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة . فيراه في المنام»

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟.

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه ، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الامر والنهي، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. و يذكر الله حتى تغلبه عيناه. فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار. فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العَتَمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام».

الفاتحة الشافية

وقد اشتملت الفاتحة على الشفاءين:

شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم. وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب. فالضلال نتيجة فساد العلم. والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها. فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال . ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد. وأوجبه عليه كل يوم وليلة. في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة. ولايقوم غيرهذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) علماً ومعرفة، وعملاً وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد . فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدا. وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين ، ومتبعي الشهوات ، الذين لاغاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل . فاذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم . فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان وعزله عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين. لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم،وانتصارهم به (٢٤ :٤٨ ـــ ٥٠ وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض، أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ بل أولئك هم الظالمون).

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم . وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها. واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة

وتحسرا، إذا حَقَّ الحق و بطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن رَكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا. و يظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. و يشتد ظهوره وتحققه في البرزخ. و ينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء ، إذا حقت الحقائق. وفاز المحقون وخسر المبطلون. وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين. فياله هناك من علم لاينفع عالمه، و يقين لاينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضا كحال هذا . وكلاهما فاسد القصد . ولاشفاء من هذا المرض إلا بدواء «إياك نعبد و إياك نستعين».

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء (١) عبودية الله لاغيره(٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لابنفس العبد وقوته وحوله ولابغيره.

فهذه هي أجزاء (إياك نعبد و إياك نستعين) فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض ، حصل بها الشفاء التام. ومانقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد. وهما الرياء، والكبر. فدواء الرياء بـ (إياك نعبد) ودواء الكبر بـ (إياك نستعين).

وكثيراً ماكنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول (إياك نعبد) تدفع الرياء (وإياك نستعين) تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ (إياك نعبد) ومن مرض الكبرياء والعجب بـ (إياك نستعين) ومن مرض الضلال والجهل بـ (اهدنا الصراط المستقيم) عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعم عليهم «غير المغضوب عليهم» وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «والضالين» وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين : أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى ، كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله كلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ماجاءت به السنة.

ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناساً من

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بحيّ من العرب . فلم يَقْرُوهم، ولم يُضَيِّفُوهم فلُدغ سيد الحي. فأتوهم. فقالوا: هل عندكم من رُقْية، أوهل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا. فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب. فقام كأن لم يكن به قَلَبَة . فقلنا: لاتعجلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم . فأتيناه، فذكرنا له ذلك . فقال : مايدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم»

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه. فأغنته عن الدواء . وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل ، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين ، أو أهل بخل ولؤم. فكيف إذا كان المحل قابلاً.

فاتحة التفسير

وأيضاً ، فقد اشتملت الفاتحة الرد على المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الامة.

وهذا يعلم بطريقين، مجمل ومفصل:

أما المجمل : فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق ، وإيثاره ، وتقديمه على غيره ، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق : هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما جاء به علماً وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده ، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى. وكل ذلك مسلم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية ، بحيث يكون من ضرب المدينة. فهو من الصراط المستقيم ومالم يكن كذلك فهو من صراط اهل الغضب والضلال. فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث : طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده . وطريق أهل الضلال : وهي طريق من أضله الله عنه. ولهذا قال عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم «الصراط المستقيم: هو الإسلام» وقال عبدالله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما «هو القرآن» وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبدالله «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبدالله المزني «طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولاريب ان ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، و إيثاره على غيره . فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ماخالفه فباطل. وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.

• اثبات الربوبية لايحتاج الى دليل

وأما المفصل : فبمعرفة المذاهب الباطلة ، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها . فنقول:
الناس قسمان: مقر بالحق تعالى، وجاحد له. فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى، والرد على من جحده ، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.
وتأمل حال العالم كله ، علويه وسفليه، بجميع أجزائه: تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومليكه . فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده ، لافرق بينهما ، بل دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية، والفطر الصحيحة ، أظهر من العكس.
فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه. إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه. ولاريب أنهما طريقان صحيحان ، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما.
فأما الاستدلال بالصنعة فكثير. وأما الاستدلال بالصانع فله شأن. وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم (١٤:١٠ أفي الله شك؟) أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم (فاطر السموات والأرض).
وسمعت شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيراً مايتمثل بهذا البيت:
وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفِطَر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمها.

• اختلاف الناس في الالوهية

ولكن من الناس طوائف تريهم فِطرتهم هذا المقدار من الحق ، فلايشركون بالله في ربوبيته احداً، ولايثبتون معه خالقاً آخر، لكنهم اهل إشراك به في إلهيته. وهم المقرون بأنه وحده رب كل شيء، ومليكه وخالقه ، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع، ورب العرش العظيم . وهم مع هذا يعبدون غيره ، و يعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم .

وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا. فهؤلاء لم يوفوا «إياك نعبد» حقه، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» لكن ليس لهم نصيب من «إياك نعبد» المتضمن معنى: لانعبد إلا إياك، حباً وخوفاً ورجاء وطاعة وتعظيما، فـ «إياك نعبد» تحقيق لهذا التوحيد، و إبطال للشرك في الإلهية، كما ان «اياك نستعين» تحقيق لتوحيد الربوبية، و إبطال للشرك به فيها، وكذلك قوله (اهدنا الصراط المستقيم ● صراط الذين أنعمت عليهم) فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق «اياك نعبد، وإياك نستعين» وأهل الإشراك: هم أهل الغضب والضلال.

● تعطيل التعطيل

وقد تضمنت الفاتحة الرد على الجهمية مُعطِّلة الصفات، اهل التوحيد الناقص، الذين ينفون ان تكون ذات الله عز وجل متصفة بالعلم والقدرة والرزق ونحوذلك من وجوه:

أحدها: من قوله (الحمد لله) فإن اثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل مايحمد عليه، من صفات كماله، ونعوت جلاله. اذ مَنْ عدم صفات الكمال فليس محمود على الاطلاق. وغايته: انه محمود من وجه دون وجه، ولايكون محموداً بكل وجه، و بكل اعتبار، بجميع انواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها. فلوعدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها.

وكذلك في اثبات صفة الرحمة له: مايتضمن إثبات الصفات التي تستلزمها: من الحياة، والإرادة والقدرة، والسمع والبصر، وغيرها.

وكذلك صفة الربوبية: تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال: ذاتاً وأفعالاً، كما تقدم بيانه.

فكونه محموداً إلهاً رباً، رحماناً رحيماً، ملكاً معبوداً، مستعاناً، هادياً منعماً، يرضى و يغضب ــ مع نفي قيام الصفات به ــ: جمع بين النقيضين. وهو من أمحل المحال.

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين:

أحدهما: أنها من لوازم كماله المطلق. فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني: من لوازم رحمته وربوبيته. وهكذا سائر الصفات الخبرية.

الوجه الثاني: أن السمع ورد بها، ثناء على الله ومدحاً له، وتعرفاً منه إلى عباده بها. فجحدها وتحريفها عما دلت عليه، وعما أريد بها: مناقض لما جاءت به. فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال، وأن تستدل بالعقل كما تقدم.

● كسر الجبر

وكذلك تضمنت الرد على الجبرية، الذين يقولون ان افعال العباد كلها لاخيار لهم فيها.

وذلك من وجوه:

أحدهما: من إثبات عموم حمده سبحانه. فإنه يقتضي أن لايعاقب عبيده على مالاقدرة لهم عليه، ولاهو من فعلهم. بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم. فهو الفاعل لقبائحهم في الحقيقة. وهو المعاقب لهم عليها. فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإباء، و ينفيه أعظم النفي. فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة. فهي لاأفعاله. وإنما افعاله العدل، والإحسان والخيرات.

الوجه الثاني: إثبات رحمته ورحمانيته ينفي ذلك. إذ لايمكن اجتماع هذين الأمرين قط ــ أن يكون رحماناً رحيماً ــ و يعاقب العبد على مالا قدرة له عليه، ولاهو من فعله، بل يكلفه مالا يطيقه، ولاله عليه قدرة ألبتة، ثم يعاقبه عليه. وهل هذا إلا ضد الرحمة. ونقض لها وإبطال؟ وهل يصح في معقول أحد اجتماع ذلك، والرحمة التامة الكاملة، في ذات واحدة؟.

الوجه الثالث: إثبات العبادة والاستعانة لهم، ونسبتها اليهم، بقولهم «نعبد، ونستعين» وهي نسبة حقيقية لامجازية. والله لايصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين. والله هو المعبود المستعان به.

● اثبات النبوّات

وتضمنت الفاتحة الرد على منكري النبوات.

وذلك من وجوه :

أحدها: إثبات حمده التام. فإنه يقتضي كمال حكمته، وأن لايخلق خلقه عبثا، ولايتركهم سدى، لايؤمرون ولاينهون. ولذلك نزّه الله نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه. وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة ـ وأن يكون ما أنزل على بشر من شيء ــ فإنه ما عرفه حق معرفته، ولاعظمه حق تعظيمه، ولاقدره حق قدره ، بل نسبه إلى مالا يليق به، و يأباه حمده ومجده.

فمن أعطى الحمد حقه ــ علماً ومعرفة و بصيرة ــ استنبط منه «أشهد أن محمداً رسول الله» كما يستنبط منه «أشهد أن لا إله إلا الله» وعلم قطعاً أن تعطيل النبوات في منافاته للحمد، كتعطيل صفات الكمال، وكإثبات الشركاء والأنداد .

الثاني: إلهيته ، وكونه إلهاً. فإن ذلك مستلزم لكونه معبوداً مطاعا. ولاسبيل إلى معرفة

مايعبد به و يطاع إلا من جهة رسله.

الثالث: كونه ربا. فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم. وجزاء محسنهم بإحسانه، ومسيئهم بإساءته. هذا حقيقة الربوبية. وذلك لايتم إلا بالرسالة والنبوة.

الرابع: كونه رحماناً رحيما. فإن من كمال رحمته: أن يُعرِّف عباده نفسه وصفاته و يدلهم على مايقربهم إليه، و يباعدهم منه. و يثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى. ذلك لايتم إلا بالرسالة والنبوة. فكانت رحمته مقتضية لها.

الخامس: ملكه. فإن الملك يقتضي التصرف بالقول، كما أن المُلْك يقتضى التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء. والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله. والله له الملك. وهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل.

وتصرفه بقوله نوعان: تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكمال الملك بهما.

فإرسال الرسل: موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو المَلِك المعقول في فطر الناس وعقولهم. فكل مَلِك لا تكون له رسل يبُثُّهم في أقطار مملكته فليس بملك.

وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه. فإنهم رسُل الله في خلقه وأمره.

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهويوم الجزاء، الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشراً. وهذا لايكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التي بسببها يُدان المطيع والعاصي.

السابع: كونه معبوداً. فإنه لايُعبد إلا بما يحبه و يرضاه. ولاسبيل للخلق إلى معرفة مايحبه و يرضاه إلا من جهة رسله. فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً.

الثامن: كونه هادياً إلى الصراط المستقيم. وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب. فإن الخط المستقيم: هو أقرب خط موصل بين نقطتين. وذلك لايعلم إلا من جهة الرسل. فتوقفه على الرسل ضروري، أعظم من توقف الطريق الحسى على سلامة الحواس.

التاسع: كونه منعماً على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم. فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قابلين الرسالة، مستجيبين لدعوته. و بذلك ذكَّرهم مِنَّته عليهم، و إنعامه في كتابه.

العاشر: انقسام خلقه إلى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. فإن هذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق، والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه. وهم أهل النعمة. وعالم به معاند له. وهم أهل الغضب. وجاهل به وهم الضالون. هذا الانقسام إنما

نشأ بعد إرسال الرسل . فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة . فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة. وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع . فالرسالة ضرورية.

وقد تبين لك بهذه الطريق ، والتي قبلها : بيان تضمنها لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهي . وهو الحق الذي خُلقت به وله السمواتُ والأرض ، والدنيا والآخرة . وهو مقتضى الخلق والأمر ، ونفيه نفي لهما.

• وكلم الله موسى تكليما

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم

فإن حقيقة الرسالة: تبليغ كلام المرسِل . فإذا لم يكن ثَمّ كلام فماذا يبلّغ الرسول؟ بل كيف يعقل كونه رسولا؟ ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلما ، أو يكون القرآن كلامه : فقد أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ورسالة جميع الرسل ، التي حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى . ولهذا قال منكرو رسالته صلى الله عليه وسلم عن القرآن (٧٤:٢٤،٢٥ **إنْ هذا إلا سحر يؤثَر . إن هذا إلا قول البشر**) وإنما عنوا القرآن المسموع الذي بُلّغوه ، وأنذروا به.

فمن قال : إن الله لم يتكلم به، فقد ضاهأ قوله قولهم . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

عبادة واستعانة

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين.
وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالى وهو «إياك نعبد» ونصفهما لعبده. وهو «إياك نستعين».
و «العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً. ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبا لهم. بل هو غاية مطلوبهم — ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم —: منكرين لكونه إلهاً، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقاً لهم.
فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى (٤٣:٨٧ ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله) وقال تعالى (٣٩:٣٨ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله) (٢٢:٨٤ — ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها؟ — الى قوله — سيقولون لله. قل فأنى تسحرون؟) ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لاينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لاخالق غيره، ولارب سواه.
و «الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولايعتمد عليه في أموره — مع ثقته به — لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه — مع عدم ثقته به — لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.
و «التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» وهذان الأصلان — وهما التوكل، والعبادة — قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها.
الثاني: قول شعيب (١١:٨٨ وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب).
الثالث: قوله تعالى (١٠:١٢٣ ولله غيب السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه).

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين (٦٠ : ٤ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) .

الخامس: قوله تعالى (٧٣:٨،٩ واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً. رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو، فاتخذه وكيلاً).

السادس : قوله تعالى (٤٣:١٠ قل: هو ربي . لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه أنيب).

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين . وهما «إياك نعبد وإياك نستعين» .

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل . إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها. ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته واسمه «الله» و«إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة. لأن «إياك نعبد» قسم الرب . فكان من الشطر الأول ، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به. و«إياك نستعين» قسم العبد . فكان من الشطر الذي له، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس . ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له.

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص ، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذي اوجبه عليك ، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك . وأداء حقه : أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك ، والله يحب أن يشكر ، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رقها أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة . وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم .

و«العبودية» محفوفة بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ، وإعانة بعدها على عبودية أخرى ، وهكذا أبدا ، حتى يقضي العبد نَحبَه.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ، ففيه : أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم . وفيه الاهتمام وشدة العناية به . وفيه الإيذان بالاختصاص ، المسمى بالحصر . فهو في قوة : لانعبد إلا إياك ، ولا نستعين الا بك . والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها.

وتأمل قوله تعالى (٢:٤٠ وإياي فارهبون) (٢:٤١ وإياي فاتقون) كيف تجده في قوة :

لا ترهبوا غيري ، ولا تتقوا سواي ؟ وكذلك «إياك نعبد وإياك نستعين» هو في قوة : لانعبد غيرك ولانستعين بسواك. وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين . ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ماليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلا: إياك أحب ، وإياك أخاف . كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته ، والاهتمام بذكره ، ماليس في قولك : إياك أحب وأخاف.

• نستعين بالله على عبادته

إذا عرفت هذا، فالناس في هذين الأصلين ــ وهما العبادة والاستعانة ــ أربعة أقسام .

أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها . فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، و يوفقهم للقيام بها . ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى : الإعانة على مرضاته، وهو الذي عَلّمه النبي صلى الله عليه وسلم لحِبّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال «يامعاذ ، والله إني لأحبك . **فلا تنس أن تقول دُبُر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته . وأفضل المواهب : إسعافه بهذا المطلوب . وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع مايضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ : تأملت أنفع الدعاء : فإذا هو سؤال العون على مرضاته . ثم رأيته في الفاتحة في «إياك نعبد و إياك نستعين».

• إمداد الكافر : زيادةُ حُجّةٍ عليه

ومقابل هؤلاء : القسم الثاني . وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به. فلاعبادة ولا استعانة . بل إن سأله أحدهم واستعان به. فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه . فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه و يمُدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه: عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها . ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته. كانت زيادة له في شقوته ، و بعده عن الله وطرده عنه . وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته قاطعاً له عنه ولابد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره . وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته. و يكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه . و يكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً ، لابخلا . وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، و يعامله بلطفه . فيظن ـــ بجهله ـــ أن الله لايحبه ولايكرمه . و يراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه . وهذا حشو قلبه ولايشعر به . والمعصوم من عصمه الله . والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها . كما قيل:

وعاجز الرأي مِضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فو الله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، ولكن ماحيلتي ، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه . والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خِيرته وعاقبته مغيبة عنك. واذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلِّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة . وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة . ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لاعلم له بمصالحه ، ولاقدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها . ولا يملك لنفسه ضراً ولانفعاً ، بل إن وكِل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره.

وإذا اعطاك ما اعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته و بلاغاً إلى مرضاته، ولايجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامةعبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عبادهقال‌الله تعالى(٨٩: ١٥ و ١٦ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه، فيقول: ربي أكْرَمَنِ. وأما إذا ما ابتلاه فقَدر عليه رزقه فيقول: ربي أهانَنْ * كلا**) أي ليس كل من أعطيتُه ونعمته وخولته: فقد أكرمته وما ذاك لكرامته عليّ. ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأحوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقَدَر لايفضل عنه ، فذلك من هوانه عليّ ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف مافاته من سَعة الرزق ، أم يتسخط ؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ . فأخبر أن الإكرام والاهانة لايدوران على المال وسعة الرزق وتقديره . فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، و يُقتر على المؤمن لا

لإهانته. إنمـــــا يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، و يهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته . فله الحمد على هذا وعلى هذا . وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إياك نعبد و إياك نستعين».

● العبادة بلا استعانة : نَقْصٌ

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة . وهؤلاء نوعان .

أحدهما : القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل . فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها . بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة . فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء . ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان . وخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر . فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه . فهم موكولون إلى أنفسهم . مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني : من لهم عبادات وأوراد ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في ضمنه ، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ، بل كالعدم الذي لاوجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب الى المسبب. ومن الآلة إلى الفاعل . فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم ، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف .

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم . ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله .

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرده بالخلق ، والتدبير والضرر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن

شاءه الناس . فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه ، وطمأنينة به، وثقة به، و يقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولايكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما . فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همّه على إنزال ماينويه بهما . فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولابد. قال الله تعالى (٦٥: ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان ــ مع هذا ــ من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ولم يَدُرْ مع مايحبه و يرضاه. فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بها. سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لاعاقبة له. فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ولا تستلزم الإسلام،فضلاً عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه اياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين مايحبه و يرضاه، و يكرهه و يسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ، ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة.

● متابعة وإخلاص

إذا عرف هذا : فلايكون العبد متحققاً بـــ «إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين.

أحدهما : متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني : الإخلاص للمعبود . فهذا تحقيق «إياك نعبد».

والناس منقسمون بحسب هذين الاصلين ايضاً الى أربعة أقسام.

● الضرب الأول: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة . وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله ، و بغضهم لله . فمعاملتهم ظاهراً و باطناً لوجه الله وحده . لايريدون بذلك من الناس جزاء ولاشكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمَدة ، والمنزلة في قلوبهم، ولاهرباً من ذمهم . بل قد عدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور ، لايملكون لهم ضراً ولانفعاً ، ولا موتاً ولاحياة ولانشوراً . فالعمل

لأجل الناس ، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم : لايكون من عارف بهم ألبتة ، بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه . فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم . ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله ، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه . ولايعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه و يرضاه . وهذا هو العمل الذي لايقبل الله منْ عامل سواه . وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله قال الله تعالى (٢:٦٧ الذي خلق الموت والحياة ليَبْلُوَكم أيّكم أحسنُ عملاً) وجعل ما على الارض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً . قال الفضيل بن عياض : العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً : لم يقبل و إذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً : لم يقبل ، حتى يكون خالصاً وصواباً. والخالص : ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى (١٨:١١٠ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولايشرك بعبادة ربه احدا) وفي قوله (٤:١٢٥ ومَن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، على متابعة أمره . وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُرَد عليه ــ أحوج ما هو إليه ــ هباء منثورا . وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» وكل عمل بلا اقتداء فإنه لايزيد عامله من الله إلا بعداً . فإن الله تعالى إنما يُعبَد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

● الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولامتابعة . فليس عمله موافقاً لشرع ، وليس هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس ، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق ، وأمقتهم إلى الله عز وجل . ولهم أوفر نصيب من قوله (٣:١٨٨ لا تَحْسَبَنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمَفازة من العذاب . ولهم عذاب أليم) يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف ــ من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة ــ عن الصراط المستقيم . فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الإتباع والإخلاص والعلم . فهم أهل الغضب والضلال.

● الضرب الثالث: من هو مخلص في اعماله، لكنها على غير متابعة الأمر كجهال العبّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله

فهذا حاله . كمن يظن أن سماع المُكاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة . وأمثال ذلك.

• الضرب الرابع : من أعماله على متابعة الأمر ، لكنها لغير الله . كطاعة المرائين ، وكالرجل يقاتل رياء وحَمِيَّة وشجاعة ، ويحج ليقال ، و يقرأ القرآن ليقال . فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لكنها غير صالحة . فلا تقبل (٩٨:٥ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر . والإخلاص له في العبادة . وهم أهل «إياك نعبد وإياك نستعين» .

• الميزان الصحيح لأفضلية العبادة

ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق . فهم في ذلك أربعة أصناف.

الصنف الاول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة . ورووا حديثاً لا أصل له «أفضل الأعمال أحمزها» أي أصعبها وأشقها.

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض . فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني، قالوا: أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه . ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة . فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من

في النفع القاصر . فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم «**الخلق كلهم عيال الله . وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**» رواه أبو يعلي.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النفّاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟.

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .

قالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه «**لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمْر النعم**» وهذا التفضيل انما هو للنفع المتعدى .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم «**من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لاينقطع عمله، مادام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومعادهم . لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب . ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس.

الصنف الرابع ، قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والافضل في أوقات الأذان : ترك ماهو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع . وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه . حتى كأن الله

تعالى يخاطبك به . فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفه : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والافضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته، وحضور جنازته وتشييعه.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لايخالطهم ولايؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق . والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل لايزال متنقلاً في منازل العبودية . كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة اخرى . فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره . فإن رأيت العلماء رأيته معهم . وإن رأيت العباد، رأيته معهم . وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم . وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه، ومافيه لذتها وراحتها من العبادات . بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه . فهذا هو المتحقق بـ «إياك نعبد و إياك نستعين» حقاً ، القائم بهما صدقاً . مَلْبَسه ماتهيأ . ومأكله ماتيسر . واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته . ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً . لاتملكه إشارة . ولايتعبده قيد . ولايستولي عليه رسم . حر مجرد. دائر

مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه . ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق . ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع . وكالنخلة لايسقط ورقها . وكلها منفعة حتى شوكها . وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله . فهو لله وبالله ومع الله . قد صحب الله بلاخلق ، وصحب الناسّ بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم . وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها . فواهاً له! ما أغْرَبَه بين الناس! وما أشدّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان . وعليه التكلان.

• حِرمان الجَبْري من حلاوة العبادة

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة . وهم في ذلك أربعة أصناف.

الصنف الأول: الجَبرية الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصَرْف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سبباً لسعادة في معاش ولا معاد، ولاسبباً لنجاة. وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

وهؤلاء لايجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولايتنعمون بها. وليست الصلاة قرة أعينهم. وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم. ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد كلفوا بها. ولو سمى مُدّعٍ لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفاً،وقال إنني إنما أفعله بكلفة: لم يعده أحد محباً له. ولهذا أنكر هؤلاء ــ أو كثير منهم ــ محبة العبد لربه. وقالوا: إنما يحب ثوابه ومايخلقه له من النعيم الذي يتمتع به. لا أنه يحب ذاته. فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه. وحقيقة العبودية هي كمال المحبة. فأنكروا حقيقة العبودية ولُبّها. وحقيقة الإلهية: كونه مألوهاً محبوباً بغاية الحب، المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال والتعظيم. فأنكروا كونه محبوباً. وذلك إنكار لإلهيته، وشيخ هؤلاء: هو الجَعْد بن درهم الذي ضَحّى به خالد بن عبدالله القَسْري في يوم أضحى. وقال «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً» وإنما كان إنكاره: لكونه تعالى محبوباً محباً، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التي هى الخلة عند الجهمية، التي يشترك فيها جميع الخلائق . فكلهم أخِلاّء لله عندهم.

• وبعضٌ يَمُنّون إسلامَهم

الصنف الثاني : القَدَرية النُفاة ، الذين يقولون أن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد

من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً كقوله (٧:٤٣ ونودوا أن تِلكُم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) وقوله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقوله (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقوله صلى الله عليه وسلم ــ فيما يحكي عن ربه عز وجل ــ «ياعبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها» وقوله تعالى (٣٩: ١٠ إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب).

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجراً وثوابا . لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه منه.

وإنما كان الجزاء ثواباً ــ والله أعلم ــ لأنه يثوب إلى العامل ، وترجع إليه ثمرة عمله في الدنيا ليفقدها ويحاسب نفسه عليها، و يعرف ما في عمله من نقص وانحراف عن الجادة ــ ولابد ــ بقدر ماوجد في ثمرته التي ثابت . ورجعت إليه في الدنيا ، ككل الشؤون والأعمال الدنيوية ، من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها ، فيتدارك العبد النقص ، و يتحرى الصراط المستقيم . فإذا لم يفقد عمله ، ولم يحاسب نفسه ، لما يغلب عليه من الغفلة والجهالة والتقليد الأعمى ، كان ذلك قاطعاً لعذره يوم القيامة.

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاء ولا أجراً ولا ثواباً معنى .

قالوا: و يدل عليه الوزن . فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها ، وكونها كالأثمان لها ، لم يكن للوزن معنى . وقد قال تعالى (٧:٨،٩ والوزن يومئذ الحق. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) .

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل . و بينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء ألبتة . وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته ، و ينعم من أفنى عمره في معصيته . وكلاهما بالنسبة إليه سواء . وجوزت أن يرفع صاحبَ العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات. والكل عندهم رجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولاسبب ، ولاحكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح . وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمناً لها، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله. ما أجهلهم بالله وأغرّهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد العبدَ ، حتى قالوا: إن إعطاءه مايعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن

يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة . ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء ألبتة.

والطائفتان جائرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب . وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب. مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّه ، وصدقته على عبده . إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحَبَّبها إليه ، وزَيّنها في قلبه وكرّه إليه أضدادها. ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه، ولاهي على قدره ، بل غايتها — إذا بذل العبد فيها نُصحه وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه — أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه . فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها . فلذلك لو عذّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولهذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم دخول الجنة بالعمل ، كما قال «لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله — وفي لفظ : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . وفي لفظ: لن ينجي أحداً منكم عمله — قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل ، كما في قوله (١٦:٣٢ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ولا تنافي بينهما. إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد . فالمنفيُّ استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها، رداً على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله ، وأغلظهم عنه حجاباً. وحُقّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة . ويكفي في جهلهم بالله : أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في مِنّته. وأن من تمام الفرح والسرور ، والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة . وأعظمهم منه منزلة ، وأقربهم إليه : أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقراراً بها، وذكراً لها، وشكراً عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟ (٤٩:١٧ يَمُنُّون عليك أن أسلموا، قل لا تَمُنُّوا عليّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين).

واحتمال مِنة المخلوق : إنما كانت نقصاً لأنه نظيره . فإذا مَنّ عليه استعلى عليه ، ورأى الممنونُ عليه نفسه دونه . هذا مع أنه ليس في كل مخلوق ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم المنة على أمته ، وكان أصحابه يقولون «الله ورسوله أمَنّ» ولانقص في منة الوالد على ولده ، ولاعار عليه في احتمالها، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر مِنّته عليهم، ومحض

صدقته عليهم ، بلاعوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده . فهو المنان عليهم ، بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها وكملها لهم، وقبلها منهم على مافيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله (بما كنتم تعملون).

فهذه باء السببية، رداً على القدرية والجبرية، الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ولاهي أسباب له.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء كما هي مبطلة لقول أولئك . وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب. مقدار قول أهل السنة. وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله. وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم ، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها ، وانعقادها بها شرعاً وقدراً وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المتحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل بل أنواعاً . وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه **(٢:٢١٣ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)** و **(٦٢:٤ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم)**.

• تَفَلسُف

الصنف الثالث:الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس البهيمية. فلو عُطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم. والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة . فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها.

• المحبّة اساس العبادة

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية ، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها.

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشُبه الباطلة ، والقواعد الفاسدة . ما عندهم وراء ذلك شيء . قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقنعوا بما ألفوه من الخيال . ولو علموا أن وراءه ماهو أجل منه وأعظم ، لما ارتضوا بدونه ، ولكن عقولهم قصرت عنه ، ولم يهتدوا إليه

بستور النبوة ، ولم يشعروا به، ليجتهدوا في طلبه ، ورأوا أن مامعهم خير من الجهل ، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركب من هذه الأمور إيثار ماعندهم على ما سواه . وهذه بلية الطوائف . والمعافى من عافاه الله.

فاعلم أن سر العبودية ، وغايتها وحكمتها : إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها . وعرف معنى الإلهية وحقيقتها ، ومعنى كونه إلها ، بل هو الإله الحق ، وكل إله سواه فباطل ، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالمقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها ، وما شرعت لأجله ؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق ، والتي لها خلقوا ، ولها أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى مالايليق به، و يتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقها باطلا. ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سُدى مهملا . قال تعالى (٢٣:١١٥ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟**) أي لغير شيء ولاحكمة ولالعبادتي ومجازاتي لكم، وقد صرح تعالى بهذا في قوله (٥١:٥٦ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى (٧٥:٣٦ **أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى؟**) أي مهملا . قال الشافعي: لايؤمر ولاينهى، وقال غيره: لايثاب ولايعاقب . والصحيح : الأمران . فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي . والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها . وحقيقة العبادة امتثالها . وقال تعالى (٣:١٩١ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض: ربنا ماخلقتَ هذا باطلا ، سبحانك! فقنا عذاب النار**) وقال (١٥:٨٥ **وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق**) وقال (٤٥:٢٢ **وخلق الله السموات والأرض بالحق، ولتُجزى كل نفس بما كسبت**).

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال ، وبين مادل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ماقدروا الله حق قدره ، ولاعرفوه حق معرفته .

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلايحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته،

وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحُبِّه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها . فهي إنما تتحقق باتباع أمره . واجتناب نهيه . فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلماً عليها ، وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى **(٣١:٣ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله)** فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم . فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله ، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم : هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره . ولايكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما . فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله . ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لايغفره الله لصاحبه ألبتة ، ولايهديه الله . قال تعالى **(٢٤:٩ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لايهدي القوم الفاسقين)**.

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه . أو معاملة أحدهم على معاملة الله . فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ماهو عليه . وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله.

● الاركان الاربعة للعبادة التامة

وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله و يرضاه، من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع . فأصحاب «إياك نعبد» حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب : كالمحبة له والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ «إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة ، واقرار بها ، و «إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها ، و «اهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل ، وإلهام القيام بهما ، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

• العبودية ذروة الشرف

وجميع الرسل إنما دعوا إلى «إياك نعبد ، وإياك نستعين» فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته ، من أولهم إلى آخرهم . فقال نوح لقومه (٧: ٥٩ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره**) وكذلك قال هود وصالح وشعيب (٧: ٦٥و٧٣و٨٥) وابراهيم . قال الله تعالى (١٦: ٣٦ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**) وقال (٢١: ٢٥ **وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**) وقال تعالى (٢٣: ٥١ ، ٥٢ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاتقون**).

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه ..فقال (٤: ١٧٢ **لن يَسْتَنْكِفَ المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون. ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً**) وقال (٧: ٢٠٦ **إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون**) وهذا يبين ان الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء (٢١: ١٩ **وله من في السموات والأرض**) ههنا . ثم يبتدىء (**وَمَنْ عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون**) فهما جملتان تامتان مستقلتان ، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكا. ثم استأنف جملة أخرى فقال (وَمَنْ عنده لايستكبرون عن عبادته) يعني أن الملائكة الذين عنده لايستكبرون عن عبادته يعني لايأنفون

عنها ولايتعاظمون ولايستحسرون ، فيعيون و ينقطعون ــ يقال : حَسَر واستحسر ، إذا تعب وأعيا ــ بل عبادتهم وتسبيحهم كالتنفّس لبني آدم. فالأ ول : وصف لعبيد ربوبيته، والثاني، وصف لعبيد إلهيته. وقال تعالى (٢٥ : ٦٣ ــ ٧٧ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنا**) إلى آخر السورة . وقال (٧٦ : ٦ **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا**) وقال (٣٨ : ١٧ **واذكر عبدنا داود**) وقال (٣٨ : ٤١ **واذكر عبدنا أيوب**) وقال (٣٨ : ٤٥ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب**) وقال عن سليمان (٣٨ : ٣٠ **نعم العبد إنه أواب**) وقال عن المسيح (٤٣ : ٥٩ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه**) فجعل غايته العبودية لا الإلهية ، كما يقول أعداؤه النصارى . ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته .
فقال تعالى (٢ : ٢٥ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا**) وقال تبارك وتعالى (٢٥ : ١ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**) وقال (١٨ : ١ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**) فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال (٧٢ : ١٩ **وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا**) فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه. وقال (١٧ : ١ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا**) فذكره بالعبودية في مقام الإسراء. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد . فقولوا عبد الله ورسوله**» وفي الحديث «**أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**» وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو قال «**قرأت في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ . ولا غليظ، ولا صَخّاب بالأسواق، ولايجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو و يغفر**» .
وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده . فقال تعالى (٣٩ : ١٨ **فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**) وجعل الأمن المطلق لهم . فقال تعالى (٤٣ : ٦٨، ٦٩ **يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين**) وعزل الشيطانَ عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به . فقال (١٥ : ٤٢ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين**) وقال (١٦ : ٩٩، ١٠٠ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون**).
وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إحسان العبودية أعلى مراتب الدين ، وهو الإحسان . فقال في حديث جبريل ــ وقد سأله عن الإحسان ــ «**أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

• لزوم (إياك نعبد) لكل عبد الى الموت

قال الله تعالى لرسوله (١٥:٩٩ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال أهل النار (٧٤:٤٦، ٤٧ وكنا نكذّب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي الصحيح ــ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه وارضاه ــ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» أي الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان «من كان يعبد؟ ومايقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» و يلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. و يبقى الكفار والمنافقون لايستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحا مقروناً بأنفاسهم لايجدون له تعباً ولانصبا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهوزنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بل على جميع الرسل ــ أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولى العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

• انقسام العبودية الى عامة وخاصة

العبودية نوعان : عامة، وخاصة:

فالعبودية العامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى (١٩:٨٨ــ٩٣ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدًّا. تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشقُّ الأرض وتخِرُّ الجبال هدًّا. أن دَعَوْا للرحمن وَلداً. وَما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا. إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلا آتي الرحمنِ عبدا) فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى (٢٥:١٧ ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله. فيقول: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء؟) فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسميةٌ مقيدة بالإشارة. وأما المطلقة : فلم

يجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى (٣٩:٤٦ **قل اللهم فاطر السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون**) وقال (٤٠:٣١ **وما الله يريد ظلماً للعباد**) وقال (٤٠:٤٨ **إن الله قد حكم بين العباد**) فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة ، واتباع الأوامر . قال تعالى (٤٣:٦٨ **ياعبادي لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون**) وقال (٣٩:١٨ **فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**) وقال (٢٥:٦٣، ٦٤ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا * وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**) وقال تعالى عن إبليس (١٥: ٤٠ **لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين**) وقال تعالى عنهم (١٥:٤١ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**).

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته . وأهل طاعته وولايته: هم عبيد الهيته.

ولايجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية : فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه: إما مُنَكَّرا. كقوله (**إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا**) والثاني : معرفا باللام، كقوله (٤٠:٣١ **وما الله يريد ظلماً للعباد**) (٤٠:٤٨ **إن الله قد حَكَم بين العباد**).

الثالث: مقيداً بالإشارة أو نحوها ، كقوله (**أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء**).

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده . فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر . كقوله (٣٩:٤٦ **أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون**).

الخامس : أن يذكروا موصوفين بفعلهم . كقوله (٣٩:٥٣ **قل ياعباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**).

وقد يقال : إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته ، وأنابوا إليه ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية الى خاصة وعامة ، لأن أصل معنى اللفظة : الذل والخضوع . يقال «طريق مُعَبَّد» إذا كان مُذَلَّلاً بوطء الأقدام، و «فلان عَبَّده الحب» إذا ذلله، لكن أولياؤه خضعوا له وَذَلُّوا طوعاً واختياراً ، وانقياداً لأمره ونهيه. وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً.

ونظير انقسام العبودية الى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و «السجود» كذلك . قال تعالى في القنوت الخاص (٣٩:٩ **أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً؟ يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه**) وقال في حق مريم (٦٦:١٢ **وكانت من القانتين**) وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام (٢:١٧٦ **وله من في السموات والأرض كل له قانتون**) أي

خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص (٢٠٦:٧ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) وقال (٥٨:١٩ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا) وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام (١٥:١٣ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغُدوِّ والآصال).

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور في قوله (١٨:٢٢ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) فخص بالسجود هنا كثيراً من الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل (٤٩:١٦ ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة) وهو سجود الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته. مقهور تحت سلطانه تعالى.

• مراتب (إياك نعبد) علماً وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لايليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداهما: دينه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات. وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

خاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بحسن النية. في تلقي هذه النعم والآلاء من ربهم العليم الحكيم، الذي ما أعطى عباده هذه النعم إلا ليربيهم بها، وينمي فيهم ملكات الخير، ويزيدهم بها من عناصر الإنسانية الكريمة يرقون بها على معارج الخير والاحسان والرشد والحكمة،

فيكونون من الابرار . فهم في كل شؤونهم وأحوالهم عابدون ذاكرون لربهم الرحمن. بكل أنواع الذل والخضوع والمحبة والإسلام . فهم في حقلهم عابدون ، وفي متاجرهم عابدون ، وفي مضاجعهم مع ازواجهم عابدون ، وهكذا لايرون في شيء مما آتاهم الله مايشغلهم عن ربهم و ينسيهم أسماءه ، وما يرون في شيء إلا أنه عنصر جديد من عناصر التربية والإحسان ، فيزدادون لمسديها إليهم سبحانه شكراً وحباً وخضوعاً وذلا وإسلاما وطاعة.

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين ، بل كل أعمالهم راجحة . ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات . وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات . لأهل هاتين المرتبتين درجات لايحصيها إلا الله.

● قواعد العبودية

ورحَى العبودية على خمس عشرة قاعدة. مَن كمّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب ، واللسان ، والجوارح.

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف ، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. فهذا قدر زائد على الإخلاص . فإن الإخلاص هوإفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان.

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية . ومدار الدين عليه. وهوبذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب . وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق، وهومرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب . وهومرتبة المقربين.

وكـذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبرَ في تسعين موضعاً من القرآن، أو بضعاً وتسعين، وله طرفان أيضاً: واجب مستحق ، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا . فإن في وجوبه قولين:

فـمن أوجبه قال: السخط حرام. ولاخلاص عنه إلا بالرضا . وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب .

ومن قال هو مستحب ، قال: لم يجيء الأمر به في القرآن ولافي السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه. وكذلك التوكل. قال (١٠:٨٤ **إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**) وأمر بالإنابة. فقال (٣٩:٥٤ **وأنيبوا الى ربكم**) وأمر بالإخلاص كقوله (٩٨:٥ **وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**) وكذلك الخوف كقوله (٣:١٧٥ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**) وقوله (٢:١٥ **فلا تخشوهم واخشون**) وقوله (٢:٤٠ **وإياي فارهبون**) وكذلك الصدق . قال تعالى (٩:١١٩ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**) وكذلك المحبة. وهي أفرض الواجبات. إذ هي قلب العبادة المأمور بها، ومُخُّها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدحُ أهله، والثناء عليهم. لا الأمر به.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم ، وظن أنهما متباينان وليس كما ظنه. فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها. فالتألم كما لا ينافي الصبر لاينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه "الكوني" وأما الرضا به رباً وإلهاً ، والرضا بأمره الديني: فمتفق على فرضيته، بل لايصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا : أن يرضى بالله رباً، و بالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا.

ومن هذا أيضا اختلافهم في الخشوع في الصلاة. وفيه قولان للفقهاء ، وهما في مذهب احمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته. فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وابو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر مَن سَها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله **«ان الشيطان يأتي أحدكم في صلاته، فيقول : اذكر كذا، اذكر كذا ــ لما لم يكن يذكر ــ حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى»** ولكن لانزاع أن هذه الصلاة لايثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن

العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ، ثلثها ، ربعها ــ حتى بلغ عشرها» وقال ابن عباس رضى الله عنهما «ليس لك من صلاتك إلا ماعقلت منها» فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة، ولاينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها. فيقال «صلاة صحيحة» مع أنه لايثاب عليها فاعلها، والقول بأن الصلاة التي لاخشوع فيها ألبتة ولا تدبر للقراءة والذكر تسمى صحيحة، مبني على أن كلمة «الصحة» ، إنما تطلق على ما اجتمعت الشروط الاصطلاحية في أعمالها البدنية الظاهرة ، دون الاعمال الباطنة كالإخلاص، كما تطلق في عرف الاطباء على سلامة الجسد . دون سلامة النفس من فساد العقائد والأخلاق. وصحة الصلاة بهذا المعنى لا تقتضي سقوط الفرض وعدم المؤاخذة في الآخرة. والمراد أنها صحيحة ظاهراً كتسمية المنافق مسلماً في الظاهر.

والقصد : أن هذه الأعمال: ــ واجبها ومستحبها ــ هي عبودية القلب. فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود : أن يكون ملك الأعضاء ــ وهو القلب ــ قائماً بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء ، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهي نوعان: كفر ، ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر : كالرياء ، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا ، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها.

فوظيفة «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح. فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه وقد تكون كبائر ، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً : شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى . فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة

الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب . وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم **«إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: هذا القاتل. يارسول الله . فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»** فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه، في الإثم دون الحكم. وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

• عبودية اللسان

وأما عبوديات اللسان الخمس . فواجبها : النطق بالشهادتين، وتلاوة مايلزمه تلاوته من القرآن. وهو ماتتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول **«ربنا ولك الحمد»** بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها ، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول. والكذب ، وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم. وهو أشدها تحريما.

ومكروهه : التكلم بما تَرْكُهُ خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد احتلف السلف: هل في حقه كلام مباح ، متساوى الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره. أحدهما : أنه لايخلو كل مايتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله. ولايكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح ، لاله ولاعليه، كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرا من الكلام لايتعلق به أمر ولانهي. وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين ، بل إما راجحة وإما

مرجوحة. لأن للسان شأناً ليس لسائر الجوارح، وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم. وكل مايتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أو لا فإن كان كذلك فهو الراجح ، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح . وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح . فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لاينتفع به فلا يكون إلا مضرة.

وربما كانت الجوارح في الحركة ـــ مضرة ، ومنفعة، ومسؤولية سواء، وظهور ذلك من اللسان: إنما هو لكثرة استعمال الإنسان له. فهو متنبه له، وغافل عن الجوارح الأخرى وخصوصاً السمع والبصر.

فإن قيل : فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة اليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده. فتكون عليه لا له.

فان قيل : فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لايلزم ذلك . فقد يكون الشيء مباحاً ، بل واجباً ، ووسيلته مكروهة ـــ كالوفاء بالطاعة المنذورة ـــ هو واجب ، مع أن وسيلته ـــ وهو النذر ـــ مكروه منهي عنه . وكذلك الحلف المكروه مرجوح ، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه ، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. وهذا كثير جداً . فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولامكروه.

• عبودية الجوارح

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً. إذ الحواس خمسة . وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع : وجوب الإنصات ، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الاسلام والايمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة اذا جهر الامام بها، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة: من ردّه، أو

الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الايمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك .

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة ، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها . ولايجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت ، وهو لايريد استماعه ، إلا اذا خاف السكون إليه والإنصات . فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوبَ سد الذرائع.

ونظير هذا : نظرة الفجاءة لاتحرم على الناظر ، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم ، وقراءة القرآن، وذكر الله ، واستماع كل مايحبه الله ، وليس بفرض.

والمكروه : عكسه . وهو استماع كل مايكره ولايعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الاجنبيات لشهوة مطلقاً ، وبغيرها إلا لحاجة ، كنظر الخاطب ، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته، وذلك أوجب الواجبات. فإنه قد ورد الأمر المشدد به في القرآن كثيراً جداً ، وجاء التوعد الشديد لمن عمي وغفل عن آيات الله الكونية . فإن العمى عنها مؤد ولابد الى التكذيب بآيات الله في الأنفس والآفاق، ومن المحال أن يكون إيمان بالله وكتابه ورسوله إلا ثمرة التفكر في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق.

والمكروه: فضول النظر الذي لامصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضول . وكم قاد فضولها الى فضول عزَّ التخلص منها، وأعيى دواؤها . وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لامضرة فيه في العاجل والآجل ولامنفعة.

ومن النظر الحرام: النظر الى العورات . وهي قسمان.

عورة وراء الثياب وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ، ففقأ عينه ، لم يكن عليه شيء،

ودهبت هَدَرا، بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفقأوا عينه» ورواه أبو داود، وفيه «ففقأوا عينه فقد هدرت».

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، ، أو ريبة هو مأمور ـــ أو مأذون له ـــ في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلا لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس. من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات ، دخل النار.

والذوق الحرام : كذوق الخمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، ودوق طعام الفجاءة. وهو الطعام الذي تفجأ آكله. ولم يُرد أن يدعوك إليه ، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها. وفي السنن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «نهى عن طعام المتبارين» ودوق طعام من يطعمك حياء منك لابطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل مايعينك على طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه . والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، فينال منه غرضه . والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أوالمستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والدوق المباح: مالم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشَّم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل او لامضرة فيه؟ اويميز به بين مايملك الانتفاع به، وما لايملك؟ ومن هذا شم المقوِّم، وربُّ الخِبْرة، عند الحكم بالتقويم ، ونحو دلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم مايعينك على طاعة الله، و يقوى الحواس، و يبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا : هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك.

ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم «من عُرض عليه ريحان فلا يرده. فإنه طيب الريح، خفيف المحمل».

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: مالاحتم فيه من الله ولا تبِعة، ولافيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها.

والحرام: لمس مالا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة. وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام، إذا لم يأمن على نفسه، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هي عورة.

والمباح: مالم يكن فيه مفسدة ولامصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضاً مُرَتَّبة على البطش باليد، والمشي بالرجل. وأمثلتها لاتخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف. والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك. والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمي الجمار.

والحرام: كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لايحل ضربه، ونحو ذلك وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ماهو أشد تحريماً منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخا، إلا مقروناً بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة مافيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيما إن كسبت عليه مالا (۲:۷۹ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وكذلك كتابة المفتي على الفتوى مايخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة مالا فائدة في كتابته، ولامنفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل مافيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعاً، أو يصنع لأخرق، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك. ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: مالا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب . والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي اليه، والمشي الى صلة رحمه، و بر والديه، والمشي الى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي الى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي الى معصية الله ، وهو من رَجْل الشيطان. قال تعالى (١٧ : ٦٤ وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك) قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند ابليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً.

فواجبه: في الركوب في الغزو والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك ، ولطلب العلم، وصلة الرحم، و بر الوالدين. وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة : من تعليم للمناسك ، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء . ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه : الركوب في معصية الله عزّ وجل.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ماتركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ، ولاتحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب ، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة.

مصطلحات وأساليب

وقد اكثرَ الناسُ القولَ في صفة منازل «إياك نعبد» التي ينتقل فيها القلب منزلةً منزلة في حال سيره الى الله تعالى ، واكثروا في عدّها ، فمنهم مَن جعَلها الفاً ، ومنهم مَن جعلها مائة ، ومنهم من زاد ونقص ، فكلٌ وصَفَها بحسب سيره وسلوكه.

ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها، وكلٌّ يصف منازل سيره، وحال سلوكه. ولهم اختلاف في بعض منازل السير: هل هي من قسم الأحوال؟ والفرق بينهما: أن المقامات كسبية. والأحوال وهبية . ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات. والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاما، وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالا.

والصحيح في هذا : أن الواردات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع و بوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوّها، كما يلمع البارق و يلوح عن بعد، فإذا نازَلَته و باشرها فهي أحوال ، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات. وهي لوامع ولوائح في أولها ، وأحوال في أوسطها، ومقامات في نهاياتها. فالذي كان بارقا هو بعينه الحال. والذي كان حالا هو بعينه المقام . وهذه الاسماء له باعتبار تعلقه بالقلب ، وظهوره له ، وثباته فيه.

فالحال ثمرة العلم ولايصفو حال إلا بصفاء العلم المثمر له.

وعلى هذا ، فان الحال هو تكيّف القلب وانصباغه بحكم الواردات ، فهو يدعو صاحبه الى المقام الذي جاء منه الوارد، كما تدعوه رائحة البستان الطيبة الى دخوله والمقام فيه.

وهذا لأن الرجل قد يكون عالما بالشيء ولايكون متصفاً بالتحلق به واستعماله . فالعلم شيء والحال شيء آخر . فعلم العشق ، والصحة ، والشكر ، والعافية غير حصولها والاتصاف بها. فإذا غلب عليه حال تلك المعلومات صار عِلمه بها كالمغفول عنه. وليس بمغفول عنه . بل صار الحكم للحال.

فان العبد يعرف الخوف من حيث العلم. ولكن إذا اتصف بالخوف ، و باشر الخوف قلبه : غلب عليه حال الخوف والانزعاج ، واستغرق علمه في حاله. فلم يذكر علمه لغلبة حاله عليه.

ومَنْ هذه حالهُ فقد ظفر بالاستقامة. لأن العلوم إذا أثمرت الأحوال : كانت عنها الاستقامة في الأعمال . ووقوعها على وجه الصواب . وتحقق صاحبها في الإشارة الى ماوجده من الأحوال. ولم تكن إشارته عن تخمين وظن وحسبان. واستحق اسم النسبة ــ في صحة العبودية ــ الى الرحمن عز وجل . لقوله (١٥:٤٢ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقوله (٢٥:٦٣ ــ ٧٦ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنا ــ الآيات) وقوله (٧٦:٦

عينا يشرب بها عباد الله) وقوله (٤٣: ٦٨ ياعبادي لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون).

والمقصود : أن هذا قد انتقل من أحكام العمل وحده الى أحكام العمل بالحال المصاحب للعلم . فهو عامل بالمواجيد الحالية، المصحوبة بالعلوم النبوية . فان انفراد العلم عن الحال تعطيل و بطالة ، وانفراد الحال عن العلم: كفر وإلحاد. والأكمل: ان لايغيب عن شهود العلم بالحال ، وإن استغرقه الحال عن شهود العلم ، مع قيامه بأحكامه : لم يضره.

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب، و ينزل إلى ما دونه. ثم قد يعود اليه، وقد لايعود.

ومن المقامات : مايكون جامعاً لمقامين.

ومنها مايكون جامعاً لأكثر من ذلك.

ومنها ماينىدرج فيه جميع المقامات . فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لايتصور وجودها بدونهما .

و «التوكل» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا . لايتصور وجوده بدونهما.

و «الرجاء» جامع لمقام الخوف والإرادة.

و «الخوف» جامع لمقام الرجاء والارادة.

«والانابة» جامعة لمقام المحبة والخشية . لايكون العبد منيباً إلا باجتماعهما .

و «الإخبات» له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع. لايكمل أحدها بدون الآخر إخباتاً.

و «الزهد» جامع لمقام الرغبة والرهبة . لايكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعه ، و يرهب مما يخاف ضرره.

ومقام «المحبة» جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة . فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة . وبها تحققها.

ومقام «الخشية» جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته. فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى (٣٥: ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء) فالعلماء به و بأمره هم أهل خشيته . قال النبي صلى الله عليه وسلم «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» .

ومقام «الهيبة» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام «الشكر» جامع لجميع مقامات الايمان . ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق

«الرضا» وهو يتضمن «الصبر» من غير عكس . و يتضمن «التوكل» و «الانابة» و «الحب» و «الاخبات» و «الخشوع» و «الرجاء» فجميع المقامات مندرجة فيه. لايستحق صاحبه اسمه على الاطلاق الا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر. فرجع الايمان كله شكراً . والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾ ١٣:٣٤ .

ومقام «الحياء» جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام «الأنس» جامع لمقام الحب مع القرب . فلو كان المحب بعيداً من محبوبه لم يأنس به. ولو كان قريباً من رجل ولم يحبه لم يأنس به، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم . فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية . فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل، والتفويض والرضا والتسليم. فهومعنى ملتئم من هذه الأمور. إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة. ومانقص منها نقص من الطمأنينة.

وكذلك «الرغبة» و «الرهبة» كل منهما ملتئم من «الرجاء» و «الخوف» والرجاء على الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون. فالأبرار في أذياله، والمقربون في ذروة سنامه. وهكذا مراتب الايمان جيعها . وكل من النوعين لايحصى تفاوتهم، وتفاضل درجاتهم إلا الله.

و «المريد» في الاصطلاح : هو الذي قد شرع في السير الى الله. وهو فوق العابد، ودون الواصل. وهذا اصطلاح بحسب حال السالكين. وإلا فالعابد مريد ، والسالك مريد، والواصل مريد. فالإرادة لا تفارق العبد مادام تحت حكم العبودية.

و «العارف» فوق السالك. ولايفارقه السلوك ، لكنه مع السلوك قد ظفر بالمعرفة . فأخذ منها اسما أخص من اسم السالك . وهكذا الشأن في سائر المقامات والأحوال . فإنها لا تفارق من ترقى فيها. ولكن إذا ترقى في مقام أخذ اسمه ، وكان أحق به مع ثبوت الأول له.

والمتكلمون في هذا الشأن يُرجحون «المعرفة» على «العلم» جداً . وكثير منهم لايرفع بالعلم رأساً . و يعده قاطعاً وحجاباً دون المعرفة. وأهل الاستقامة منهم : أشد الناس وصية للمريدين بالعلم . وعندهم: أنه لايكون ولى الله كامل الولاية من غير أولى العلم أبداً . فما اتخذ الله ولا يتخذ ولياً جاهلا. والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص . والعلم أصل كل خير وهدى وكمال.

والفرق بين «العلم» و«المعرفة» عند اهل الاستقامة من المتكلمين في هذا الشأن : ان «المعرفة» عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه . فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لايصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله، وبالطريق الموصل الى الله، وبآفاتها وقواطعها. وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة . فالعارف ـــ عندهم ـــ من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله. ثم صدق الله في معاملته . ثم اخلص له في قصوده ونياته. ثم انسلخ من اخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من اوساخه وادرانه ومخلفاته، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته. ثم دعا اليه على بصيرة بدينه وآياته . ثم جرد الدعوة اليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يَشُبها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم . ولم يزن بها ماجاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته . فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة ، إذا سمى به غيره على الدعوى والاستعارة.

وحقيقة الفرق بين العلم والمعرفة من وجوه:

أحدها : ان «المعرفة» تتعلق بذات الشيء، و «العلم» يتعلق بأحواله. فتقول: عرفت أباك، وعلمته صالحاً عالماً . ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة. كقوله تعالى (١٧:٤٧ **فاعلم أنه لا إله إلا الله**) وقوله (٥:٩٨ **اعلموا أن الله شديد العقاب**) وقوله (١١:١٤ **فاعلموا أنما أنزل بعلم الله**).

فالمعرفة: حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس . والعلم : حضور أحواله وصفاته ، ونسبتها اليه . فالمعرفة : تشبه التصور . والعلم : يشبه التصديق .

الثاني : ان «المعرفة» ـــ في الغالب ـــ تكون لما غاب عن القلب بعد ادراكه. فإذا ادركه قيل : عرفه ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها، قيل : عرفه، قال الله تعالى (١٠:٤٥ **ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم**) وقال تعالى (١٢:٥٨ **وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه . فعرفهم وهم له منكرون**) وقال (٦:٢٠ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**) لما كانت صفاته معلومة عندهم، فرأوه: عرفوه بتلك الصفات. وفي الحديث الصحيح «**إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولا: أتعرف الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم. فيقول: تمنَّ. فيتمنى على ربه**» وقال تعالى (٢:٨٩ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به**) فالمعرفة : تشبه الذكر للشيء. وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر. ولهذا كان ضد المعرفة: الإنكار. وضد العلم : الجهل. قال تعالى (١٦:٨٣ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها**) و يقال : عرف الحق فأقر به. وعرفه فأنكره.

وقد وقع في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم» فلفظ «المعرفة» كقوله (مما عرفوا من الحق) وقوله (٢:١٤٦و٦:٢٠ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم).

وأما لفظ «العلم» فهو أوسع إطلاقاً. كقوله (٤٧:١٩ فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (٣:١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو ــ الآية) وقوله (٦:١١٤ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقوله (٢٠:١١٤ وقل رب زدني علماً) وقوله (١٣:٢١ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟) وقوله (٣٩:٩ قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون؟) وقوله (٣٠:٥٦ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان، لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث) وقوله (٢٨:٨٠ وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) وقوله (٢٩:٤٣ وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون) وقوله (٢٧:٤٠ قال الذي عنده علم من الكتاب) وقوله (٥٧:١٧ اعلموا أن الله يحيي الارض بعد موتها) وقوله (٥٧:٢٠ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) وقوله (٢:٢٢٣ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) وقوله (١١:١٤ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) وهذا كثير.

واختار سبحانه لنفسه اسم «العلم» وماتصرف منه. فوصف نفسه بأنه عالم، وعليم، وعلام، وعَلِمَ، ويعلم. وأخبر أن له علماً، دون لفظ «المعرفة» في القرآن. ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه، ومن هاهنا تدرك ان هؤلاء القوم قد أخطأوا حين رجحوا اصطلاح «المعرفة» واكثروا الدندنة حوله، وانما جاريناهم في ذلك خروجاً من الخلاف، وحرصاً على المعاني المباركة الصائبة الكثيرة التي وصفوا بها العارفين.

وإنما جاء لفظ «المعرفة» في القرآن في مؤمني أهل الكتاب خاصة. كقوله (٥:٨٥ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون ــ إلى قوله ــ مما عرفوا من الحق) وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم).

والسالكون ضربان ايضاً من باب آخر: سالكون على الحال، ملتفتون الى العلم. وسالكون على العلم، ملتفتون الى الحال، حتى كأنهما غيران وحزبان، وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرى، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه.

وهذا من تقصير الفريقين، حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم. وضعف الآخر عن الحال في العلم. فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم. فأخذ هؤلاء العلم، وبهجته ونوره. ورجحوه. وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه. ورجحوه. وصار الصادق الضعيف من الفريقين: يسير بأحدهما ملتفتاً الى الآخر.

فهذا مطيع للحال. وهذا مطيع للعلم. لكن المطيع للحال متى عصى به العلم: كان منقطعاً

محجوباً ، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون. والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيما منقوصاً ، مشتغلا بالوسيلة عن الغاية.

وصاحب التمكين : يتصرف علمه في حاله. ويحكم عليه فينقاد لحكمه، و يتصرف حاله في علمه . فلا يدعه أن يقف معه. بل يدعوه الى غاية العلم . فيجيبه و يلبي دعوته . فهذه حال الكمل من هذه الأمة . ومن استقرأ أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك.

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم : دخل عليهم النقص والخلل. والله المستعان (٤٢: ٤٩، ٥٠ **يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور. أويزوجهم ذكراناً وإناثاً. ويجعل من يشاء عقيما. إنه عليم قدير**) فكذلك يهب لمن يشاء علماً . ولمن يشاء حالا . ويجمع بينهما لمن يشاء . ويخلي منهما من يشاء.

واعلم أن الترتيب الذي يشير اليه كل مرتِّب للمنازل لايخلوعن تحكم، ودعوى من غير مطابقة. فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام، ودخل فيه كله. فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة، ومقاماته وأحواله. وله في كل عقد من عقوده و واجب من واجباته أحوال ومقامات . لايكون موفيا لذلك العقد والواجب إلا بها. وكلما وفّى واجبا اشرف على واجب آخر بعده. وكلما قطع منزلة استقبل اخرى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في اول بداية سيره . فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة مالم يحصل بعد لسالك في نهايته. ويحتاج هذا السالك في نهايته الى أمور ــ من البصيرة ، والتوبة ، والمحاسبة ــ أعظم من حاجة صاحب البداية إليها . فليس في ذلك ترتيب كلي لازم للسلوك.

بل أن التوبة ــ التي جعلوها من أول المقامات ــ هي غاية العارفين ، ونهاية أولياء الله المقربين . ولاريب أن حاجتهم الى المحاسبة في نهايتهم، فوق حاجتهم إليها في بدايتهم.

واعلم ايضاً ان السائر الى الله لاينقطع سيره اليه مادام في قيد الحياة . ولا يصل العبد مادام حيًّا الى الله وصولا يستغني به عن السير اليه ألبتة وهذا عين المحال . بل يشتد سيره الى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده ، وأسمائه وصفاته . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بالأعمال، ومحافظة عليها الى أن توفاه الله. وهو أعظم ما كان اجتهادا وقياما بوظائف العبودية. فلو أتى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير الى الله. وكان بعدُ في طريق الطلب والارادة .

وعلى هذا فان تقسيم السائرين الى الله الى طالب، وسائر، و واصل. او الى مريد، يريد الله، ومراد ، اعلى منه، يريده الله ويجذبه اليه: تقسيم فيه مساهلة، لا تقسيماً حقيقيا، فان الطلب والسلوك والارادة لو فارق العبد: لانقطع عن الله بالكُلّيّة.

وحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، عن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضا: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفَيْنة بعد الفَيْنة، وتذكر حلاوة مواقعته. فربما تنفس. وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أعطي منشوراً بالأمان. فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرار الغفلة، وأنْ لايستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات.

منها: أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان عليه قبلها.

ومنها: أنه لايزال الخوف مصاحباً له لايأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه (٤١: ٣٠ **أن لاتخافوا ولاتحزنوا. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**) فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفا. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى (٩: ١١٠ **لايزال بُنيانُهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم، إلا أن تَقطّعَ قلوبُهم**) قال: تقطعها بالتوبة. ولاريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة. لأنه يتقطع قلبه حسرة على مافرط منه، وخوفا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفا، تقطع في الآخرة إذا حقّت الحقائق. وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين. فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لايشبهها شيء. ولا تكون لغير المذنب. لاتحصل بجوع، ولاحب مجرد. وإنما هي أمرٌ وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلا خاشعاً.

فليس شيء احب الى الله من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فلله ما أحلى قوله في هذه الحال «**أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني. أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير. وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا اليك. أسألك مسألة المسكين. وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورَغِمَ لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلّ لك قلبه**».

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق شيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة . ولاحول ولاقوة إلا بالله.

● قَدَر... وخِيار

واما الغيرة لله تعالى عند مخالفة الناس لاوامره وعدم الاعتدار عنهم بالقدر فلأن الله عر وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر. فلا أحد أحب اليه العذر من الله. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، إزالة لأعذار خلقه. لئلا يكون لهم عليه حجة.

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه، ولله الحجة البالغة.

والثابت : انه لاعذر لأحد ألبتة في معصية الله، ومخالفة أمره . مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل والترك. ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم. لافي الدنيا ولا في العقبى، ومن ادّعى ان ذنبه كان قدراً مقدورا عليه لم يستطع دفعه فهوظالم جاهل، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها ، وانها اول بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء . و «١٠٠: ٦ إن الإنسان لربه لكَنود». قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «كفورٌ جحودٌ لنعم الله» وقال الحسن «هو الذي يَعُد المصائب . و ينسى النعم» وقال ابوعبيدة «هوقليل الخير» والأرض «الكنود» التي لاتُنبت بها وقيل: التى لا تنبت شيئا من المنافع، وقال الفضل بن عباس «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

ولولا جهله لعلم أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر في طريق الماء الذي به حياته . وهو السُّكْر الذي قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، و يستغيث مع ذلك: العطشَ العطشَ، وقد وقف في طريق الماء. ومنع وصوله إليه. فهو حجاب قلبه عن سر غيبه. وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب. فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

ماتبلغ الأعداء من جاهل ... مايبلغ الجاهل من نفسه

تَبّاً له ظالما في صورة مظلوم، وشاكياً والجناية منه. قد جد في الإعراض وهو ينادي: طردوني وأبعدوني.

يأخذ الشفيق بحجرته عن النار. وهو يجاذبه ثوبه و يغلبه و يقتحمها، و يستغيث: ما



● انتفاضة اليقظة

فأول منازل العبودية «اليقظة» وهى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رَقْدة الغافلين . ولله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة فإذا انتبه شَمَّر لله بهمته إلى السفر الى منازله الأولى ، وأوطانه التى سُبى منها.

واعلم أن العبد قبل وصول الداعى إليه في نوم الغفلة ، قلبُه نائمٌ وَطَرْفه يقظان. فصاحَ به الناصح. وأسمعه داعى النجاح. وأذن به مؤذن الرحمن: حَيَّ على الفلاح.

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم . وقد ذكرنا : أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

وكأنها هي القومة لله المذكورة في قوله (٣٤:٤٦ قُلْ: إِنَّمَا أعظكم بواحدة. أن تقوموا لله مَثْنى وفُرَادَى).

فالقومة لله هي اليقظة من سِنَة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهى أول مايستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وأول انوارها: لَحْظ القلب الى النعمة ، على اليأس من عَدِّها، والوقوف على حدها، والتفرغ الى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها.

وهذا هو موجب اليقظة وأثرها . فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه. أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلما حَدَّق قلبُه وطرفه فيها، شاهد عظمتها وكثرتها. فيئس من عدها، والوقوف على حدها. وَفَرَّغ قلبه لمشاهدة مِنَّة الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن . فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها. وهو القيام بشكرها.

فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية : محبة المنعم. واللهج بذكره وتذكر الله وخضوعه له، وإزراءه على نفسه. حيث عجز عن شكر نعمه . فصار متحققاً بـ«أبوء لك بنعمتك عليَّ. وأبوء بذنبى فاغفرلي إنه لايغفر الذنوب إلا أنت» وعلم حينئذ ان

هـذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضـه لـعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. وعلم أن العبد دائماً سائر إلى الله بين مطالعة المنة ، ومشاهدة التقصير.

وهـذا اللـحـظ يـؤدي بـه الى مـطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها، والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها.

فـيـنـظـر الى ماسـلـف مـنـه من الإساءة . و يعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخـذة صاحب الحق بموجب حقه. وقد ذَمَّ الله تعالى في كتابه مَنْ نسي ما تُقَدِّمُ يداه. فـقـال (١٨: ٥٧ **ومن أظلم ممن ذُكِّرَ بآيات ربه فأعرض عنها وَنَسِيَ ماقَدَّمت يداه**) فإذا طالع جنايته شمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل. وتخلصَ مِنْ رقِّ الجناية بالاستغفار والندم. وطلـب الـتمحيص . وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خَبَث الجناية. كتمحيص الذهب والفضة، وهـو تخليصهما من خبثهما. ولايمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لايدخلها إلا طيب. ولهذا تقول لهم الملائكة (٣٩: ٧٣ **سلام عليكم طِبْتُمْ فادخلوها خالدين**) وقال تـعالى (١٦: ٣٢ **الذين تَتوفاهُمُ الملائكةُ طيبين يقولون: سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة**) فليس في الجنة ذَرَّة خبث.

وهـذا الـتمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء : بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحيـة ، والمـصـائـب المـكـفـرة . فـإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائـكـة طيبين. يـشـرونهم بالجنة وكان من الذين (٤١: ٣٠ ــ ٣٢ **تتنزل عليهم الملائكة**) عـنـد المـوت (**أن لاتخافو ولاتحزنوا. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ماتَشْتهي أنفسكم ولكم فيها ماتَدَّعُونَ. نُزُلاً من غفور رحيم**).

وإن لـم تَـف هـذه الأربـعـة بـتـمـحـيـصـه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً ــ وهي العامة الشاملة الصادقة ــ ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً ــ وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه ــ وهـذا هـو الاسـتـغفار النافع، لا استغفار من في يده قدح السكر. وهو يقول: أستغفر الله ، ثم يرفعه الى فيه . ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب . وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف المحص، وإما لهما ــ : مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الايمان الجنازة عليه، واستغفارهم له ، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر ، وروعة الفتان ، والعَصْرة والانتهار ، وتوابع ذلك.

الشـالـث: مايُهدى إخوانه المسلمون اليه من هدايا الأعمال ، من الصدقة عنه، والحج ، والصـيام عنه ، وقراءة القرآن عنه، والصلاة . وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس على وصول

الصدقة والدعاء . قال الإمام أحمد: لايختلفون في ذلك. وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه الإنفاق، وأحمد ومن وافقه: مذهبُهم في ذلك أوسع المذاهب. يقولون : يصل إليه ثواب جميع القرب. بَدَنِيّها وماليها.

فإن لم تف هذه بالتمحيص. مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة. وشدة الموقف. وشفاعة الشفعاء. وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكِيْر، رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص ، ويتطهر في النار. فتكون النار طُهرة له وتمحيصاً لخبثه. ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه . فإذا خرج خبثه وصُفِّي ذهبه. وصار خالصاً طيباً، أخرج من النار ، وأدخل الجنة.

ثم إن من اعلى مراتب اليقظة : الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتنصل من تضييعها، والنظر الى الظن بها لتدارك فائتها، وتعمير باقيها.

فيعرف مامعه من الزيادة والنقصان . فيتدارك مافاته في بقية عمره التى لا ثمن لها، ويبخل بساعاته — بل بأنفاسه — عن ذهابها ضياعا في غير ما يُقَرِّب الى الله . فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس ، مع تفاوتهم في قدره، قلة وكثرة. فكل نَفَس يخرج في غير مايقرب الى الله فهو حسرة على العبد في معاده، ووقفة له في طريق سيره، أو نكسة إن استمر ، أو حجاب إن انقطع به.

فأما معرفة النعمة: فإنها تصفو بثلاثة أشياء : بنور العقل ، وشَيْم بروق المِنَّة، والاعتبار بأهل البلاء.

فهي النور الذي أوجب اليقظة ، فاستنار القلب به لرؤية التنبه . وعلى حسبه — قوة وضعفاً — تصفو له مشاهدة النعمة . فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه ، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس . فليس له نصيب من هذا النور ألبتة . فنعمة الله بالإسلام والإيمان ، وجذب عبده إلى الإقبال عليه ، والتنعم بذكره ، والتلذذ بطاعته : هو أعظم النعم . وهذا إنما يدرك بنور العقل ، وهداية التوفيق.

وكذلك شَيمُ بروق من الله عليه . وهو النظر اليها ، ومطالعتها من خلال سُحُب الطبع ، وظلمات النفس . والنظر الى أهل البلاء — وهم أهل الغفلة عن الله، والابتداع في دين الله — فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقاً . فإذا رآهم ، وعلم ماهم عليه ، عظمت نعمة الله عليه في قلبه ، وصحت له وعرف قدرها ؛ فالضد يُظْهر حسنه الضد ؛ وبضدها تتميز الأشياء ؛

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة : رؤية أهل النار وماهم فيه من العذاب .

وأما مطالعة الجناية: فإنها تصح بثلاثة أشياء : بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق

الوعيد.

فمن كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته.لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها ، وفقرها الذاتي الى مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس، وشدة حاجتها إليه ، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة اليه في كل لحظة ونفس.

وأيضاً فإذا عرف حقارتها ــ مع عظم قدر من خالفه ــ عظمت الجناية عنده . فشمر في التخلص منها . وبحسب تصديقه بالوعيد و يقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة ، وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد . فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابا لايرجى معه فلاح ألبتة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنُّذُر لمن صدق بالوعيد. وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار ، والمنتفعون بالآيات، دون من عداهم. قال الله تعالى (١١:١٠٣ **إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**) وقال (٧٩:٤٥ **إنما أنت منذر من يخشاها**) وقال (٥٠:٤٥ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد**) وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد ، الخائفون منه. فقال تعالى (١٣:١٤ **ولَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد**).

وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام: فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: سماع العلم، وإجابة داعي الحرمة ، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات.

ذلك ان السالك : على حسب علمه بمراتب الأعمال ، ونفائس الكسب. تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه. وكذلك تَفَقُّد إجابة داعي تعظيم حرمات الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطيء عنها؟ فبحسب إجابة الداعي ــ سرعة وإبطاء ــ تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم ، المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى، يعرف به مامعه من الزيادة والنقصان.

والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض. وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفارُ الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع ، وعن فلاحه وفوزه ممنوع (٩:٤٦ **ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدَّة. ولكن كره الله انبعاثهم . فثبَّطهم . وقيل : اقعدوا مع القاعدين**).

• منزلة الفكرة

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة . وهي ـــ كما تقدم ـــ تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له.

والفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي. والتي تعلق بالطلب والارادة: هي الفكرة التي تميز بين النافع والضار.

ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق الى حصول ماينفع ، فيسلكها ، والطريق الى مايضر فيتركها.

فهذه ستة أقسام . لاسابع لها ، هي مجال أفكار العقلاء.

وأصلها : الفكرة في التوحيد : وهي استحضار أدلته ، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين ، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين. فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنين، والتوكل على اثنين. بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق، والرب الحق . وهو الله الواحد القهار.

وهذه الفكرة هي حقيقة البراء والولاء . البراء من عبادة غير الله، والولاء لله، كما قال تعالى (٦٠:٤ قد كانت لكم أسْوَة حَسَنة في ابراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم: إنا بُرءآءمنكم ومما تَعْبدُون من دون الله كفرنا بكم. وبَدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال (٤٣:٢٦،٢٧ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إنني بَراء مما تعبدون * إلا الذي فَطَرني ، فإنه سيهدين) وقال ايضاً (٦:٧٨،٧٩ ياقوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما) وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون إلى آخرها. وهـــذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك.

وهي حقيقة المحو والإثبات. فيمحومحبة ماسوى الله عز وجل من قلبه، علماً وقصداً وعبادة، كما هي مَمْحوّة من الوجود . و يثبت فيه إلهيته سبحانه وحده.

وهي حقيقة الجمع والفرق. فيفرق بين الإله الحق و بين من ادُّعِيَتْ له الإلهية بالباطل . ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته على إلهه الحق الذي لا إله سواه.

وهي حقيقة التجريد والتفريد . فيتجرد عن عبادة ماسواه ، و يفرده وحده بالعبادة فالتجريد نفي ، والتفريد إثبات . ومجموعهما هو التوحيد .

فهذا الولاء والبراء . والمحو والإثبات ، والجمع والتجريد . والتفرد المتعلق بتوحيد الإلهية : هو النافع المثمر . المنجي . الذي به تنال السعادة والفلاح.

● بصائر تهدي

فإذا صحت فكرته أوجبت له «البصيرة» ، فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد ، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأ وليائه، وفي هذه لأعدائه. فأبصر الناسَ وقد خرجوا من قبورهم مُهْطِعين لدعوة الحق ، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم ، ووُضِع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء . وقد نُصِب الميزان ، وتطايرت الصُّحُف. واجتمعت الخصوم. وتعَلّق كلٌ غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كَثَب. وكثر العِطاش وقل الوارد : ونُصِب الجسر للعُبور، ولُزّ الناس إليه . وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه . والنارُ يَحْطِم بعضها بعضاً تحته. والمتساقطون فيها أضعافُ أضعاف الناجين.

فينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك. و يقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها.

فـ «البصيرة» نور يقذفه الله في القلب ، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل. كأنه يشاهده رأى عين . فيتحقق ــ مع ذلك ــ انتفاعه بما دعت اليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم . وهذا معنى قول بعض العارفين «البصيرة: تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به» وقال بعضهم «البصيرة: ما خَلّصلك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان».

و «البصيرة» على ثلاث درجات . من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات ، و بصيرة في الأمر والنهي ، و بصيرة في الوعد والوعيد.

● المرتبة الاولى من البصيرة

فالبصيرة في الأسماء والصفات : أن لايتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه، و وصفه به رسوله. بل تكون الشُبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُبه والشكوك في وجود الله. فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر .

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستو يا على عرشه ، متكلماً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم علو يه وسُفْليّه، وأشخاصه وذواته ، سميعاً لأصواتهم، رقيبا على ضمائرهم وأسرارهم ، وأمرُ الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد اليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك. موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتا بنعوت الجلال، منزها عن العيوب والنقائص والمثال. فهو كما وصف نفسه في كتابه ، وفوق ما يصفه به خلقه . حي لايموت . قيوم لاينام . عليم لايخفى عليه مثقال درة في السموات ولا في الارض. بصير يرى

دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. تمت كلماته صدقًا وعدلا، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلا. وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلا. ووسعت الخليقة أفعاله عدلا. وحكمة ورحمة وإحسانا وفضلا. له الخلق والأمر. وله النعمة والفضل. وله الملك والحمد. وله الثناء والمجد. أولٌ ليس قبله شيء. وآخر ليس بعده شيء. ظاهر ليس فوقه شيء. باطن ليس دونه شيء. أسماؤه كلها أسماء مَدْح وحمد وثناء وتمجيد. ولذلك كانت حسنى. وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل. كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه. لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، ولا ترك الإنسان سُدى عاطلا. بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نِعَمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته. تعرّف إلى عباده بأنواع التعريفات. وصرّف لهم الآيات. ونوّع لهم الدلالات. ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب. ومدّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب. فأتمّ عليهم نعمه السابغة. وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة. وضمَّن الكتاب الذي كتبه: أن رحمته تغلب غضبه.

وتفاوتُ الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم. وإذا تأملت حال العامة — الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم — رأيتهم أتم بصيرة منهم، وأقوى إيماناً، وأعظم تسليما للوحي، وانقياداً للحق.

● المرتبة الثانية من البصيرة

البصيرة في الأمر والنهي. وهي تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوى. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العماء من غيرهم.

● المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد

وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلا وآجلا، في دار

العمل ودار الجزاء ، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته ، وعدله وحكمته . فإن الشك في ذلك شك في الهيته وربوبيته . بل شك في وجوده . فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك. ولايليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملا، وتركها سدى. تعالى الله عن هذا الحسبان علواً كبيراً.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية. ولهذا كان الصحيح: أن المعاد معلوم بالعقل. وإنما اهتُدِي إلى تفاصيله بالوحي. ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه. لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته. وكلاهما مستلزم للكفر به؛ قال تعالى (١٣:٥ **وإن تعجب ! فعجب قولهم: أئذا كُنّا تراباً أئنّا لفي خَلْقٍ جديد؟ أولئك الذين كفروا بربهم. وأولئك الأغلال في أعناقهم. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)**.

وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم «**أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد**» فعجب قولهم! كيف ينكرون هذا. وقد خُلقوا من تراب ولم يكونوا شيئا.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لاشريك له. فانكارهم للبعث، وقولهم «**أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد**» أعجب.

وعلى التقديرين : فانكار المعاد عجب من الإنسان . وهو محض إنكار الرب والكفر به ، والجحد لإلهيته . وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

ولصاحب كتاب منازل السائرين الذي نشرحه، شيخ الاسلام الهروي، في «البصيرة» طريقة اخرى، اذ جَعَل : «البصيرة مايخلصك من الحيرة» ، وجعل الدرجة الاولى منها: ان تعلم ان خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من حقِّه ان تؤديه يقيناً ، وتغضب له غَيرةً**».

ومعنى كلامه: أن ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم صادر عن حقيقة صادقة ، لايخاف متبعها فيما بعدُ مكروهاً . بل يكون آمناً من عاقبة اتباعها. إذ هي حق. ومتبع الحق لاخوف عليه. ومن حق ذلك الخبر عليك: أن تؤدي ما أُمرت به منه من غير شك ولاشكوى ، والأحوط بك والذي لا تبرأ ذمتك إلا به تناول الامر بامتثال صادر عن تصديق محقق، لايصحبه شك، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حقه ، و يهمل جانبه.

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الاسلام من تمام «البصيرة» لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع ، والغضب على من أضاعه. فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه. وذلك عين البصيرة . فكما أن الشك القادح في كمال الامتثال مُعمٍ لعين البصيرة، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله ــ إذا ضُيعت، ومحارمه إذا انْتُهكتْ ــ معم لعين البصيرة.

ثم جعل الدرجة الثانية: أن تشهد في هداية الله للناس وإضلاله لهم: إصابة العدل، وتعاين في جذبه إياك من نفسك الامارة بالسوء: حبل الوصل.

يريد — رحمه الله — بشهود العدل في هدايته من هداه، وفي إضلاله من أضلّه: أمرين.

أحدهما: تفرده بالخلق. والهدى والضلال.

والثاني: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل، لا بالاتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة قتضت هدى من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده. فالله أعلم حيث يجعل رسالاته، أصلا وميراثا. قال تعالى (٦:٥٣ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟) وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ماعدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لايليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

ولايبقى إلا أن يقال: فلم خلق من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مفرط في الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الاضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم.

اما قوله الآخر فيريد به أن تعاين في توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك نه يريد تقريبك منه. فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصل. وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متمسكا بحبه — الذي هو عهده ووصيته الى عباده — على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر، وبذل النصيحة في العبودية. وهذا كله من تمام البصيرة التي تؤدي الى درجة ثالثة منها رآها الهروي تُفَجّر المعرفة، وتُثبت الفراسة.

وصدق — رحمه الله — فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف، التي لاتنال بكسب ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه.

● الفراسة ثمرة البصيرة

فالبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب . يفرق به

بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب. قال الله تعالى (**١٥: ٧٥ إن في ذلك لآيات للمتوسمين**) قال مجاهد: للمتفرسين. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «**اتقوا فراسة المؤمن . فإنه ينظر بنور الله عز وجل**» ثم قرأ (**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**).

و «التوسُّم» تفعل من السيما. وهي العلامة . فسمي المتفرس متوسماً . لأنه يستدل بما يشهد على ماغاب. فيستدل بالعيان على الإيمان . ولهذا خَصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء. لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل ، من الأمر والنهي ، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء ، وآتاه من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ما عرف به حقائق الأشياء ومزاياها وصفاتها، ليشكرها بحسن الانتفاع بها، ووضعها في مواضعها الصالحة لها بأصل الخلق والفطرة لأنها إنما خلقت وسخرت له، وبنوه هم نسخته وخلفاؤه . فكل قلب فهو قابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة. وبعث الله رسله مذكّرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان. فيضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد. فيصير نوراً على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم، بزيادة مادته ودوامها. ولايزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال . ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه في الغلاف والأكنّة. فأظلم، وعمي عن البصيرة. فحجبت عنه حقائق الإيمان. فيرى الحق باطلا، والباطل حقا، والرشد غيا، والغي رشدا. قال تعالى (**٨٣: ١٤ كلا، بل رَانَ على قلوبهم ماكانوا يكسبون**) و «الرين» و «الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة. ففراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره: متصلة بالله، ذلك ان همتهم لما تعلّقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته ، ودعوة الخلق إليه على بصيرة. كانت فراستهم متعلقة بنور الوحي مع نور الايمان. فميزت بين مايحبه الله ومايبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال. وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب. وعرفت مقادير استعداد السالكين الى الله. فحملت كل إنسان على قدر استعداده ، علماً وإرادة وعملا.

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعريفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

• قصدٌ يحثُ على الاقتحام

فإذا انتبه وأبصر أخذ في «القصد» وصدق الإرادة. وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله. وعلم وتيقن أنه لابد له منه. فأخذ في أهبة السفر، وتعبئة الزاد ليوم المعاد. والتجرد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج.

وقد رآه الشيخ الهروي:

«قصداً يبعث على الارتياض ، و يُخلّص من التردد، و يدعو إلى مجانبة الاغراض».

فهو يبعث على السلوك بلا توقف، ولا تردد، ولاعلة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو طلب محمدة، أو جاه ومنزلة عند الخلق، بحيث لايلقى سبباً يُعَوّق عن المقصود إلا قطعه، ولاحائلا دونه إلا مَنَعه ، ولا صعوبة إلا سَهّلها، فيجعل ديدنه الاستسلام لتهذيب العلم، واجابة داعي الحكم.

فهو ينقاد إلى العلم ليتهذب به و يصلح. و يقصد إجابة داعي الحكم الديني الأمري كلما دعاه. فإن للحكم في كل مسألة من مسائل العلم منادياً ينادي للإيمان بها علما وعملا. فيقصد إجابة داعيها.

أما الأسرار والحِكم الداعية إلى شرع الحكم. فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال. فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال ، والمعرفة والحمد. فالأمر يدعو إلى الامتثال. وما تضمنه من الحِكم. والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة.

• ابتداء العزم على الانتهاء

فإذا استحكم قصده صار «عزما» جازما، مستلزماً للشروع في السفر، مقروناً بالتوكل على الله. قال تعالى (٣:١٥٩ **فإذا عزمت فتوكل على الله**).

و «العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل . ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود، وأن التحقيق: أن الشروع في الحركة ناشىء عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظُنَّ أنه هو.

وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و «العزم» نوعان. أحدهما : عزم المريد على الدخول في الطريق . وهو من البدايات . والثاني: عزم في حال السير معه. وهو أخص من هذا . وهو من المقامات . وسنذكره في موضعه إن شاء الله.

وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما لَهُ مما عليه، ليستصحبَ ماله و يؤدي ماعليه. وهو «المحاسبة» وهي قبل «التوبة» في المرتبة. فإنه إذا عرف ماله وماعليه أخذ في أداء ماعليه، والخروج منه. وهو «التوبة».

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام، و يفارقه و ينتقل إلى الثاني. كمنازل السير الحسي. هذا محال . ألا ترى أن «اليقظة» معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك «البصيرة» و «الإرادة» و «العزم» وكذلك «التوبة» فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً. بل هي في كل مقام مُسْتَصحَبة. ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته. فقال تعالى في غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات (٩:١١٧ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسْرَة من بعد ما كاد يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم . ثم تاب عليهم. إنه بهم رؤوف رحيم) فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال في سورة أَجَل رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي آخر سورة أنزلت (إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا).

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة وإلا قال في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلي، يتأول القرآن» فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله. وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته. وما ينبغي له . قال تعالى (٣٣:٧٢، ٧٣ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يحملنها وأَشْفَقْنَ منها وحملها الإنسان. إنه كان ظلوماً جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، و يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيما) فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

وكذلك «الصبر» فإنه لاينفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك: أن «الرضا» مترتب على «الصبر» لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام «الرضا» بعد مقام «الصبر» لايعني به أنه يفارق الصبر و ينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لايحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن «القصد» و «العزم» متقدم على سائر المنازل، وعلمت بذلك أن «المحاسبة» متقدمة على «التوبة» بالرتبة أيضاً. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه. وهي حقيقة التوبة. وأن منزلة «التوكل» قبل منزلة «الانابة» لأنه يتوكل في حصولها. فالتوكل وسيلة . والإنابة غاية.

(٥) منزلة المحاسبة

ذكرنا «اليقظة» و «الفكرة» و «البصيرة» و «العزم» .

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالاساس للبنيان. وعليها مدار منازل السفر إلى الله. ولا يتصور السفر بدون نزولها ألبتة. وهي على ترتيب السير الحسي. فإن المقيم في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر. ثم يتبصر في أمر سفره وخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة. ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته. ثم يعزم عليه . فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهي «التمييز» بين ماله وماعليه. فيستصحب ماله . و يؤدي ما عليه. لأنه مسافر سَفَرَ من لايعود.

ومن منزلة «المحاسبة» يصح له نزول منزلة «التوبة» لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ماعليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه. وهي حقيقة «التوبة» فكان تقديم «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً. وهو أن «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين. محاسة قبلها، تقتضي وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى (٥٩ : ١٨ **يا أيها الذين آمنوا اتّقُوا الله، ولتنظُرْ نفسٌ ماقَدَّمت لغدٍ**) فأمر سبحانه العبد أن ينظر ماقدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ماقدمه أن يلقى الله به أو لايصلح؟.

والمقصود من هذا النظر: مايوجبه و يقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ماينجيه من عذاب الله ، و يبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه **(حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر» (٦٨ : ١٨ يومئذ تعرضون لا تَخْفَى منكم خافية)** أو قال **«على من لاتخفى عليه أعمالكم»**.

● ما غرّك بربك .... الكريم؟

و بداية المحاسبة ان تقايس بين نعمته عز وجل ، وجنايتك، فحينئذ يظهر لك التفاوت ، وتعلم انه ليس إلا عفوه ورحمته، او الهلاك والعَطَب.

و بهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. و يتبين لك حقيقة النفس وصفاتها ، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال. وأن كل نعمة منه فضل. وكل نقمة

منه عدل. وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها. فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص . وأن حَدَّها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها مازكَتْ أبدا. ولولا هداه ما اهتدت. ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة. وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها. وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده. فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود. فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود. فليس لها من ذاتها إلا العدم ــ عدم الذات ، وعدم الكمال ــ فهناك تقول حقا «أبُوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي».

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات. فتعلم بهذه المقايسة: أيهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة. وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

• آلات المقايسة

إلا ان هذه المقايسة تشق على من ليس له نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة، فهي تتوقف على نور الحكمة ، وهو النور الذي نوّر الله به قلوب اتباع الرسل، فبقدره ترى التفاوت ، وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة ههنا: هو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال. والضار والنافع. والكامل والناقص . والخير والشر .و يبصر به مراتب الأعمال ، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى ، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش. ويُلَبِّس عليه. فيرى المساوىء محاسن، والعيوب كمالا. فإن المحب يرى مساوىء محبوبه وعيوبه كذلك.

فعين الرضا عن كل عيب كَليلة كما أن عين السُّخْط تُبدى المساو يا

ولا يسيىء الظن بنفسه إلامن عرفها. ومن أحسنَ ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييز النعمة من الفتنة : فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، و يعانَ بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج ، فكم من مُسْتَدْرَج بالنعم وهو لايشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه! وأكثر الخلق عندهم : أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغهم من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ماكان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو

نعمة حقيقة. ومافرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمحنة في صورة المنحة. فليحذر إنما هو مستدرج. ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!.

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفكُّ عنهما، وذلك قول الله تعالى **(٣: ١٦٤ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم)** وقوله **(٤٩: ١٧ بل الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان)** وقوله **(٦: ١٤٩ فلله الحجة البالغة)**.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة. وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو منة من الله عليه. وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس ، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، و بذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة ، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبرة ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد. فهو منة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به، وإيثار مقتضاه ، من لذة النفس به وطمأنينتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر. ويميز بين مواقع المنن والمحن. والحجج والنعم. فما أكثر مايلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك **(٢: ٢١٣ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)**.

• لك .... وعليك !

فإذا توغلت في هذه المقايسات: فتحت المحاسبة لك باباً من التمييز بين ما عليك لله من وجوب العبودية والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين مالك . فالذي لك: هو المباح الشرعي، فعليك حق ، ولك حق، فأدّ ماعليك : يؤتك ما لَك.

ولابد من التمييز بين مالك وما عليك. وإعطاء كل ذي حق حقه.

وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله. فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لاحق أداه.

و بإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ماعليه فعله أو تركه.

فيتعبد بترك ماله فعله، كترك كثير من المباحات. و يظن ذلك حقاً عليه، كمن يتعبد بترك النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلا، أو الطيبات من المطاعم والملابس. و يرى ـــ لجهله ـــ أن ذلك مما عليه. فيوجب على نفسه تركه. أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجل الطاعات. وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من زعم ذلك، ففي الصحيح «**أن نفراً من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا عن عبادته في السر؟ فكأنهم تقالُّوها. فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم مقالتهم. فخطب، وقال: مابال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. و يقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج و يقول الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكني أتزوج النساء، وآكل اللحم. وأنام وأقوم. وأصوم وأفطر. فمن رغب عن سنتي فليس مني**» فتبرأ ممن رغب عن سنته، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة . فهذا لم يميز بين ماعليه وماله.

● الكثير... القليل!

ومن تمام هذا التمييز ان يعلم ان رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه. وجهله بحقوق العبودية. وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله و يليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه ومايبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها. و يتولد من ذلك: من العجب والكبر والآفات ماهو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا ، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها.

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد مايكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه. وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجل المواقف وأفضلها . فقال (٢:١٩٨، ١٩٩) **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام. واذكروه كما هداكم . وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث**

أفاض الناس. واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم) وقال تعالى (٣:١٧ والمستغفرين بالأسحار) قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السَّحَر. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل . وفي الصحيح «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً. ثم قال: اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت ياذا الجلال والإكرام» وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج ، واقتراب أجله. فقال في آخر سورة أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً).

ومن ههنا فَهِم عُمر وابن عباس ـــ رضى الله عنهم ـــ أن هذا أجلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ماكان عليه. فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء. فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل. وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه «سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين. واجعلني من المتطهرين».

فهذا شأن من عرف ماينبغي لله، و يليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها.

وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟

ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك ، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله ، وعرفت النفس: تبين لك أن ما معك من البضاعة لايصلح للملك الحق، ولوجئت بعمل الثقلين بخشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله. و يثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله.

• إزدراء البطيء .... وراء!

ولايكمل هذا المعنى إلا بأن ترباً بنفسك عن تعيير المقصرين، فعل تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه. وأشد من معصيته. لما فيه من صَولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب. وأن أخاك باء به. ولعل كَسْرته بذنبه. وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفعُ له، وخير من صولة طاعتك،

وتكثُّرك بها والاعتداد بها، والمنّة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المُدِلّ من مَقْتِ الله. فذنبٌ تذل به لديه، أحب إليه من طاعة تُدِل بها عليه. وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لايصعد له عمل. وإنك أن تضحك وأنت معترف، خيرمن أن تبكي وأنت مُدلّ. وأنين المذنبين، أحب إلى الله من زَجَل المسبحين المدلّين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لايعلمها إلا هو. ولايطالعها إلا أهل البصائر. فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك مالا يَطّلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا زنت أمة أحدكم، فَلْيُقِمْ عليها الحدّ وَلاَيُثرِّبْ» أي لايعير، من قول يوسف عليه السلام لإخوته (١٢: ٩٢ لا تثريب عليكم اليوم) فإن الميزان بيد الله. والحكم لله. فالسوط الذي ضُربَ به هذا العاصي بيدمُقَلّب القلوب. والقصد إقامة الحد لا التعييروالتثريب. ولا يأمن كرّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله. وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة (١٧: ٧٤ ولولا أن ثبّتناكَ لقد كدْت تَرْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً) وقال يوسف الصديق (١٢: ٣٣ وَإلاّ تصْرِفْ عنِّي كَيْدَهُنّ أصْبُ إليهنّ وَأكُنْ منَ الجَاهلين) وكانت عامة يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاَ وَمُقَلّب القلوب» وقال «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل. إن شاء أن أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاغَه» ثم قال «اللهم مقلبَ القلوب ثبّتْ قلوبناَ عَلَى دينك، اللهم مُصَرّفَ القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

(٦) مَنزِلَةُ التَّوبَةِ

فإذا صح هذا المقام، ونزل العبد في هذه المنزلة، أشرف منها على مقام «التوبة» لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه الى الممات.

ومنزل «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد السالك، ولايزال فيه الى الممات. وإن إرتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال تعالى (**٢٤: ٣١ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**) وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم . ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعلّ» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تُبْتُم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم.

قال تعالى (**٤٩: ١١ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**) قسم العباد إلى تائب وظالم ، وما ثَمّ قسم ثالث ألبتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يَتُبْ. ولا أظلم منه ، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «**ياأيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله انى لأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة**» وكان أصحابه يَعُدُّونَ له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم «**رب اغفر لى وتب عَلَىَّ إنك أنت التواب الغفور ، مائة مرة**» وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخرها. إلا قال فيها «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفرلي**» وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «**لن يُنْجِيَ أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

• فاتحة التوبة

ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لايحصل إلا بهداية الله الى الصراط المستقيم ولاتحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد استطلمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحة حقها ــ علما

وشهوداً وحالاً ومعرفة ــ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النّصوح. فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأول جهل ينافى معرفة الهدى والثانى غَيٌّ ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا.

• الاعتصام .... او الذنوب

وأول معاني التوبة : ان تنظر الى ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب ، وان الله منع عصمته عنك، وان تنظر الى ما كان من فرحك عند ظفرك بذلك الذنب ، وقعودك عن تداركه ، مُصِرًا عليه، مع تيقنك نظر الحق اليك، فان العبد لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة . قال الله تعالى **(٣:١٠١ ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم)** فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً. قال الله تعالى **(٢٢:٧٨ واعتصموا بالله هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير)** أي متى اعتصمتم به تولاكم. ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان . وهما العدوان اللذان لايفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدوّ أهم، والعبد إليه أحوج . وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله ، ونقص هذا الاعتصام يؤدي الى الانخلاع من عصمة الله، وهو حقيقة الخذلان فما خَلّى الله بينك و بين الذنب إلا بعد أن خذلك ، وخلى بينك و بين نفسك. ولو عصمك و وفقك لما وجد الذنبُ إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يَكِلَك الله إلى نفسك، ويخلي بينك و بينها. والتوفيق : أن لا يكلك الله إلى نفسك. وله سبحانه في هذه التخلية ــ بينك و بين الذنب وخُذلانك حتى واقَعْتَه ــ حِكَمٌ وأسرار . سنذكر بعضها.

وهكذا ترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمته لك.

وتشتد الغفلة على مقارف الذنب حتى يفرح عند ظفره بشهوته المحرمة، وهذا الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها. ففرحه بها غطّى عليه ذلك كله. وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا. ولا يكمل بها فرحه. بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سُكر الشهوة يحجبه عن الشعور به. ومتى خَلِيَ قلبه من هذا الحزن. واشتدت غبطته وسروره، فلْيَتَّهم إيمانه. ولْيَبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكاب للذنب، وغاظه وصعب عليه. ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يُحِسَّ به فما لجُرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها. وهي موضع مَخوف جدا، مترام الى هلاك إن لم يُتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة. وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه.

فإذا اشتدت غفلته الى هذا الحد: تقّلته ولابد الى الإصرار، وهو الاستقرار على المخالفة. والعزم على المعاودة وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبة الذنب: أنه يوجب ذنباً أكبر منه. ثم الثاني كذلك. ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصية أخرى. والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها. وذلك علامة الهلاك. وأشد من هذا كله: المجاهرة بالذنب، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه. فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم. وإن لم يؤمن بنظره إليه وإطلاعه عليه فذلك كفر، وانسلاخ من الإسلام بالكلية. فهو دائر بين الأمرين: بين قلة الحياء، ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين. فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه ان الله كان ناظرًا — ولايزال — إليه مطلعاً عليه. يراه جهرة عند مواقعة الذنب. لأن التوبة لا تصح الا من مسلم، الا أن يكون كافرا بنظر الله إليه جاحدًا له. فتوبته دخوله في الإسلام، وإقراره بصفات الرب جل جلاله، إذ حقيقة التوبة: الرجوع الى الله. ولايصح الرجوع و يتم إلا بمعرفة الرب بأسمائه وصفاته وآثارها في نفسه وفي الآفاق. ومعرفة أنه كان فاراً من ربه، أسيرا في قبضة عدوه. وأنه ما وقع في مخالب عدوه إلا بسبب جهله بربه، وجرأته عليه. فلابد أن يعرف كيف جهل؟ ومتى جهل؟ وكيف وقع أسيراً، ومتى وقع؟ و يؤمن أن التوبة إنما هي عملية شاقة بمجهود كبير، و يقظة تامة لستخلص من العدو والرجوع والفرار إلى ربه الرحمن الرحيم. والعود من طريق الهلاك الذي أخذه عدوه اليه، ومعرفة مقدار الخطوات التي بعد بها عن ربه، والمجهود والعقبات التي لابد من الحرص على اقتحامها للعود الى صراط الله المستقيم.

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم. والإقلاع. والاعتذار.

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي. والإقلاع عنه في الحال. والعزم على أن لايعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة: فإنه في ذلك الوقت يندم، و يقلع، و يعزم. فحينئذ يرجع الى العبودية التي خلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به. وإصراره عليه. وفي المسند «الندم توبة».

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

واما الاعتذار فإنه من تمام التوبة ايضاً، ولانقصد به الاعتذار الذي هو محاجة عن الجناية ، بل بأن يقول في قلبه ولسانه: اللهم لابراءة لي من ذنب فأعتذر، ولاقوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر. اللهم لاعذر لي. وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتي. فإن عفوت وإلا فالحق لك.

فهو اعتذار باظهار الضعف والمسكنة، وانه ضحية غلبة الشيطان العدو وقوة سلطان النفس الامارة بالسوء، والقول بلسانه: يارب: لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلاً به، ولا إنكارا لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك. وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعاً في مغفرتك واتكالاً على عفوك، وحسن ظنٍّ بك، ورجاء لكرمك ، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك . وغرّني بك الغرور ، والنفسُ الأمّارة بالسوء، وسترك المرخيُّ عليّ، وأعانني جهلي ، ولاسبيل إلى الاعتصام لي إلا بك. ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة. وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله يحب من عبده أن يتملق له.

• حقائق التوبة

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له اذا خولفت أوامره وعدم الاعتذار للمخالف بأن حكم القدر قد جرى عليه.

فأما تعظيم الجناية : فإنه اذا استهان بها لم يندم عليها . وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها. فإن من استهان بإضاعة فلس ــ مثلا ــ لم يندم على إضاعته. فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه، وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر. والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه. لايتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة عِلّة وهو لايشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله. فتاب للحال، لاخوفا من ذي الجلال . أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء مايخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفا من الله ، وتعظيما له

ولكن هذا التقسيم باعتبار تنقل العبد في أحوال سيره و الا فارادة العبد المراد ، وطلبه وسيره : أشد من إرادة غيره ، وطلبه وسيره.

وأيضاً فإنه مراد أولا، حيث أقيم في مقام الطلب، وجذب الى السير. فكل مريد مراد . وكل واصل وسالك وطالب لايفارقه طلبه ولاسيره ، وإن تنوعت طرق السير بحسب اختلاف حال العبد.

فمن السالكين: من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من سيره بقلبه وروحه.

ومنهم : من سيره بقلبه أغلب عليه ، أعني قوة سيره وحدته.

ومنهم ــ وهم الكمل الأقوياء ــ من يعطي كل مرتبة حقها . فيسير الى الله ببدنه وجوارحه ، وقلبه وروحه.

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنهم دائما في مقام الإرادة له . فقال تعالى (٦:٥٢ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال تعالى (٩٢:١٩ ــ ٢١ وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى) فالعبد أخص أوصافه، وأعلى مقاماته : أن يكون مريداً صادق الإرادة ، عبدا في إرادته. بحيث يكون مراده تبعاً لمراد ربه الديني منه . ليس له إرادة في سواه.

فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقا في كل مقام مقام. ببيان حقيقته وموجبه ، وآفته المانعة من حصوله ، والقاطع عنه، وذكر عامه وخاصه.

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج ، فمن تأمله ــ كسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي ــ وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل أبي سليمان الداراني، وعون بن عبدالله ــ الذي كان يقال له حكيم الأمة وأضرابهما .. فإنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً مُفصلا جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب. ولاحصر للمقامات بعدد معلوم . فإنهم كانوا أجل من هذا . وهمهم أعلى وأشرف ، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة ، وطهارة القلوب ، وزكاة النفوس ، وتصحيح المعاملة . ولهذا كلامهم قليل فيه البركة . وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.

واعلم ان مُنتهى همة الصادقين ارباب البصائر الى ثلاثة اشياء:

أحدها : الكشف عن منازل السير .

والثاني: الكشف عن عيوب النفس، وآفات الأعمال ومفسداتها.

والثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصفات ، وحقائق التوحيد والمعرفة.

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوم . وعليها يحومون . وحولها يدندنون . وإليها يشمرون . فمنهم من جُلُّ كلامه ومعظمه: في السير وصفة المنازل . ومنهم من جل كلامه : في

الآفات والقواطع. ومنهم من جل كلامه: في التوحيد والمعرفة، وحقائق الأسماء والصفات.

والصادق الذكي يأخذ من كلّ منهم ماعنده من الحق. فيستعين به على مطلبه . ولا يرد مايجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، و يهدره به. فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلا له مقام معلوم.

ولابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم . إذ لاقوة لهم للتشمير إلى تلقي السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم. ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه ، ولعدوه سلوكاً عامياً ، وللخاصة سلوك آخر ، كما يقول ضلاّل المتكلمين وجهلتهم «ان القوم كانوا أسلم. وان طريقنا أعلم» وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه «إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه. وضبط قواعده وأحكامه . اشتغالاً منهم بغيره. والمتأخرون تفرغوا لذلك . فهم أفقه».

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف ، وعن عمق علومهم ، وقلة تكلفهم ، وكمال بصائرهم . وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة الى المطالب العالية في كل شيء. فالمتأخرون في شأن والقوم في شأن ، و (قد جعل الله لكل شيء قدراً).

فالأولى بنا: أن نذكر منازل «العبودية» الواردة في القرآن والسنة . ونشير الى معرفة حدودها ومراتبها . إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله. وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق. فقال تعالى (٩:٩٧ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرُ أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية: يستكمل العبد الإيمان. و يكون من أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

ونذكر لها ترتيباً غير مستحق ، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسّي ، ليكون ذلك أقرب الى تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس. فيكون التصديق أتم . ومعرفته أكمل . وضبطه أسهل.

فهذه فائدة ضرب الأمثال ، وهي خاصة العقل ولبّه. ولهذا أكثر الله تعالى منها في القرآن . ونفى عقلها عن غير العلماء . فقال تعالى (٢٩: ٤٣ وتلك الأمثال نضربها للناس. وما يعقلها إلا العالمون).

حيلتي؟ وقد قدّموني الى الحُفيرة وقذفوني فيها. واللهِ كم صاح به الناصح: الحذَر الحذر، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه. وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام.

يا ويله ظهيراً للشيطان على ربه ، خصما لله مع نفسه، جَرِئ المعاصي، قَدَرِيُّ الطاعات، عاجز الرأى مضياع لفرصته، قاعد عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه. يحتج على ربه بما لايقبله من ولده وامرأته ، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره . فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه ، أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقني إلى ذلك. لما قَبِلَ منه هذه الحجة، ولبادَرَ إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك، فهلا كان حجة لامرأتك في ترك بعض حقك؟ بل اذا أساء اليك مسيء، وجنى عليك جان، واحتج بالقدر: لاشتدّ غضبك عليه. وتضاعف جُرمه عندك، ورأيت حجته داحضة. ثم تحتج على ربك به. وتَراه عذراً لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟.

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مَدى الأنفاس : أزاح عِلَلك، ومَكَّنك من التزود الى جَنَّته، وبعث اليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قُطاع الطريق عليك . فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرَّفك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل اليك رسوله. وأنزل اليك كتابه، و يَسَّرَهُ للذكر والفهم والعمل. وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك. ويحاربون عدوك و يطردونه عنك. و يريدون منك أن لاتميل اليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته. وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم . بل تُظاهره وتواليه دون وَلِيِّك الحق الذي هو أولى بك. قال الله تعالى (١٨: ٥٠ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا ابليس ، كان من الجن. ففَسَقَ عن أمر رَبِّه، أفتتخذونه وذُرِّيته أولياء مِن دوني، وهم لكم عدوٌّ؟ بئس للظالمين بدلاً**).

أمرك الله بشكره، لالحاجته اليك، ولكن لتنال به المزيد من فضله، فجعلت كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه: من اكبر أسباب صرفها عنك.

وأمرك بذكره ليذكرك باحسانه ، فجعلت نسيانه سبباً لنسيان الله لك (**١٩:٥٩ نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (٦٧:٩ نسوا الله فنسِيَهم**).

أمرك بسؤاله ليعطيك ، فلم تسأله ، بل أعطاك أجلّ العطايا بلا سؤال، فلم تقبل.

تشكو مَن يرحمك الى من لايرحمك، وتتظلم ممن لايظلمك ، وتدع من يعاديك و يظلمك ، وإن انعم عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استعنت بنعمه على معاصيه!.

دعاك الى بابه فما وقفت عليه ولا طرقته، ثم فتحه لك فما ولجته!

أرسل اليك رسوله يدعوك الى دار كرامته، فعصيت الرسول، وقلت : لا أترك ما أراه لشيء

سمعت به.

ومع هذا فلم يؤيسك من رحمته. بل قال: متى جئتني قبلتك. إن أتيتني ليلاً قبلتك. وإن أتيتني نهاراً قبلتك. وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً. وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً . وإن مشيت إليّ هرولتُ إليك. ولو لقيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقُرابها مغفرة، ولو بلغتْ ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك. ومَنْ أعظم مني جوداً وكرماً؟.

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فُرُشهم، إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلقُ و يعُبد غيري، وأرزُق و يُشكر سواي. خيري إلى العباد نازل. وشرهم إليّ صاعد. أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم. و يتبغضون إليّ بالمعاصي، وهم أفقر شيء إليّ.

من أقبل إليّ تلقيته من بعيد. ومن أعرض عني ناديته من قريب. ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. ومن أراد رضاي أردت مايريد. ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهلُ ذكرى أهلِ مجالستي. وأهل شكري أهل زيادتي . وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أُقنّطهم من رحمتي. إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم. فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إليّ فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه. الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. والسيئة عندي بواحدة. فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل . وأغفر الكثير من الزلل. رحمتي سبقت غضبي. وحلمي سبق مؤاخذتي. وعفوي سبق عقوبتي. أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها «لله أشَدُّ فرحاً بتوبة عبده من رَجلٍ أضَلَّ راحلته بأرض مَهْلَكة دَوِّية عليها طعامه وشرابه. فطلبها حتى إذا أيس من حصولها. نام في أصل شجرة ينتظر الموت. فاستيقظ فإذا هي على رأسه. قد تعلق خِطامها بالشجرة. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته».

وهذه فرحة إحسان و بر ولطف، لافرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها. وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه، ومحبة و برًّا به. لايتكثَّر به من قلة، ولايتعزز به من ذِلّة، ولاينتصر به من غَلَبة. ولا يَعُدُّه لنائبة. ولايستعين به في أمر (١٧: ١١١ وقل الحمدُ لله الذي لم يتخذ ولداً. ولم يكن له شريك في الملك. ولم يكن له وَليّ من الذل. وكَبِّره تكبيراً) فنفى أن يكون له وليّ من الذل. والله وليّ الذين آمنوا. وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد. وهم يقيمون أعذار أنفسهم. ويحملون ذنوبهم على أقداره.

استأثر الله بالمحامد والمجـ ـــد، وولّى اللائمة الرجلا

التحقيق: أن الغيرة لله، والغضب له، من حقائق التوبة. فتعطيل عذر الخليقة في مخالفة

الأمر والنهى، وشدة الغضب: هو من علامات تعظيم الحرمة، ومن حقائق التوبة.

ولاسيما أنه يدخل في العذر: عذر عباد الأصنام والأوثان، وقتلة الأنبياء. وفرعون وهامان، ونمرود بن كنعان، وأبي جهل وأصحابه ، وإبليس وجنوده، وكل كافر وظالم، ومتعد حدود الله، ومنتهك محارم الله. فإنهم كلهم تحت القدر. وهم من الخليقة.

وأن التائبين حقاً، المؤمنين بالقدر حقاً ، هم الذين ينتظرون سفينة الأمر الرباني، فلما قربت منهم ناداهم الرُّبّان (١١:٤١ اركبوا فيها . بسم الله مَجْريها ومُرْساها) فهي سفينة نوح حقاً. وسفينة من بعده من الرسل. من ركبها نجا. ومن تخلف عنها غرقَ. فركبوا سفينة الأمر بالقدر. تجري بهم في تصاريف أمواجه على حُكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار. فلم يك إلا غَفْوة، حتى قيل لأرض الدنيا وسمائها: يا أرض ابلعي ماءك، و ياسماء أقلعي، وغيض الماء . وقضى الأمر. واستوت على جودى دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة ـــ كقوم نوح ـــ أغرقوا . ثم أحرقوا . ونودى عليهم على رؤوس العالمين (١١:٤٤ وقيل: بعداً للقوم الظالمين) (١١:١٠٢ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) ثم نودى بلسان الشرع والقدر، تحقيقاً لتوحيده. وإثباتا لحجته. وهو أعدل العادلين (٦:١٤٩ قل فلله الحجةُ البالغة. فلو شاء لهداكم أجمعين) .

• نَدفع القَدَر بالقَدَر

وراكب هذا البحر في سفينة الأمر، وظيفته: مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها بعضها ببعض، وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر. وهذا سير أرباب العزائم من العارفين. وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبدالقادر الكيلاني «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا. فانفتحت لي فيه رَوْزَنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لامن يكون مستسلماً مع القدر» ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم؟.

والله تعالى أمر أن تُدفع السيئة ـــ وهي من قدره ـــ بالحسنة ـــ وهي من قدره ـــ وكذلك الجوع من قدره . وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الجوع ، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتى مات: مات عاصياً. وكذلك البرد والحر والعطش . كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدفْع من قدره.

وقد أفصح النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: «يارسول

الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورُقى نسترقي بها، وتُقى نتقي بها. هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله».

وفي الحديث الآخر «إن الدعاء والبلاء لَيَعْتلجان بين السماء والأرض».

وإذا طرق العدوُّ من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله. أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر، وترك دفعه بقدر مثله. وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟.

وكذلك المعصية إذا قُدّرت عليك، وفعلتها بالقدر. فادفع موجبَها بالتوبة النصوح. وهي من القدر.

ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ــ ولما يقع ــ بأسباب أخرى من القدر تقابله. فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله. ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه و يزيله، كدفع قَدَر المرض بقدر التداوي. ودفع قَدَر الذنب بقدر التوبة. ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة. فإنه عجز. والله تعالى يلوم على العجز.

● شروط ثلاثة

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء. تمييز التَّقِيَّة من العِزَّة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة. لأن التائب داخل في «الجميع» من قوله تعالى (٢٤ : ٣١ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**) فأمر التائب بالتوبة مما خالط توبته من شوائب الإدلال بها.

وتمييز التقية من العزة: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله. وهو خوفه وخشيته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه. فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. و يترك معصية الله على نور من الله. يخاف عقاب الله. لايريد بذلك عز الطاعة. فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً. فلا يكون مقصوده العزة، وإن علم انها تحصل له بالطاعة والتوبة. فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة.

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك. ولايميزه إلا أولو البصائر منهم. وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

وأما نسيان الجناية: فهذا موضع تفصيل. فقد اختلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم: من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحاً. فصفاء الوقت مع الله

تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل : ذكر الجفا في وقت الصفا جفا.

ومنهم : من رأى أن الأ ولى أن لاينسى ذنبه. بل لايزال جاعلا له نُصب عينيه يلاحظه كل وقت. فيُحْدث له ذلك انكساراً وذلا وخضوعا، أنفع له من صفاء وقته.

قالوا: ولهذا نقشَ داودُ الخطيئة في كَفِّه. وكان ينظر إليها و يبكي.

قالوا: ومتى تُهْتَ عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

ومعنى ذلك: انك اذا رجعت الى ذنبك انكسرت وذللت. وأطرقت بين يدى الله عز وجل، خاشعاً ذليلاً خائفاً. وهذه طريق العبودية.

والصواب: التفصيل في هذه المسألة. وهو أن يقال: إذا أحسَّ العبد من نفسه حال الصفاء غَيْماً من الدعوى، ورقيقة من العجب ونسيان المنّة، وخَطَفَتْه نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذِكْرُ الذنب أنفع له. و إن كان في حال مشاهدته مِنّة الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وعدم استغنائه عنه في ذرة من ذراته، وقد خالط قلبَه حال المحبة، والفرح بالله . والأُنْس به، والشوق إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه ، وعفوه. وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات. فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب: أولى به وأنفع . فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك. ونزل من علو إلى أسفل، ومن حال إلى حال ، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض. وهذا من حسد الشيطان له. أراد أن يحطه عن مقامه، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة.

و بعد هذا : يتوب من رؤية التوبة. فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته. ولو خُلّي ونفسه لم تسمح بها ألبتة. فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به. وغفل عن مِنّة الله عليه: تاب من هذه الرؤية والغفلة.

وقد يكون في التوبة علة ونقص، وآفة تمنع كمالها . وقد يشعر صاحبها بذلك. وقد لايشعر به . فيتوب من نقصان التوبة، وعدم توفيتها حقها، والمقدار المفقود هو الذي يحتاج ان يتوب منه.

● الحليم العادل ... سبحانه

ولطائف اسرار التوبة ثلاثة اشياء: أن ينظر الجناية التى قضاها الله عليه فيعرف مراد الله فيها. إذ خَلاَّك و إتيانها. فإن الله عز وجل إنما خَلّى العبد والذنبَ لأجل معنيين.

أحدهما: أن يعرف عِزّته في قضائه ، و برّه في ستره، وحلمه في إمهال راكبه، وكرمه في قبول العذر منه، وفضله في مغفرته.

«الثاني: أن يُقيم على عبده حجة عدله. فيعاقبه على ذنبه بحجته.

وتفصيل ذلك أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور.

أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه. فيحدث له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئة، والاقرار على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيحدث له ذلك خوفا وخشية ، تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها، وتخليته بينه و بينها، وتقديرها عليه، وأنه لوشاء لعصمه منها. فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وحكمته ، ورحمته ، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء، لاتحصل بدون لوازمها ألبتة. و يعلم ارتباط الخلق والأمر، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه، متعلق به لابد منه.

وهذا المشهد يُطْلِعه على رياض مُونِقَة من المعارف والإيمان ، وأسرار القدر والحكمة، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

فمن بعضها : أن يعرف العبد عزته في قضائه، وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكَمَ على العبد وقضَى عليه، بأن قَلَّب قلبه وصَرَّف إرادته على مايشاء. وحال بين العبد وقلبه. وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة . إذ لايقدر على ذلك إلا الله. وغاية المخلوق: أن يتصرف في بدنك وظاهرك . وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاءه منك و يريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لامع نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مدبَّر مقهور، ناصيته بيد غيره. لاعصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعونته. فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضاً في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد ، والغناء التام، والعزة . كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه. وكذلك بالعكس. فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

ومنها: أن يعرف برَّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه. وهذا من كمال بره. ومن أسمائه «البَرُّ» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر

والإحسان والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة . فيبقى مع الله سبحانه . وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته. وشهود ذل معصيته. فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ولايوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً ، بل في هذه الحال. فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

ومنها: شهود حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال راكب الخطيئة. ولو شاء لعاجله بالعقوبة. ولكنه الحليم الذي لايَعْجَل. فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه بإسمه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم.

ومنها: معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه، فيقبل عذره بكرمه وجوده. فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك. فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك. فعبودية التوبة بعد الذنب لون. وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله. وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلا محموداً. وإنما عفوه بفضله لاباستحقاقك. فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة، وإنابة اليه، وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبداً بمقتضاها. وذلك أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يُكَمِّلَ لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه. فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية. ولوقَدرت لقالت كقول فرعون. ولكنه قدر فأظهر. وَغَيْرُه عجز فأضمر. وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاة ذل العبودية. وهو أربع مراتب.

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق. وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله. فأهل السموات والأرض جميعا محتاجون إليه، فقراء إليه. وهو وحده الغنى عنهم. وكل أهل السموات والأرض يسألونه . وهو لايسأل أحداً.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة، والعبودية. وهو ذل الاختيار. وهذا خاص بأهل طاعته. وهو سر العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة. فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل:

اخضَعْ وَذِلَّ لمن تحب. فليس في حكم الهوى آنف يُشال و يعقد

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم. إذ يذل له خوفاً

وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة، وفقراً وفاقة.

وحقيقة ذلك: هو الفقر الذي يشير إليه القوم. وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر. بل هو لُبُّ العبودية وسرها. وحصوله أنفع شيء للعبد، وأحب شيء إلى الله.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها. فاسم «الرزاق» يقتضي مرزوقاً. واسم «الرحيم» يقتضي مرحوماً. وكذلك أسماء «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفر له، و يتوب عليه، و يعفو عنه، ويحلم. و يستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلابد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله. صلوات الله وسلامه عليه. حيث يقول «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم».

وأنت إذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم. فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سُدّت، والعبيد أغنياء معافون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإنعام والإكرام؟.

فسبحان من تعرّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات. وَدَلّهُم عليه بأنواع الدلالات. وفتح لهم إليه جميع الطرقات. ثم نصب إليه الصراط المستقيم. وعرّفهم به ودلهم عليه (٨:٤٢ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَة. وإن الله لسميع عليم).

● الرحيم ... سبحانه

ومنها: السر الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولاتجسر عليه الإشارة، ولاينادى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد. فازدادت به معرفة لربها ومحبة له. وطمأنينة به وشوقاً إليه، ولهجاً بذكره. وشهوداً لِبِرِه، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافاً على حقيقة الإلهية. وهو ماثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «للهُ أفرحُ بتوبةِ عبده ــ حين يتوب إليه ــ من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها. قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها. ثم قال ــ من شدة الفرح ــ اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» هذا لفظ مسلم.

والمقصد: أن هذا الفرح له شأن لاينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولايطلع عليه إلا من

له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله . وشرفه . وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له. وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره. وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته ــ الذين هم أهل قربه ــ استخدمهم له. وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته . وأنزل إليه وعليه كتبه . وأرسله وأرسل إليه . وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار. وجعلهم معدن أسراره . ومحل حكمته. وموضع حبه. وخلق لهم الجنة والنار. فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني. فإنه خلاصة الخلق. وهو المقصود بالأمر والنهي. وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات. وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه. وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شيء. وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات. وطرد إبليس عن قربه . وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين. واتخذه عدواً له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق. وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه. وليتواتر إحسانه إليه. وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته. ولم يخطر على باله ولم يشعر به. ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال الا بمحبته. ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره على ماسواه . فاتخذه محبوباً له. وأعدّ له أفضل مايعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه. وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه. وأعلمه في عهده مايقربه اليه. و يزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه و يسخطه عليه، و يسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو، هو أبغض خلقه إليه. قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم الحق. واستقطع عباده، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم . وكانوا أعداء له مع هذا العدو. يدعون إلى سخطه. و يطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، و يسبونه و يكذبونه. و يفتنون أولياءه، و يؤذونهم بأنواع الأذى . ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم. ومحو كل مايحبه الله و يرضاه ، وتبديله بكل مايسخطه و يكرهه. فعرّفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومآلهم . وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده : أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين. وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته . وأنه قد أفاض على خلقه النعمة. وكتب على نفسه الرحمة. وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر. وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه ، والجود

كله له. وأحبُّ ما إليه: أن يجود على عباده و يُوسعهم فضلا. و يغمرهم إحساناً وجوداً. و يتم عليهم نعمته. و يضاعف لديهم منته. و يتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. و يتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته. وجود كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبداً: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو. وجود كل جواد فمن جوده. ومحبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوق مايخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم. وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه و يأخذه، أحوج ماهو إليه أعظم ما كان قدراً. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطى؟ ففرح المعطى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى. إذ هذا شأن الجواد من الخلق. فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده، فوق مايحصل لمن يعطيه. ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطى، وابتهاجه وسروره. هذا مع كمال حاجته الى مايعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه. ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم و يابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأله: مانقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته. فجوده العالي من لوازم ذاته. والعفو أحب إليه من الانتقام. والرحمة أحب إليه من العقوبة. والفضل أحب اليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه. وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله. ولم يتركه سدى، فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه، ومايكرهه وأبق منه. و والى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه: وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التى هى أحب شيء إليه. وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد. الكريم خلاف ماهو موصوف به من الجود والاحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه. وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه. وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ماهو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه رأى في بعض السكك باباً قد فتح. وخرج منه صبي يستغيث و يبكي. وأمه خلفه تطرده، حتى خرج. فأغلقت الباب في وجهه

ودخلت. فذهب الصبي غير بعيد ، ثم وقف مفكراً . فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولامن يؤيه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزيناً. فوجد الباب مُرْتَجاً، فتوسّده و وضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه. فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تُقبّله وتبكي. وتقول: ياولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤيك سواي؟ ألم أقل لك: لاتخالفني. ولاتحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم «لاتحملني بمعصيتك لي على خلاف ماجبلت عليه من الرحمة والشفقة».

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم «لَلّهُ أرحم بعباده من الوالدة بولدها» وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟.

فاذا اغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه. فاذا تاب اليه فقد استدعى منه ماهو اهله واولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالاحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبوداً ; فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه. وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته. وهذا هو الحق الذي خُلقت به السموات والأرض. وهو غاية الخلق والأمر، وهو سبحانه يحب أن يُعْبَد و يطاع ولايعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً و باطلا وسُدى. وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين. والإله الحق. فإذا خرج العبد عما خُلق له من الطاعة والعبودية. فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خُلق عبثاً لغير شيء، إذ لم تُخرج أرضه البذر الذي وضع فيها. بل قلبته شوكا وَدَغَلا. فإذا راجع ما خلق له وأُوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره. ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها . وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل. فاشتدت محبة الرب له. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقَدَّر من الفرح. ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع اعظم من هذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم لذكره، ولكن لا فرحة اعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته و بلاغه في سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة

بفقده . وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه. ثم وجده وصار طوع يده. فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً ، أسَره عدوك، وحال بينك و بينه. وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، وَ يُعَرِّضه لأنواع الهلاك. وأنت أولى به منه . وهو غَرْسُك وتربيتك. ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد فلم يفجأك إلا وهو على بابك، يتملقك و يترضاك و يستعينك ، و يُمرغ خَدّيه على تراب أعتابك. فكيْف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقُربك، وآثرته على سواه؟.

هذا. ولستَ الذي أوجدته وخلقته. وأسبغت عليه نعمك ، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده. وخلقه وكوّنه. وأسبغ عليه نعمه. وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهراً لنعمه، قابلا لها، شاكراً لها، محباً لوَليِّها، مطيعاً له عابداً له، معادياً لعدوه، مبغضاً له عاصياً له. والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يحب أن يوالىَ اللهَ مولاه سبحانه و يطيعه و يعبده. فتنضاف محبته لعادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبة لعداوة عدوه. ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه، مع حصول محبوبه. وهذا هو حقيقة الفرح.

وفي صفة النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الكتب المتقدمة «عبدي الذي سُرَّت به نفسي» وهذا لكمال محبته له. جعله مما تسر به نفسه سبحانه.

• ومع الفرح ... ضحك ايضا!

ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده، حين يأتي من عبوديته بأعظم مايحبه.

فيضحك سبحانه فرحاً ورضا. كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته و يتملقه.

و يضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو . فأقبل إليهم. و باع نفسه لله ولَقَّاهم نَحْره، حتى قُتل في محبته ورضاه.

و يضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً، حيث لايراه إلا الله الذي أعطاه. فهذا الضحك منه حباً له، وفرحاً به. وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة. فيضحك إليه فرحاً به و بقدومه عليه.

وهو «فرح» ليس كمثله شيء، و «ضحك» ليس كمثله شيء، نؤمن بهما لورودهما في نص الحديث كايماننا بسائر صفات الله التى اثبتتها النصوص.

• العقوبة بعد إقامة الحُجّة

لمّا أن الله عز وجل خلّى بين العبد والذنب من أجل أن يقيم على عبده حجّة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجّته، مقرّراً أنّ اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه . فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لايعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى (١٧:١٥ وما كنّا معذّبينَ حتّى نبعثَ رسولاً) وقال (٦٧:٨،٩ كلمَا ألقِيَ فيها فَوْج سألهم خزنتها ألم يأتِكُمْ نَذِير؟ قالوا: بلى قد جاءنا نذير. فكذّبناَ وقلنا : ما نَزّلَ اللهُ من شيء) وقال (١١:١١٧ وما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بظلم وأهلهاَ مُصلِحون).

وفي الآية قولان. أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول : ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم. وهم مصلحون الآن . أي إنهم بعد أن أصلحوا . وتابوا: لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من ظلم.

وعلى القول الثاني انه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم. والقولان في آية الأنعام أيضاً (٦:١٣١ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون).

وقال الله تعالى (٣٦:١٦٩،١٧٠ وما علمناه الشعر وما ينبغي له. إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حَيّاً ويحق القول على الكافرين).

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع . يقبل الإنذار و ينتفع به، وميت لايقبل الإنذار ولاينتفع به. لأن أرضه غير زاكية ولاقابلة لخير ألبتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لابمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان. بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لايؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى (١٠:٣٣ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون) وحق عليه العذاب . كقوله تعالى (٤٠:٦ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار).

فالكلمة التي حقت كلمتان : كلمة الإضلال ، وكلمة العذاب . كما قال تعالى

(۷۱:۳۹ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه ، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم. لامع مراد أنفسهم، مع علمه بموت قلوب بعضهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم ، فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده، فقامت عليهم بالمعصية حُجّة عدله ، فعاقبهم بظلمهم.

• نَفْس مَعيبة ... ورَبّ متفضِّل

قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي. ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا مايتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث : النظر إلى محل الجناية ومصدرها. وهو النفس الأمارة بالسوء، فيعرف أنها جاهلة ظالمة . وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها. وأن يؤتيها تقواها و يزكيها. فهو خير من زكاها. فإنه رَبُّهَا ومولاها، وأن لايَكِلَه إليها طَرْفَةَ عين. فإنه إن وَكَله إليها هلك. فما هلك من هلك إلاحيث وُكِلَ إلى نفسه. وقال النبى صلى الله عليه وسلم لحصين ابن المنذر «قل: اللهم ألهمني رُشْدِي. وَقِنِي شَرَّ نفسي» وفي خطبة الحاجة «الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا» وقد قال تعالى (۱۷:٦٤ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون) وقال (٥٣:۱۲ إن النفس لأمارة بالسوء).

فمن عرف حقيقة نفسه وما طُبعت عليه: علم أنها مَنْبَع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خيرٍ فيها فضلٌ من الله مَنَّ به عليها. لم يكن منها. كما قال تعالى (۲۱:۲٤ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أَحَدٍ أَبَدًا) وقال تعالى (۸:٤٩ ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وَزَيَّنَهُ في قلوبكم. وَكَرَّهَ إليكم الكفر والفسوق والعِصيانَ. أولئك هم الراشدون) فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولابها. ولكن هو الله الذي مَنَّ بهما. فجعل العبد بسببهما من الراشدين (فَضْلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم) «عليم» بمن يصلح لهذا الفضل و يزكو عليه و به ، و يثمر عنده . «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه

بوضعه في غير موضعه.

اللطيفة الثانية من اسرار التوبة : أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يُبق له حسنة بحال. لأنه يسير بين مشاهدة المِنّة. وتَطّلب عيب النفس والعمل، فان من له بصيرة بنفسه، و بصيرة بحقوق الله. وهو صادق في طلبه: لم يُبق له نظره في سيئاته حسنة ألبتة. فلا يلقى الله الا بالإفلاس المحض، والفقر الصِّرف. لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشترى بها النجاة من عذاب الله. فضلا عن الفوز بعظيم ثواب الله. فإن خَلَص له عملٌ وحال مع الله. وصفًا له معه وقت شاهدَ مِنّة الله عليه به، ومجرد فضله، وأنه ليس من نفسه، ولاهى أهل لذاك. فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله. لأنه متى تطلبها رآها.

وهذا من أجلّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت . خلقتني ، وأنا عبدك. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ. أعوذ بك من شر ما صنعتُ. أبوء لك بنعمتك عليّ. وأبوء بذنبي. فاغفر لي. إنه لايغفر الذنوب إلا أنت**».

فتضمن هذا الاستغفار: الاعتراف من العبد بر بوبية الله، وإلهيته وتوحيده . والاعتراف بأنه خالقه، العالم به. إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته. لامهرب له منه. ولا وليّ له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده ـــ وهو أمره ونهيه ـــ الذي عهده إليه على لسان رسوله ، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لابحسب أداء حقك. فإنه غير مقدور للبشر. وإنما هو جَهْد المقِلّ، وقدر الطاقة. ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب. فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك. ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شَرِّ ما فَرّطْتُ فيه من امرك ونهيك. فإنك ان لم تُعِذْني من شره، والا احاطت بى الهلكة . فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقِرُّ لك وألتزم بنعمتك عليَّ. وأقر وألتزم وأبْخَعُ بذَنْبي. فمنك النعمة والإحسان والفضل. ومني الذنب والإساءة. فأسألك أن تغفر لي بمحو ذَنبي، وأن تُعْفِيني من شَرِّه. إنه لايغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيدَ الاستغفار. وهو متضمن لمحض العبودية . فأي حَسَنة تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عليه؟ فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه.

● الشيطان ملحاح بطيء اليأس

النظر الرابع: نظره إلى الامر له بالمعصية، المزيّن له فعلّها ، الحاضّ له عليها. وهو شيطانه الموكّل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظته: اتخاذّه عدواً ، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة. والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لايشعر . فإنه يريد أن يظفر به في عقَبة من سبع عقَبات، بعضها أصعبُ من بعض. لاينزل منه من العقبة الشاقة إلى مادونها إلا اذا عجَز عن الظفَر به فيها.

العقبة الأولى: عقَبة الكفر بالله و بدينه ولقائه، و بصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردَتْ نارُ عداوته واستراح . فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نورالإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة . إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسلَ الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لايقبل الله منها شيئاً. والبدعتان في الغالب متلازمتان. قلّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى.

فان قطع هذه العقَبة ، وخلَص منها بنور السنة ، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم باحسان طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر. فان ظفربه فيها زينها له، وحسّنها في عينه. وسوّف به. وفتح له باب الارجاء . وقال له: الايمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه أعمال الفسوق والعصيان ، فان الشيطان يقول له - عند فتح باب الارجاء - إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي . وهذا هو معنى الارجاء الذى هو من شر البدع التى أفسدت الدين ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهى قوله «لايضُرُّ مع التوحيد ذنب، كما لاينفع مع الشرك حسنة» والظفر به فى عقبة البدعة أحب اليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لايتوب منها. ولايرجع عنها، بل يدعو الخلق اليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة. ومعاداة اهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة. وتولية مَنْ عَزَله الله ورسوله، وعَزْل من وَلاه الله ورسوله. واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره. وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه. واثبات ما نفاه. ونفى ما أثبته. وتكذيب الصادق. وتصديق الكاذب. ومعارضة الحق بالباطل. وقلب الحقائق، بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. والإلحاد فى دين الله، وتعمية الحق على القلوب. وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم. وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها ، حتى ينسلخ

صاحبها من الدين . كما تنسل الشعرة من العجين . فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر ، والعميان ضالون في ظلمة العمى (٢٤ : ٤٠ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله ، أو بتوبة نصوح تنجيه منها ، طلبه على :

العقبة الرابعة : وهي عقبة الصغائر فيقول له : ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ماغشيت من اللمم ، أوما علمت بأنها تكفّر باجتناب الكبائر و بالحسنات . ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصير عليها . فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه. فالاصرار على الذنب اقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار. ولا صغيرة مع الإصرار. وقد قال صلى الله عليه وسلم «إياكم ومحقرات الذنوب» ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض . فأعوزهم الحطب . فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود . حتى جمعوا حطبا كثيراً. فأوقدوا ناراً . وأنضجوا خبزتهم . فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه».

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار. وأتبع السيئة الحسنة. طلبه على:

العقبة الخامسة . وهي عقبة المباحات التى لا حرج على فاعلها . فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات . وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده . ثم طمع فيه أن يستدرجه منها الى ترك السنن. ثم من ترك السنن الى ترك الواجبات. واقل ما ينال منه : تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة. والمنازل العالية. ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئاً من القربات. ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري ، وقدر مايعوض به التجار، فبخل بأوقاته. وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح. طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات. فأمره بها. وحسنها في عينه . وزينها له. وأراه مافيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً . لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية. فشغله بالمفضول عن الفاضل، و بالمرجوح عن الراجح ، و بالمحبوب لله عن الأحب إليه، و بالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نحا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيد ومسودها، فإن في الاعمال والاقوال سيدا ومسودا ورئيسا ومرؤوسا، وذروة وما دونها ، كما في الحديث الصحيح «سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي . لا إله إلا أنت ـ الحديث» وفي الحديث الآخر «الجهاد ذروة سنام الأمر». ولايقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق،قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

• عُبودية المُراغَمة

فإذا نجا مما سبق لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه. وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما عَلَتْ مرتبته أجْلَبَ عليه العدو بخيله ورَجِله. وظاهر عليه بجنده. وسلّط عليه حِزبه وأهله بأنواع التسليط . وهذه العقبة لاحيلة له في التخلص منها. فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، جَدّ العدو في إغراء السفهاء به. فهو في هذه العقبة قد لبس لأمةَ الحرب. وأخذ في محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين. وهي تسمى عبودية المراغمة، ولاينتبه لها إلا أولو البصائر التامة. ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه ، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه الى هذه العبودية في مواضع من كتابه.

أحدها : قوله (٤: ١٠٠ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مُراغماً كثيراً وسعة) سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مُراغماً يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته. كما قال تعالى (٩: ١٢٠ ذلك بأنهم لايصيبهم ظَمأ ولانَصَبٌ ولامخمصة في سبيل الله ولايَطأون مَوْطِئاً يغيظ الكفار ولاينالون من عدو نَيْلا إلا كُتب لهم به عمَل صالح. إن الله لايضيع أجر المحسنين) وقال تعالى في مَثَل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه (٤٨: ٢٩ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شَطأه فآزره. فاستغلظ. فاستوى على سوقه. يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان» وفي رواية «ترغيما للشيطان» وسماها «المرغمتين».

فمن تعبد لله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه،

وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة . ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لايراه إلا الله. لما في ذلك من إرغام العدو. وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل.

وهذا باب من العبودية لايعرفه إلا القليل من الناس . ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان . وعليه التكلان . ولا حول ولاقوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح . فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهزىء بها. فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر ألبتة. ولله الحمد والمنة. وبه التوفيق :

● الفِطرةُ تأبى القبائح

أما اللطيفة الثالثة من اسرار التوبة، ففي ان يرى التائب قبح مانهى الله عنه، وحسن ما أمر به، وانه كان مفسداً حين ركب مانهاه الله تعالى عنه، مُفَوِّتاً لمصلحة حين قصّر في تنفيذ ما أراده الله منه، وان الله تعالى مانهى إلا عن أمر قبيح بالذات ، وما أمر إلا بأمر حسن الذات، فإن الله سبحانه فَطَرَ عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان. ومقابلة النعم بالشكر . وفَطَرَهم على استقباح أضدادها. ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض الى أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلى مشامّهم، وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم . وكذلك كل مايدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة . فيفرقون بين طيبه وخبيثه، ونافعه وضاره.

من أدلة ذلك قوله تعالى (٧: ٢٨، ٢٩ وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا. والله أمرنا بها قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله مالا تعلمون؟ * قل أمر ربّي بالقِسْط. وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وادعوه مخلصين له الدين، كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى . وفريقاً حقّ عليهم الضلالةُ . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله. ويحسبون أنهم مهتدون * يابني آدم ، خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تُسرفوا. إنه لايحب المسرفين. قل: من حَرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك

زين للمسرفين ما كانوا يعملون . قل: إنما حرّم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن، والإثمَ والبَغْي بغيرالحقّ، وأن تشركوا بالله مالم يُنزّل به سلطانا. وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشةٌ قبل نهيه عنه. وأمر باجتنابه بأخذ الزينة.

و«الفاحشة» ههنا هي طوافهم بالبيت عُراة ـــ الرجال والنساء ـــ غير قريش ثم قال تعالى «إن الله لا يأمر بالفحشاء» أي لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، إذ كانت قريش هي التي تقوم بتطويف الحجاج والمعتمرين، وقيادتهم في كل مناسك الحج وشعائره. و يأخذون منهم مايعيشون به ، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم (١٤: ٣٧ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة. فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم. وارزقهم من الثمرات. لعلهم يشكرون) فرزقهم الله مما أهوت إليهم أفئدتهم ، ولكن أكثرهم لم يقم الصلاة كما أحب الله، ولاشكر لله. بل كفروا، واتخذوا الآلهة والأنداد من الموتى، فكانت صلتهم بأوليائهم أقوى من صلتهم بالله رب العالمين. وكان الشيطان مولاهم من دون الله. فقلل في أعينهم من نعمة الله فيما يسوق إليهم من الأرزاق. وأوحى إليهم أن يشرعوا للناس بدعة فاحشة: أن لايطوف أحد بالبيت إلا في ثياب من عند قريش، وهم الحمس وأن يخلعوا ثيابهم ويجعلوها لقى تحت أقدام الطائفين حول الكعبة. فانقاد الناس لهم بالتقليد واصبح مورداً لقريش يتحكمون به في الناس كما يشاءون. ثم أوحى إليهم أن يزيدوا في الأثمان كلما رأوا إقبال الناس. حتى عجز أكثر الناس. وطلبوا من السادة المستكبرين الرخصة عن الشمس. فقالوا: لابد من ذلك، وإلا فطوفوا عراة، فطافوا عراة.

ثم قال «قل مَنْ حرم زينة الله التي أخرج لعباده. والطيبات من الرزق؟» دل على أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة.

ثم قال «قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن» ، فهي فواحش قبل التحريم وبعده، والشارع كساها بنهيه عنها قبحاً إلى قبحها. فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحا عند العقل بنهي الرب تعالى عنها، وذمّه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. كما أن العدل والصدق والتوحيد ، ومقابلةَ نِعمَ المنعم بالثناء والشكر: حسن في نفسه، وازداد حسنا إلى حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله. وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله.

بل من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : أنه يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر، و يُحِلُّ لهم الطيبات . و يُحرّم عليهم الخبائث.

فالمدح والثناء والعَلَم الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنهُ وكونه معروفا. وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكراً. وما يحله تشهد كونه طيبا . وما يحرمه تشهد كونه خبيثا . وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين . والكذابين والسحرة . فإنهم يدعون إلى مايوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر و بغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـــ وقد أسلم ، لما عرف دعوته صلى الله عليه وسلم ـــ عن أي

شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه. ولانهى عن شيء ، فقال العقل: ليته أمر به. ولا أحلَّ شيئاً . فقال العقل: ليته حرمه. ولا حرَّم شيئاً ، فقال العقل : ليته أباحه» فانظر إلى هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه ، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل . وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه.

وقال تعالى (٢٣: ١١٥ أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟) أي لغير شيء، لا تؤمرون ولا تنهون . ولا تثابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح . فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنَبِّهٍ لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لايليق به، ولايحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً، لا لأمر ولا لنهي ، ولا لثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر. وأن من جَوَّز على الله الإخلال به فقد نسبه إلى مالا يليق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وقال تعالى (٤٥: ٢١ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نَجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء . محياهم ومماتُهم؟ ساء مايحكمون) فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حُكم سيء ، والحاكم به مسيىء ظالم.

وكذلك قوله (٣٨: ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟) وهذا استفهام إنكار . فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه. وأنه لايليق بالله نسبته إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في الهيته، بالبراهين الدالّة على قبحه في صريح العقول والفطر؟ وأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم؟ وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي، وأن العلم بقبحه بديهي معلوم بضرورة العقل، وأن الرسل نبهوا الأمم على مافي عقولهم وفطرهم من قبحه، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا ألباب ولا أفئدة. بل نفى عنهم السمع والبصر. والمراد: سمع القلب و بصره. فأخبر أنهم صم بكم عمي. وكذلك وصف قلوبهم أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق. وشبههم بالأنعام التي لاعقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل . ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل. وأنهم لورجعوا إلى أسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم.

قال الله تعالى حاكياً عنهم (٦٧: ١٠ وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وكم يقول لهم في كتابه (أفلا تعقلون؟) (لعلكم تعقلون). فينبههم على ما في

. عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح. ويحتج عليهم بها، ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل.

وكم في القرآن من مَثل عقلي وحسّي ينبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى (**٣٠:٢٨ ضرب لكم مثلا من أنفسكم: هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم. فأنتم فيه سواء، تخافونهم كخيفتكم انفسكم؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون**) يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له. فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك. فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر. والسمع نبّه العقول وأرشدها الى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالى (**٣٩:٢٩ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سَلَماً لرجل، هل يستويان مثلا؟ الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون**) احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو المَلَكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سَلِمَ كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لايستويان.

وكذلك قوله تعالى (**٢:٢٦٤**) مثلا لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنّ والأذى المبطل للصدقات بـــ «صفوان» وهو الحجَر الأملس «عليه تراب» غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ماعليه من التراب «فتركه صَلْدا» أملس لاشيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـــ «الصفوان» وهو الحجَر. كقلب المرائي والمان والمؤذي. و «التراب» الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته. و «الوابل» المطر الذي به حياة الأرض. فإذا صادفها لَيِّنة قابلة: نَبَتَ فيها الكلأ وإذا صادف الصخور والحجارة الصُّم: لم ينبت فيها شيئاً. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقاً، فأزاله. فأفضى إلى حجرٍ غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المنّ، والأذى، والرياء» مستقر في العقول. فلذلك نبهها على شَبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى (**٢:٢٦٥ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جَنة برَبْوة أصابها وابل. فآتت أُكُلها ضِعفين. فإن لم يصبها وابل فطلٌّ. والله بما تعملون بصير**) فإن كانت هذه الجنة ـــ التي بموضع عال، حيث لا تُحجَب عنها الشمس والرياح، وقد اصابها مطر شديد . فأخرجت ثمرتها ضِعفَي مايخرج غيرها ـــ إن

كـانـت مستحسنة في العقل والحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لـشكور، بل بثبات من نفسه، وقوة على الإنفاق، لايخرج النفقة وقلبُه يَرْجُف على خروجها، و يداه ترتعشان، و يضعف قلبه، ويخور عند الانفاق. بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الانفاق على هذين القسمين: كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتـثـبيـت: كـمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كـثرة الإنفاق وقلته. وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه. أفلا تراه سبحانه نبّه العقول على مافيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟.

وكـذلـك قـوله (٢:٢٦٦ **أيَوَدُّ أحدُكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتـهـا الأنهار، له فيها من كل الثمرات. وأصابه الكِبَر، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فـيـه نـار، فاحترقت؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون**). فنبه سبحانه العقول على مـافيها من قبح الأعمال السيئة التى تحبط ثواب الحسنات وشَبَّهها بحال شيخ كبير له ذرية ضـعـفـاء، بـحيث يخشى عليهم الضَّيْعة وعلى نفسه. وله بستان هو مادةُ عيشه وعيش ذريته. فيه الـنخيل والأعناب ومن كل الثمرات. فأرجَى وأفقر ماهو له وأسَرُّ ماكان به إذ أصابه نار شديدة فأحرقته. فنبه العقول على أن قبح المعاصى التى تغرق الطاعات كقُبح هذه الحال. و بهذا فسرها عـمـر، وابن عباس رضى الله عنهم «لرجل غني عمل بطاعة الله زمانا. فبعث الله له الشيطان. فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة ، وضرب لقبحها هذا المثل؟

ثـمّ هؤلاء الـفـقـهـاء : يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم . و يفرقون بين المصـالـح الخـالصة والراجحة والمرجوحة. والمفاسد التى هى كذلك. و يقدمون أرجح المصلحتين على مـرجـوحـهـمـا. و يـدفعون أقوى المفسدتين باحتمال أدناهما. ولايتم لهم ذلك إلا باستخراج الحِكَم والعلل، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال.

• يشاء الله السوء ولايرضاه

وهذه اللطيفة الثالثة من اسرار التوبة التى يتضح فيها الحسن والقبح تقتضى رؤية الفرق بين محـبـة الله ورضـاه، ومشيئته وإرادته الكونية، وعدم التـسـو ية بينهما ، او اعتقاد تلازمهما ، كما فـعـل الجـبـر ية الذين قالوا : المشيئة والمحبة سواء ، او متلازمان، وان كل ماشاءه الله فقد أحبه ورضـيـه، وقـالـوا : ان الافعال جميعها محبو بة للرب، اذ هى صادرة عن مشيئته ، وهى عين محبته ورضاه ، فلزم من ذلك أن صار أحدهم لايـسـتقبح سيئة ، ولايستنكر منكرا.

ولما ورد على هؤلاء قوله تعالى (٢:٢٠٥ والله لايحب الفساد) (٣٩:٧ ولايرضى لعباده الكفر) وقوله (١٧:٣٨ كل ذلك كان سيئهُ عند ربك مكروهاً) والتبسّ عليهم كيف يكون مكروهاً له. وقد أراد كونه؟ وكيف لايحبه، وقد أراد وجوده؟ أوّلوا هذه الآيات ونحوها بأنه لايحبها ديناً. ولايرضاها شرعاً. و يكرهها كذلك، بمعنى أنه لايشرعها، مع كونه يحب وجودها و يريده.

ثم بنوا على ذلك أنهم مأمورون بالرضا بالقضاء . وهذه قضاء من قضائه. فنحن نرضى بها. فمالنا ولإنكارها ومعاداة فاعلها، ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء؟ فتركب من اعتقادهم: كونها محبوبة للرب، وكونهم مأمورين بالرضا بها، والتسوية بين الأفعال، وعدم استقباح شيء منها أو إنكاره.

وانضاف إلى ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها، وأنها ليست فعله.

فلزم من ذلك: رفع الأمر والنهي ، وطَيُّ بساط الشرع ، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان.

فمنشأ الغلط : التسوية بين المشيئة والمحبة، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء. ونحن نبين مافي الفصلين إن شاء الله تعالى. فإن القوة لله جميعا.

فأما المشيئة ، والمحبة : فقد دل على الفرق بينهما القرآن والسنة ، والعقل، والفطرة ، واجماع المسلمين.

قال الله تعالى (٤:١٠٧ يستخفون من الناس ، ولايستخفون من الله وهو معهم. إذ يبيتون مالا يرضى من القول) فقد أخبر أنه لايرضى بما يبيتونه من القول، المتضمن البَهْت، ورمي البريء ، وشهادة الزور ، و براءة الجاني. فإن الآية نزلت في قصةٍ هذا شأنها ، مع أن كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وتأويل من تأول الآية على أنه لايرضاه ديناً، مع محبته لوقوعه : مما ينبغي أن يصان كلام الله عنه . إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له. ولكن لايثاب فاعله عليه. فهو محبوب بالمشيئة ، غير مثاب عليه شرعاً.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب ، مكروه له قدراً وشرعاً، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه. فانه يخلق مايحب ومايكره. وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه . وفيها ما يبغضه و يكرهه ــ كابليس وجنوده، وسائر الأعيان الخبيثة ــ وفيها مايحبه و يرضاه ــ كأنبيائه ورسله، وملائكته وأوليائه ــ وهكذا الأفعال كلها خَلْقُه. ومنها ماهو محبوب له وماهو مكروه له. خَلَقَه لحكمة له في خلق مايكره و يبغض كالأعيان . وقال تعالى (٢:٢٠٧ والله لايحب الفساد) مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره . وقال تعالى (٣٩:٧ إن تكفروا فإن الله غني عنكم

ولايرضى لعباده الكفر. وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم) فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره . وأحدهما محبوب له مرضي . والآخر مبغوض له مسخوط .

وكذلك قوله عقيب مانهى عنه من الشرك والظلم والفواحش (١٧ :٣٨ كلّ ذلك كان سَيّئهُ عند ربك مكروهاً) فهو مكروه له، مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله كَره لكم ثلاثاً: قيل وقال. وكثرة السؤال . وإضاعة المال» فهذه كراهة لموجود تعلقت به المشيئة.

وفي المسند «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته» فهذه محبة وكراهة لأمرين موجودين. اجتمعا في المشيئة، وافترقا في المحبة والكراهة. وهذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يذكر جميعه.

وقد فطر الله عباده على قولهم : هذا الفعل يحبه الله. وهذا يكرهه الله و يبغضه وفلان يفعل مالا يحبه الله. والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على اعدائه. وذلك صفة قائمة به، يترتب عليها العذاب واللعنة. لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة بل هما اثر السخط والغضب وموجبهما. ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى (٤: ٩٢ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها. وغضب الله عليه ولعنه . وأعدّ له عذاباً عظيما)ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته.وجعل كل واحد غير الآخر .

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك».

فتأمل ذكر استعاذته صلى الله عليه وسلم بصفة «الرضا» من صفة «السخط» و بفعل «المعافاة» من فعل «العقوبة» فالأول : للصفة ، والثاني: لأثرها المترتب عليها. ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه ، وأن ذلك كله راجع إليه وحده . لا الى غيره. فما أعوذ منه: واقع بمشيئتك وإرادتك . وما أعوذ به : من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه ، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه . فإعاذتي مما أكره وأحذر، ومنعه أن يحل بي : هو بمشيئتك أيضاً. فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك . فعيادي بك منك: عياذي بحولك وقوتك ، وقدرتك ورحمتك وإحسانك ، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك . فلا أستعيذ بغيرك من غيرك. ولا أستعيذ إلا بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقك . بل هو منك . ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك، بل أنت الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك. فأعوذ بك منك.

ولايعلم مافي هذه الكلمات — من التوحيد والمعارف والعبودية — إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته .

وأشرنا إلى شيء يسير من معناها . ولو استقصينا شرحها لقام منه سِفْر ضخم. ولكن قد فتح لك الباب . فإن دخلت رأيت مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر.

والمقصود : أن انقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلى محبوب للرب مرضى له، ومسخوط مبغوض له، مكروه له: أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة ، من العقل والنقل ، والفطرة والاعتبار. فمن سوى بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التى فطر عليها عباده. وخالف المعقول والمنقول. وخرج عما جاءت به الرسل.

ولأى شيء نَوَّع الله سبحانه العقوبات البليغة في الدنيا والآخرة . وأشهد عباده منها ما أشهدهم؟ لولا شدة غضبه وسخطه على الفاعلين لما اشتدت كراهته و بغضه له. فأوجبت تلك الكراهة والبغض منه: وقوع أنواع المكاره بهم ، كما أن محبته لما يحبه من الأفعال و يرضاه : أوجبت وقوع أنواع المحاب لمن فعلها . وشهود مافي العالم من إكرام أوليائه ، وإتمام نعمه عليهم، ونصرهم وإعزازهم، وإهانة أعدائه وعقوبتهم ، وإيقاع المكاره بهم: من أدل الدليل على حبه و بغضه وكراهته، بل نفس موالاته لمن والاه ، ومعاداته لمن عاداه : هي عين محبته و بغضه. فإن الموالاة : أصلها الحب. والمعاداة : اصلها البغض . فإنكار صفة «المحبة، والكراهة» إنكار لحقيقة «الموالاة ، والمعاداة».

و بالجملة : فشهود القلوب لمحبته وكراهته ، كشهود العيان لكرامته وإهانته. وأما مسألة «الرضا بالقضاء» فيقال:

أولاً: بأي كتاب ، أم بأي سنة، أم بأي معقول : علمتم وجوب الرضا بكل مايقضيه و يقدره؟ بل بجواز ذلك ، فضلا عن وجوبه؟ هذا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأدلة العقول ليس في شيء منها الأمر بذلك ، ولا إباحته.

بل من المقضيّ ما يرضى به ، ومنه ما يسخطه ويمقته. فلا نرضى بكل قضاء كما لايرضى به القاضي لأقضيته سبحانه . بل من القضاء ما يسخطه ، كما ان من الأعيان المقضية : ما يغضب عليه ، ويمقت عليه، و يلعن و يذمّ.

ثم يقال : القضاء له وجهان.

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : يرضى به كله .

الوجه الثاني : تعلقه بالعبد ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : ينقسم إلى مايرضى به، وإلى مالا يرضى به.

مثال ذلك: قتل النفس — مثلا — له اعتباران . فمن حيث إنه قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه ، وجعله أجلا للمقتول، ونهاية لعمره: يرضى به. ومن حيث إنه صدر من القاتل ، و باشره وكسبه ، وأقدم عليه باختياره ، وعصى الله بفعله: يسخطه ولايرضى به.

● راقِبْ عملك ... وناقِشْ نفسك

ومن العابدين أُناس توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات . دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما. ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها؛ ولوتفرغوا لتفتيشها، ومحاسبة النفس عليها، . والتمييز بين مافيها من الحظ والحق . لَشَغَلَهم ذلك عن استكثارها . ولأجل هذا كان عمل العابد القليل المراقبة لعمله خفيفاً عليه، فيستكثر مه ، و يصير بمنزلة العادة، فاذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكَدَر ، ومافي ذلك من شوك الرياء: وجد لعمله ثقلاً كالجبال وقَلَّ في عينه. ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

واذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها . وفهم ما أريد بكل آية ، وحظك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها، كيف تدرك الختمة- أو أكثرها ، أو ما قرأت منها ــ بسهولة وخفة . مستكثراً من القراءة . فاذا الزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد ، والنظر الى مايخصك منه والتعبد به ، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك ، والاستشفاء به. لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها . وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين . أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور ، والخشوع والمراقبة : لم تكد أن تصلي غيرهما إلا بجهد . فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلاحساب. فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها دليل على قلة الفقه.

وقد يرى فاعلها ان له حقاً على الله في مُجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان ، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن اعماله ، لا يدري انه لن ينجو أحد البتّة من النار بعمله ، إلا بعفو الله ورحمته .

ولا ريب ان مجرد القيام باعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله: قليل المنفعة، دنيا وأخرى، كثير المؤنة. فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود. فإنه ــ وإن كثر ــ متعب غير مفيد. فهكذا العمل الخارجي القشوري بمنزلة النخالة كثيرة المنظر قليلة الفائدة. فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها.

وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التي يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك ونحوها.

ولكن احب العباد الى الله: الذين يستكثرون من الصالحات، مع مراقبة لها، فقد ندب الله تعالى الى ذلك فقال: (٥١:١٧، ١٨ **كانوا قليلاً من الليل مايهجعون. وبالأسحارهم يستغفرون**) قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبى صلى الله

عليه وسلم «تابعوا بين الحج والعمرة. فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكِيرُ خَبَثَ الحديد» وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به «لايزال لسانُكَ رَطْباً من ذكر الله».

والدين كله استكثار من الطاعات ، وأحب خلق الله إليه : أعظمهم استكثاراً منها.

وفي الحديث الصحيح الإلهي «ماتَقَرَّبَ إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه. ولايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع. وبي يبصر. وبي يبطش. وبي يمشي. ولئن سألني لأُعطِيَنَّهُ ولئن استعاذني لأعيذنه».

فهذا جزاءه وكرامته للمستكثرين من طاعته.

• صغيرة المؤمن ... كبيرة

وأيضاً: فان استقلال المعصية ذنب، كما ان استكثار الطاعة ذنب والعارف من صغرت حسناته في عينه. وعظمت ذنوبه عنده. وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله. وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلت وصغرت عند الله. وسيئاتك بالعكس. ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده. وصغرت جداً في عينه. وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه. وأن الذي يليقُ بعزته، و يصلح له من العبودية: أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها. لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه. فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله. ولو كانت أعمال الثقلين. وإذا كثرت في عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله، غير عارف به وبما ينبغي له. وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه. وتعظم في عينه. لمشاهدته الحق ومستحقه. وتقصيره في القيام به. وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب و يرضاه من كل وجه.

• الوقوف ... رجوع

وتوبة الخواص تكون من تضييع الوقت في لغو أو لهو، فانه يُفضي الى درك النقيصة، و يطفىء نور المراقبة، وأما الحافظ لوقته فهو مترق على درجات الكمال. فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص. فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى اسفل. إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في

الـشـريعة وقوف ألبتة. ماهو إلا مراحل تطوى أسرع طَي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطيء، ومتـقـدم ومتـأخـر. ولـيـس في الـطـريق واقف ألبتة. وإنما يتخالفون في جهة السـير. وفي السرعة والـبـطء (٧٤:٣٧ **إنها لإحدى الكُبَر نذيراً للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر**) ولم يـذكـر واقفاً. اذ لامنزل بين الجنة والنار. ولاطريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور. ثم ينهض إلى طلبه.

قـلـت: لابـد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجِمّ نفسه، و يعدها للسـير. فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة. فإن «**لكل عمل شِرة ... ولكل شرة فترة**».

و إما أن يـقـف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخّره ولابد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الاسف على الانـقـطـاع. ووثـب واشـتـد سعياً ليلحق الركب. وإن استمر مع داعى التأخر، وأصغى إليه لم يـرض بـرده إلى حـالـتـه الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكاً. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

و بالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فـهـو في تـأخـر إلى المـمـات. راجع القهقرى ناكص على عَقِبَيه، أو مُوَلٍ ظهره. ولاقوة الا بالله. والمعصوم من عصمه الله.

وفـوق هـذا مـقـام آخر من الـتـوبة، أرفع منه وأخص. لايعرفه إلا الخواص المحبون، الذين يـسـتـقـلـون في حق مـحـبـوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عـلـيـهـا، و يـرون شأن محبوبهم أعظم، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له. فهم أشد شيء احتقاراً لها وإزراء عليها. واذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم، ولم يوفوه حقه، تابوا إلـيـه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها. فالتوبة لا تفارقهم أبداً. وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون (١٢:٧٦ **وفوق كل ذي علم عليم**) وكلما ازدادوا حباً له ازدادوا معرفة بحقه، وشهوداً لـتـقـصـيرهم. فعظمت لذلك توبتهم. ولذلك كان خوفهم أشد. وازراءهم على أنفسهم أعظم. ومايتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم.

من أحكام التوبة

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة، تشتد الحاجة إليها. ولايليق بالعبد جهلها.

منها : أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور. ولايجوز تأخيرها. فمتى أخرها عصى بالتأخير. فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى. وهي توبته من تأخير التوبة. وقَلَّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده: أنه إذا تاب من الذنبُ لم يبق عليه شيء آخر. وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة. ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومما لايعلم. فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه. ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم. فإنه عاص بترك العلم والعمل. فالمعصية فى حقه أشد . وفى صحيح ابن حبان: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**الشرك فى هذه الامة أخفى من دبيب النمل. فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يارسول الله؟ قال: أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم. وأستغفرك لما لا أعلم**».

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولايعلمه العبد.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «**أنه كان يدعو في صلاته: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي جِدّي وهَزْلي، وخطأى وعمدي. وكلُّ ذلك عندي. اللهم اغفر لي ماقدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنت إلهي لا إله إلا أنت**».

وفي الحديث الآخر «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقهُ وَجِلّه. خطأه وعمده. سره وعلانيته، أوله وآخره**».

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتيَ التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه ومالم يعلمه.

• التوبة مُتجدِّدة أبداً

ومن أحكام «التوبة» أنه : هل يشترط في صحتها أن لايعود إلى الذنب أبدا، أم ليس ذلك بشرط؟ .

فشرط بعض الناس: عدم معاودة الذنب. وقال: متى عاد إليه تبيَّنا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط . وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

فإن كانت في حق آدمي : فهل يشترط تحلله؟ فيه تفصيل ــ سنذكره إن شاء الله ــ فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على أن لايعاوده. صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة.

والمسألة مبنية على أصل . وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، إن مات مصرا؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية. فلا يعود إليه إثمه. وإنما يعاقب على هذا الأخير؟.

وفي هذا الأصل قولان:

فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول: لفساد التوبة، وبطلانها بالمعاودة .

قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر . والكافر إذا أسلم هدم إسلامُه ماقبله من إثم الكفر وتوابعه. فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة. كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « **من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية. ومن أساء في الاسلام أُخِذ بالأول والآخر** » فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه . ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام. فإذا أُخذ بعدها بما كان منه في حال كفره . ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما . فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق، كما لاتمنع الإثم اللاحق.

قالوا: ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها، والموافاة عليها، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط . كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه.

قالوا: والتوبة واجبة وجوباً مضيقاً مدى العمر. فوقتها مدة العمر. إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره. فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم. فإذا امسك معظم النهار، ثم نقض امساكه بالمفطرات: بطل ماتقدم من صيامه . ولم يعتد به. وكان بمنزلة من لم يمسك شيئاً من يومه .

قالوا: ويدل على هذا : الحديث الصحيح . وهو قوله صلى الله عليه وسلم «**إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفراً موجباً للخلود ، أو معصية موجبة للدخول . فإنه لم يقل «فيرتد فيفارق الإسلام» وإنما أخبر: أنه يعمل بعمل يوجب له النار. وفي بعض السنن «**إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة . فإذا كان عند الموت جار في وصيته فدخل النار**» فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية والأعمال بالخواتيم.

فإن قيل: فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات . وهذا قول المعتزلة. والقرآن والسنة قد

دلا على أن الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس. كما قال (١١: ١١٤ **إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات**) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ «**اتق الله حيثما كنتَ، وأَتْبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخالق الناس بِخُلُق حسن**».

قيل : والقرآن والسنة، قد دلا على الموازنة. وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض. ولايرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ــ فعلَ أهل الهوى والتعصب ــ بل نقبل الحق ممن قاله. ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة : فمذكورة في سورة الأعراف (٧: ٨، ٩) والأنبياء (٢١: ٤٧) والمؤمنون (٢٣: ١٠١ ــ ١١١) والقارعة، والحاقَّة (٦٩: ١٩ ــ ٣٧).

وأما الإحباط : فقد قال الله تعالى (٤٧: ٣٣ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**) وتفسير الإبطال هاهنا بالردة. لأنها أعظم المبطلات ، لا لأن المبطل ينحصر فيها . وقال تعالى (٢: ٢٦٤ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى**) فهذان سببان عَرضاً بعدُ للصدقة فأبطلاها. شبه سبحانه بطلانها ــ بالمنِّ والأذى ــ بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما. وقال تعالى (٤٩: ٢ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي. ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض: أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**» وقالت عائشة رضي الله عنها، لأم ولد زيد بن أرقم ــ وقد باع بيع العينة ــ «**أخبري زيداً: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أن يتوب**» وقد نص أحمد على هذا في رواية ، فقال : ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه. فيستدين و يتزوج ، لايقع في محظور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة ــ أن من السيئات مايحبط الحسنات بالإجماع ومنها مايحبطها بالنص ــ جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة. فتصير التوبة كأنها لم تكن. فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما. فيكون التأثير لهما جميعا.

قالوا : وقد دل القرآن ، والسنة ، وإجماع السلف على الموازنة . وفائدتها : اعتبار الراجح . فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح . قال ابن مسعود «يُحَاسَبُ الناس يوم القيامة . فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار . ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة . ثم قرأ (٧ : ٨ ، ٩ **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم**) ثم قال «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح».

واحتج الفريق الآخر ــ وهم القائلون بأنه لايعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة ــ بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة مالم يعمله. وكأنه لم يكن. فلا يعود

إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا: ولايشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات ، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: مُحي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال. فإن الكفر له شأن آخر. ولهذا يحبط جميع الحسنات . ومعاودة الذنب لاتحبط ماتقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات. فلو أبطلتها معاودة الذنب: لأبطلت غيرها من الحسنات. وهذا باطل قطعاً. وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب. والمعتزلة المخلدين في النار بالكبيرة، التي تقدمها الألوف من الحسنات. فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار. ولكن الخوارج كفروهم، والمعتزلة فسقوهم. وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام. مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل (٤٠:٤ إن الله لايظلم مثقال ذرّة. وإن تكُ حسنةً يضاعفها. ويُؤتِ من لَدُنْه أجراً عظيماً).

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب العبد المفتّن التواب».

قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه . فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالى (١٣٥:٣ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم. ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون) والإصرار: عَقْد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به. فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط في صحة كمالها ونفعها. لاشرط في صحة مامضى منها. وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة. فإن تلك عبادة واحدة. لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة: فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب. فكل ذنب له توبة تخصه. فإذا أتى بعبادة وترك اخرى، لم يكن ماتركه موجباً لبطلان مافعل. كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان و يفطر منه بلا عذر. فهل يكون ما أفطره منه مبطلا لأجر ما صامه منه؟.

بل نظير من صلى ولم يصم. أو زكى ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة. فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر. فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين. و يكون محبوباً لله مبغوضاً له من وجهين أيضاً. بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر. و يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر. فيكون من أهله. كما قال تعالى (٣:١٦٧ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان**) وقال (١٢:١٠٦ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**) أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك. فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الايمان بالله. وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لاتخرجهم عن الإيمان بالرسل و باليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي. وشرك جلي. فالخفي قد يغفر. وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه. فإن الله لايغفر أن يشرك به.

و بهذا الأصل أثبت اهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة. لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة تو بته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب اثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولايظلم مثقال ذرة (٤١:٤٦ **وما ربك بظلام للعبيد**).

• حُسن الخاتمة يحفظ ذخيرة العمر

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها . ثم تاب منها توبة نصوحاً خالصة: عادت إليه حسناته . ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها. بل يقال له: تبت على ما أسلفت من خير. فالحسنات التي فعلتها في الإسلام أعظم من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره : من عتاقة ، وصدقة ، وصلة. وقد قال حكيم بن حزام «**يا رسول الله ، أرأيتَ عتاقة أعتقتها في الجاهلية، وصدقة تصدقت بها، وصلة وصلت بها رحمي. فهل لي فيها من أجر؟ فقال: أسلمت على ما أسلفت من خير**» وذلك لأن الاساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة . وصارت كأنها لم تكن . فتلاقت الطاعتان واجتمعتا . والله أعلم.

• توبة القلب تامّة

ومن أحكامها: أن العاصي إذا حيل بينه و بين أسباب المعصية، وعجز عنها. بحيث يتعذر

وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أُتي على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قُطعت يده. ومن وصل إلى حَدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

الأظهر: أن توبته صحيحة ممكنة. بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. وفي المسند مرفوعاً «الندم توبة» فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه. فهذه توبة. وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه؟ ولاسيما مايتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نَزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. كقوله في الحديث الصحيح **«إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيما»** وفي الصحيح أيضاً عنه **«إن بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً، ولاقطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة. حبسهم العذر»** وله نظائر في الحديث. فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً — مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه — منزلة التارك المختار أولى.

• نتحلّل الذي ظلمناه

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج التائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به. وإن كان حقاً مالياً أو جناية على بدنه أو بدن موروثه. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال **«من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم، قبل أن لايكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»**.

وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف: فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه التحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولايشترط تعيينه، أو لايشترط لاهذا ولاهذا، يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام مَنْ قذفه واغتابه؟.

على ثلاثة أقوال. وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف، هل يشترط في توبة قاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أم لا؟ ويخرّج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف في مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه. لاسيما إذا كان مَنْ عليه الحق عارفا بقدره. فلا بد من إعلام مستحقه به. لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور. وهو قوله صلى الله عليه وسلم **(من كان لأخيه عنده مظلمة ــ من مال أو عرض ــ فليتحلّله اليوم)**.

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقين: حقا لله، وحقا للآدمي. فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم من نفسه، إن شاء اقتص وإن شاء عفا. وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لايشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة. فيبدّل غيبته بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عِفّته وإحصانه. ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية. قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة. فإنه لايزيده إلا أذى وحَنقا وغما، وقد كان مستريحاً قبل سماعه. فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثته ضررا في نفسه أو بدنه، كما قال الشاعر:

فإن الذي يؤذيك منه سماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَل

وما كان هكذا فإن الشارع لايبيحه. فضلا عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل. فلا يصفو له أبداً. ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولّدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف. وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين.

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه. فلا يجوز إخفاؤها عنه. فإنه محض حَقّه. فيجب عليه أداؤه إليه. بخلاف الغيبة والقذف. فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط. فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه، ولم تُهِج منه غضباً ولا عداوة. بل ربما سره ذلك وفرح به. بخلاف إعلامه بما مَزّق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً، من أنواع القذف والغيبة والهجو. فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد. وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت. والله أعلم.

● اذا نزل بالذنب : صعد بالتوبة

ومن احكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطّته عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟ الصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته. ومنهم من يعود إليها. ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب.

وهذا بحسب حال التائب بعد توبته ، وجدّه وعزمه. وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة . وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله. وإن كان دونه لم يعد إلى درجته. وكان منحطا عنها.

و يتبين هذا بمثلين مضروبين.

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن. فهو يعدو مرة ويمشي أخرى، و يستريح تارة و ينام أخرى. فبينا هو كذلك إذ عرض له في سيره ظل ظليل، وماء بارد ومقيل، وروضة مزهرة. فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها. فوثب عليه منها عدو، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه عن السير. فعاين الهلاك. وظن أنه منقطع به، وأنه رزقُ الوحوش والسباع. وأنه قد حيل بينه و بين مقصده الذي يؤمه. فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر. فحلّ كتافه وقيوده. وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو. فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد. واعلم أنك مادمت حاذراً منه، متيقظاً له لا يقدر عليك. فإذا غفلت وثب عليك. وأنا متقدمك إلى المنزل، وفرط لك فاتبعني على الأثر.

فإذا كان هذا السائر كيّساً فطناً لبيباً، حاضر الذهن والعقل، استقبل سيره استقبالا آخر، أقوى من الأول وأتم. واشتد حذره. وتأهب لهذا العدو. وأعد له عدته. فكان سيره الثاني أقوى من الأول، وخيراً منه. ووصوله إلى المنزل أسرع. وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول. من غير زيادة ولانقصان ولاقوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان. وهو مُعَرَّض لما عرض له أولا.

وإن أورثه ذلك تـوانياً في سيره وفتوراً، وتذكراً لطيب مقيله، وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكونا بقلبه إليه. لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني: عبد في صحة وعافية جسم ، عرض له مرض أوجب له حِمْية وشُرْبَ دواء وتحفظاً من التخليط. ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لكمال قوته وصحته. فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفا في القوة، وتداركه بمثل ما نقص من قوته. عاد إلى مثل ما

كان.

وإن تداركه بدون مانقص من قوته ، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة.

وفي هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول. لايلوي على شيء في طريقه. فعرض له رجل من خلفه تجبّذ ثوبه وأوقفه قليلاً. يريد تعويقه عن الصلاة . فله معه حالان.

أحدهما: أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة. فهذه حال غير التائب.

الثاني: أن يجاذبه على نفسه، و يتفلت منه، لئلا تفوته الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال.

أحدها: أن يكون سيره جَمْزاً ووثباً، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة . فربما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سيره.

الثالث: أن تورث تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً. فيفوته فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت. فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

مفاضلة

ويتبين هذا بمسألة شريفة . وهى أنه : هل المطيع الذى لم يَعْصِ خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحاً ، أو هذا التائب أفضل منه ؟

اختلف فى ذلك .

● جمال البراءة

فطائفة رجحت مَنْ لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً. واحتجوا بوجوه.

أحدها: أن أكمل الخلق وأفضلهم: أطوعهم لله. وهذا الذى لم يعص أطوع . فيكون أفضل.

الثانى: أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق. فتكون درجته أعلى من درجته. وغايته: أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه. وذلك فى سير آخر فأنى له بلحاقه؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين فى الكسب، كلما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله. فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه، وأمسك عن الكسب المستأنف. والآخر مُجِدٌّ فى الكسب. فإذا أدركته حَمية المنافسة، وعاد إلى الكسب: وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئاً كثيراً. فلا يكسب شيئا إلا كسب صاحبه نظيره. فأنى له بمساواته؟.

الثالث: أن غاية التوبة: أن تمحو عن هذا سيئاته، و يصير بمنزلة من لم يعملها. فيكون سعيه فى مدة المعصية لاله ولا عليه. فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح؟.

الرابع : أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره. ففى مده اشتغال هذا بالذنوب: كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا. فالله لم يزل عنه راضيا. ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضيا عنه ثم مقته، ثم رضى عنه، فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت.

الخامس : أن الذنب بمنزلة شرب السم. والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هى الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه. وربما أديا به إلى التلف أو المرض أبداً.

السادس: أن العاصى على خطر شديد. فإنه دائر بين ثلاثة أشياء. أحدها: العطب والهلاك بشرب السم. الثانى: النقصان من القوة وضعفها، إن سلم من الهلاك. والثالث: عود قوته إليه كما كانت أو خيراً منها بعيدُ .

والأكثر إنما هو القسمان الأولان. ولعل الثالث نادر جداً. فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطا حصيناً، لا يجد الأعداء إليه سبيلاً. فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته فى زيادة ونمو أبداً. والعاصى قد فتح فيه ثغراً، وثلم فيه ثلمةً. ومكن منه السراق والأعداء. فدخلوا فعاثوا فيه يمينا وشمالاً: أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه. وقطعوا ثمراته، وأحرقوا فى نواحيه. وقطعوا ماءه. ونقصوا سَقيه. فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول؟ فإذا تداركه قيِّمه ولمَّ شَعَثه، وأصلح ما فسد منه، وفتح طرق مائه، وعمر ماخرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أوخيراً. ولكن لايلحق بستان صاحبه الذى لم يزل على نضارته وحسنه. بل فى زيادة ونمو، وتضاعف ثمرة، وكثرة غرس.

الثامن: أن طمع العدو فى هذا العاصى إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته. ولذلك يسمى جاهلاً. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عُصى الله به فهو جهالة. وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم (٢٠:١١٥ **ولم تجد له عزما**) وقال فى حق غيره (٤٦:٣٥ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**) وأما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوى إيمانه: لم يطمع فيه عدوه. وكان أفضل.

التاسع: أن المعصية لابد أن تؤثر أثراً سيئاً ولابد: إما هلاكاً كلياً. وإما خسراناً وعقاباً، يعقبه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان. وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير. وعمل المطيع فى الزيادة، ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة. فإنه يعمل فى زيادة الدرجات، وغيره يعمل فى تكفير السيئات. وأين هذا من هذا؟

العاشر: أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله. وكلما زادت طاعته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم. وهو بمنزلة منْ سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله. فسافر ثانيا برأس ماله الأول وكسبه. فكسب عشرة أضعافه أيضاً. فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله. وكان ربحه كذلك، وهلم جرا. فإذا فتر عن السفر فى آخر أمره، مرة واحدة فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه. وهذا معنى قول الجنيد رحمه الله «**لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله**» وهو صحيح بهذا المعنى. فإنه قد فاته فى مدة الاعراض ربح تلك الأعمال كلها. وهو أريد من الربح المتقدم. فإذا كان هذا حال من أعرض، فكيف من عصى وأذنب؟ وفى هذا الوجه كفاية.

●وللمستدرك جال . . . أيضاً .

وطائفة رجحت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه. واحتجت بوجوه.

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه. فإنه سبحانه يحب التوابين. ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثاني: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثّله النبى صلى الله عليه وسلم بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدَّوِيّة المهلكة، بعد ما فقدها، وأيس من أسباب الحياة. ولم يجيء هذا الفرح فى شيء من الطاعات سوى التوبة. ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيما فى حال التائب وقلبه، ومزيده لايعبر عنه. وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد. فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية. فيصير حبيبا لله. فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتّن التواب. و يوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة. وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة. فإن الذل والانكسار روح العبودية، وَمُخها ولُبُّها. يوضحه:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره. فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذُل الفقر، والعبودية، والمحبة. وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية. والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذُله، وانكسار قلبه. ولأجل هذا كان «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه.

وتأمل قول النبى صلى الله عليه وسلم. فيما يروى عن ربه عز وجل «**أنه يقول يوم القيامة: يا ابن ادم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يارب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يارب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى. ابنَ آدم، مرضتُ فلم تَعُدنى. قال: يارب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما لو عُدْته لوجدتنى عنده**» فقال فى عيادة المريض «**لوجدتنى عنده**» وقال فى الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندى» ففرق بينهما. فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلابد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمنا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا ــ والله أعلم ــ هو السر في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم. فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد في نفسه. وكذلك الصوم، فإنه يكسّر سورة النفس السبعية الحيوانية، و يذلها.

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات. وهذا معنى قول بعض السلف «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة. و يعمل الطاعة فيدخل بها النار قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلايزال نُصْبَ عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه. فيحدث له انكساراً، وتوبة، واستغفاراً، وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، و يعمل الحسنة. فلا تزال نصب عينيه. إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها اورثته عجبا وكبراً وَمِنَّةً. فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً، باكياً نادماً، مستقيلا ربه. وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صَوْلة، وكبراً، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولاريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب الى النجاة والفوز من المعجب بطاعته، الصائل بها، المانّ بها، و بحاله على الله عز وجل وعباده. وإن قال بلسانه خلاف ذلك . فالله شهيد على مافي قلبه. و يكاد يعادي الخلق اذا لم يعظموه و يرفعوه. ويخضعوا له. ويجد في قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك . ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً. ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه و يعرف له حقه. متطلبا لعيبه في قالب حمية لله، وغضب له، واذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب اضعاف ماقام بهذا، فتح له باب المعاذير والرجاء. وأغمض عنه عينه وسمعه. وكَفَّ لسانه وقلمه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود. وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به. و يعرفه قدره. و يكفي به عباده شره. و ينكس به رأسه، و يستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده. فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة. و يكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال. كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه:

يا آدم، لاتجزع من كأس زلل كانت سبب كَيْسِك. فقد استخْرج بها منك داء لايصلح أن تجاورنا به. والبست بها حلة العبودية.

يا آدم إنما ابتليتك بالذنب لأني أحب أن أظهر فضلي، وجودي وكرمي، على من عصاني «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

يا آدم ، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب، فعلى من أجود بحلمي؟ وعلى من أجود

بعفوي ومغفرتي، وتوبتي، وانا التواب الرحيم؟.

يا آدم، لاتجزع من قولي لك (اخرج منها) فلك خلقتها، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة. وابذر بذر التقوى. وأمطر عليه سحائب الجفون. فإذا اشتد الحبُ واستغلظ، واستوى على سُوقه، فتعال فاحصده.

يا آدم، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إليّ في الصعود، وما أخرجتك منها نفياً لك عنها ، ما أخرجتك منها إلا لتعود.

يا آدم ، ذنب تذل به لدينا ، أحب إلينا من طاعة تُدِلُّ بها علينا.

يا آدم، أنين المذنبين، أحب إلينا من تسبيح المدلّين.

«يا ابن آدم، إنك مادعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا ابالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك. يا ابن آدم، لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا. أتيتك بقرابها مغفرة».

يذكر عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت، أن يعصمه ثم غلبته عيناه، فنام. فسمع قائلا يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة. فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، آمنت بي ولم تشرك بي شيئاً، أقمت حملة عرشي ومَنْ حوله يسبحون بحمدي و يستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر «ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً. فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي» (٣٩: ٥٣ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم).

ياعبدي! لا تعجز. فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة. ومنك الاستغفار وعليَّ المغفرة. ومنك التوبة وعليَّ تبديل سيئاتك حسنات» يوضحه:

الوجه السادس: وهو قوله تعالى (٢٥: ٧٠ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات. وكان الله غفورا رحيما) وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس رضي الله عنهما «ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه بنزول (٤٨: ١ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر).

واختلفوا في صفة التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيماناً.

وبالزنا عِفّة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالا صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة. فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لاينكر، وهو مشفق من كبارها فيقال: اعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: انّ لي ذنوباً ما أراها ههنا. قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه»**.

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأُعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب اثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين في هذا الحديث مايدل على ذلك؟.

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لايدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه. فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لايكون فيها ذرة من الخبيث. ولايدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقيَ عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان، ليخلص ذهب ايمانه من خبثه. فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح. وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أُعطيَ مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة. لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم

من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها. وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن التائب قد بدّل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

الوجه الثامن: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: ياليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة. فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة. وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فلهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عُذّب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأُعطيَ مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي صلى الله عليه وسلم عن كبار ذنوبه. ولما انتهى إليها ضحك. ولم يبين مايفعل الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين

أحدهما: قوله «اخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحا واغتباطاً.

والثاني: ضحك النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكر ذلك. وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يُقرِّره على نفسه من الذنوب، من غير أن يُقرَّر عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لايعاود الذنب ، وبالاقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي . وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع. وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله — كما تتضمن ذلك — تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، بل وتتضمن مقت من يتركه ومقاطعته. والتزام الأمر به والنهى عن تركه، فإن العمل الصالح — المشروط للتوبة، في آية الفرقان — هو ضد ما كان يأتيه من السوء، فلا يكون مجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة. وهي اسم لمجموع الأمرين. لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين. وهي كلفظة «التقوى» التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه. وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور، وإن كان مسماها أعم، إذ التقوى هي اتخاذ كل ما أعطى الله نعمه — من عافية، ومال وولد، وليل ونهار، وغير ذلك — وقاية يتقي بها مايكره ويخاف. في سيره إلى ربه ولدار الآخرة فإن الطريق كله عقبات، وأعداء من النفس الأمارة والهوى والشيطان تتناوشه، وتحذبه، محاولة صده وإرجاعه وإهلاكه، وقد ابتلاه الله بكل ذلك. وآتاه ما يمكنه من السلامة والعافية والنجاح. وذلك بحسن وضع النعمة من كل ذلك موضعه، فإن الهلاك إنما يكون بوضع هذه النعم على غير وضعها، بالجاهلية واتباع الهوى، وتغليب الشهوة البهيمية، والإنسلاخ من آيات الله، واتخاذ الشيطان ولياً من دون الله

ان حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب ، وترك ما يكره . فهي رجوع من مكروه إلى محبوب . فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها . والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها ، فقال **(٢٤ : ٣١ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون . لعلكم تفلحون)** فكل تائب مفلح. ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقال تعالى **(٤٩ : ١١ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)** وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم. وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم. ليس إلا. فالتائبون هم **(٩ : ١١٢ العابدون الحامدون السائحون، الراكعون الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله)** فحفظ حدود الله: جزء التوبة. والتوبة هي مجموع هذه الامور وإنما سمي تائباً: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته، بل لرجوعه إلى الله مولاه وحبيبه. وتخليصه نفسه من عدوه. فإن عدوه يريده لشقائه فيجذبه إليه بحبل الحيوانية وسفهها وجهلها وشهواتها والله مولاه يريده لسعادته، وهو يتودد إليه بجميع ما يعطيه في نفسه وما سخر له، ويجذبه إليه

بأسباب نعمه التي لاتحصى. ومن أنواعها، آياته في الأنفس والآفاق، وسننه التي لا تتبدل. وما يوحى الله الى رسله من الهدى والبصائر (١٠٤:٦ قد جاءكم بصائر من ربكم. فمن أبصر فلنفسه. ومن عمى فعليها. وما أنا عليكم بحفيظ).

فإذن: «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والديـــن كله داخل فى مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذن «التوبة» هى الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً و باطناً إلى ما يحبه ظاهراً و باطنا. و يدخل فى مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان. وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مؤمن، و بداية الأمر وخاتمته. كما تقدم. وهي الغاية التي وجُد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها. بل هوجزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علماًوعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام ، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هوتفاصيل «التوبة» وآثارها.

● نفارق الباطل ثم نرجع الى الحق

وأما «الاستغفار» فهو نوعان. مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه (٧١:١٠:١١ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدرارا) وكقول صالح لقومه (٢٧:٤٦ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) وكقوله تعالى (٢:١٩٩ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) وقوله (٨:٣٣ وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم. وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) والمقرون كقوله تعالى (١١:٣ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى و يؤتِ كلّ ذى فضل فضله) وقول هود لقومه (١١:٥٢ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا) وقول صالح لقومه (١١:٦١ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها. فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب) وقول شعيب (١١:٩٠ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود) فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله. وهومحو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر. فإن الله يستر على من

يغفر له ومن لا يغفرله. ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه. فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقى الرأس من الأذى. والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى مغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلا بد فى لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب فى قوله (٨:٣٣ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**) فإن الله لايعذب مستغفراً. وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته. فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار. وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق.

ومع ذلك فلا مانع ان يكون معنى الاستغفار: طلب الغفر. وهو الستر، ستر العيوب والنقائص المهلكة الضارة وأكبر عيب الإنسان ونقصه: هو جهله وظلمه. فخطام الجهل والظلم يجره العدو إلى ما يهلكه و يرديه، وستره إنما يكون باليقظة والحرص على الانتفاع بما يؤتيه الله ربه من العلم والعدل والإحسان. وكلما غفل الإنسان عن كرامته الإنسانية، التى منحها الله فيه من روحه، كلما أخلد إلى أرض البهيمية، فاشتد جهله وظلمه. وفضح نفسه. وكلما عنى بإنسانيته وغذاها بالتفكر فى آيات الله وسننه الكونية فى نفسه وفى الآفاق، وتدبر آياته العلمية المرسل بها رسله. كلما غفر الله له وستر من عيوبه ونقصانه. وبهذا يفهم قول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (٤٨:١ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر و يتم نعمته عليك) فإنه صلى الله عليه وسلم لم يأت منكراً قط ولا عصى ربه قط ولا فسق عن أمره. وإنما هو ستر عيوب البشرية وخلاتها بما أوتى من العلم والهدى الذى مكن له ربه به، من التحكم فى هذه الطبائع البشرية، والإحسان بها وفيها. حتى كان الحكيم الرشيد عليه الصلاة والسلام.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله.

فهنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. و يرجع إلى الطريق التى فيها نجاته. والتى توصله إلى مقصوده. وفيها فلاحه

فهاهنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيىء والرجوع إلى غيره. فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء ــ والله أعلم ــ الأمر بهما مرتباً بقوله (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم.

●التوبة النصوح

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها. قال الله تعالى (٦٦:٨ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نَصوحا. عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) فجعل وقاية شر السيئات ــ وهو تكفيرها ــ بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات ــ وهو حصول ما يحب العبد ــ منوطاً بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنَصَح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد. فقال عمر بن الخطاب، وأبي ابن كعب رضي الله عنهما «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع» وقال الحسن البصري «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي «أن يستغفر باللسان، و يندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب «توبة نصوحا. تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحَلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء. الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار. بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهروب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والاوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب. وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

•إثابة أولها إلهام

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها . وتوبة منه بعدها . فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة . فإنه تاب عليه أولا إذناً وتوفيقاً وإلهاماً ، فتاب العبد . فتاب الله عليه ثانياً ، قبولا وإثابة . قال الله سبحانه وتعالى (٩ : ١١٧ ، ١١٨ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم . ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت . وضاقت عليهم أنفسهم . وظنوا أن لامَلْجَأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم) فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هي التي جعلتهم تائبين . فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم . فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فقد أعطاه ربه هداية الفطرة (٧٦:٢،٣ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه. فجعلناه سميعاً بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) فإن أحسن الاهتداء بهداية الفطرة في سمعه وبصره وفؤاده، وشكر ربه عليها باستعمالها في إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التي خلقها الله، فعقلها وأحسن ترتيبها والاستفادة منها. زاده الله هدى وزاده من نعمة التفكر واستأمل صفاء ونوراً، اهتدى به إلى الفقه في كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور).

فإذا اهتدى العبد: أوجبت له تلك الهداية هداية اخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى

(١٧:٤٧ والذين اهتدوا زادهم هدى) فهداهم أولا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً. وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى **(٦١: ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)** فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول»، والآخر» فهو المعدّ. وهو الممدّ ومنه السبب والمسبب. وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به «**وأعوذ بك منك**» والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد: رجوعه الى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

و «التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلاً الى رضوانه. وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: **(١٥٣:٦ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل)** و بقوله **(٥٢:٤٢، ٥٣ وإنك لتهدى الى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات ومافي الارض)** و بقوله **(٢٤:٢٢ وَهُدوا إلى الطيب من القول. وَهُدوا الى صراط الحميد)**.

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً الى جنته. فمن رجع الى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى **(٧١:٢٥ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا)** قال البغوى وغيره «يتوب الى الله متابا: يعود إليه بعد الموت، متابا حسنا يفضل على غيره» فالتوبة الأولى — وهي قوله «ومن تاب» — رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع الى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر. والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته الى الله وحده، ولوجهه خالصاً، لالغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه. ورجع إليه. والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا — على أحد التأويلين — قوله تعالى **(٥: ٦٧ يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته)**. أي اعلم مايترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوى العزم وصار جازما: وُجد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً، فتوبته إلى الله عملا وفعلا. وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم «**فمنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته الى الله ورسوله. ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ماهاجر إليه**».

صغائر دون الكبائر

و«الذنوب» تنقسم إلى صغائر وكبائر. بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار. قال الله تعالى (٤: ٣١ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم**) وقال تعالى (٥٣: ٣١ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم**) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**».

والذي جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لَمَماً» و «مُحقّرات» كما في الحديث «**إياكم ومُحقّرات الذنوب**» وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر. حكاه البغوي وغيره.

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يُلِمّ بالكبيرة مرة. ثم يتوب منها. ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه. وعلى هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمماً.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر. وهو منقطع. أي لكن يقع منهم اللمم.

وحسّن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب ـ والغالب خلافه ـ أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحاً. فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش. فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال. ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ثم اختلفوا في فصلين. أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها، أو حَدٌّ يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

• تفسير اللَّمَم

فأما «اللمم» فقد روى عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه. وإن كان كبيراً. قال البغوي: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص «اللمم ما دون الشرك» قال السدي: قال أبو صالح: سُئِلْتُ عن قول الله عز وجل «إلا اللمم؟» فقلت: «هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم لا يعاوده» فذكرت ذلك لابن عباس فقال «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر. وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في

صحيح البخاري من حديث طاوس عنه قال «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنا. أدرك ذلك لا محالة. فزنا العين: النظر. وزنا اللسان: النطق. والنفس تَمَنّىٰ وتشتهي. والفرجُ يصدّق ذلك أو يكذّبه» رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة. وفيه «والعينان زناهما: النظر. والأذنان: زناهما الاستماع. واللسان: زناه الكلام. واليد: زناها البطش. والرِّجْلُ: زناها الخُطَى».

وقال الكلبي «اللمم» على وجهين. كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا في الدنيا. ولا عذاباً في الآخرة. فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يُلِمُّ به المسلم المرة بعد المرة. فيتوب منه.

قال سعيد بن المسيب: هو ما ألمّ بالقلب. أي ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد. فهو مغفور. فإن أعاد النظر. فليس بلمم، وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا * وأي عبد لك لا ألما»

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم. فالله لا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود. وابن عباس، ومسروق، والشعبي. ولا ينافي هذا قول أبي هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، و يكون على وجهين. كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ــ ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره ــ باللمم. ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة. وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم وغور علومهم. ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث. وإنما يخاف العَنَتُ على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مراراً كثيرة. وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا. و يذكر عن علي رضي الله عنه: أنه «دُفع اليه سارق: فأمر بقطع يده ، فقال: يا أمير المؤمنين ، والله ماسرقت غير هذه المرة. فقال : كذبت . فلما قطعت يده قال : اصدقني، كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم. فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبي هريرة ، وابن عباس ، متفقان غير مختلفين. والله اعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والاعتاب بالفعل حيناً بعد حين. فإنه يقال: ألمّ بكذا. إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القُبْلة والغَمْزة لَمَماً، لأنها تُلِمُّ بما بعدها. و يقال: فلان لايزورنا إلا لماماً. أي حيناً بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم» فإنهم لايجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه. فإن سياق الكلام في تقسيم الناس الى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه. ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لايكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش. فحسُن حينئذ استثناء اللمم. وإن لم يدخل في الكبائر. فإنه داخل في جنس الاثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى (١٩:٦٢ لايسمعون فيها لَغْوًا إلا سلاما) فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله (٢٨:٢٤ لايذوقون فيها برداً ولاشرابا إلا حميما وغساقا) فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لايسمعون فيها شيئاً إلا سلاما. وفي الثاني: لايذوقون فيها شيئاً إلا حميما وغساقا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لابطريق العموم الذي يتطرق اليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى (٤:١٥٦ مالهم به من علم إلا اتباع الظن) فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى (٤:٢٢ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سَلَف) إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ماقد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك (٤:٢٣ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف) وإن كان المراد به: ماكان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال «إلا ماقد سلف».

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

وأما قوله (٤٤:٥٦ لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لايتطرق إليه استثناء ألبتة. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جارٍ في كل منقطع. فتأمله فإنه من أسرار العربية.

وقريب من هذا لفظة «أو» في قوله تعالى (٢: ٧٤ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك. فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله (٣٧: ١٤٧ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة الف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

• إحصاء الكبائر

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافا لايرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغَمُوس».

وفيهما عن عبدالرحمن بن أبي بكْرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ــ ثلاثا ــ قالوا: بلى، يارسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ــ وجلس وكان متكئاً ــ فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت».

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شُرحبيل عن عبدالله بن مسعود قال: قلت «يارسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نِدًا وهو خلقك. قال قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يَطْعَم معك. قال قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تُزاني بحليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي صلى الله عليه وسلم (٢٥: ٦٨ والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر. ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون)».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يارسول الله، وماهن؟ قال: الشرك بالله. والسحرُ. وقتلُ النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وروى شعبة عن سعد بن ابراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه. قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل، فيسب أباه. ويَسُبُّ أمه، فيسب أمه».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن من أكبر

الكبائر: استطالةَ الرجل في عِرض أخيه المسلم بغير حق».

وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه «أكبر الكبائر: الشرك بالله. والأمنُ من مكر الله. والقنوط من رحمة الله. واليأس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال «كل شيء عُصِي الله به فهو كبيرة. من عمل شيئاً منها فليستغفر الله. فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر».

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه «ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله (٤: ٣١ إن تجتنبوا كبائر ماتُنهونَ عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فهو كبيرة» وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا، أو عذاباً في الآخرة. وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيراً، أو عظيماً. نحو قوله (٤: ٣ إنه كان حُوباً كبيراً) (١٧: ٣١ إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً) (٣١: ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) (١٢: ٢٨ ان كيدكن عظيم) (٢٤: ١٦ سبحانك! هذا بهتان عظيم) (١٢: ٥٣ إن ذلكم كان عند الله عظيماً).

وقال مالك بن مِغْوَل: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة.

قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة. فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع. وهذا معنى قول بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. لأن البدعة لا يتاب منها. والمعصية يتاب منها.

وقالت فرقة: الصغائر مادون الحدين، والكبائر: ماتعلق بها أحد الحدين.

ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا والآخرة. فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنا وشرب الخمر. والسرقة والقذف. أو عليه وعيد في الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب في آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته أمانته، ونحو ذلك. فهو من الكبائر. وصدق ابن عباس رضى الله عنهما في قوله «هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع».

• حسنات المسيء تشفع له

وههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها — من الحياء والخوف،

والاستعظام لها ـــ مايلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة ـــ من قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف ، والاستهانة بها ـــ مايلحقها بالكبائر . بل يجعلها في أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى مايقوم بالقلب. وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضاً فإنه يُغْفَى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، مالا يعفى لغيره، و يسامح بما لايسامح به غيره.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـــ قدس الله روحه ـــ يقول: انظر إلى موسى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجَرَّ بلحية نبيٍّ مثله، وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد صلى الله عليه وسلم ورَفْعِه عليه، وربُّه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه و يكرمه ، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره ، وعالج أُمَّتَي القِبْط و بني إسرائيل أشد المعالجة. فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظر إلى يونس بن مَتَّى حَيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى، غاضَبَ ربه مرة. فأخذه وسَجَنه في بطن الحوت. ولم يحتمل له ما احتمل لموسى. وفرقٌ بين مَنْ إذا أتى بذنب واحد ، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن مايشفع له، و بين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع. كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله . وتذكِّر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذى النون (٣٨: ١٤٣، ١٤٤ **فلولا أنه كان من المسبحين. لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يبعثون**) . وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال (١٠: ٩٠ **آمَنْتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل**) قال له جبريل (**آلآن وقد عصَيْتَ قبلُ، وكنت من المفسدين؟**).

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته . ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالا يغفر لصاحب الإشراك . لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. و يسامحه مالا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم. كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لايشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لايدخل النار أحد من أهل التوحيد. بل كثير منهم يدخل بذنوبه. و يعذب على مقدار جرمه. ثم يخرج منها. ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه.

ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

اعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوتُ أهلها في ذلك النور — قوة، وضعفاً — لايحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء . وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم ، على هذا المقدار ، بحسب مافي قلوبهم من نور هذه الكلمة ، علماً وعملاً ، ومعرفة وحالا.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد : أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته . حتى إنه ربما وصل إلى حال لايصادف معها شبهة ولاشهوة، ولاذنباً ، إلا أحرقه. وهذا حال الصادق في توحيده . الذي لم يشرك بالله شيئاً. فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها. فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته. فلا ينال منها السارق إلا على غِرّة وغفلة لابد منها للبشر. فإذا استيقظ وعلم ماسُرق منه استنقذه من سارقه . أو حَصّل أضعافه بكسبه. فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس. ليس كمن فتح لهم خزانته، وَوَلّى الباب ظَهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لاخالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه. كما كان عُبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن — من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض — : مايحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي صلى الله عليه وسلم **(إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)** وقوله **«لايدخل النار من قال: لا إله إلا الله»** وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة . وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي ، واستقرار الشرع.

والشارع — صلوات الله وسلامه عليه — لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط. فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام . فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم . وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار. فلابد من قول القلب ، وقول اللسان . وقول القلب : يتضمن من معرفتها ، والتصديق بها ، ومعرفة حقيقة ماتضمنته — من النفي والإثبات ، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به ، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى

بالقلب : علماً ومعرفة و يقيناً ، وحالا ــ : مايوجب تحريم قائلها على النار. وكل قول رَتّبَ الشارع مارتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام. كقوله صلى الله عليه وسلم «**من قال في يوم : سبحان الله و بحمده مائة مرة، حُطَّتْ عنه خطاياه ــ أو غفرت ذنو به ــ ولو كانت مثل زَبَدِ البحر**» وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه، غافلا عن معناها، معرضا عن تدبرها، ولم يواطىء قلبه لسانه. ولاعرف قدرها وحقيقتها. راجياً مع ذلك ثوابها. حَطَّتْ من خطاياه بحسب مافي قلبه. فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها. وإنما تتفاضل بتفاضل مافي القلوب. فتكون صورة العملين واحدة. و بينهما في التفاضل كما بين السماء والارض. والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً، و بين صلا تيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل ماقام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير الى القرية. وحملته ــ وهو في تلك الحال ــ على أن جعل ينوء بصدره. و يعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخر. ولاجرم أن أُلحق بالقرية الصالحة. وجُعل من أهلها.

وقريب من هذا: ماقام بقلب البَغِيّ التي رأت ذلك الكلب ــ وقد اشتد به العطش يأكل الثرى ــ فقام بقلبها ذلك الوقت ــ مع عدم الآلة، وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها ــ ماحملها على أن غَررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خُفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف . وحَمْلِها خفها بفيها. وهو ملآن ، حتى أمكنها الرُّقِيُّ من البئر ، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضر به، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب. من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً. فأحرقت أنوارُ هذا القدر من التوحيد ماتقدم منها من البغاء ، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله . والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي ، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً. والله المستعان.

● علو المنزلة يوجب زيادة الانتباه

فإن قيل : قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. و يعفى للولي عما لايعفى لسواه.

فهذا الذي ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم مايكره؟ كقوله تعالى **(٣٣:٣٠ يانساء النبي، من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين)**

وقوله تعالى (١٧: ٧٣، ٧٤ **ولولا أن ثبّتناك لقد كِدْت تركن إليهم شيئاً قليلا * إذاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضعف الممات. ثم لاتجد لك علينا نصيراً)** أي لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء. ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقال تعالى (٦٩: ٤٤ ــ ٤٦ **ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين)** أي لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومن التقول عليه سبحانه. وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وماذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها في بطن الحوت. و يكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضاً حق. ولا تنافي بين الأمرين. فإن من كملت عليه نعمة الله. واختصه منها بما لم يختص به غيره: في إعطائه منها ماحرمه غيره. فحُبيَ بالإنعام، وخص بالإكرام، وخص بمزيد التقريب. وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع. فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره. تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره. فهو إذا غَفَل وأخَلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّه بما لم ينبه عليه البعيد البراني، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً. فيجتمع في حقه الأمران.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع ، حيث جعل حَدَّ من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا: الرجم، وحَدَّ من لم يعطه هذه النعمة الجلد.

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

لله سر تحت كل لطيفة   فأخو البصائر غائص يتملق

أجناس المحرمات

ولايستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص من جميع اجناس المحرمات.

وهي اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله عز وجل: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والاثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الإثنا عشر جنساً عليها مدار كل ماحرم الله. وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها. وقد يعلم ذلك. وقد لايعلم.

فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها. وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت. لتتبين حدودها وحقائقها. والله الموفق لما وراء ذلك، كما وفق له. ولاحول ولاقوة إلا بالله.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب. والعبد أحوج شيء إليه.

● كفر دون كفر

فأما «الكفر» فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث **«اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة»** وقوله **«من أتى كاهناً أو عرَّافاً، فصدقه بما يقول. فقد كفر بما أنزل الله على محمد»** وقوله **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»** وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى (٥: ٤٤ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**) قال ابن عباس «ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر. وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس. وقال عطاء «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح. فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: و يدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأو يل عبد العزيز الكناني. وهو أيضاً بعيد. إذ الوعيد على نفى الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه و ببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأو يل. حكاه البغوي عن العلماء عموماً.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة. فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه. مع تيقنه أنه حكم الله. فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطىء، له حكم المخطئين.

والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر. فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة.

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق. وكفر إعراض. وكفر شك. وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار. فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به المعذرة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٧: ١٤ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعُلُوًّا**) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٦: ٣٣ **فإنهم لايكذبونك. ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**).

وإن سُمى هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح. إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله ولاقابله بالإنكار. وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول. وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم يَنْقَدْ له إباء واستكباراً. وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٣: ٤٧ **أنؤمن لبشرين مثلنا، وقومهما لنا عابدون؟**) وقول الأمم لرسلهم (١٤: ١٠ **إن أنتم إلا بشر مثلنا**) وقوله (٩١: ١١ **كذبت ثمود بطغواها**) وهو كفر اليهود كما قال تعالى (٢: ٨٩ **فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به**) وقال (٢: ١٤٦ **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**) وهو كفر أبي طالب أيضا. فإنه صدقه ولم يشك في صدقه. ولكن أخذته

الحمية، وتعظيم ابائه ان يرغب عن ملتهم، و يشهد عليهم بالكفر .

وأما كفر الإعراض : فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لايصدقه ولايكذبه. ولا يواليه ولا يعاديه. ولايصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي صلى الله عليه وسلم «والله أقول لك كلمة. إن كنت صادقا، فأنت أجلّ في عيني من أن أرد عليك. وإن كنت كاذبا، فأنت أحقر من أن أكلمك».

وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية، المقلدين للافرنج من اليهود والنصارى المتحللين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفههم: أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية.

وأما كفر الشك: فإنه لايجزم بصدقه ولايكذبه، بل يشك في أمره. وهذا لايستمر شكُّه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم جملة. فلا يسمعها ولايلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها: فإنه لايبقى معه شك. لأنها مستلزمة للصدق. ولاسيما بمجموعها. فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، و ينطوي بقلبه على التكذيب. فهذا هو النفاق الأكبر. وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملةً ما أنزله الله ، وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفةً وصف الله بها نفسه، أو خبراً أخبر الله به. عمداً ، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلا، أو تأو يلا يُعذر فيه صاحبه: فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه. وأمر أهله أن يحرقوه و يذروه في الريح. ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله. إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه. ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكذيبا، والقصة مرو ية في صحيح البخاري وغيره.

• والشرك شركان ايضا

وأما الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر . فالأكبر : لايغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله نداً، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار (٢٦: ٩٧، ٩٨ تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسو يكم برب العالمين) مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، ور به ومليكه، وأن آلهتهم

لاتخلق ولاترزق، ولاتحيي ولاتميت. وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم و يعظمونها و يوالونها من دون الله. وكثير منهم ـــ بل أكثرهم ـــ يحبون آلهتهم اعظم من محبة الله. و يستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. و يغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم ـــ من المشايخ ـــ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين. وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حَرّد. وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه. ولم تتنكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جَهرة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه دَيْدَناً له إن قام وإن قعد. وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه. وهو لاينكر ذلك. و يزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده. ووسيلته إليه.

وهكذا كان عباد الأصنام سواء. وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم. فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذوها من البشر. قال الله تعالى، حاكيا عن أسلاف هؤلاء المشركين (٣٩:٣ **والذين اتخذوا من دونه أولياء: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون**) ثم شهد عليهم بالكفر والكذب. وأخبر: أنه لايهديهم فقال (**إن الله لايهدي من هو كاذب كفار**).

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليا، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لايعادي من أنكره!.

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله. وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لايشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه. ورضي قوله وعمله. وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعا من دون الله ربه ومولاه.

و «الشفاعة» التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَحّده. والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء. فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم. و يفوز بها الموحدون.

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة ـــ وقد سأله **«من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله؟»** ـــ قال **«أسعد الناس بشفاعتي: من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه»** كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس

ماعند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله. فقلب النبي صلى الله عليه وسلم ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد. فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً: أنه يشفع له، و ينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن الله لايشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول (٢:٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟» وفي الفصل الثاني (٢١:٢٨ ولايشفعون إلا لمن ارتضى) و بقي فصل ثالث، وهو أنه لايرضى من القول والعمل إلا التوحيد ، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين . كما قال أبوالعالية «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟».

فهذه ثلاثة أصول . تقتلع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لاشفاعة إلا بإذنه. ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله. ولايرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله .فالله تعالى: لايغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى (٦:١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة، كما في الآية الأخرى (٢٦:٩٧، ٩٨ تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) وكما في آية البقرة (٢:١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله).

وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لانحبهم كحب الله، ولا نسوّيهم بالله. ثم يغضب لهم ولحرماتهم ــ اذا انتهكت ــ أعظم مما يغضب لله، و يستبشر بذكرهم، و يتبشبش به. سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله و بين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح و يُسَرّ و يَحِنّ قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وَجَرَّدْت توحيده لحقته وَحْشَة، وضيق، وحرج ورماك بنقص الإلهية التي له. وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بعداوتهم. و بغوا لنا الغوائل. والله مخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله. وهكذا قال النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم، لما قال لهم «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وَعِبْته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذى أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها..! وما ذلك بغريب، فقد قال الله تعالى (٣٩:٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) والشرك الجديد هو بعينه القديم.

ومنشأ هذا جميعه: التكذيب بيوم الدين، وأنه ليس على ما وصف الله العليم الحكيم، من الجزاء العادل، ووزن الأعمال بالقسط. وإنما هو ـ كما زعموا ـ بالأغراض والشفاعات التي لا يقدر الله ـ بزعمهم ـ على دفعها. وليست هذه هي الآخرة التي وصفها الله، وحذر عباده مواقفها. والمشركون ـ قديماً وحديثاً ـ يعتقدون أن أولياءهم فيهم شيء من خصائص الرب. ولذلك فهم ينادونهم، وقد ماتوا ودفنوهم. و يزعمون أنهم أحياء ليست حياة قبور وسؤال فيها، ولكن من جنس حياة الرب ـ سبحانه ـ يقدرون بها وفيها على ما لا يقدر عليه البشر الأحياء، فضلا عن الموتى. فلما جاءت الرسل يقولون لهم: إنهم بشر ماتوا. قالوا لهم: أنتم تسبون آلهتنا، وتنتقصونها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به (١٨:١٧ **ومن يهدى الله فهو المهتد. ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً**).

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله ولياً، أو شفيعاً. فهو (٢٩: ٤١ **كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت**) فقال تعالى (٣٤: ٢٢: ٢٣ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله. لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**).

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك. فإن لم يكن شريكا له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، و برهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. و يظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا. وهذا هو الذي يحول بين القلب و بين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شر منه، أو

ونه. فينتقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه. و يعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعه سنة، والسنة بدعة. و يكفّر الرجل بمحض الايمان وتجريد التوحيد. و يُبدَّع بتجريد متابعة لرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حيّ يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

• إحصاء النفاق الاصغر

وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»

وإنما كان الحلف بغير الله شركا. لأن حقيقة اليمين ومقتضاه: أن الحالف يؤكد صدق خبره بأنه لو كان كاذباً ينتقم منه المحلوف به انتقاماً لا يقدر هو ــ ولا أحد من البشر ــ أن يدفعه. لأن المحلوف به يقدر أن يوصل انتقامه و بطشه من طريق فوق قدرة البشر وطاقتهم. وهذا لا يكون إلا لله القوى المتين ذي البطش الشديد. الفعال لما يريد.

ومثله قول الرجل للرجل «ما شاءالله وشئت» و«هذا من الله ومنك» و«أنا بالله و بك» و «مالى إلا الله وأنت» و «أنا متوكل على الله وعليك» و «لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركا أكبر، بحسب قائله ومقصده. وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له «**ما شاء الله وشئت**»: «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواعه: التوبة للشيخ. فإنها شرك عظيم. فإن التوبة لا تكون إلا لله. كالصلاة، والصيام، والحج، والنسك. فهي خالص حق الله.

وفى المسند: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أتى بأسير. فقال: اللهم إنى أتوب إليك. ولا أتوب إلى محمد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عرف الحق لأهله**».

فالتوبة عبادة لا تنبغى إلا لله. كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله. فإنه شرك. وهو أعظم من الحلف بغير الله. فإذا كان «من حلف بغير الله فقد أشرك» فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن فى السنن من حديث عقبة بن عامر عنه صلى الله عليه وسلم «**النذر حلفة**».

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله. وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى. والغنية بذلك عن حمده سبحانه، والذم والسخط على مالم يقسمه، ولم يجر به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن يكون فى الكون مالا يشاؤه.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله. وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، كما تقدم. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه. والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه. وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد. فجاءهذا المشرك بسبب يمنع الإذن. وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك. والميت محتاج إلى من يدعوله، و يترحّم عليه، و يستغفر له، كما أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم، إذا زرنا قبور المسلمين «أن نترحم عليهم. ونسأل لهم العافيةوالمغفرة»

وما نجا من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله. وعادى المشركين في الله. وتقرب بمقتهم إلى الله. واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله. وخوفه لله. ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله. والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله. وأخلص قصده لله، متبعاً لأمره، متطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله. وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله. و بالله. ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة. لا يحصيها إلا الله.

ولو ذهبنا نذكر أنواعه لا تّسع الكلام أعظم اتساع.

●داء النفاق

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئاً منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر خفي على الناس. وكثيراً ما يخفى على من تلبس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به. لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه. و ينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين. وكشف أسرارهم في القرآن. وجلّى لعباده أمورهم. ليكونوا منها ومن أهلها على حذر. وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم. وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم

شديدة جدا. لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته، وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟! وكم من حِصْن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟! وكم من عَلَمٍ له قد طمسوه؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشُّبَه في أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عَمُّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها و يقطعوها؟!.

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية. ولا يزال يطرقه من شُبههم سَرِيَّةٌ بعد سرية. و يزعمون أنهم بذلك مصلحون (٢: ١٢ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) • (٦١: ٨ يريدون ليُطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون).

•قبائح الشخصية النفاقية

اتفقوا على مفارقة الوحي. فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون (٢٣: ٥٣ وتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً. كل حزب بما لديهم فرحون) • (٦: ١١٢ يوُحِي بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ القول غروراً) ولأجل ذلك (٢٥: ٣٠ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً).

دَرَسَت معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودَثَرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفَلَتْ كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها. وكَسَفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. ولم يرفعوا به رأساً. ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا. خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة. وعزلوها عن ولاية اليقين. وشَنُّوا عليها غارات التأويلات الباطلة، وقالوا: ما لنا وللظواهر اللفظية لا تفيدنا شيئاً من اليقين؟ حسبنا ما وجدنا عليه خَلَفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور. ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هِمَّتهم إلى فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين: أعلم وأحكم. وطريقة السلف الماضين: أجهل، لكنها أسلم.

قد نَهِكَت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها. وغلبت القصودُ السيئة على إراداتهم ونِيّاتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون (٢: ١٠ في قلوبهم مرض. فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقْر. فهي لا تسمع منادي الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى. فهي لا تبصر حقائق القرآن. وألسنتهم بها خَرَس عن الحق فهم به لا ينطقون (٢: ١٨ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون)

لهم علامات يُعْرَفون بها مبينة في السنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم — والله — الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان وقعدبهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن: فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلا (٤: ١٤٣ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى. يراءون الناس. ولا يذكرون الله إلا قليلا).**

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين. فهم واقفون بين الجمعين. ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلا (٤: ١٤٣ **مذبذبين بين ذلك. لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء. ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا).**

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلاً (٤: ١٤١ **الذين يتربصون بكم. فإن كان لكم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيب، قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة. ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا).**

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه: ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه. فتراه عند الحق نائماً. وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام (٢: ٢٠٤ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه. وهو ألد الخصام).**

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد. ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد (٢: ٢٠٥ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد).**

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين. وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً. ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً (٤: ٦١ **وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً).**

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه. لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه. فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك أهل الريبة يكذبون. ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد (٦٣: ٢ **اتخذوا أيمانهم جنة. فصدوا عن سبيل الله.**

إنهم ساء ما كانوا يعملون).

تبّاً لهم! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان. فلما رأوا طول الطريق وبُعد الشقة نكصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام فى ديارهم. فما مُتّعوا به ولا بتلك المجنة انتفعوا. فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا. وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا (٦٣: ٣ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا. فطُبِعَ على قلوبهم. فهم لا يفقهون).

أحسن الناس أجساماً، وأخلبهم لساناً. وألطفهم بياناً. وأخبثهم قلوبا. وأضعفهم جَناناً. فهم كالخُشُب المسندة التى لا ثمر لها. قد قُلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون (٦٣: ٤ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم. وإن يقولوا تسمع لقولهم. كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَة. يحسبون كل صيحة عليهم. هم العدو. فاحذرهم! قاتلهم الله. أنّى يؤفكون؟).

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول، فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب. وينقرونها نَقْر الغراب. إذ هى صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب. ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففى البيت أو الدكان.

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمّهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم (٣: ١٢٠ إن تمسسكم حسنة تسؤهم. وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها).

كره الله طاعاتهم، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم. فثبّطهم عنها وأقعدهم. وأبغض قُربهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه. فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم. وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم فى الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين. فقال تعالى (٩: ٤٦ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدّة. ولكن كره الله انبعاثهم. فثبطهم. وقيل: اقعدوا مع القاعدين) ثم ذكر حكمته فى تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال، وهو أحكم الحاكمين (٩: ٤٧ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً. ولأوضعوا خِلالكم. يبغونكم الفتنة. وفيكم سمّاعون لهم. والله عليم بالظالمين).

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها. وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها. وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها. وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم. وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم. واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم. فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبينها لهم. فقال (٤٧: ٩ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم).

أسرّوا سرائر النفاق. فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان. ووسَمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم (٤٧: ٢٩، ٣٠ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟ ولو نشاء لأريناكهم، فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم فى لَحْن القول. والله يعلم أعمالكم).**

فكيف إذا جُمعوا ليوم التلاقي، وتجلّى الله ـــ جلّ جلاله ـــ للعباد وقد كُشف عن ساق؟ ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون (٦٨: ٤٣ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذِلةٌ. وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون).**

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشعرة، وأحَدُّ من الحسام. وهو دَحض مزلّة، مُظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطىء الأقدام. فقُسّمت بين الناس الأنوارُ. وهم على قدر تفاوتها فى المرور والذهاب. وأُعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام. كما كانوا بينهم فى هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام. فلما توسطوا الجسر عصَفت على أنوارهم أهوية النفاق. فاطفأت ما بأيديهم من المصابيح. فوقفوا حيارَى لا يستطيعون المرور. فضُرب بينهم و بين أهل الإيمان بسور له باب. ولكن قد حيل بين القوم و بين المفاتيح، باطنه ـــ الذى يلى المؤمنين ـــ فيه الرحمة، ومايليهم من قِبَلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعلُ الركب تلوح على بعد كالنجوم. تبدو لناظر الإنسان (٥٧: ١٣ **انظرونا نَقْتبِس من نوركم)** لنتمكن فى هذا المضيق من العبور. فقد اطفئت أنوارنا. ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور (**قيل: ارجعوا وراءكم. فالتمسوا نوراً)** حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد فى مثل هذا المضمار! كيف نلتمس الوقوف فى هذا المضيق؟ فهل يلوى اليومَ أحد على أحد فى هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم فى هذه الدار. كما يُذَكّر الغريب صاحبَ الوطن بصحبته له فى الأسفار (**ألم نكن معكم؟)** نصوم كما تصومون، ونصلى كما تصلون. ونقرأ كما تقرأون. ونتصدق كما تصدقون. ونحج كما تحجون؟ فما الذى فرق بيننا اليوم، حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ (**قالوا: بلى)** ولكنكم كانت ظواهركم معنا و بواطنكم مع كل ملحد، وكل ظلوم كفور (٥٧: ١٤، ١٥ **ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصْتُم وارتبتم، وغرّتكم الأمانىّ. حتى جاء أمرُ الله وغرّكم بالله الغَرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فِدْية ولا من الذين كفروا. مأواكم النار هى مولاكم. وبئس المصير).**

لا تستطل أوصاف القوم. فالمتروك ـــ والله ـــ أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله فى شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفى أجواف القبور. فلاخلّت بقاع الأرض منهم لئلا

يستوحش المؤمنون فى الطرقات. وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع فى الفلوات. سمع حذيفة رضى الله عنه رجلا يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال «يا ابن أخى، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى طرقاتكم من قلة السالك».

تالله لقد قطّع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين. لعلمهم بدقّه وجله وتفاصيله وجمله. ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضى الله عنهما «يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سمّانى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم؟ قال: لا. ولاأزكى بعدك أحداً» وقال ابن أبى مُليكة «ادركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخارى. وذكر عن الحسن البصرى «ما أمنه إلا منافق. وما خافه إلا مؤمن» ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول فى دعائه «اللهم إنى أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى البدنُ خاشعاً والقلب ليس بخاشع».

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً و يقيناً، وخوفُهم من النفاق شديد. وهَمُّهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زَرْع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة. فإذا تمت هذه الأركان الأربعة: استحكم نبات النفاق وبنيانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرُف هار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلَى السرائر، وكُشف المستور، و بعثر ما فى القبور، وحُصِّل مافى الصدور. تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق: أن حواصله التى حَصَّلها كانت كالسراب (٢٤:٣٩ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب).

قلوبهم عن الخيرات لاهية. وأجسادهم إليها ساعية. والفاحشة فى فجاجهم فاشية. وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية. وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه ــ والله ــ أمارات النفاق. فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا. وإن وعدوا أخلفوا. وإن قالوا لم ينصفوا. وإن دُعوا الى الطاعة وقفوا. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدفوا. وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان. والخزى والخسران. فلا تثق بعهودهم. ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون. وهم لما سواها مخالفون (٩:٧٥-٧٧ ومنهم من عاهد الله: لئن آتانا من فضله، لنصّدقن ولنكونَنّ من الصالحين. فلما آتاهم من فضله

بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون).

●انواع الفسوق

وأما الفسوق: فهو فى كتاب الله نوعان: مفرد مطلق. ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضاً: فسوق كفر، يخرج عن الأسلام. وفسوق لايخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالىٰ (٤٩: ٧ ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ، وزينه فى قلوبكم. وكرَّهَ إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون).

والمفرد ـــ الذى هو فسوق كفر ـــ كقوله تعالى (٢: ٢٦، ٢٧ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً. وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله ـــ الآية) وقوله عز وجل (٢: ٩٩ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) وقوله (٣٢: ٢٠ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار. كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ـــ الآية) فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذى لا يخرج عن الإسلام: فكقوله تعالى (٢: ٨٢ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ـــ الآية) وقوله (٤٩: ٦ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ـــ الآية) فإن هذه الآية انزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق بعد الوقعة مُصَدِّقاً. وكان بينه و بينهم عداوة فى الجاهلية. فلما سمع القومُ بمقدمه تلَقَّوه، تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحدَّثه الشيطان: أنهم يريدون قتله. فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم. وأرادوا قتلي. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهَمَّ أن يغزوهم. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله، فقالوا يارسول الله سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه. ونؤدِّيَ إليه ما قبلنا من حق الله، فبدا له فى الرجوع. فخشينا أنه إنما رَدَّه من الطريق كتاب جاءَ منك لغضب غضبته علينا. وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. و بعث خالد ابن الوليد خِفية فى عسكر. وأمره أن يخفى عليهم قدومه. وقال له: انظر. فإن رأيت منهم ما يدل علىٰ إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل فى الكفار. ففعل ذلك خالد. ووافاهم. فسمع منهم أذان صلاتى المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم. ولم ير منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر. فنزل (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فَتَبَيَّنُوا ـــ الآية).

و «النبأ» هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن. و «التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علما

وههنا فائدة لطيفة. وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة. وإنما أمر بالتبين. فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق. ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحرى. وفسقه من جهات أخر. فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته ولوردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق. وبطل كثير من الأخبار الصحيحة. ولا سيما مَنْ فسقه من جهة الاعتقاد والرأى. وهو مُتحرٍ للصدق. فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته. وإن ندر منه مرة ومرتين. ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء. وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذى لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة.

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه. وهو قسمان: فسق من جهة العمل.. وفسق من جهة الاعتقاد

ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى (٦:٦٦ لا يعصون الله ما أمرهم) وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام (٢٠: ٩٢، ٩٣ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى؟ أفعصيت أمرى؟) وقال الشاعر.

أمرتُك أمراً حازماً. فعصيتنى فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً

فالفسق أخص بارتكاب النهى، وهو يطلق عليه كثيراً. كقوله تعالى (٢:٢٨٢ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. و يطلق كل منهما على صاحبه كقوله تعالى (٢٠:٥٠ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فسمى مخالفته للأمر فسقاً. وقال (٢٠:١٢١ وعصى آدم ربه فغوى) فسمى ارتكابه للنهى معصية. فهذا عند الإفراد. فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهى.

و «التقوى». اتقاء مجموع الأمرين. و بتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. و يترك معصية الله، على نور من الله يخاف عقاب الله

ومن تأمل كلمة «التقوى» فى كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب، — وقد سلم من التقليد وترديد الكلام بلا تدبر — علم أن «التقوى» هى أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله ربه وقاية له من كل ما يكره ويخاف من الخيبة والخسران فى الأولى والأخرى، و يتحرى بكل يقظة وهدى وبصيرة أن يجعل منه سبباً لفلاحه فى الأولى والأخرى، مؤمناًبأن كل ما آتاه ربه فى نفسه وماله وولده وما سخر له: صالح أن يكون سبباً للفلاح وسبباً للخسران، بل القرآن نفسه كذلك (١٧: ٨٢ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) فضلا عن غيره. ولذلك أوصانا الله ربنا أن نعوذ به ونلجأ إليه حال تلاوتنا لكل كلمة من القرآن من الشيطان الرجيم، حتى لا يضلنا فى فهمها على وضعهاالذى أراد الله لنا منها فنكون من الخاسرين.

وأما فسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله. و يوجبون ما أوجب الله. ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله، جهلا وتأو يلا، وتقليداً للشيوخ. و يثبتون مالم يثبته الله ورسوله كذلك.

فالتوبة من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله، من غير تشبيه ولاتمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل. وتلقى النفى والإثبات من مشكاة الوحى. لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التى هى منشأ البدعة والضلالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة: بمحض اتباع السنة. ولا يكتفى منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة. إذ التوبة من ذنب هى بفعل ضده. ولهذا شرط الله تعالى فى توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان. لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان. قال الله تعالى (٢: ١٥٩، ١٦٠ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله. ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا. فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**) وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم. لأن ذاك كتم الحق. وهذا كتمه ودعا إلى خلافه. فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس.

وشرط فى توبة المنافق: الإخلاص. لأن ذنبه بالرياء. فقال تعالى (٤: ١٤٥، ١٤٦ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار — ثم قال — إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله. فأولئك مع المؤمنين، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما**).

● ألوان من السوء... أخرى

وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان. قال الله تعالى (٥: ٢ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**) وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر. فكل إثم عدوان. اذ هو

فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم. فإنه يأثم به صاحبه. ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

فـ «الإثم» ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك. و«العدوان» ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء فى أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بَدنه أو عرضه. فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه. وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها. فهذا كله عدوان وتعَدٍ للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان فى حق الله، وعدوان فى حق العبد، كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال فى الأزواج والمملوكات الى ما حرم عليه من سواهما. كما قال تعالى (٢٣: ٥ ـ ٧ **والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون**) وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها، كوطئها فى حيضها أو نفاسها، أو فى إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين فتعداه إلى أكثر منه. فهو من العدوان، كمن أبيح له نظرة الخِطبة، والشهادة، والمعاملة، والمداواة، فأطلق طَرْفه فى ميادين محاسن المنظور، فتعدى المباح الى القدر المحظور، وحام حول الحِمى المحوط المحجور.

و«الإثم» و«العدوان» هما الإثم والبغى المذكوران فى سورة الأعراف (٧: ٣٣) مع أن «البغى» غالب استعماله فى حقوق العباد والاستطالة عليهم.

وعلى هذا فإذا قرن البغى بالعدوان كان «البغى» ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والبَهت والإبتداء بالأذى. و«العدوان» تعدى الحق فى استيفائه إلى أكبر منه. فيكون البغى والعدوان فى حقهم كالإثم والعدوان فى حدود الله.

فههنا أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد. فالبغى والعدوان والظلم تجاوز الحدين إلى ما وراءهما، أو التقصير عنهما. فلا يصل إليهما.

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء. صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة. وهى الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء وهو ما ظهر قبحها لكل أحد. واستفحشه كل ذى عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله «فاحشة» لتناهى قبحهما. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشا. وهو ما ظهر قبحه جداً من السَّبِّ القبيح، والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً. أى الفعل المنكر. وهو الذى تستنكره العقول

الفطر. ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم المستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة. كما فحُش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها: الذى تشتد نفرتها عنه وهو الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس «الفاحشة الزنا،والمنكر مالم يعرف فى شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حُسْنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه فى الفطر والعقول.

●القول على الله بلا عِلم: أصل المفاسد

وأما «القول على الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريماً. وأعظمها إثماً. ولهذا ذكر فى المرتبة الرابعة من المحرمات التى اتفقت عليها الشرائع والأديان. ولا تباح بحال. بل لا تكون إلا محرمة. وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذى يباح فى حال دون حال.

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم فى وقت دون وقت. وقال الله تعالى فى المحرم لذاته (٧:٣٣ **قل: إنما حَرَّمَ ربى الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن**)ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال (والإثم والبغىَ بغير الحق) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال (**وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال (**وأن تقولوا على الله مالا تعلمون**) فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً. فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى مالا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه و بغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثما. وهو أصل الشرك والكفر. وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها. وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض. وحذّروا فتنتهم أشد التحذير. و بالغوا فى ذلك ما لم يبالغوا مثله فى إنكار الفواحش، والظلم والعدوان. إذ مَضَرّة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيىء أو تحريمه من عنده. بلا برهان من الله. فقال (١٦:١١٦ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذبَ: هذا حلال وهذا حرام. لتفتروا على الله الكذب ــ الآية**).

فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى مالم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه؟.

قال بعض السلف: ليَحْذَرْ أحدكم أن يقول: أحل الله كذا. وحرم الله كذا. فيقولَ الله: كذبتَ. لم أُحِلَّ هذا، ولم أُحَرِّمْ هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأى المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم. فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله، يقرّب به إلى الله. و يشفع له عنده. و يقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم. دون العكس. إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله. فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم موجباً لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مُبَوّءا، وهو المنزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه. لأنه متضمن للقول على الله بلا علم. كصريح الكذب عليه. لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل. والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه **(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟)**.

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع.

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة. وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث والتفتيش عليها. ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً.

فإن السنة ــ بالذات ــ تمحق البدعة. ولا تقوم لها. وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة. اذ لاسلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، و يعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والاخلاص، وصدق اللجإ إلى الله. والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته **«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»** **ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة. والله المستعان.**

مشاهد المعصية

وهي: مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة، ومشهد الجبر. ومشهد القدر. ومشهد الحكمة. ومشهد التوفيق والخذلان. ومشهد التوحيد. ومشهد الاسماء والصفات. ومشهد الإيمان وتعدد شواهده. ومشهد الرحمة. ومشهد العجز والضعف. ومشهد الذل والافتقار. ومشهد المحبة والعبودية.

فالثلاثة الأول: للمنحرفين، والبواقي لأهل الاستقامة.

وهذا الفصل من أجلّ فصول الكتاب. وأنفعها لكل أحد. وهو حقيق بأن تُثنى عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به فى كتاب سواه. إلا ما ذكرناه فى كتابنا المسمى «سفر الهجرتين فى طريق السعادتين».

• الطبائع الحيوانية في بعض البشر

فأما مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال، الذين لا فرق بينهم و بين سائر الحيوان، إلا فى اعتدال القامة ونطق اللسان. ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأى طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلا عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر. وهم فى أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التى هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب. ونبح كل كلب يدنو منها. فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة. ولا يسمح لكلب بشيىء منها. وهمه شبع بطنه من أى طعام اتفق: ميتة أو مذكى، خبيث أو طيب. ولا يستحى من قبيح. إن تحمِلْ عليه يَلْهَث أو تتركه يلهث. إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك. وإن منعته هَرَّك ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية. لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد فى علفه زيد فى كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا مَثَّل الله سبحانه وتعالى به من حَمَّلَه كتابه. فلم يحمله معرفة ولا فقها ولا عملا. ومثل بالكلب عالم السوء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفى هذين المثلين أسرار عظيمة. ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية. همته العدوان على الناس ، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه.

وعلى هذا الشَّبَه اعتماد أهل التعبير للرؤيا فى رؤية هذا الحيوانات فى المنام عند الإنسان وفى

داره، أو أنها تحاربه. وهو كما اعتمدوه. وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك فى المنام وقائع كثيرة. فكان تأويلها مطابقا لأقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة أحد «بقراً تُنحر» فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار. فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض. وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع، فإنها ذلول مذللة، منقادة غير أبية. ورأى عمر بن الخطاب كأن دِيكا نَقره ثلاث نَقَرات، فكان طعنُ أبى لؤلؤة له. والديك رجل أعجمى شرير.

ومن الناس: من طبعه طبع خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوى عليها. فإذا قام الإنسان عن رجيعه قَمَّه. وهكذا كثير من الناس. يسمع منك و يرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوىء، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه. فإذا رأى سَقْطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها. فجعلها فاكهته ونُقْله.

ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التَّطوس والتزين بالريش. وليس وراء ذلك من شيء.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التى هى أشرف الحيوانات نفوسا، وأكرمها طبعا. وكذلك الغنم. وكل من ألِف ضَرْبا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه. فإن تغذى بلحمه كان الشَّبه أقوى. فإن الغاذى شبيه بالمتغذى.

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها. والله أعلم.

والمقصود: أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم. لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة.

● مشهد أصحاب الجَبر

ثم مشهد أصحاب الجبر. وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة.

يقولون: إن أحدهم غير فاعل فى الحقيقة ولا قادر، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه، وأنه آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر. وحملوا ذنوبهم عليه. وقد يَغْلون فى ذلك، حتى يروا أفعالهم كلها طاعات. خيرها وشرها، لموافقتها للمشيئة والقدر.

و يقولون: كما أن موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشيئة طاعة. كما حكى الله تعالى عن

المشركين إخوانهم: أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه. وهؤلاء شر من القدرية النفاة، وأشد منهم عداوة لله، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتى إن من هؤلاء من يتعذر عن إبليس، و يتوجع له، و يقيم عذره بجهده. و ينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال، و يقول: ما ذنبه، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه؟ ثم كيف يمكنه السجود، وهو الذى منعه منه وحال بينه و بينه؟ وهل كان فى ترك السجود لغير الله إلا محسنا؟

وهؤلاء أعداء الله حقاً، وأولياء إبليس، وإخوانه. وإذا ناح منهم نائح على إبليس، رأيت من البكاء والحنين أمراً عجباً. ورأيت من ظلمهم الأقدار، واتهامهم الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم، وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه.

●مشهد القَدَرية النُفاة

ثم مشهد القدرية النفاة: يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يُقَدِّرْ ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاء، ولا خلق أفعالهم، وأنه لا يقدر أن يهدى أحداًولا يضله إلا بمجرد البيان. لا أنه يلهمه الهدى والضلال، والفجور والتقوى، فيجعل ذلك فى قلبه.

و يشهدون أنه يكون فى ملك الله مالا يشاؤه، وأنه يشاء مالا يكون، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله.

فالمعاصى والذنوب خَلْقهم، وموجب مشيئتهم، لا أنها خلق الله. ولا تتعلق بمشيئته. وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم، وأن يُثَبِّتَ قلوبهم، وأن لا يزيغها، وأن يوفقهم لمرضاته، ويجنبهم معصيته. إذ هذا كله واقع بهم، وعين أفعالهم. لا يدخل تحت مشيئة الرب شيء منها.

والشيطان قد رضى منهم بهذا القدر. فلاَ يؤزهم إلى المعاصى ذلك الأزّ، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج. وله فى ذلك غرضان مهمان.

احدهما: ان يقر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة. وانكم تاركون الذنوب والكبائر التي يقع فيها اهل السنة. فدل على ان الامر مفوض اليكم واقع بكم، وانكم العاصمون لانفسكم، المانعون لها من المعصية.

الغرض الثاني: أنه يصطاد على أيديهم الجهال. فإذا رأوهم أهل عبادة، وزهادة وتورع عن

المعاصى، وتعظيم لها. قالوا: هؤلاء أهل الحق ــ والبدعة آثر عنده وأحب إليه من المعصية ــ فاذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على ايديهم، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها و يقبحها فى أعينهم وقلوبهم. ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر.

• أول الاستقامة: اكتشاف حكمة الخلق

ولكن اهل الاستقامة يشهدون حكمة الله فى تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه و يكرهه، و يلوم و يعاقب عليه. وأنه لوشاء لعصمه منه، ولحال بينه و بينه. وأنه سبحانه لا يُعْصَى قَسْراً. وأنه لا يكون فى العالم شىء إلا بمشيئته (٧: ٥٧ **ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين**).

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدى، وأن له الحكمة البالغة فى كل ما قدره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها. وتَكِلُّ الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وقدره، لما يبغضه و يسخطه: اسمه «الحكيم» الذى بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالى لملائكته ــ لما قالوا (٢: ٣٠ **أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**) فأجابهم سبحانه بقوله (**إنى أعلم مالا تعلمون**) فلله سبحانه فى ظهور المعاصى والذنوب والجرائم، وترتب آثارها من الآيات والحكم. وأنواع التعرفات إلى خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزته، وتمام ملكه، وكمال قدرته. وإحاطة علمه ــ: ما يشهده أولو البصائر عياناً ببصائر قلوبهم، فيقولون (٣: ١٩١ **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك!**) إن هي إلا حكمتك الباهرة، وآياتك الباهرة.

ولله فى كل تحريكة	وتسكينة أبداً شاهد
وفى كل شىء له آية	تدل على أنه واحد

فكم من آية فى الأرض بينة، دالة على الله، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق. كان سببها معاصى بنى آدم وذنوبهم، كآيته فى إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رؤوس الجبال، حتى أغرق جميع أهل الأرض، ونجى أولياءه، وأهل معرفته وتوحيده. فكم فى ذلك من آية وعبرة، ودلالة باقية على مر الدهور؟! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود.

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم. وإلقائهم له فى النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزُّلفى عند الله، والوجاهة عنده، بسبب صبرهم على أذى قومهم. وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بنى آدم، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصى والظلم، ومجاهدتهم فى الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات.

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التى وُجِدت بسبب ظهور المعاصى والجرائم. وكان من سببها: تقدير ما يبغضه الله و يسخطه. وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وآثر عنده من فوته بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا المحبوب العظيم: أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإن فواته وعدمه ـــ وإن كان محبوباً له ـــ لكن حصول هذا المحبوب الذى لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه. وفوات هذا المحبوب: أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط. وكمال حكمته تقتضى حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المحبوبين، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه. وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا: كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، مما تمنعه حكمة الله، وكمال قدرته ور بوبيته.

وكم فى تسليط أوليائه على اعدائه، وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما فى دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض: من حكمة بالغة، ونعمة سابغة؟

وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سماواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وخشية وافتقار اليه وانكسار بين يديه: أن لا يجعلهم من أعدائه. إذ هم يشاهدونهم و يشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومَقْته لهم، وما أعد لهم من العذاب. وكل ذلك بمشيئته وإرادته، وتصرفه فى مملكته. فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون، على أشد وَجَل، وأعظم مخافة، وأتم انكسار.

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت: وضعت رؤوسها بين يدى الرب خضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذللاً لهيبته، وافتقاراً إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم: ازدادوا خضوعاً وذلا، وافتقاراً وانكسارا، و به استعانة وإليه إنابة، وعليه توكلا، وفيه رغبة، ومنه رهبة. وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من

سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولا وآخرا.

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه. فيطلعه على عجائب من حكمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصفة.

وأما حظ العبد في نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده وقوة بصيرته، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شِرْب معلوم، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه. والله الموفق والمعين.

●مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه. ان شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. فالقلوب بيده. وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد، وأنه هو الذى آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذى هداها وزكاها وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها (٧: ١٨٥ **من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له**) يهدى من يشاء بفضله ورحمته، و يضل من يشاء بعدله وحكمته. هذا فضله وعطاؤه. وما فضل الكريم بممنون. وهذا عدله وقضاؤه (٢١: ٢٣ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**).

قال ابن عباس رضى الله عنهما «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده».

وفى هذا المشهد: يتحقق للعبد مقام (**إياك نعبد وإياك نستعين**) علماً وحالا، فيثبت قدم العبد فى توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذى يقلب القلوب، و يصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفَّق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها: من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته فى قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. و يتقدم خوفه فى قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه. و يتقدم رجاؤه فى قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهية فى هذا القلب، والباب الذى دخل إليه منه توحيد الربوبية، أى

بابٌ توحيد الإلٰهية: هو توحيد الربوبية.

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقى إلى توحيد الإلٰهية، كما يدعو الله سبحانه عباده فى كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، و يقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به فى الإلٰهية.

وفى هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى (٤٤: ٨٧ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ: الله. فأنى يؤفكون؟**) أى فأين يصرفون عن شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى (٢٣: ٨٤ ــ ٨٩ **قل لمن الأرض ومن فيها. إن كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله. قل: أفلا تذكرون؟**) فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلٰههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إلٰه لهم سواه (**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ قل: من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ــ الآيات**) وهكذا قوله فى سورة النمل (٢٧: ٥٩ــ ٦٥ **قل الحمد لله. وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير، أم ما يشركون؟ أمّن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء. فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون ــ إلى آخر الآيات**).

يحتج عليهم بأن مَنْ فعل لهم هذا وحده، فهو الإلٰه لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغى أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا. فكيف تجعلون معه إلٰها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين فى تقدير الآية «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إلٰه فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلٰهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إلٰه آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقوله ضعيف لوجهين.

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى. ولا ينكرون ذلك.

الثانى: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم واقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أى فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلٰها آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله (١٣: ١٦ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل: الله خالق كل شىء. وهو الواحد القهار**) وقوله (٣١: ١١ **هذا خلق الله. فأرونى: ماذا خلق الذين من دونه؟**) وقوله (١٦: ١٧ **أفمن يخلق كمن لا يخلق؟**) وقوله (١٦: ٢٠ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون**) وقوله (٢٥: ٣ **واتخذوا من**

دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) وهو كثير فى القرآن. و به تتم الحجة كما تبين.

والمقصود: أن العبد يحصل له هذا فى المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرها إليه. وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا مُتَّكَلَ إلا عليه. كما قال شعيب خطيب الأنبياء. (١١: ٨٨ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

●مشهد التوفيق والخذلان

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه. ولكن أُفْرِد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به. وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن يخلي بينك و بين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه. بل العبد فى الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا. فيطيعه و يرضيه، و يذكره و يشكره بتوفيقه له. ثم يعصيه ويخالفه و يسخطه و يغفل عنه بخذلانه له. فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته. وإن خذله فبعدله وحكمته. وهو المحمود على هذا وهذا. له أتم حمد وأكمله. ولم يمنع العبدَ شيئاً هو له. وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟.

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق فى كلّ نَفَسٍ وكل لحظة وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرّت سماء إيمانه على الأرض. وأن الممسك له: هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فَدَأْبُ لسانه «يا مقلب القلوب ثَبِّت قلبى على دينك، يا مصرّف القلوب صرّف قلبي إلى طاعتك» ودعواه «يا حى ياقيوم، يا بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث. أصلح لى شأنى كله. ولا تكلنى إلى نفسى طرْفةعين. ولا إلى أحد من خلقك».

ففى هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر. و يعوذ به من خذلانه، عياذ الملهوف. و يلقى نفسه بين يديه، طريحا ببابه مستسلما له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعا ذليلا مستكينا، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ونشورا.

و «التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه، مريداً له، محباً له، مؤثراً له على غيره. و يُبَغِّض إليه ما يسخطه، و يكرهه إليه. وهذا

بجرد فعله. والعبد محل له. قال تعالى (٤٩: ٧، ٨ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم. وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون* فضلاً من الله ونعمة، والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لايصلح له. حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله. لا يمنعه أهلَه، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله (٤٩: ٧ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لَعَنِتُّم) ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال (ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان).

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم: منكم، ولكن الله هو الذى جعله في قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تُقَدِّموا بين يدى رسولى، ولا تقولوا حتى يقول. ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذى حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم. ولا تقدمتم به إليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون: لشق عليكم ذلك. ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. .ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان. فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم. ولا سمحت به أنفسكم.

وقد فسرت القدرية الجبرية «التوفيق» بأنه خلق الطاعة «والخذلان» بأنه خلق المعصية.

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة، ففسروا «التوفيق» بالبيان العا

الطاعة والإقبال عليها. وتهيئة اسبابها. وهذا حاصل لكل كافر و

الإيمان.

فالتوفيق عندهم: أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم. والكفارَ بخذلان امتنع به الإيمان منهم. ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء، ولابطريق هؤلاء وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم. فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكائنات. وأثبتوا الأسباب والحكم. والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه مالا يشاء، أو أن يقدر خلقه على مالا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شيء من افعالهم واقعا بغير اختياره و بدون مشيئته، ومن قال ذلك لم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.

ونزهوه — مع ذلك — عن العبث وفعل القبيح، وأن يخلق شيئاً سدىً، وأن تخلو أفعاله عن حِكَم بالغة، لأجلها أوجدها، وأسباب بها سببها، وغايات جعلت طرقا ووسائل إليها. وأن له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به. ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة.

فأهل الصراط المستقيم: بريئون من الطائفتين، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم عليه. ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى. ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل. فهم شهداء الله على الطوائف، وأمناؤه عليهم، حكام بينهم، حاكمون عليهم. ولا يحكم عليهم أحد منهم. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعرف الفرق بينه و بين غيره. ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعا، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زُبرا، بل ممن هو على بينة من ربه و بصيرة في إيمانه، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق.

● مشهد الأسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد. وهو أعلى مما قبله وأوسع.

والمطّلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها. وإن كان العالم — بما فيه — من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتض وفعل: إما لازم. وإما متعد. ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. وكل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكما ومصالح، وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من عطّله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى مالا يليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيىء ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق

منكرى النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب (٦:٩١ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وقال تعالى فى حق منكرى المعاد والثواب والعقاب (٣٩:٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه) وقال فى حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار (٤٥:٢١ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون) فأخبر أن هذا حكم سيء لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه (٢٣:١١٥،١١٦ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون؟ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) عن هذا الظن والحسبان، الذى تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا فى القرآن كثيرة. ينفى فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته. إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سُدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى. ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك. وكذلك اسمه «الملك» واسمه «الحيّ» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حى فعّال. وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً. واسمه «الخالق» يقتضى مخلوقاً. وكذلك «الرزاق» واسمه «الملك» يقتضى مملكة وتصرفاً وتدبيراً، وإعطاء ومنعاً، وإحساناً وعدلاً، وثواباً وعقاباً. واسم «البر المحسن، المعطى، المنان» ونحوها تقتضى آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التواب، العفوّ» فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات. ولا بد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها. ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم «الخالق، الرازق، المعطى، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطَى والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عَفُوٌّ يحبّ العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة. و يفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره و يعفو عن فاعله، ويحلم عنه، و يتوب عليه و يسامحه: من موجب أسمائه وصفاته. وحصول ما يحبه و يرضاه من ذلك. وما يحمدُ به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات.

مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح صلى الله عليه وسلم (٥:١١٨ إن تُعَذِّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. لست كمن يغفر عجزا. و يسامح جهلا بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم فى الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم، وفى الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغايتها أيضاً: مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله فى كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى. إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطى» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفوّ والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، واللطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله. وهى طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى (٧:١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، و يثنوا عليه بها، و يأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو «عليم» يحب كل عليم «جَوَادٌ» يُحب كل جواد «وتر» يحب الوتر «جميل» يحب الجمال «عفو» يحب العفو وأهله «حَيِي» يحب الحياء وأهله «بَرٌّ» يحب الأبرار «شكور» يحب الشاكرين «صبور» يحب الصابرين «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، و يتوب عليه و يعفو عنه. وقدر عليه ما يقتضى وقوع المكروه والمبغوض له. ليترتب عليه المحبوب له المرضى له.

●مشهد زيادة الايمان وتعدّد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره، و يقول. كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصى؟ ولا سيما ذنوب العبد ومعاصيه. وهل ذلك إلا منقص للايمان، فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، و ينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصى منه ومن غيره وإلى ترتب آثارها عليها. وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة. و برهان من براهين صدق الرسل، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهر هم و بواطنهم، فى معاشهم ومعادهم. ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم و بواطنهم فى المعاش والمعاد. وأخبروهم عن الله عز وجل: أنه يحب كذا وكذا، و يثيب عليه بكذا وكذا، وأنه يبغض كيت وكيت، و يعاقب عليه بكيت وكيت. وأنه إذا أطيع بما أمر به: شكر عليه بالإمداد والزيادة، والنعم، فى القلوب والأ بدان والأموال. وَوَجَدَ العبدُ زيادته وقوته فى حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص، والفساد، والضعف، والذل والمهانة، والحقارة، وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالى (١٦: ٩٧ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ــ وهو مؤمن ــ فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**) وقال (٣٩: ١٠ **قل: يَاعِبادِيَ الذين آمنوا اتقوا ربكم. للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير**) وقال تعالى (١١: ٣ **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى. وَيُؤتِ كلَّ ذِى فَضْلٍ فضلَهُ**) وقال تعالى (٢٠: ١٢٤و ١٢٥ **ومن أعرض عن ذِكْرِى فإن له معيشة ضَنكاً. ونحشرهُ يومَ القيامةِ أعمى**).

وقد يكون المراد بلفظ «ذكرى» ما يذكر بالله سبحانه. وهو أولا المشار إليه بقوله (٥١: ٢١ وفى أنفسكم. أفلا تبصرون) و بقوله(٦٧: ٢٣ هو الذى أنشأكم. وجعل لكم السمع والأ بصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وهذا كثير جداً فى القرآن. فإن الغفلة عن آيات الله وعن آثار أسمائه وصفاته فى الأنفس والآفاق والإنسلاخ منها: هو الذى أركس الإنسان فى ظلمات الجاهلية. ومكن لولاية الشيطان منه فاتبع وحيه الجاهلى الوثنى واتخذ القرآن مهجورا. فلم يحاول أن يتدبر آياته، ولا أن يتلوه حق تلاوته، لأنه زعم له أنه ليس بحاجة إليه لا فى عقيدة ولا عمل ولا خلق ولا حال. فقد جمع له كل ذلك فيما زخرف له من القول غرورا. وزاده غروراً وخادعة بإيهامه أن تكرار ألفاظ القرآن للموتى وللتبرك، واتخاذ المصحف تميمة يحرجه عن المعرضين عن ذكر الله.

وفُسِّرت المعيشة الضَّنْك: بعذاب القبر. والصحيح: أنها فى الدنيا، وفى البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذى أنزله، فله من ضيق الصدر، وَنَكَدِ العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص

والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها و بعد حصولها، والآلام التى فى خلال ذلك ـــ مالا يشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه فى السكر. فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم. فيبادر إلى إزالته بسكر ثان. فهو هكذا مدة حياته. وأى عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟.

فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصى: فى جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار فى نعيم قبل النعيم الأكبر (٨٢:١٣، ١٤ **إن الأبرار لفى نعيم. وإن الفجار لفى جحيم**) هذا فى دورهم الثلاث. ليس مختصاً بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو فى الدار الآخرة، وفى البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى (**٥٢: ٤٧ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك**) وقال تعالى (**٢٧: ٧١، ٧٢ ويقولون: متى هذا الوعد،إن كنتم صادقين؟ * قل: عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعض الذى تستعجلون**).

وفى هذه الدار دون ما فى البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق فى سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حِسِّى فيطرحه عن قلبه. و يقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصى آلاماً وآثاراً مكروهة، وحزازات تُرْبِي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس «إن للحسنة نوراً فى القلب، وضياء فى الوجه، وقوة فى البدن. وزيادة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً فى الوجه. وظلمة فى القلب ووهنا فى البدن. ونقصا فى الرزق. و بغضة فى قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة. و يشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى (**٤٢: ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم. و يعفو عن كثير**) وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه (**٣: ١٦٥ أوَلَمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم**) وقال (**٤: ٧٩ ما أصابكَ من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**).

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التى تصيب العبد من الله. ولهذا قال «ما أصابك» ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر فى الدنيا والآخرة. فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس فى العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات فى القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود فى العالم. لا ينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا فى نفسه وفى غيره، وتأمله ومطالعته: مما يقوى إيمانه بما جاءت به الرسل. وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس فى هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال بعض الناس: إذا صدر منى ذنب ولم أبادره. ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيء. فإذا أصابنى — أوفوقه أو دونه — كما حسبت: أكثرت قول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك وحصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علما بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعر به ألبتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان وأهوية الذنوب والمعاصى تعصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفؤها ولا سيما إذا انكسرت به وبقى على لوح تلعب به الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه فى واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم. ومجريات الخلق. بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى (١٣: ٣٣ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**) وقوله (٣: ١٨ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم**) فكل ما تراه فى الوجود — من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص فى نفسك وفى غيرك — فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد فى الأرض (١٧: ٥ **بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار**— **الآية**).

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سقى بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصى بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب فى وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أُتى؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوى إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التى تفضى به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة فى قلبه بعد ضعفه ووهنه ــ ازداد إيماناً مع إيمانه. فتقوى شواهد الإيمان فى قلبه وبراهينه وأدلته فى حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم (٣٩: ٣٥ **ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون**).

وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه، وأعطاه حقه: صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله فى نفسه. ونفع به من شاء من خلقه. والله أعلم.

●مشهد الرحمة

فإن العبد إذا وقع فى الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التى كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه، غضباً منه لله، وحرصاً على أن لا يعصى. فلا يجد فى قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين. ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء. ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخُلى ونفسه استغاث الله والتجأ إليه. وتململ بين يديه تململ السليم. ودعاه دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة. وتلك القساوة على الخاطئين رحمة وليناً مع قيامه بحدود الله. وتَبَدَّلَ دعاؤه عليهم دعاء لهم. وجعل لهم وظيفة من عمره. يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه. والله أعلم.

●مسكين .... هذا العاجز!

ثم يشهد الضعف، وأنه أعجز شىء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبه كريشة مُلقاة بأرضٍ فلاةٍ تُقلبها الرياح يميناً وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة فى البحر تَهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة. وتخفضها تارة أخرى. تجرى عليه أحكام القدر. وهو كالآلة طريحاً بين يدى وَليه، ملقى ببابه، واضعا خَدّه على ثَرَى أعتابه. لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً. ليس له من نفسه إلا

الجهلُ والظلم وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدنى إليه من شِراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع. لا يردها عنها إلا الراعي. فلو تخلّى عنها طَرْفة عين لتقاسموها أعضاء.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله و بين أعدائه، من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكَفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا. وإن تخلى عنه ووَكَلَه إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظَفَر به منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقاً، و يعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور «من عرف نفسه عرف ربه» وليس هذا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن يمكن تأويله بثلاث تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة. ومن عرفها بالذل. عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل. عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى. والعبد فقير ناقص محتاج. وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه: ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه ومافيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به. فمعطى الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالما، يفعل باختياره، ومَنْ خَلَقه وأوجده لايكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل مَنْ جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ومن جعله حياً عليما سميعاً بصيراً فاعلاً قادرا، أولى أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد. وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي. أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك. فلا تعرف حقيقتها، ولاماهيتها ولاكيفيتها. فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟.

والمقصود: أن هذا المشهد يُعَرِّفُ العبد أنه عاجز ضعيف. فتزول عنه رعونات الدعاوى، والإضافات إلى نفسه، و يعلم أنه ليس له من الأمر شيء، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

● استشعار الافتقار لله

ثم مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذرّة من

ذرّاته الباطنة والظاهرة: ضرورة تامة، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارةُ حقيقتها. وإنما تدرك بالحصول. فيحصل لقلبه كَسْرَة خاصة لايشبهها شيء. بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لاشيىء فيه، ولا به ولا مىه، ولا فيه منفعة، ولايرغب في مثله. وأنه لايصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقَيِّمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما مَن ربه إليه من الخير. ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً . فأيّ خير ناله من الله استكثره على نفسه. وعلم أن قَدْره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه. واستقلّ ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها ــ ولو ساوت طاعات الثقلين ــ من أقل ما ينبغي لربه عليه. واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكَسْرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدِلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم . وأحب القلوب الى الله سبحانه : قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة. وملكته هذه الذلة. فهو ناكس الرأس بين يدي ربه. لايرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله.

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لايرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء . فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله ــ هذه السجدة العظمى ــ سجدت معه جميع الجوارح. وعنا الوجهُ حينئذ للحي القيوم. وخشع الصوت والجوارح كلها. وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل الى العزيز الرحيم. فلا يُرَى الا متملقاً لربه، خاضعاً له، ذليلاً مستعطفاً له. يسأله عطفه ورحمته. فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له. الذي لاغنى له عنه. ولابد له منه. فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه. لأنه لاحياة له ولافلاح إلا في قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول: كيف أُغضِب مَنْ حياتي في رضاه؟ وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟.

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان في كنف ابيه يغذوه باطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية. وهو القَيِّم بمصالحه كلها. فبعثه أبوه في حاجة له. فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكَتَّفه وشَدّه وَثَاقا. ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب. وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به. فهو يتذكر

تربية والده وإحسانه إليه الفَيْنَة بعد الفينة. فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ويتذكر ماكان عليه وكل ماكان فيه. فبينا هو في أسر عدوه يَسومه سوء العذاب، ويريد نَحْره في آخر الأمر. إذ حانت منه التفاتة إلى ديار أبيه. فرأى أباه منه قريبا. فسعى إليه. وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه. يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وماهو فيه. ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتى وقف على رأسه. وهو ملتزم لوالده ممسك به. فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فَرَّ عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً ببابه. يُمَرِّغ خَدَّه في ثَرى أعتابه باكيا بين يديه، يقول: يارب، يارب، ارحم من لاراحم له سواك، ولاناصر له سواك، ولامؤوى له سواك، ولامغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك. لاملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك ملاذه.

يامن ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لايَجبُرُ الناس عظما أنت كاسره ... ولايهيضون عظما أنت جابره

فإذا استبصر في هذا المشهد، وتمكن من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقّى منه إلى مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به. فتقرُّ به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه. فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقريب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي. قد امتلأ قلبه من محبته. ولهج لسانه بذكره. وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لايعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها. فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار. فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه. ولامزاحم فيه ولامعوق.. فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته. فإذا هو ـــ سبحانه ـــ قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لاطريق أقرب إلى الله من العبودية.

والمقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة. فيفتح

له منها باب لايفتح له من غير هذه الطريق . وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة. لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا ، وتفريطا وذنبا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس. وهم في وادٍ وهو في واد . فالله المستعان. وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له ، وفرحه بتوبة عبده . فإنه سبحانه يحب التوابين ، و يفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد منن ر به سبحانه عليه قَبْلَ الذنب ، وفي حال مواقعته، و بعده، و برَّه به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه. فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يُمِدُّه بنعمه، و يعامله بألطافه، و يُسْبِل عليه سَتره؟

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها . فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها ، ومعرفة أحكامها ، وتفاصيلها ومسائلها. والله الموفق لمراعاة ذلك . والقيام به عملا وحالا. كما وفق له علماً ومعرفة . فما خاب من توكل عليه . ولاذ به ولجأ إليه. ولاحول ولاقوة إلا بالله.

(٧) منزلة الإنابة

قد علمت أن من نزل في منزلة «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل. تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الانابة» وقد أمر الله تعالى بها في كتابه. وأثنى على خليله بها، فقال (٣٩: ٥٤ وأنيبوا إلى ربكم) وقال (١١: ٧٥ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب) وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها و يتذكر أهل الإنابة. فقال (٥٠: ٦ — ٨ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها؟ — إلى أن قال — تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب) وقال تعالى (٤٠: ١٣ هو الذي يُريكم آياته ويُنزّل لكم من السماء رزقاً، وما يتذكر إلا من ينيب) وقال تعالى (٣٠: ٣١ منيبين إليه واتقوه. وأقيموا الصلاة — الآية).

فـ «منيبين» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله «فأقم وجهك» لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله (٦٥: ١ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله «فطرَ الناسَ عليها» أي فطرهم منيبين إليه. فلو خلُّوا وفِطَرَهم لما عدلت عن الإنابة إليه. ولكنها تحوّل وتتغير عما فُطرت عليه. كما قال صلى الله عليه وسلم «ما من مولود إلا يولد على الفطرة — وفي رواية: على الملة — حتى يعرب عنه لسانه»،. وقال عن نبيه داود (٣٨: ٢٤ فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب) وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال (٥٠: ٣١ — ٣٤ وأزلفتِ الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام) وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال (٣٩: ١٧ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى).

و«الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته. وهي إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى (٣٠: ٣٣ وإذا مس الناسَ ضُرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه) فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر. كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالى في حق هؤلاء (٣٠: ٣٣، ٣٤ ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم) فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و «الإنابة» الثانية هي إنابة أوليائه. وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن اربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا

يستحق اسم «المنيب» الا من اجتمعت فيه هذه الأربع . وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والتقدم. و «المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت: المتقدم إلى محابه. وهي في اللغة: الرجوع. وهي ههنا الرجوع إلى الحق.

قال الشيخ الهروي:

«وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحا، كما رجع إليه اعتذارا. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدا. والرجوع إليه حالا، كما رجعت إليه إجابة». أي لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال (٢٥:٧٠ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً**) وقال (٢:١٦٠ **إلا الذين تابوا وأصلحوا**) فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخلٍ عن معصيته. وتحلٍّ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولا. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على انبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلّم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده وعلى هؤلاء بالتعلم. وعلى هؤلاء بالتعليم. ومدح الموفين بعهده. وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر، فقال (٤٨:١٠ **ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيما**) وقال (١٧:٣٤ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا**) وقال (١٦:٩١ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم**) وقال (٢:١٧٧ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا**).

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة. وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن من علامات النفاق «**الغدر بعد العهد**».

فما أناب الى الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم يُنِبْ إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله «والرجوع إليه حالا. كما رجعت إليه إجابة».

أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا . فلا بد من الاجابة حالا تُصَدِّق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أوتكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت الى الله اجابة بالمقال . فارجع اليه اجابة بالحال . قال الحسن : ابن آدم : لك قول وعمل . وعملك أولى بك من قولك . ولك سريرة وعلانية . وسريرتك أملك بك من علانيتك.

• رجوع الاصلاح

قال «وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات. والتوجع للعثرات. واستدراك الفائتات».

والخروج من التبعات: هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله. وأداء الحقوق التي عليه للخلق.

ثم أن يتوجع لعثرته إذا عثر، فيتوجع قلبه وينصدع. وهذا دليل على إنابته الى الله. بخلاف من لايتألم قلبه، ولاينصدع من عثرته. فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

وأيضاً أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولايشمت به. فهو دليل على رِقّة قلبه وإنابته.

ويكمل ذلك باستدراك الفائتات: وهو استدراك مافاته من طاعة وقربة بأمثالها، أو خير منها ولاسيما في بقية عمره، عند قرب رحيله إلى الله. فبقية عمر المؤمن لاقيمة لها. يستدرك بها مافات. ويُحيي بها ما أمات.

• الرجوع وفاء بالعهد

قال «وإنما يستقيم الرجوع اليه عهداً: بثلاثة أشياء. بالخلاص من لذة الذنب. وبترك الاستهانة بأهل الغفلة، تخوفاً عليهم، مع الرجاء لنفسك. وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة».

فان العبد إذا صَفَتْ له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب. وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره، والفكرة فيه. فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه، فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أي الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه، فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه، وسكوناً إليه، والتذاذاً بحبه، وتنعماً بذكره؟.

قيل: حال هذا أكمل وأرفع. وغاية صاحب المجاهدة: أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرب ومنوط به.

فإن قيل: فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة، وتركه محابّه لله، وإيثاره رضا الله على هواه؟! وبهذا كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة وكانوا خير البرية. والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفي منها. فبينهما من التفاوت مابين درجة المعافَى والمبتلى.

قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والندم منه، ثم الطمأنينة إلى

ربهـا والإقبال بكليتها عليه. وهذه الحال أعلى أحوالها. وأرفعها وهي التي يشمر إليها المجاهد، ومايحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله. فهو بمنزلة راكب القفار، والمهامه والأهوال، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً، وراكعاً وساجداً. ليس له التفات إلى غيره. فهذا مشغول بالغاية، وذاك بالوسيلة. وكل له أجر. ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بوّن.

ومايحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق مايحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقدر عمل المطمئ المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل. وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه. ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولايراه إلا أمامه.

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق. ولايلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة. فأفضل الأعمال الإيمان بالله. والجهاد أشق منه وهو تاليه في الدرجة. ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء.

● وَجَل ... دون يأس

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة. واخشَ على نفسك النقمة. فإن كنت لابد مستهيناً بهم ماقتاً لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ماهم عليه. فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع الى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

وهذا الكلام لايفقه معناه إلا الفقيه في دين الله. فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، و بيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني — لم يجد بداً من مقتهم. ولايمكنه غير ذلك ألبتة. ولكن اذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها — أوكلها — أن تكون حظاً لنفسك وأنت

لا تشعر.

فلا إله إلا الله. كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال: أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لايراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله. و يعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقا، وهو خالص لوجه الله. ولايميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل و بين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصول العمل الى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه الى قلبه محبة ولاخوف ولارجاء، ولازهد في الدنيا ولارغبة في الآخرة. ولانور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، و بين الحق والباطل، ولاقوة في أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق. ورأى الحق والباطل. وميز بين أولياء الله واعدائه. وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب و بين الرب مسافة. وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب و دلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة. وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى: سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس و القنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس. فلا يعمر قصراً و يهدم مصراً.

● ولابد من حال يصدق المقال

وإنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك. وبمعاينة اضطرارك، ورؤية لطفه بك

فتيأس من النجاة بعملك. وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعمله وفضله، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال **«لن ينجي أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**.

واما معاينة الاضطرار: فانه اذا أيس من عمله: شهد أن الله عز وجل غني بالذات، فان الغنى وصف ذاتي للرب، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وعلى العبد بعد ذلك ان ينظر الى الطاف الله، و يعلم ان كل ماهو فيه وما يرجوه وماتقدم له: لطف من الله به، ومنة منَّ بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه. اذ هو المحسن بالسبب والمسبب. والأمر له من قبل ومن بعد. وهو الأول والآخر. لا اله غيره. ولارب سواه

(٨) 

ثم ينزل القلب منزل «التذكر» وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى (٤٠: ١٣ وما يتذكر إلا من ينيب) وقال (٥٠: ٨ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى (١٣: ٢١ إنما يتذكر أولو الألباب) وقال تعالى (٢: ٢٦٩ وما يذّكر إلا أولو الألباب).

و «التذكر» و «التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، و بتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، و بالتفكر على التذكر، و يناطقون القلوب حتى نطقت.

و «استذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذِكْرَى. كما قال في المتلوة (٤٠: ٥٤ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب. هُدى وذكرى لأولي الألباب) وقال عن القرآن (٦٩: ٤٨ وإنه لتذكرة للمتقين) وقال في آياته المشهودة (٥٠: ٥ــ ٨ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي. وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب).

فـ «التبصرة» آلة البصر، و «التذكرة» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة. لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها يمد صاحبه و يقويه و يثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة (٥٠: ٣٦، ٣٧ وكم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ هُمْ أشَدُّ منهم بطشاً. فنقبوا في البلاد، هل من محيص؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت. فذلك الذي لا قلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في

حقه

الثاني: رجل له قلب حَيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد. تليت عليه الآيات. فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه. ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملقٍ السمع. فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذى قد حَدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره. وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذى يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وَقَّاد، مليء باستخراج العبر. واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار. فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله. وأعظمهم إيماناً وبصيرة. حتى كأن الذى أخبرهم به الرسول مشاهد لهم.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفى قلبه نور من البصيرة: ازداد بها نوراً إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمعَ وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضاً (٢٦٥:٢ **فإن لم يصبها وابلٌ فَطَلٌّ**) والوابل والطل فى جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما فى درجات التفضيل ما بينهما. حتى إن شراب أحد النوعين الصِّرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجا. قال الله تعالى (٦:٣٤ **ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك الحقّ. ويهدى إلى صراط العزيز الحميد**) فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

• تفكر يقود الى صالح العمل

وأبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة. والاستبصار بالعبرة. والظفر بثمرة الفكرة.

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح فى القلب قادح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلباً للخلاص من الخوف، ورغبة فى حصول المرجوّ.

و «العظة» هي الأمر والنهي، المعروف بالترغيب والترهيب.

و «العظة» نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود. فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التى جاءت على لسان الرسل وما أوحي إليهم. وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد فى مصالح الدين والدنيا.

و «العظة» بالمشهود: الانتفاع بما يراه و يشهده فى العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجاريه. وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

وأما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه فى منزل التفكر بقوة الاستحضار. لأن التذكر يعتقل المعانى التى حصلت بالتفكر فى مواقع الآيات والعبر. فهو يظفر بها بالتفكر. وتنصقل له وتنجلى بالتذكر. فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار. لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلما قوى الشعور بالمحبوب اشتد سفر القلب اليه. وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

وأما الظفر بثمرة الفكرة: فهذا موضع لطيف.

وللفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تاماً بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه. فإن القلب حال التفكر كان قد كَلَّ بأعماله فى تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعانى وتخمرت فى القلب، واستراح العقل: عاد فتذكر ما كان حَصَّله وطالعه. فابتهج به وفرح به. وصحح فى هذا المنزل ما كان فاته فى منزل التفكر. لأنه قد أشرف عليه فى مقام التذكر، الذى هو أعلى منه. فأخذ حينئذ فى الثمرة المقصودة. وهى العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح: هو ثمرة العلم النافع، الذى هو ثمرة التفكر.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسي. فطالبُ المال ما دام جاداً فى طلبه، فهو فى كلال وتعب. حتى إذا ظفر به استراح من كَدّ الطلب. وقَدِمَ من سفر التجارة. فطالع ما حصله وأبصره. وصحح فى هذا الحال ما عساه غلط فيه فى حال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له و بردت غنيمته له. أخذ فى صرف المال فى وجوه الانتفاع المطلوبة منه. والله أعلم.

•شروط الانتفاع بالعظة

وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها. والعمى عن عيب الواعظ. وتذكر الوعد والوعيد.

إذ يشتد افتقار العبد إلى العظة ـــ وهى الترغيب والترهيب ـــ إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإذا فمتى قويت إنابته وتذكره. لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون

الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهى.

فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة فى حق هؤلاء الثلاثة فى قوله (١٦: ١٢٥ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة. وجادلهم بالتى هى أحسن**) أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتى.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان. إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتى هى أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه. فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التى هى أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التى هى أحسن شىء وأبينه، وأدله على المقصود. وأوصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حُرِم الانتفاع بموعظته. لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به.

ولأجل هذه النارة: قال شعيب عليه السلام لقومه (١١: ٨٨ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه**) وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهى: فإذا أمرت بشىء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به. وإذا نهيت عن شىء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام من الضنى ... ومن الضنى تمسي وأنت سقيم
لا تنه عن خُلُق، وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت ذميم
ابدأ بنفسك فانْهها عن غَيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ما تقول و يُقتدى ... بالقول منك. و ينفع التعليم

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فأن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى (١١: ١٠٣ **إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**) وقال (٨٧: ١٠ **سَيَذَّكر من يخشى**) وقال (٧٩: ٤٥ **إنما أنت منذر من يخشاها**) وأصرح من ذلك قوله تعالى (٥٠: ٤٥ **فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد**) فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط فى الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

● شروط استبصار العبرة

وإنما تُسْتَبْصَر العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل. ومعرفة الأيام. والسلامة من الأغراض.

و «العبرة» هي الاعتبار. وحقيقتها: العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله. فإذا رأى من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل: هي صحة الإدراك. وقوة الفهم وجودته. وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به. وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم. ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجريبات السالكين، التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن «ياحي يا قيوم لا إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ شديد اللهج بها جداً. وقال لي يوماً: لهذين الاسمين ــ وهما «الحي القيوم» ــ تأثير عظيم في حياة القلب.

وأما معرفة الايام: فبأن يعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة. كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الحالية قط نسبة إلى أيام البقاء. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفساً إلا في أحب الأمور إلى الله. فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به.

وكذلك يتذكر أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى (١٤: ٥ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا: أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور. وذكّرهم بأيام الله**) وقد فسرت «أيام الله» بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي. فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد. والثاني: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين. وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدّث بها «أياما» لأنها طرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر. وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالى (**١٢: ١١١ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**).

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأعراض. من متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل. ويعمي بصيرة القلب ويصد عن اتباع الحق

ويضل عن الطريق المستقيم. فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسدَ رأيه ونظره. فأرَتْهُ نفسه الحسَنَ فى صورة القبيح، والقبيح فى صورة الحسن. فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟.

• ثمرة الفكرة تُجتنى بقِصَر الأمل

وإنما تُجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء:

أحدها: قصر الأمل. والثاني: تدبّر القرآن. والثالث: تَجنّب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التى تمر مرّ السحاب، ومبادرة طَيّ صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط. ويزهده فى الدنيا. ويرغبه فى الآخرة. فيقوم بقلبه — إذا داوم مطالعة قصر الأمل — شاهدٌ من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا. وسرعة انقضائها. وقلة ما بقى منها. وأنها قد ترحلت مُدْبِرَة. ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقى من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشراطُها وعلامتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعا.

ويكفى فى قصر الأمل قوله تعالى (٢٦: ٢٠٥ — ٢٠٧ **أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعُون**) وقوله تعالى (١٠: ٤٥ **ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم**) وقوله تعالى (٧٩: ٤٦ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عَشِيَّةً أو ضحاها**) وقوله تعالى (٢٣: ١١٣، ١١٤ **قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فاسأل العادّين. قال: إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون**) وقوله تعالى (٤٦: ٣٥ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ. فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون**) وقوله تعالى (٢٠: ١٠٣، ١٠٤ **يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون. إذ يقول أمثلهم طريقة: إن لبثتم إلا يوما**) وخطب النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال «**إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه**» وقصر الامل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الامرين ويؤثر اولاهما بالأيثار.

●تدبّر القرآن يولد الافكار

وأما التأمل فى القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر. قال الله تعالى **(٣٨: ٢٩ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته. وليتذكر أُولو الألباب)** وقال تعالى **(٤٧: ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟)** وقال تعالى **(٢٣: ٦٩ أفلم يدّبّروا القول)** وقال تعالى **(٤٣: ٣ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)** وقال الحسن: نزل القرآن ليُتدبر و يعمل به. فاتخذوا تلاوته عملا.

فليس شيء أنفع للعبد فى معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع فيه الفكر على معانى آياته. فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها. وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما. وتثبت قواعد الإيمان فى قلبه. وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار فى قلبه. وتُحْضِره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم. وتُبَصِّره مواقع العبر. وتشهده عدل الله وفضله. وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل اليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

و بالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه فى مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها. ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. وتُمَيِّز له بين الحق والباطل فى كل ما اختلف فيه العالم. فتريه الحق حقا، والباطل باطلا. وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال. والغي والرشاد. وتعطيه قوة فى قلبه، وحياة وسعة وانشراحا و بهجة وسرورا. فيصير فى شأن والناس فى شأن آخر.

فإن معانى القرآن دائرة على التوحيد و براهينه، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم.

والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم. وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله فى خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوى والسفلى، وما يختص بالنوع الإنسانى منهم، من حين يستقر فى رحم أمه إلى يوم يوافى ربه و يقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعدّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التى لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص. وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التى لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهى، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادىء والغايات، فى خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. وتهديه فى ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل. وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل. وتبصره بحدود الحلال والحرام. وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع فى العناء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل. وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل. وتناديه كلما فترت عزماته، وونَى فى سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل. فاللحاقَ اللحاقَ، والرحيل الرحيل. وتَحْدُو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعْتَصِمْ بالله، واستعن به، وقل: حسبى الله ونعم الوكيل.

وفى تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ماذكرنا من الحكم والفوائد.

●مكدرات القلوب

وأما مفسدات القلب فهي: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب. ذلك أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، و يكشف عن طريق الحق ونهجه، آفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وصحته و بصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفىء نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم تَصُمه وَتُبْكِمَه ــ وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتُفَتِّر عزمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام. فهى عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته فى الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته، العاجلة. كما أنه لا نعيم له فى الآخرة، ولا فوز إلا بجواره فى دار النعيم فى الجنة الآجلة. فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: انه ليمر بالقلب اوقات. أقول: ان كان اهل الجنة فى مثل هذا. انهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه ــ أو نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا و يعرفه ذوقا.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب و بينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللا إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

• نخالط الناس في الخير فقط

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بنى آدم حتى يسود، و يوجب له تشتتاً وتفرقا، وهما وغما، وضعفا، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم و بأمورهم، وتقسم فكره في اودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت فى بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبى طالب ــ عند الوفاة ــ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتي حالوا بينه و بين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة فى الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض ــ تنقلب إذا حققت الحقائق عداوة، و يعض المخلط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى (٢٥: ٢٧ـــ ٢٩ و يوم يعضّ الظالم على يديه، يقول: ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا. يا و يلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) وقال تعالى (٤٣: ٦٧

الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو، إلا المتقين) وقال خليله إبراهيم لقومه (٢٩: ٢٥ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بينكم فى الحياة الدنيا. ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، و يلعن بعضكم بعضا ـ ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) وهذا شأن كل مشتركين فى غرض. يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألما. وانقلبت تلك المودة بغضا ولعنة، وذما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذابا، كما يشاهد فى هذه الدار من أحوال المشتركين فى خزيه، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه: لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع فى أمر الخلطة: أن يخالط الناس فى الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ و يعتزلهم فى الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحَذر الحَذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وَبُغْضٌ له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، و يشجع نفسه و يقوى قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك ، فليحاربه، وليستعن بالله، و يؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظا. ينظر إليهم ولا يبصرهم، و يسمع كلامهم ولايعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يَصْدُقَ الله تبارك وتعالى، و يديم اللجأ إليه، و يلقى نفسه على بابه طريحاً ذليلا. ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

• فى التمني مزيد فساد

و يفسد القلب أيضاً بركوبه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذى يركبه

معاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأسُ أموالِ المفاليس. وبضاعة رُكّابه مواعيد الشيطان وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال امواج الامانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه، وكلٌ حسب حاله: من متمنٍ للقدرة والسلطان، وللضرب في الارض والتطواف في البلدان، او للاموال والاثمان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها. فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذى يقربه إلى الله. ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة. وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم متمنى الخير وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان الذى يتقى في ماله ربه. ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال «**هما في الأجر سواء**».

• تمام الخذلان في التعلق بغير الله

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل. قال الله تعالى (**١٩: ٨١ ــ ٨٢ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً**) وقال تعالى (**٣٦: ٧٥ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون**).

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التى بنى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى (**١٧: ٢٢ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموما مخذولا**) مذموما لا حامد لك. مخذولا لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذى قهر بباطل. وقد يكون مذموماً منصوراً كالذي قهر وتسلط عليه بباطل.. وقد يكون محموداً منصوراً

كالذى تمكن وملك بحق. والمترك المتعلق بغير الله قسمه اردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

● النهم المميت

ومن مفسدات القلب: الطعام. والمفسد له من ذلك نوعان: احدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهي نوعان: محرمات لحق الله، كالميته والدم، ولحم الخنزير، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدره: وتعدى حده، كالإسراف فى الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. و يشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذى بثقلها،وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجارى الشيطان ووسعها، فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه و يسد عليه طرقه، والشبع يطرقها و يوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً. فنام كثيراً. فخسر كثيراً. وفى الحديث المشهور «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**».

● رقاد الغافلين

والمفسد الخامس . كثرة النوم ، اذ النوم الكثيريميت القلب، و يثقل البدن، و يضيع الوقت، و يورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة اليه . ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره . . ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه . وكثر ضرره . ولاسيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس . فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة . حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه . و وقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. و ينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغى أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه : نوم نصف الليل الأول ، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات . وهذا أعدل النوم عند الأطباء . وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذي لاينفع أيضاً: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهه. فهو مكروه شرعاً وطبعاً.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات ، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضاً متلفة لاينتفع صاحبها بقلبه ولابدنه معها . وما قام الوجود إلا بالعدل . فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. وبالله المستعان.

(٩) منزلة الاعتصام

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام.

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله. قال الله تعالى (٣: ١٠٣ **واعتصموا بحبل الله جميعاً. ولا تفرقوا**) وقال (٢٢: ٧٨ **واعتصموا بالله هو مولاكم. فنعم المولى ونعم النصير**).

و «الاعتصام» افتعال من العصمة. وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة : الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولانجاة الا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله: فانه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده. فهو محتاج إلى هدايه الطريق. والسلامة فيها. فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعُدة والقوة والسلاح التى بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التى يستلئم بها فى طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف فى الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال «عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة».

وقال مجاهد وعطاء «بعهد الله» وقال قتادة والسدى وكثير من أهل التفسير «هو القرآن».

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وفى الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً. ويسخط لكم ثلاثاً. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال. وإضاعة المال. وكثرة السؤال**» رواه مسلم فى الصحيح.

فالاعتصام بحبل الله. هو المحافظة على طاعته، مراقباً لأمره.

ونريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها. لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب فى التقوى «هى العمل بطاعة الله على نور من الله. ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله»

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم كقوله «من صام رمضان إيماناً واحتساباً. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ـــ غفر له» فالصيام والقيام: هو الطاعة و «الإيمان» مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الآمر، لا شىء سواه. و «الاحتساب» رجاء ثواب الله.

فالاعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل. والله أعلم.

وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه. والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمى العبد ويمنعه، و يعصمه و يدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضى به إلى العطب، ويحميه منه. فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشَرَّ نفسه. و يدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد فى حقه أسباب العطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. و يدفع عنه قَدَرَه بقدره، وإرادته بإرادته، و يعيذه به منه.

• درجات الاعتصام

وهو على ثلاث درجات: اعتصام العامة بالخبر، استسلاماً وإذعاناً. بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهى. وتأسيس المعاملة على اليقين والانصاف.

فالعامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلاماً من غير منازعة، بل إيماناً. وانقادوا الى تعظيم الأمر والنهى والإذعان لهما، والتصديق بالوعد والوعيد. وأسسوا معاملتهم على اليقين. لا على الشك والتردد. وسلوك طريقة الاحتياط. كما قال القائل:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تُبعث الأجساد. قلت: إليكما
إنْ صحَّ قولكما فلست بخاسر ... أو صحَّ قولي فالخسار عليكما

هذه طريق أهل الريب والشك. يقومون بالأمر والنهى احتياطاً. وهذه الطريق لا تنجى من عذاب الله. ولا تحصل لصاحبها السعادة. ولا توصله إلى المأمن.

وأما الإنصاف الذى أسسوا معاملتهم عليه: فهو الإنصاف فى معاملتهم لله ولخلقه.

فأما الإنصاف فى معاملة الله: فأن يعطى العبودية حقها، وأن لا ينازع ربه صفات إلٰهيته التى لا تليق بالعبد ولا تنبغى له: من العظمة، والكبرياء، والجبروت.

ومن إنصافه لربه: أن لا يشكر سواه على نعمه و ينساه. ولا يستعين بها على معاصيه.

• لاعلائق

واعتصام الخاصة: وهو إسبال الخُلُق عن الخَلق سطاً، ورفض العلائق عزما.

فإن حسن الخُلُق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق: يدل على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيته. وفي هذا الوصف: يكف الأذى، ويحمل الأذى.

وأما رفض العلائق عزماً: فهو العزم التام على رفض العلائق، وتركها في ظاهره و باطنه.

والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر. ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء.

قيل للامام أحمد: أيكون الرجل زاهداً. ومعه ألف دينار؟ قال: نعم على شريطة ألاّ يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت.

ولعله ــ رحمه الله ــ يقصد فرح الأشر والبطر. أما فرح المؤمن بالنعمة ليقدرها و يشكرها بحسن وضعها في موضعها من محاب الله ومراضيها. فلا يمكن أن يكره ذلك الامام أحمد.

ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال.

وقيل لسفيان الثوري: أيكون ذو المال زاهداً؟ قال: نعم إن كان إذا زيد في ماله شكر، وإن نقص شكر وصبر.

وإنما يحمد قطع العلائق الظاهرة في موضعين. حيث يخاف منها ضرراً في دينه، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة. والكمال من ذلك: قطع العلائق التي تصير كلاليب على الصراط تمنعه من العبور. وهي كلاليب الشهوات والشبهات. ولا يضره ما تعلق به بعدها.

وذروة الاعتصام إنما تكون بالقرب. إذ لا ريب أن العبد يقرب من ربه، والرب يقرب من عبده. فأما قرب العبد: فكقوله تعالى (٩٦ : ١٩ واسجد واقترب) وقوله في الأثر الالهي «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» وكقوله «وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع. وبي يبصر. وبي يبطش. وبي يمشي». وفي الحديث الصحيح «أقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل الأخير» وفي الحديث أيضاً «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وفي الحديث الصحيح ــ لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر ــ فقال «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

(١٠) منزلة الفرار

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» «منزلة الفرار».

قال الله تعالى (٥١ : ٥٠ ففروا إلى الله) وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء. وهو نوعان: فرار السعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى (ففروا إلى الله) فروا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالايمان والطاعة.

وحقيقته: الفرار من الجهل الى العلم عقداً وسعياً. ومن الكسل الى التشمير جداً وعزما. ومن الضيق الى السعة ثقةً ورجاء.

و «الجهل» نوعان. عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاهما جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة. قال موسى (٢ ـ ٦٧ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) لما قال له قومه (أتتخذنا هزواً) أي من المستهزئين. وقال يوسف الصديق (١٢ : ٣٣ وإلاّ تصرفْ عني كَيْدهن أصْبُ إليهن. وأكن من الجاهلين) أي من مرتكبي ما حرمت عليهم. وقال تعالى (٤ : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل ما عصي الله به فهو جهالة. وقال غيره. أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل

فالفرار المذكور. هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفة وبصيرة. ومن جهل العمل: إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً.

ثم يفر من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد.

و «الجد» هٰهنا هو صدق العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السين وسوف، وعسى، ولعل. فهي أضر شيء على العبد. وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات.

والفرق بين الجد والعزم: أن «العزم» صدق الارادة واستجماعها. و «الجد» صدق العمل و بذل الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد. فقال (٢ : ٦٣ **خذوا ما آتيناكم بقوة**) وقال (٧ : ١٤٥ **وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء. فخذها بقوة**) وقال (١٩ : ١٢ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة**) أي بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

ثم يهرب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه. وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله و بدنه وأهله وعدوه. يهرب من تضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقع المرجو من لطفه و بره. ومن أحسن كلام العامة قولهم: لاهَمَّ مع الله. قال الله تعالى (٦٥ : ٢، ٣ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب**) قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجا من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فان الله يجعل للمتقى من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا. وقال الحسن: مخرجا مما نهاه عنه (٦٥ : ٣ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه**) أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و «الحسب» الكافي (٩ : ٥٩ حسبنا الله) كافينا الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فان الله لا يخيب أمله فيه ألبتة. فانه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فانه لاأشرحَ للصدر، ولا أوسع له ـــ بعد الايمان ـــ من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

● تجريد

وأسعد الفرار: الفرار من الرسوم الى الاصول، ومن الحظوظ الى التجريد، فان أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الاعمال وظواهرها، ولا يعتدون إلا بأرواحها وحقائقها. وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق، فانهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هي المطلوبة أرواحها، لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا: نجمع همنا على مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره. وغرّهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها

ومقاصدها وأرواحها. فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك، وهممهم أعلى، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر. فتركّب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل.

وحلة الأمر: أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته. وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته. فظنوا أنهم يصلون إلى حقيقته، من غير رسمه وظاهره، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة. وجحدوا ما علم بالضرورة مجيء الرسل به. فهؤلاء كفار زنادقة منافقون. وأولئك مقصرون غير كاملين. والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم. وأن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح. وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح.

فهؤلاء خواص اهل الايمان واهل العلم والعرفان، الذين يكملون فرارهم بفرارمن حظوظ النفس على اختلاف مراتبها، الى التجريد. وهذه الحظوظ لا يعرفها الا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم واعمالهم وآفاتهما، ورُبَّ مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها و يفرون إليه منها. يرونها حائلة بينهم و بين مطلوبهم.

والحظ: ما سوى مراد الله الديني منك، كائنا ما كان. وهوما يبرح حظ محرم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب، غيره أحب إلى الله منه. ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره، و بالنفس وصفاتها وأحوالها.

فهناك تتبين له الحظوظ من الحقوق. و يفرمن الحظ إلى التجريد. وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا. لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه.

و بالجملة فصاحب هذا التجريد: لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله، ولا يفرح بما حصل له دون الله، ولا يأسَى على ما فاته سوى الله، ولا يستغني برتبة شريفة، وإن عظمت عنده أو عند الناس. فلا يستغنى إلا بالله. ولا يفتقر إلا إلى الله. ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله. ولا يحزن إلا على ما فاته من الله. ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله، واحتجاب الله عنه. فكله بالله، وكله لله. وكله مع الله. وسيره دائما إلى الله. قد رُفع له علَمه فشمر إليه. وتجرد له مطلوبه فعمل عليه. تناديه الحظوظ: إليّ، وهويقول: إنما أريد من إذا حصل لي حصل لى كل شيء. وإذا فاتني فاتني كل شيء. فهو مع الله مجرد عن خلقه. ومع خلقه مجرد عن نفسه. ومع الأمر مجرد عن الحظ المزاحم للأمر. وأما الحظ المعين على الأمر: فانه لا يحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه.

وهذا أيضاً موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ. فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الارادة.

والتحقيق فيه: أن الحظ نوعان، حظ يزاحم الأمر، وحظ يؤازر الأمر فينفذه. فالأول هو المذموم. والثاني ممدوح. وتناوله من تمام العبودية. فهذا لون وهذا لون.

(١١) منزلة السماع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به في كتابه. وأثنى على أهله. وأخبر أن البشرى لهم. فقال تعالى (٥ : ١٠٨ واتقوا الله واسمعوا) وقال (٦٤ : ١٦ واسمعوا وأطيعوا) وقال (٤ : ٤٦ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم) وقال (٣٩ : ١٧، ١٨ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله. وأولئك هم أولو الألباب) وقال (٧ : ٢٠٤ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وقال (٥ : ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال (٨ : ٢٣ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون).

وأخبر عن أعدائه أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال (٤١ : ٢٦ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه).

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم في القرآن من قوله (أفلا يسمعون؟) وقال (٢٢ : ٤٦ أفلم يسيروا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؟ ــ الآية).

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه. وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن في المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معاني المسموع. وتحريكه عنها. طلباً وهرباً وحباً وبغضاً. فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه. فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم : من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما في الحديث الالهي الصحيح «فبي يسمع، وبي يبصر» وهذا أعلى سماعا، وأصح من كل أحد.

والكلام في «السماع» ـــ مدحاً وذماً ـــ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته، فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار. والحق والباطل. والممدوح والمذموم.

فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب.

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه. وأمر به عباده. وأثنى على أهله. ورضي عنهم به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه ونهى عنه. ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه. لا يحبه ولا يبغضه. ولا مدح صاحبه ولاذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر، والمشام، والمطعومات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله دينا وقربة يُتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع دينا لم يأذن به الله. وضاها بذلك المشركين.

• السماع الايماني

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه. وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الانعام سبيلا. وهم القائلون في النار (٦٧ : ١٠ لو كنا نسمع أونعقل ما كنا في أصحاب السعير) وهوسماع آياته المتلوّة التي أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الايمان الذي يقوم عليه بناؤه. وهوعلى ثلاثة أنواع. سماع إدراك: بحاسة الأذن وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابه وقبول. والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الادراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم (٧٢ : ١ إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به) وقوله (٤٦ : ٣٠ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ـــ الآية) فهذا سماع إدراك اتصل به الايمان والاجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفى عن أهل الاعراض والغفلة. بقوله تعالى (٣٠ : ٥٢ فانك لا تُسمِع الموتى. ولا تُسمع الصُّمَّ الدعاء) وقوله (٣٥ : ٢٢ إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور).

فالتخصيص هٰهنا لاسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى (٨ : ٢٣ **ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم. ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون**) أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سَمْع الادراك «ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» أي ولو أفهمهم لما إنقادوا ولا انتفعوا بما فهموا. لأن في قلوبهم من داعي التولي والاعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والاجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا (٢٤ : ٥١ **سمعنا وأطعنا**) فان هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة. وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه. واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى (٩ : ٤٧ **وفيكم سماعون لهم**) أي قابلون منهم مستجيبون لهم.

والمقصود: أن سماع المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكا وفهما، وتدبراً، وإجابة. وكل سماع في القرآن مدحَ الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لاسماع الأبيات، وسماع القرآن، لاسماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لاسماع قصائد الشعراء. وسماع المراشد، لاسماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لاسماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح. ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومناد ينادي للايمان. ودليل يسير بالركب في طريق الجنان. وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح. من قِبل فالق الاصباح «حَيّ على الفلاح، حَيّ على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، ورداً على ضلالة، وإرشاداً من غَي، و بصيرة من عمى، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة. وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى. وحثاً على تقى. وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء. وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

فمن قرىء عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، وعندئذ تزدحم معاني المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه، فما شئت من علم وحكمه، و بصيرة وهداية، فيزداد حثاً لنفسه وسفراً الى الغاية المقصودة بالمسموع الذي جعل وسيلة إليها. وهو الحق سبحانه. فانه غاية

كل مطلب (٥٣ : ٤٢ **وأن إلى ربك المنتهي**) وليس وراء الله مرمى، ولا دونه مستقر. ولا تَقَرُّ العين بغيره ألبته. وكل مطلوب سواه فظل زائل، وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور.

• السماع المذموم

وسماع آخر يبغضه الله و يكرهه. ويمدح المعرض عنه. وهوسماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقَصَدَ أن يعلم به حسن ضده. فان الضد يظهر حسنه الضد. كما قيل:

وإذا سمعتُ إلى حديثك زادني ... حباً له: سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذى مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله (٢٨ : ٥٥ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه**) وقوله (٢٥ : ٧٢ **وإذا مروا باللغو مروا كراماً**) قال محمد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود «الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته. فانه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر. ولوعرف حقيقة النفاق وغايته لأ بصره فى قلبه. فانه ما اجتمع فى قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتَبَرُّمهم به، وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم. وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب.

ثقل الكتاب عليهمُ لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي
وعليهمُ خَفَّ الغنا لما رأوا ... إطلاقه فى اللهو دون مناهى
يا فِرقةً ماضَرَّ دينَ محمد ... وَجَنَى عليه ومَلَّه إلا هى
سمعوا له رَعْداً وَبَرْقاً إذ حوى ... زجراً وتخويفاً بفعل مناهى
ورأوه أعظم للنفس عس ... شهواتها. يا ويحها المتناهى
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

ومن أعجب العجائب استدلال من استدل على أن هذا السماع مباح: بكونه مستلذاً طبعاً. تلذه النفوس، وتستروح إليه. وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة. فيهون عليه بالحُداء، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة في خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيع، فقال (٣١ : ١٩ **إن انكر الأصوات لصوت الحمير**) وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة. فقال فيه (٣٠ : ١٥ **فهم فى روضة يحبرون**). وأن ذلك هو سماع الطيب. فكيف يكون حراماً وهو فى الجنة؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كأذَنه — أي كاستماعه — لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن. وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى صلى الله عليه وسلم إلى صوته، وأثنى عليه بحسن الصوت. وقال (**لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود**) فقال له أبو موسى «لو علمت أنك استمعت لحبّرته لك تحبيرا» أي زينته لك وحسنته. وبقوله صلى الله عليه وسلم (**زينوا القرآن بأصواتكم**).

وبقوله صلى الله عليه وسلم (**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**) والصحيح: أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت وبذلك فسره الامام أحمد رحمه الله، فقال: يحسنه بصوته ما استطاع.

وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عائشة على غناء القَيْنتين يوم العيد. وقال لأبي بكر «دعهما. **فإن لكل قوم عيدا. وهذا عيدنا أهلَ الاسلام**».

وبأنه صلى الله عليه وسلم أذن فى العرس فى الغناء وسماه لهواً. وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحُداء وأذن فيه وكان يسمع أنساً والصحابة، وهم يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق.

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة. وحدا به الحادى فى منصرفه من خيبر. فجعل يقول.

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن عن صيح بنا أتينا	وبالصياح عوّلوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

فدعا لقائله.

وسمع قصيدة كعب بن زهير. وأجازه ببردة.

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حَمِدَ بها ربه.

واستنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة قافية.

وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه.

وصَدَّق لبيداً فى قوله «ألا كل شىء ما خلا الله باطل»

ودعا لحسان (أن يؤيده الله بروح القدس مادام ينافح عنه) وكان يعجبه شعره. وقال له (اهْجُهم. وروح القدُس معك).

وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه. وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة.

وبأن الاجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدامى أولى بالاباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه. فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له على الحرام. وإن كان مباحاً كان السماع فى حقه مباحا. وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة. لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن. والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة. فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والادراكات محرمة.

فالجواب: أن هذه حَيْدة عن المقصود. وروغان عن محل النزاع. وتعلق بما لا متعلق به. فإن جهة كون الشىء مستلذاً للحاسة ملائما لها، لا يدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه. فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون فى الحرام، والواجب. والمكروه. والمستحب. والمباح. فكيف يستدل بها على الاباحة من يعرف شروط الدليل، ومواقع الاستدلال؟

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم، وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعارف التى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم تحريمها، وأن فى أمته من سيستحلها بأصح إسناد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال جمهورهم: بتحريم جلتها إلا لذيذة تلذ السمع؟ وهل فى التذاذ الحمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه: من إباحة، أو تحريم؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على الاباحة بأن الله خلق الصوت الطيب. وهو زيادة نعمة منه لصاحبه.

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة فى النعمة. والله خالقها. ومعطى حسنها؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها، والالتذاذ على الاطلاق بها؟

وهل هذا الا مذهب الاباحة

وأعجب من هذا: الاستدلالُ على الاباحة بسماع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمراً. وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلى حِلّ أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال: بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به فى الجنة.

اما القصائد التى تُمدح بها الله ورسوله ودينه وكتابه، وهجي بها اعداؤه، فهذه لم يزل المسلمون يروونها و يسمعونها و يتدارسونها. وهى التي سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأثاب عليها. وحرض حساناً عليها. وهى التي غرّت أصحاب السماع الشيطانى. فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد. فنعم إذن. والسنة كلام. والبدعة كلام والتسبيح كلام. والغيبة كلام. والدعاء كلام. والقذف كلام.

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه صلى الله عليه وسلم الصوت الحسن بالقرآن. وأذنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له.

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد. وذكر القدّ والنهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق، والقلق والفراق، وما جرى هذا المجرى. مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما.

وأعجب من هذا: استدلالهم على إباحة السماع ــ المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية ــ بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية فى يوم عيد وفرح، بأبيات من أبيات العرب، فى وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم. فأين هذا من هذا؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر رضى الله عنه سمى ذلك «مزموراً من مزامير الشيطان» وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه التسمية. ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين، ولا مفسدة فى إنشادهما. ولا استماعهما. أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى فياسبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟.

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد؟! وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا (٢ : ٢٧٥ إنما البيع مثل الربا) وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان، والأوتار والعيدان؟

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة أن تعلم أنه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أو ذوق من الأذواق. هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين. وهى وحيه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه. وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول. وما أبطله ورده فهو الباطل المردود. ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله: فليس على شيء من الدين. وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور (٢٤ : ٣٩ **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنده فوفّاه حسابه. والله سريع الحساب**).

فإذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الاباحة أو التحريم؟ فينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته. بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى، ولاسيما إذا كان طريقاً مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب، وهو رُقْية له ورائد و بَريد. فهذا لا يشك فى تحريمه أولو البصائر. فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الابرة من المسكر. لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سَوْقاً للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء ــ كما قال ابن مسعود رضى الله عنه هو «رقية الزنا» وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبى إلا وفسد، ولا امرأة إلا و بغت، ولا شاب إلاّ وإلا، ولا شيخ إلا وإلا. والعيان من ذلك يغنى عن البرهان.

وإذا لم يكن بُدٌّ من المحاكمة إلى الذوق. فهلم نحاكمك إلى ذوق لا نُنكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التى ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود، وحالة فرح ورضى بموجود. وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان.

وله بمقتضى الحالة الاولى: عبودية الرضاء. وهى للسابقين. والصبر. وهي لأصحاب اليمين.

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر والشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون، وأصحاب يمين. فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحمقين فاجرين. هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب. وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضّه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين.

وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بعينه فى حديث أنس رضى الله عنه (إنما **نهيتُ عن صوتين أحمقين، فاجرين: صوت وَيْلٍ عند مصيبة. وصوت مزمار عند نعمة**).

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة. مع الامعان فى تفهم معانيه، وتدبر خطابه قليلا قليلا. إلى أن يتخلع من قلبه سماع الأبيات. و يلبس محبة سماع الآيات. و يصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه. فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شيء، و يتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرى أنْ قد تناهى بى الهوى	إلى غاية ما فوقها لى مطلب
فلما تلاقينا، وعاينت حسنها	تيقنت أنى إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين. لا يمترى فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذى هو للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى النائحة — وقد ضربها حتى بدا شعرها — وقال «لاحرمة لها. إنها تأمر بالجزع. وقد نهى الله عنه. وتنهى عن الصبر. وقد أمر الله به. وتفتن الحى وتؤذى الميت. وتبيع عبرتها. وتبكى شجو غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذى شاهدناه — نحن وغيرنا — وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم. وفشت فيهم. واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء.

ذلك أنهم باللهو والغناء يقلبون حياتهم من الجد الى اللعب والسخرية ومن الرشد الى السفه والغى. ومن القوة الى الضعف والوهن. فإن حياة الغناء واللهو واللعب لابد تحلل عناصر القوة والنشاط العلمي والعملي الذي لانجاح للأمة ولاقوة لها الا به. فتضعف صناعياً واقتصادياً وزراعياً وعسكرياً فضلا عن انهيارها الخلقي، وشدة تعرضها للعنة الله. و يصبح أمرها فرطا. لأن قلوبها غفلت عن الحق في سنن الله وآياته وحكمته. واتبعت هواها فهوى بها الى درك الوهن والضعف.

(١٢) مَنزِلَةُ الخَوفِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الخوف»

وهي من أجل منازل الطريق، وانفعها للقلب. وهي فرض على كل احد. قال الله تعالى (٣:١٧٥ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**) وقال تعالى (٢:٤٠ **فإياي فارهبون**) وقال (٥:٤٤ **فلا تخشوا الناس واخشون**) ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال (٢٣:٥٧ - ٦١ **ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون - الى قوله - أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**) وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت **«يارسول الله، قول الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذي يزني، و يشرب الخمر، و يسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم و يصلي و يتصدق، ويخاف أن لايقبل منه»** قال الحسن: عملوا والله بالطاعات. واجتهدوا فيها. وخافوا أن ترد عليهم. ان المؤمن جمع احسانا وخشية، والمنافق جمع اساءة وأمنا.

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» الفاظ متقاربة غير مترادفة. قال ابو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الانفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الاحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الخشية» أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى (٣٥:٢٨ **إنما يخشى الله من عباده العلماء**) فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم **«إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»**.

فالخوف حركة. والخشية انجماع، وانقباض وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان.

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لايصل اليه فيه. وهي الخشية. ومنه: انخش الشيء، والمضاعف والمعتل اخوان. كتقضى البازي وتقضض

وأما «الرهبة» فهي الامعان في الهرب من المكروه . وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وبين الرهَبَ والهرب تناسب في اللفظ والمعنى. يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع.

وأما «الوجل» فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، او لرؤيته.

وأما «الهيبة»: فخوف مقارن للتعظيم والاجلال ، واكثر مايكون مع المحبة والمعرفة . والاجلال : تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين. والخشية للعلماء العارفين. والهيبة للمحبين . والاجلال للمقربين . وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم **«إني لاعلمكم بالله. وأشدكم له خشية»** وفي رواية «خوفا» وقال **«لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصُّعدات تجأرون الى الله تعالى»**.

فصاحب الخوف : يلتجيء الى الهرب. والامساك ، وصاحب الخشية : يلتجيء الى الاعتصام بالعلم . ومثلهما مثل من لاعلم له بالطب . ومثل الطبيب الحاذق، فالاول يلتجيء الى الحميه والهرب . والطبيب يلتجيء الى معرفته بالأدوية والأدواء.

قال ابو حفص : الخوف سوط الله، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه. قال: الخوف سراج في القلب . به يبصر مافيه من الخير والشر. وكل أحد اذا خفته هربت منه الا الله عز وجل. فإنك اذ خفته هربت اليه.

فالخائف هارب من ربه الى ربه.

قال ابو سليمان: ما فارق الخوف قلباً الا خرب. وقال ابراهيم بن سفيان: اذا سكن الخوف القلوب احرق مواضع الشهوات منها . وطرد الدنيا عنها . وقال ذو النون: الناس على الطريق مالم يزل عنهم الخوف . فاذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

والخوف ليس مقصودا لذاته . بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل . ولهذا يزول بزوال المخوف فإن أهل الجنة لاخوف عليهم ولاهم يحزنون.

والخوف يتعلق بالافعال . والمحبة تتعلق بالذات والصفات . ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم اذا دخلوا دار النعيم . ولا يلحقهم فيها خوف. ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق: ماحال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل . فاذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال ابو عثمان: صِدقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً و باطناً

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: الخوف المحمود: ماحجزك عن محارم الله.

وقال صاحب المنازل الشيخ الهروي رحمه الله:

«الخوف: هو الانخلاع من طمأنينة الامن بمطالعة الخبر».

يعني الخروج عن سكون الامن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

قال: «واول الخوف: الخوف من العقوبة، وهو الخوف الذي يصح به الايمان. وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة.».

والخوف مسبوق بالشعور والعلم. فمحال خوف الانسان مما لاشعور له به.

وله متعلقان. احدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه. والثاني: السبب والطريق المفضي اليه فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب الى المخوف، و بقدر المخوف: يكون خوفه. وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه.

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي الى محذور كذا: لم يخف منه ذلك السبب. ومن اعتقد أنه يفضي الى مكروه ما، ولم يعرف قدره: لم يخف منه ذلك الخوف. فاذا عرف قدر المخوف، وتيقن افضاء السبب اليه: حصل له الخوف.

هذا معنى تولده من تصديق الوعيد، وذكر الجناية.

وفي مراقبة العاقبة: زيادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينه، بحيث لاينساه. فإنه ـ وان كان عالماً به ـ لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف. فلذلك كان الخوف علامة صحة الايمان. وتَرَحُّله من القلب علامة ترحل الايمان منه. والله أعلم.

ومن الخوف المحمود: خوف المكر في جريان الانفاس المستغرقة في اليقظة، المشوبة بالحلاوة.

يريد: ان من حصلت له اليقظة بلا غفلة، واستغرقت انفاسه فيها: استحلى ذلك. فإنه لا احلى من الحضور في اليقظة. فإنه ينبغي ان يخاف المكر، وان يُسْلَب هذا الحضور، واليقظة والحلاوة. فكم من مغبوط بحالة انعكس عليه الحال. ورجع من حسن المعاملة الى قبيح الاعمال. فأصبح يُقَلِّب كَفَّيه و يضرب باليمين على الشمال؟ بينما بَدْرُ أحواله مستنيراً في ليالي التمام. اذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام. فبُدِّل بالأنس وحشة، و بالحضور غيبةً، و بالاقبال اعراضاً، و بالتقريب ابعادا، و بالجمع تفرقة.

• تكامل الخوف والرجاء

القلب في سيره الى الله عز وجل بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه. والخوف والرجاء جناحاه. فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران. ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضه لكل صائد وكاسر. ولكن السلف استحبوا ان يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة ابي سليمان وغيره.

قال: ينبغي للقلب ان يكون الغالب عليه الخوف. فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب. والرجاء حادٍ. والخوف سائق. والله الموصل بمنه وكرمه.

(١٣) منزلة الاشفاق

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الاشفاق»

قال الله تعالى (**٢١:٤٩ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون**) وقال تعالى (**٥٢:٢٥ ــ ٢٧ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا : إنا كنا قبلُ في اهلنا مشفقين * فمنّ الله علينا. ووقانا عذاب السموم**).

«الاشفاق» رقة الخوف. وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه. فنسبته الى الخوف نسبة الرأفة الى الرحمة . فإنها ألطف الرحمة وأرقها.

. وبدايته: اشفاق على النفس ان تجمع الى العناد، او ان تسرع وتذهب الى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية . ثم هو اشفاق على العمل ان يصير الى الضياع.

فيخاف على عمله ان يكون من الاعمال التي قال الله فيها (**٢٥:٢٣ وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هَباء منثوراً**) وهي الاعمال التي كانت لغير الله وعلى غير امره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ويخاف ايضا ان يضيع عمله في المستقبل، اما بتركه . واما بمعاصي تفرقه وتحبطه. فيذهب ضائعاً. و يكون حال صاحبه كحال التي قال الله تعالى عن أصحابها (**٢:٢٦٥ أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الآنهار. له فيها من كل الثمرات ــ الآية**) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، اولا نعلم. فقال ابن عابس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: يا ابن أخي قل. ولا تَحْقِرَنَّ نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلا لعمل. قال عمر. أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل . قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله فبعث الله اليه الشيطان . فعمل بالمعاصي حتى اعرق جميع اعماله».

وأوسطه : اشفاق على الوقت: أن يَشوبه تفرق.

أي يحذر على وقته: أن يخالطه مايفرقه عن الحضور مع الله عز وجل، وعلى القلب: ان يزاحمه عارض.

والعارض المزاحم: إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة: وكل سبب يعوق السالك.

ونهايته: اشفاق يصون سعيه عن العُجب، و يكف عن مخاصمة الخلق، ويحمل صاحب الارادة على حفظ الجد.

فالعجب: يفسد العمل كما يفسده الرياء. فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والمخاصمة للخَلق: مفسدة للخُلُق. فيشفق على خُلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والارادة: يفسدها عدم الجد. وهو الهزل واللعب ، فيشفق على ارادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وارادته : استقام سلوكه وقلبه وحاله . والله المستعان.

(١٤) منزلة الخشوع

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الخشوع»

قال الله تعالى (**٥٧: ١٦ ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق؟**) قال ابن مسعود رضي الله عنه «ماكان بين اسلامنا و بين أن عاتبنا اللهُ بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال ابن عباس «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى (**٢٣: ١ قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون**).

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى (**٢٠: ١٠٨ وخشعت الاصوات للرحمن**) اي سكنت ، وذلت ، وخضعت . ومنه وصف الارض بالخشوع . وهو يبسها ، وانخفاضها ، وعدم ارتفاعها بالري والنبات . قال تعالى (**٤١: ٣٩** ومن آياته **انك ترى الارض خاشعة . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ**).

و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه.

وقيل «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته : أن العبد اذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل «الخشوع» خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على ان «الخشوع» محله القلب. وثمرته على الجوارح . وهي تظهره و«رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»** وقال النبي صلى الله عليه وسلم «**التقوى هُهنا ـ وأشار الى صدره ـ ثلاث مرات**» وقال بعض العارفين. حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلا خاشع المنكبين والبدن. فقال: يافلان، الخشوع هُهنا. وأشار الى صدره. لا ههنا، وأشار الى منكبيه.

وكان بعض الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وهو حذيفة، يقول «اياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: ان ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال «ياصاحب الرقبة، ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب» ورأت عائشة ــ رضي الله عنها ــ «شبابا يمشون و يتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء: فقالوا: نُسّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. واذا قال: أسمع. واذا ضرب: أوجع. واذا أطعم: أشبع. وكان هو الناسك حقاً» وقال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أن يُرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة رضي الله عنه «أول ماتفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ماتفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لاخير فيه. و يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً» وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

• الخشوع تذلّل واستسلام

وجماع الخشوع: التذلل للأمر. والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق.

التذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال. ومواطأة الظاهر الباطن، مع اظهار الضعف، والافتقار الى الهداية للامر قبل الفعل، والاعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.

واما الاستسلام للحكم الشرعي: فبعدم معارضته برأي او شهوة.

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب اليها، واطلاعه على تفاصيل مافي القلب والجوارح وهذا احد التأويلين في قوله تعالى (٥٥:٤٦) **ولمن خاف مقام ربه جنتان)** وقوله (٧٩:٤٠) **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)** وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية.

فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لامحالة. وكلما كان اشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً. وانما يفارق القلب اذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونظره اليه.

والتأويل الثاني: انه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه.

فعلى الأول: يكون من باب اضافة المصدر الى الفاعل.

وعلى الثاني: ــ وهو اليق بالآية ــ يكون من باب اضافة المصدر الى المخوف.

واعلم ان نمو الخشوع انما يكون بترقب آفات النفس والعمل، ورؤية كل ذي فضل عليك، فان انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك: يجعل القلب خاشعا لامحالة، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما: من الكبر، والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين،

وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني، وعدم ايقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك ، وغير ذلك من عيوب النفس ، ومفسدات الأعمال.

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك : فهو ان تراعي حقوق الناس فتؤديها. ولا ترى ان مافعلوه من حقوقك عليهم . فلا تعارضهم عليها. فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها. ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم . وتنسى فضل نفسك.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول : العارف لايرى له على احد حقاً. ولايشهد له على غيره فضلا. ولذلك لايعاتب، ولايطالب، ولايضارب.

• افتقار واستتار

و يكمل الخشوع بتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل، فيُخفي أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكساره، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها. فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله. وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله. فلا شيء انفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل ، وانه لاشيء . وانه ممن لم يصح له بعدُ الاسلام حتى يدّعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ من ذلك امراً لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولامني شيء، ولا فيَّ شيء. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكَدّي وابن المكدي	وهكذا كان أبي وجدي

وكان اذا أثني عليه في وجهه يقول: والله اني الى الآن اجدد اسلامي كل وقت. وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

و بعث اليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه. وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

انا المفتقر الى رب البريات	أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي. وهي ظالمتي	والخير ان يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولاعن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات. لازم أبدا	كما الغنى أبدا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي

واما تجريد رؤية الفضل: فهو أن لايرى الفضل والاحسان إلا من الله، فهو المانّ به بلا سبب من العبد، ولا وسيلة سبقت منه توسل بها الى احسانه؛ بل ان جميع ماوصله من خير فمن منة الله عليه. و بفضله عليه من غير استحقاق منه . ولابذل عوض استوجب به ذلك. كما قال تعالى **(٤٩: ١٧ يمنون عليك أن أسلموا، قل: لاتمنوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ان كنتم صادقين).**

وكذلك يشهد أن مازوى عنه من الدنيا، او مالحقه منها من ضرر وأذّى فهو منة أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة، و يستخرجها الفكر الصحيح. كما قال بعض السلف «يا ابن آدم، لاتدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما زَوَى عنك؟» وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه «لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت. إن كان الغنى، إن فيه للشُّكْر. وإن كان الفقر، إن فيه للصَّبر» وقال بعض السلف «نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها. إني رأيته أعطاها قوما فاغتروا».

(١٥) منزلة الإخبات

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الاخبات»

قال الله تعالى (٢٢: ٣٤ وبشر المخبتين) ثم كشف عن معناهم . فقال: (الذين اذا ذكر الله وَجِلَت قلوبهم. والصابرين على ما أصابهم، والمقيمي الصلاة. ومما رزقناهم ينفقون) وقال (١١: ٢٣ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

و«الْخَبْت» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض. و به فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين» وقالا: هم المتواضعون. وقال مجاهد: المخبت المطمئن الى الله عز وجل. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعون . وقال ابراهيم النخعي: المصلون المخلصون. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمر بن اوس : هم الذين لايظلمون، واذا ظُلموا لم ينتصروا.

وهذه الاقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون الى الله عز وجل، ولذلك عُدّي بإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون الى الله.

وهو من أول مقامات الطمأنينة.

كالسكينة، واليقين، والثقة بالله ونحوها. فالإخبات: مقدمتها ومبدؤها. و به يكون ورود المأمن من الرجوع والتردد.

إذ لما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد ــ الذي هو نوع غفلة واعراض ــ والسالك مسافر الى ربه ، سائر اليه على مدى انفاسه . لاينتهي مسيره اليه مادام نفسه يصحبه ــ كان حصول الاخبات له كالماء العذب الذي يرده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله . فيرويه مورده، و يزيل عنه خواطر تردده في اتمام سفره، او رجوعه الى وطنه لمشقة السفر. فإذا ورد ذلك الماء: زال عنه التردد، وخاطِرُ الرجوع. كذلك السالك اذا ورد مورد «الاخبات» تخلص من التردد والرجوع ، ونزل اول منازل الطمأنينة بسفره، وجَدَّ في السير.

وهو على ثلاث درجات . الدرجة الاولى: ان تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الارادة الغفلة. و يستهوي الطلب السلوة.

المريد السالك: تعرض له غفلة عن مراده، تضعف ارادته. وشهوةٌ تعارض ارادته. فتصده عن مراده. ورجوعٌ عن مراده، وسلوة عنه.

فهذه الدرجة من الاخبات تحميه عن هذه الثلاثة. فتستغرق عصمتُه شهوتَه.

و«العصمة» هي الحماية والحفظ. و«الشهوة» الميل الى مطالب النفس. و«الاستغراق» للشيء الاحتواء عليه والاحاطة به.

فتغلب عصمته شهوته وتقهرها، وتستوفي جميع اجزائها. فإذا استوفت العصمة جميع اجزاء الشهوة: فذلك دليل على اخباته. ودخوله في مقام الطمأنينة، ونزوله اول منازلها، وخلاصه في هذا المنزل من تردد الخواطر بين الاقبال والادبار، والرجوع والعزم، الى الاستقامة والعزم الجازم، والجد في السير. وذلك علامة السكينة.

وتستدرك ارادته غفلته. و«الارادة» عند القوم: هي اسم لاول منازل القاصدين الى الله. و«المريد» هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه. واخذ في السفر الى الله، والدار الآخرة. فاذا نزل في منزل «الاخبات» احاطت ارادته بغفلته. فاستدركها ، واستدرك بها فارطها.

واما «استهواء طلبه لسلوته» فهو قهر محبته لسلوته، وغلبتها له. بحيث تهوي السلوة وتسقط ، كالذي يهوى في بئر. وهذا علامة المحبة الصادقة: ان تقهر فيه وارد السلوة، وتدفنها في هُوَّة لاتحيا بعدها أبداً.

فالحاصل: أن عصمته وحمايته: تقهر شهوته. وارادته تقهر غفلته. ومحبته تقهر سلوته.

الدرجة الثانية : ان لايوحش قلبه عارض ، ولايقطع عليه الطريق فتنة.

و«العارض» هو المخالف. كالشيء الذي يعترضك في طريقك . فيجيء في عرضها . ومن اقوى هذه العوارض : عارض وحشة التفرد. فلا يلتفت اليه، كما قال بعض الصادقين: انفرادك في طريق طلبك: دليل على صدق الطلب. وقال آخر: لا تستوحش في طريقك من قلة السالكين. ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وأما «الفتنة» التي تقطع عليه الطريق: فهي الواردات التي ترد على القلوب، تمنعها من مطالعة الحق وقصده. فإذا تمكن من منزل «الاخبات» وصحة الارادة والطلب : لم يطمع فيه عارض الفتنة.

وهذه العزائم لا تصح الا لمن أشرق على قلبه أنوارآثار الأسماء والصفات. وتجلت عليه معانيها.

الدرجة الثالثة: ان يستوى عنده المدح والذم، وتدوم لائمتُه لنفسه.

فاعلم انه متى استقرت قدم العبد في منزلة «الاخبات» وتمكن فيها: ارتفعت همته ، وعلت

نفسه عن خطفات المدح والذم. فلا يفرح بمدح الناس، ولايحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظ نفسه.

وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات . وباشر حلاوة الايمان واليقين قلبه.

والوقوف عند مدح الناس وذمهم: علامة انقطاع القلب، وخلوه من الله، وانه لم تباشره روح محبته ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة اليه.

ولايذوق العبد حلاوة الايمان، وطعم الصدق واليقين، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه. والله لو تحقق الناس في هذا الزمان ذلك من قلب رجل لرموه عن قوس واحدة. وقالوا: هذا مبتدع ، ومن دعاة البدع . فالى الله المشتكى . وهو المسؤول الصبر، والثبات. فلابد من لقائه **(٢٠: ٦١ وقد خاب من افترى) (٢٦: ٢٢٧ وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون)**.

والمراد بالنفس ، عند القوم: ماكان معلولاً من أوصاف العبد، مذموماً من أخلاقه وأفعاله. سواء كان ذلك كسبياً، أو خَلْقياً. فهو شديد اللائمة لها. وهذا احد التأويلين في قوله تعالى **(٧٥: ٢ ولا أقسم بالنفس اللوامة)** قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر. ولا تصبر على السراء . ولا على الضراء.

وقال قتادة: اللوامة: هي الفاجرة.

وقال مجاهد: تندم على مافات ، وتقول: لو فعلت ؟ ولو لم أفعل؟.

وقال الفراء: ليس من نفس بَرَّة ولا فاجرة الا وهي تلوم نفسها: ان كانت عملت خيراً قالت: هلا زدت؟ وان عملت شراً قالت: ليتني لم أفعل.

وقال الحسن: هي النفس المؤمنة. ان المؤمن ــ والله ــ ماتراه الا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلمة كذا؟ ما أردتُ بأكلة كذا؟ ما أردت بكذا؟ ما أردت بكذا؟ وان الفاجر يمضي قُدُماً، ولايحاسب نفسه ولايعاتبها.

وقال مقاتل: هي النفس الكافرة. تلوم نفسها في الآخرة على مافرطت في امر الله في الدنيا.

والقصد: ان من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها. لأنه يريد ان يتقبلها مَنْ بُذلت له. ولأنه قد قَرَّبها له قرباناً. ومن قَرَّب قُرباناً فَتُقُبِّل منه. ليس كمن رُدَّ عليه قربانه. فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه.

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير الى الله عزوجل . وكل سائر لاطريق له الا على ذلك الجبل. فلابد أن ينتهي اليه، ولكن منهم من هو شاق عليه. ومنهم من هو سهل عليه. وانه ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية، وعقبات، وشوك، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين. ولاسيما أهل الليل المدلجين. فإذا لم يكن معهم عُدد الايمان، ومصابيح اليقين تتقد بزيت

الاحبات، والا تعلقت بهم تلك الموانع . وتشبثت بهم تلك القواطع. وحالت بينهم و بين السير.

فإن اكثر السائرين فيه رجعوا على اعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. والشيطان على قُلَّة ذلك الجبل. يحذر الناس من صعوده وارتفاعه. ويخوفهم منه. فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قُلَّته، وضعف عزيمة السائر ونيته . فيتولد من ذلك: الانقطاع والرجوع. والمعصوم من عصمه الله.

وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع ، وتحذيره وتخويفه. فإذا قطعه و بلغ قلته: انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً . وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقباتها. و يرى طريقاً واسعاً آمناً. يفضي به الى المنازل والمناهل. وعليه الأعلام. وفيه الاقامات، قد أعدت لركب الرحمن.

فبين العبد و بين السعادة والفلاح : قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم.

(١٦) مَنْزِلَةُ الزُّهْدِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الزهد».

قال الله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وقال تعالى (٥٧ : ٢٠ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد. كمثل غيث أعجب الكفار نباته. ثم يهيج فتراه مصفراً. ثم يكون حطاماً، وفى الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقال تعالى (١٠ : ٢٤ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ــ الآية) وقال تعالى (١٨ : ٤٥، ٤٦ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض. فأصبح هشيما تذروه الرياح ــ إلى قوله ــ وخير أملا) وقال تعالى (٤: ١٥ قل متاع الدنيا قليل. والآخرة خير لمن اتقى) وقال (٨٧ : ١٤، ١٧ بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى) وقال (٢٠ : ١٣١ ولا تَمُدَّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زَهْرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) وقال تعالى (١٨ : ٧، ٨ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا. وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً) وقال (٤٣ : ٣٣ ــ ٣٥ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفاً من فضة ــ إلى قوله ــ والآخرة عند ربك للمتقين).

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والاخبار بخستها وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والاخبار بشرفها ودوامها. فاذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. و يؤثر منهما ما هو أولى بالايثار.

وقد أكثر الناس من الكلام في «الزهد» وكل أشار إلى ذوقه. ونطق عن حاله وشاهده. فان غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم: أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول. الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد، والورع» وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل. ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

ذلك ان الزهد في الشيء في لغة العرب ــ التي هي لغة الاسلام ــ الانصراف عنه احتقاراً له، وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه. ولم يجيء في القرآن إلا في شأن الذين شروا يوسف (١٢ : ٢٠ **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة. وكانوا فيه من الزاهدين**) والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الانسان في هذه الحياة، مما جعله بلاء وعوناً للمهتدين على الايمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقياً صالحا للآخرة، وعوناً على الكفر والفسوق والعصيان، عند الغافلين الكافرين ــ الزهد في ذلك: إعراض عن نعم الله وتحقير لها. وليس هذا من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا هدي أصحابه. وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبها والفرح بفضل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به.

وقال الجنيد: الزهد في قوله تعالى (٥٧ : ٢٣ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. والله لا يحب كل مختال فخور**) فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود. ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الاعراض عنها.

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال الامام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه بإقبالها. ولا حزنه على إدبارها. فانه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار. هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم. على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله.

وسأل رويم الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب. وقال مرة: هو خلو اليد عن الملك، والقلب عن التتبع.

وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

وقيل: الزهد الايثار عند الاستغناء، والفتوة الايثار عند الحاجة. قال الله تعالى (٥٩ : ٩ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**).

وقد قال الامام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه. الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الامام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته. وهو من أجمع الكلام. وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى. وقد شهد الشافعي رحمه الله بامامته في ثمانية أشياء «أحدها الزهد».

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالزهد لعبد الله بن المبارك، وللامام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السري، ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء. لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها. وهي المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك. فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما. ولهما من المال والملك والنساء ما لهما. وكان نبينا صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الاطلاق. وله تسع نسوة. وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان — رضي الله عنهم — من الزهاد. مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغناهم. وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير. وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد. وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة — إذا أصبت بها — أرغب منك فيها لو لم تصبك. فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه. وقد روي مرفوعاً.

● سُنّة الزهد ماضية

وقد اختلف الناس في «الزهد» هل هو ممكن في هذه الأزمنة أم لا؟

فقال أبو حفص: الزهد لا يكون إلا في الحلال. ولا حلال في الدنيا، فلا زهد.

وخالفه الناس في هذا. وقالوا: بل الحلال موجود فيها. وفيها الحرام كثيراً، وعلى تقدير: أن لا يكون فيها الحلال. فهذا أدعى إلى الزهد فيها، وتناول ما يتناوله المضطر منها، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير.

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغني أن رجلا بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له زاهد. لأن الزهد لا يكون إلا في

الحلال المحض. والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا. وأما الحرام: فان ارتكبته عذبك الله عز وجل.

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد.

فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال. لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام. وأما الحلال: فنعمة من الله تعالى على عبده. والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقاً إلى جنته: أفضل من الزهد فيها. والتخلي عنها، ومجانبة أسبابها.

والتحقيق: أنها إن شغلته عن الله. فالزهد فيها أفضل. وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكراً لله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها. والله أعلم.

● استبراء واستعلاء

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: الزهد في الشبهة. بعد ترك الحرام بالحذر من المَعْتبة، والأنفة من المَنْقَصة، وكراهة مشاركة الفساق.

أما الزهد في الشبهة: فهو ترك ما يشتبه على العبد: هل حلال، أو حرام؟ كما في حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (**الحلال بين. والحرام بين. وبين ذلك أمور مشتبهات. لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى. يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى. ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد. وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. ألا وهي القلب**).

ثم يأنف لنفسه من نقصه عند ربه، وسقوطه من عينه. لا أنفته من نقصه عند الناس، وسقوطه من أعينهم. وإن كان ذلك ليس مذموماً، بل هو محمود أيضاً. ولكن المذموم: أن تكون انفته كلها من الناس، ولا يأنف من الله.

أما كراهة مشاركة الفساق» فذلك أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا. ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام. فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف. و يرفع نفسه عنها، لخسة شركائه فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذى زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها.

إذا لـم أتـرك المـاء اتـقـاء	تـركـت لـكـثـرة الـشـركـاء فـيـه
إذا وقـع الـذبـاب على طـعـام	رفـعـت يـدى ونـفـسي تـشـتـهـيـه
وتجـتـنـب الأسـود ورود مـاء	إذا كـان الـكـلاب يَـلَـغْـنَ فـيـه

● بناء... في سكون

الدرجة الثانية: اغتنام التفرغ الى عمارة الوقت، وحَسْم الجأش.

إذ لما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى: خوفا من المَعْتَبة، وحذراً من المنقصة: كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع. وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله. لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا، فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت. فالوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك.

وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب، أو منكح، أو منام، أو راحة. فانه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه. كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات.

بل لا تحسب أن عمارة الوقت بالصلاة ونحوها فحسب. فان عمارة الوقت بالعمل الصالح شكراً لله، بالزراعة والصناعة، والعمل في عمارة الأرض واستخراج كنوزها وإصلاحها، وتنمية الثروات وإعداد القوة والعدد والمدد، لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الاسلام، ومد ظل عدله ورحمته على الناس، وإخراجهم به من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكل ومشرب وملبس، وغير ذلك مما يهيىء الحياة الرغيدة، والعيش السعيد للأسرة، لتكون في جو وبيئة صالحة كريمة، لانشاء جيل جديد من أبناء صالحين نافعين. عاملين لقوة الأمة وعزتها، وكذلك التمهر في الصناعات والحرف التي تستغني بها الأمة عن غيرها في مضمار العمران، كل ذلك ونحوه من شكر الله على نعمه فيما أعطى، وحسن الانتفاع به. ينبغي أن يعمر الوقت به.

فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه، وراحته، أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان.

ولا ريب أن النفس إذا نالت حظاً صالحاً من الدنيا قويت به وسرت، واستجمعت قواها وجمعيتها. وزال تشتتها.

وأما «حسم الجأش» فهو قطع اضطراب القلب، المتعلق بأسباب الدنيا، رغبة ورهبة، وحباً وبغضاً، وسعياً. فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه. بأن لا يلتفت إليها،

ولا يتعلق بها في حالتي مباشرته لها وتركه. فان الزهد زهد القلب، لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء. فهو تخلي القلب عنها. لا خلو اليد منها.

● زهد بماذا... وما ثَمَّ شيء!!

الدرجة الثالثة: الزهد في الزهد. وهو بثلاثة أشياء: استحقار ما زهدت فيه. واستواء الحالات فيه عندك. والذهاب عن شهود الاكتساب.

فالزهد في الزهد يفسر بثلاثة اشياء.

أحدها: احتقاره ما زهد فيه. فان من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرباناً. لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند اللّه جناح بعوضة. فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له، فيستحي مَنْ صَحَّ له الزهد أن يجعل ما تركه لله قدراً يلاحظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيه كما فنى عنه. و يستحى من ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه: متساو ين عنده. إذ ليس له عنده قدر. وهذا من دقائق فقه الزهد. فيكون زاهداً في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه، إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذاً وتركا، لصغره في عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه:

أن يشاهد تفرد الله بالعطاء والمنع. فلا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً. بل الله وحده هو المعطي المانع. فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء في النهر. وما تركه لله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه. فيذهب بمشاهدة الفَعَّال وحده عن شهود كسبه وتركه.

(١٧) منزلة الورع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الورع»

قال الله تعالى (٢٣ : ٥١ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً. إني بما تعملون عليم) وقال تعالى (٧٤ : ٤ وثيابك فطهر) قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب. فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب غادرٍ لبستُ. ولا من غدرةٍ أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. وقال أبيّ بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والاثم. ولكن البسها وأنت بَرٌّ طاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل، إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب. وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرظي: وخلقك فحسن.

وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم.

وقال طاووس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة لها.

والقول الأول: أصح الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نهي عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في كلمة واحدة. فقال (**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**) فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال اسحاق بن خلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة: أشد منه في الذهب والفضة، لأنهما يبذلان في طلب الرياسة.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. وقال: الورع على وجهين. ورع في الظاهر، وورع في الباطن. فورع الظاهر: أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن: هو أن لا تدخل قلبك سواه. وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقيل: الورع الخروج من الشهوات، وترك السيئات.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

وقال سفيان الثوري. ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه.

وقال سهل: الحلال هو الذي لا يعصى الله فيه، والصافي منه الذي لا ينسى الله فيه. وسأل الحسن غلاماً. فقال له: ما ملاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فعجب الحسن منه.

وقال أبو هريرة: جلساء الله غداً أهل الورع والزهد.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس.

● انتباه القلب يصون الجوارح

قال صاحب المنازل شيخ الاسلام الهروي:

«الورع: توقٍ مستقصىً على حذر. وتَحَرّج على تعظيم».

يعني أن يتوقّى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي. لأن التوقي

والحذر متقاربات. إلا أن «التوقي» فعل الجوارح. و «الحذر» فعل القلب. فقد يتوقى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف. ولكن لأمور أخرى: من إظهار نزاهة، وعزة وتصوف، أو اعتراض آخر، كتوقي الذين لا يؤمنون بمعاد، ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة، تصوناً عنها. ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها، وطلباً للمحمدة، ونحو ذلك.

وقوله «أو تحرج على تعظيم» يعني أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه إما حذر حلول الوعيد. وإما تعظيم الرب جل جلاله، وإجلالا له أن يتعرض لما نهى عنه.

فالورع عن المعصية: إما تخوف، أو تعظيم. واكتفى بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث على ترك معصية المحبوب. لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه. وإلا فلو خلا القلب من تعظيمه لم تستلزم محبته ترك مخالفته، كمحبة الانسان ولده، فاذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة.

والورع عموما يبعث على تجنب القبائح، لصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الايمان. فهذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح.

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، و يعيبها و يزري بها عند الله عز وجل وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فان من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما في تجنب القبائح: صون النفس.

وأما «توفير الحسنات» فمن وجهين.

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فاذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلابد أن تضعفها قطعاً، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فاذا استدان عليه، فاما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

وأما «صيانة الايمان» فلأن الايمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة و ينقص بالمعصية. وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وإضعاف المعاصي للايمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فان العبد — كما جاء في الحديث — (**إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء. فان تاب واستغفر صقل قلبه. وإن عاد فأذنب نكتت فيه نكتة اخرى، حتى تعلو قلبه. وذلك الران الذي قال الله تعالى (٨٣ : ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)**) فالقبائح تسود القلب. وتطفىء نوره. والايمان هو نور القلب. والقبائح تذهب به أو

تقلله قطعاً. فالحسنات تزيد نور القلب. والسيئات تطفىء نور القلب وقد أخبر الله عز وجل أن كسب القلوب سبب للران الذى يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا. فقال (٤ : ٨٨ والله أركسهم بما كسبوا) وأخبر أن نقض الميثاق الذى أخذه على عباده سبب لتقسية القلب. فقال (٥ : ١٣ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه. ونسوا حظاً مما ذكروا به) فجعل ذنب النقض موجباً لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة — وهى صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الايمان — هى أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده. ويحجبها عنه. و يصون حسناته عما يسقطها و يضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. و يطلب بها رضاه. و يصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به.

● رجال المراتب العالية

و يرتقي الورع بصاحبه حتى يؤدي به الى حفظ الحدود عندما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وتخلصاً عن اقتحام الحدود.

فمن صعد الى هذه الدرجة من الورع: يترك كثيراً مما لا بأس به من المباح، إبقاء على صيانته، وخوفاً عليها أن يتكدر صفوها. و يطفأ نورها. فان كثيراً من المباح يكدر صفو الصيانة، و يذهب بهجتها، و يطفىء نورها. ويخلق حسنها و بهجتها.

وقال لي يوماً شيخ الاسلام ابن تيمية — قدس الله روحه — فى شىء من المباح: هذا ينافى المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً فى النجاة. أو نحو هذا من الكلام.

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانته. ولاسيما إذا كان ذلك المباح برزخا بين الحلال والحرام.

والفرق بين صاحب الورع العام وصاحب هذا: أن ذلك يسعى فى تحصيل الصيانة. وهذا يسعى فى حفظ صفوها أن يتكدر، ونورها أن يطفأ و يذهب.

وأما التخلص عن إقتحام الحدود، فالحدود: هى النهايات. وهى مقاطع الحلال والحرام. فحيث ينقطع و ينتهى، فذلك حده. فمن اقتحمه وقع فى المعصية. وقد نهى الله تعالى عن تعدى حدوده وقربانه. فقال (٢ : ١٨٧ تلك حدود الله فلا تقربوها).

وقال (٢ : ٢٢٩ تلك حدود الله فلا تعتدوها) فان الحدود يراد بها أواخر الحلال. وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك: أوائل الحرام.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم.

فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدى هذه. وهو اقتحام الحدود.

● الثمرات الطيبة

واعلم أن الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الايمان باللقاء تثمر الزهد. والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تثمر الرضاء. والذكر يثمر حياة القلب. والايمان بالقدر يثمر التوكل. ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة. والورع يثمر الزهد أيضاً. والتوبة تثمر المحبة أيضاً، ودوام الذكر يثمرها. والرضا يثمر الشكر. والعزمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات. والاخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر و يقتضيه. والمعفة تثمر الخلق. والفكر يثمر العزمة. والمراقبة تثمر عمارة الوقت، وحفظ الأ يام والحياء، والخشية والانابة. وإماتة النفس وإذلالها وكسرها: يوجب حياة القلب وعزه وجبره. ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل. واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين. وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله: أمران. أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه فى وطن الآخرة. ثم تقبل به كله على معانى القرآن واستجلائها وتدبرها. وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة. موصلة إلى الرفيق الأعلى. آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق ألبتة. وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، و يدفع عنهم. ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها. والله المستعان.

(١٨) مَنزِلَةُ التَّبَتُّلِ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التبتل».

قال الله تعالى (٧٣ : ٨ واذكر اسم ربك وَتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً).

و «التبتل» الانقطاع. وهو تَفَعُّل من البَتْل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتَّل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل ــ مصدر تفعل ــ لسر لطيف. فان في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتّل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والايجاز.

فالتبتل: الانقطاع الى الله بالكلية. وقوله عز وجل (١٣ : ١٤ له دعوة الحق) اي التجريد المحض، اي التبتل عن ملاحظة الاعواض، بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الاجرة، فاذا أخذها انصرف عن باب المستأجر.

والاستشهاد بقوله (له دعوة الحق) في هذا الموضع: فيه ارادة هذا المعنى، وانه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وان لم يوجب لداعية بها ثواباً. فانه يستحقها لذاته. فهو أهل أن يعبد وحده، و يدعى وحده، و يقصد و يشكر ويحمد، ويحب و يرجى ويخاف، و يتوكل عليه، و يستعان به، و يستجار به، و يلجأ إليه، و يصمد إليه. فتكون الدعوة الالهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا ــ معرفة وذوقا وحالا ــ صح له مقام التبتّل، والتجريد المحض. وقد فسر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والاخلاص فيه والصدق ومرادهم: هذا المعنى.

فقال علي رضي الله عنه دعوة الحق: «التوحيد» وقال ابن عباس رضي الله عنهما «شهادة أن لا إله إلا الله» وقيل: الدعاء بالاخلاص. والدعاء الخالص لا يكون إلا لله. ودعوة الحق دعوة الالهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

● اتصال... وانفصال

و «التبتل» يجمع أمرين: اتصالا وانفصالا. لا يصح إلا بهما.

فالانفصال : انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه. وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكراً فيه.

والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حباً وخوفاً ورجاء، وإنابة وتوكلا.

والذى يَحْسِمُ مادة رجاء المخلوقين من قلبك: هو الرضى بحكم الله عز وجل وقَسْمه لك، فمن رضى بحم الله وقَسْمه، لم يبق لرجاء الخلق فى قلبه موضع.

والذى يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله. فان من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ــ لم يبق لخوف المخلوقين فى قلبه موضع أيضا. فان نفسه التى يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها. وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها. وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها. فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفى التسليم أيضاً فائدة لطيفة. وهى أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده. وأحرزها فى حِرْزه. وجعلها تحت كنفه. حيث لا تنالها يَدُ عَدُوٍ عادٍ ولا بَغْي بآغٍ عاتٍ.

فهذا هو الانقطاع عن الخلق، ولكن التبتّل لا يكتمل حتى يكون انقطاع المتبتل عن النفس، بمجانبة الهوى، وتَنَسُّم روح الأنس، فان في مجانبة الهوى ومخالفته وبهي نفسه عنه: تنسم روح الانس بالله، والرَّوح للرُّوح كالرُّوح للبدن، فهو روحها وراحتها، وانما حصل له هذا الرَّوح لما اعرض عن هواه، فحينئذ يتنسم روح الانس بالله، ويجد رائحته، اذ النفس لابد لها من التعلق، فلما انقطع تعلقها من هواها: وجدت روح الانس بالله، وهبّت عليها نسماته، فريَّحتها وأحيتها، وجعلت صاحبها حبساً على مراد الله الديني الامري النبوي منه، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي، فينغمس فيهم، يمزقون أديمه، و يرمونه بالعظائم، ويخيفونه بأنواع المخاوف، و يتطلبون دمه بجهدهم، لا تأخذه فى جهادهم فى الله لومة لائم. يصدع بالحق عند من يخافه و يرجوه، قد زهد فى مدحهم وثنائهم. يصيح فيهم بالنصائح جهاراً. و يعلن لهم بها. و يسر لهم إسراراً.

(١٩) منزلة الرجاء

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرجاء»

قال الله تعالى (**١٧: ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. ويرجون رحمته ويخافون عذابه**) فابتغاء الوسيلة اليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء. قال تعالى (**٢٩: ٥ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت**) وقال (**١٨: ١١١ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**) وقال تعالى (**٢: ٢١٨ أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم**).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — قبل موته بثلاث — «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**» وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»

«الرجاء» حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب. وهو الله والدار الآخرة. ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل. ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها. ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل.

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله. فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها. فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا. يرجو رحمة الله بلا عمل. فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره. ونظر يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حد «الرجاء» : هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وسئل أحمد بن عاصم: ماعلامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجيا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة.

واختلفوا، أي الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟.

فطائفة رجحت رجاء المحسن. لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب. لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟.

وقال أيضا: إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك. وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقاؤك.

• مبنى المحبة على الرجاء

والرجاء من أجل المنازل، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله. وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. (**٣٣:٢١ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**).

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي صلى الله عليه وسلم ــ فيما يروى عن ربه عز وجل ــ **«يا ابن آدم، إنك مادعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»**

وروى الأعمش عن ابي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال **«يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه. إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم. وإن اقترب إلي شبراً، اقتربت إليه ذراعاً. وإن اقترب إلي ذراعاً. اقتربت إليه باعاً. وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»** رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه. فقال تعالى (١٧: ٥٦، ٥٧ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه. فلايملكون كشف الضرعنكم ولاتحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ. ويرجون رحمته ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذوراً**).

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي، يتقربون إليَّ بطاعتي، و يرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه «المحسن البَرُّ» فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله. هو الذي أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لايدري. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه. ولولا روح الرجاء لَعُطِّلت عبودية القلب والجوارح. وَلَهُدِّمَت صوامع، وَبِيَعٌ، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات. ولى من أبيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت نفس المحب تحسراً وتمزقاً
وكذاك لولا برده بحرارة الـ ـأكباد ذابت بالحجاب تحرقا
أيكون قط حليف حب لايُرَى برجائه بحبيبه متعلقا؟!
أم كلما قويت محبته له قوى الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجا يحدو المطيَّ لما سرت بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى مايكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه. فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتي للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لاحياة للمحب، ولانعيم ولافوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة. فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء. وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لايصحبه وحشة. بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لايصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير. وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حاليهما.

وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد. فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولاينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها.

ويكون الراجي دائما راغباً راهباً. مؤملا لفضل ربه. حسن الظن به، متعلق الأمل ببره وجوده، عابداً له بأسمائه «المحسن، البر، المعطي، الغفور، الجواد، الوهاب، الرزاق» والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه. ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به.

● رب غفور يحب ان نرجوه

وليس في «الرجاء» ولافي «الدعاء» معارضة لتصرف الله في ملكه، كما يظن بعض الجهلة، فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضاً بما هو أولى وأحب الأمرين إليه. فإن الفضل أحب إليه من العدل. والعفو أحب إليه من الانتقام، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء. والترك أحب إليه من الاستيفاء. ورحمته غلبت غضبه.

فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب له المرضي له. فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه. بل اقتضى عبوديته، وحصول أحب التصرفين إليه. وهو سبحانه وتعالى لاينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده، حتى يكون رجاؤه مبطلا لذلك، وإنما العبد استدعى العقوبة، وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به. واجتهاده في غضبه. ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات — والعبد مؤثر لها — ساع في تحصيلها، عامل عليها بإيثاره إياها وسعيه في أسبابها. فهو المهلك لنفسه. وربه يحذره ويبصره ويناديه: هلم إليّ أحمك وأصنك، وأنجك مما تحذر، وأؤمنك من كل ماتخاف. وهو يأبى إلا شروداً عليه ونفاراً عنه، ومصالحة لعدوه، ومظاهرة له على ربه. ومتطلباً لمرضاة خلقه بمساخطه. رضا المخلوق آثر عنده من رضا خالقه. وحقه آكد عنده من حقه. وخوفه ورجاؤه وحبه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبه. فلم يدع لفضل ربه وكرامته وثوابه إليه طريقاً، بل سد دونه طرق مجاريها بجهده. وأعطى بيده لعدوه. فصالحه وسمع له وأطاع. وانقاد إلى مرضاته. فجاء من الظلم بأقبحه وأشده.

فهو الذي عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته. واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع. ولم يأذن لها في الدخول عليه. فأضاع حظه وبخس حقه. وظلم نفسه. وعادى حبيبه. ووالى عدوه. وأسخط مَنْ حياته في رضاه. وأرضى من حياته في سخطه. وجاد بنفسه لعدوه. وبخل بها عن حبيبه ووليه.

و رب تبارك وتعالى ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته. ولايتشفى بعقابه. ولايزيد ذلك في ملكه مثقال ذرة. ولاينقص مغفرته. ولوغفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال درة من ملكه كيف، والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له؟ وهو قد كتب على نفسه الرحمة فرجاء العبد له لاينقص شيئاً من حكمته. ولاينقص ذرة من ملكه. ولايخرجه عن كمال تصرفه ولايوجب خلاف كماله. ولا تعطيل أوصافه وأسمائه. ولولا أن العبد هو الذي سد على نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرحمة سوء اختياره لنفسه: لكان ربه له فوق رجائه وفوق أمله

وأما استسلام العبد لربه، واستسلامه بانطراحه بين يديه، ورضاه بمواقع حكمه فيه: فما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه، و يقيله عثرته و يعفوعنه، و يقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها. و يتجاوز عن سيئاته. فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد، والانطراح بالباب. ولايتصور هذا بدون الرجاء ألبتة. فالرجاء حياة الطلب. والإرادة روحها.

• شبهات اليائسين

وظنت طائفة ان في الرجاء وقوفاً مع الحظ. والسالكون قد خرجوا عن نفوسهم، فكيف حظوظهم؟.

فيا لله العجب! ... أي غلط في رجاء العبد ربه، وطمعه في بره وإحسانه وفضله، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل مايرجوه. فإذا كان العبد دائماً مستشرفاً بقلبه، سائلا بلسانه، طالباً لفضل ربه. فأي حظاً في ذلك؟ أو لم يبلغهم دعاء النبي صلى الله عليه وسلم **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك. لاأحصي ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك»**؟ وقوله لعمه العباس رضي الله عنه **«ياعباس، ياعمّ رسول الله. سَلِ الله العافية»** وقوله للصديق الأكبر رضي الله عنه ـــ وقد سأله أن يُعَلِّمه دعاء يدعو به في صلاته ـــ **«قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً. ولايغفر الذنوب إلا أنت. فاغفرلي مغفرة من عندك. وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»** وقوله لصديقة النساء ـــ وقد سألته دعاء تدعو به، إن وافقت ليلة القدر ـــ فقال **«قولي: اللهم إنك عَفُوٌّ تحب العفو فاعفُ عني»** وقوله في دعائه الذي كان لايَدَعُه: وإن دعا بدعاء أردفه إياه **«ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار»**.

وقد أثنى الله تعالى على خاصته. وهم أولو الألباب، بأنهم سألوه: أن يقيهم عذاب النار. فقالوا (٣: ١٩١ ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك. فقنا عذاب النار) وقال صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة «لو سألتِ الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيرا لك» و «كان يستعيذ كثيراً من عذاب النار، ومن عذاب القبر» و «أمر المسلمين: أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات. وفتنة المسيح الدجال» حتى قيل: إن هذا الدعاء واجب في الصلاة. لا تصح إلا به. قاله ابن حزم وغيره. وهذا اعظم من أن نستقصيه.

وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم قال «ما سُئل الله شيئاً أحبَّ إليه من سؤال العفو والعافية» وقال لبعض أصحابه «ماتقول إذا صليت؟ فقال: أسأل الله الجنة. وأعوذ به من النار، أمَا إني لا أحسن دَنْدَنتك، ولادندنة معاذ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا حولها ندندن».

●الرجاء الولود

وكما أن الرجاء يُبرد حرارة الخوف، فان له فوائد كثيرة أُخر مشاهدة.

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه. ويستشرفه من إحسانه، وأنه لايستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه. ويسألوه من فضله. لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى. وأحب ما إلى الجواد: أن يرتجى، ويؤمل ويسأل. وفي الحديث «من لم يسأل الله يغضب عليه» والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله. ويطيب له المسير، ويحثه عليه. ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لايحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها. فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى، وشكراً له، ورضا به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها داع بها. قال الله تعالى (٧: ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) فلاينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم مايدعوبها الداعي. فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الاسماء، وتعطيل للدعاء بها.

ومنها: أن المحبة: لا تنفك عن الرجاء ــ كما تقدم ــ فكل واحد منهما يَمُدُّ الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء. والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف. وكل خائف راج. ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى (٧١: ١٣ مالكم لا ترجون لله وَقارا؟) قال كثير من المفسرين: المعنى مالكم لاتخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلارجاء يأس وقنوط. وقال تعالى (٤٥: ١٤ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله) قالوا في تفسيرها: لايخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه مارجاه: كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد. وأبلغ من حصول مالم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكَم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار. فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء ــ من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ــ مايوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة ــ كما تقدم بيانه ــ فإذا فني عن ذلك وغاب عنه: فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الاسماء والصفات.

ومنها: ان المحب الصادق في رجائه لابد أن يقارنه أحياناً فرح بمحبوبه. و يشتد فرحه به. و يرى مواقع لطفه به، و بره به، وإحسانه إليه، وحسن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله المنافع

والمسار والمبارُّ إليهْ بكل طريق، ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق. وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة. لايقف وهمه ومقتبسه لها على غاية. بل ما خفي عنه منها أعظم. فيداخله من شهود هذه الحالة نوع انبساط.

ولاينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به، وابتهاجه وقرة عينه، ونعيمه بحبه، والشوق إلى لقائه: إلا كثيف الحجاب، حجري الطباع.

ومنها: سرعة السير، وهذا كمن هو سائر إلى مدينة. فإذا شارفها ورآها: رأى الطريق حينئذ واضحة إليها، واستنار له ضياؤها واتصالها بالمدينة، وكان قبل مشاهدة المدينة على علم ـــ أو ظن ـــ يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة. وأما الآن: فقد أمن من أن يضيع عن الباب. وكذلك الراجي: اذا انقطعت عنه الموانع، واستبان له الطريق. طمع بالوصول: وصارت حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه. وكحال معاين الشفق الأحمر قرب طلوع الشمس، حيث تيقن أن الشمس بعده.

فتستجمع له قوى الظاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه، لمشاهدته ماهو سائر إليه. وهكذا عادة المسافر: أنه اذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير، و بذل الجهد. وكذلك المسابق إذا عاين الغاية: استفرغ قوى جريه وسوقه. وكذلك الصادق في آخر عمره: أقوى عزما وقصداً من أوله، لقربه من الغاية التي يجري اليها. وكذلك الراجي يتخلص من تخذيل اليأس، فيعاين نعيم الآخرة فيسرع السير.

الى فوائد أخرى كثيرة. يطالعها مَنْ أحسن تأمله وتفكره في استخراجها. و بالله التوفيق.

• قبل الاقتحام .... شوق

واعلم أن أول الرجاء: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد. و يولد التلذذ بالخدمة . و يوقظ الطباع للسماحة بترك المناهي، فينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ر به . فإن من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه.

وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها الْتَذَّ بها. وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره، و يقاسي مشاق السفر لأجلها. فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذَّ بها. وكذلك المحب الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقة عليه، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه، وقربه منه: تلذذ بتلك المساعي. وكلما قوى علم العبد بإفضاء ذلك السبب الى المسبب المطلوب، وقوى علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه. ازداد التذاذاً بتعاطيه.

.. إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهي. فإن الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها من معلومها ورسومها، وأجل عندها منه وأنفع لها. فإذا قوي تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف: سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك معلومه. فإن النفس لا تترك محبوبا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه. أو حذراً من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب. وفي الحقيقة ففرارها من ذلك المخوف إيثار لضده المحبوب لها. فما تركت محبوباً إلا لما هو أحب إليها منه. فإن من قُدّم إليه طعام لذيذ يضره و يوجب له السقم. فإنما يتركه محبة للعافية التي هي أحب إليه من ذلك الطعام.

وأعلى من هذا الرجاء: رجاء أرباب القلوب. وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المنغص المنغص للعيش، المزهد في الخلق.

هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها. قال الله تعالى (١٨:١١١ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولايشرك بعبادة ربه أحدا**) وقال تعالى: (**٢٩:٥ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت**).

هذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه وضرب لهم أجلا يُسَكّن نفوسهم و يطمئنها.

و «الاشتياق» هو سفر القلب في طلب محبوبه.

ولا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقى محبوبه. فهناك تقر عينه. و يزول عن عيشه تنغيصه. وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد. لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه. فهو يزهد شيء في الخلق، إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه. فهو أحب خلق الله إليه. ولايأنس من الخلق بغيره. ولايسكن إلى سواه. فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك. فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحبا. ودع الناس كلهم جانباً

لاتخف وحشة الطريق إذا حشـ	ـت. وكن في خفارة الحب سائر
واصبر النفس ساعة عن سواهم	فإذا لم تجبك لصبر فصابر
وفطم النفس عن سواه. فكل الـ	ـعيش بعد الفطام نحوك صائر
ـ أحد اللبث، إنما السير عزة	ثم صبر مؤيد بالبصائر
ـ هـ من ثلاثة من ينلهـ	يرق يوم غد فوق المنابر

(٢٠) منزلة الرغبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرغبة»

قال الله عز وجل (٢١: ٩٠ يدعوننا رَغَباً ورَهَبا) والفرق بين «الرغبة» و «الرجاء» أن الرجاء طمع. والرغبة طلب. فهي ثمرة الرجاء. فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف. فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه. ومن خاف شيئا هرب منه.

والمقصود: ان الراجي طالب، والخائف هارب، وان الرغبة: هي الرجاء بالحقيقة، لأن الرجاء طمع يحتاج الى تحقيق، اي: طمع في مغيب عن الراجي مشكوك في حصوله، وان كان متحققاً في نفسه، كرجاء العبد دخوله الجنة، فان الجنة متحققة لاشك فيها، وانما الشك في دخوله اليه . بخلاف الرغبة، فانها طلب، فاذا قوي الطمع: صار طلبا.

واوائلها: رغبة تتولد من العلم، فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود، وتصون السالك عن وهن الفترة والكسل.

فهذا الايمان متصل بمنزلة «الاحسان»، منه يشرف عليه و يصل اليه. ولهذا كان مقترنا بالشهود. وذلك الشهود هو مشهد مقام الاحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، ولامشهد للعبد في الدنيا اعلى من هذا.

ولو كان فوق مقام «الاحسان» مقام آخر لذكره النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل . ولسأله جبريل عنه. فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام والإيمان والإحسان.

وتحقيق مقام الإحسان: أن يفنى بحبه وخوفه ورجائه، والتوكل عليه وعبادته، والتبتل إليه عن غيره. وليس فوق ذلك مقام يطلب إلا ماهو من عوارض الطريق.

وتتصاعد الرغبة حتى تكون رغبة لا تبقي من المجهود مبذولا، ولا تدع للهمة ذبولا، ولا تترك غير القصد مأمولا.

فرغبته لا تدع من مجهوده مقدورا له إلا بذله، ولا تدع لهمته وعزمته فتوراً ولاخموداً، وعزمته في مزيد، ولا تترك في قلبه نصيباً لغير مقصوده.

فإذا اكتملت رغبته: اكتمل معها خُلق «الرعاية» الايمانية، وهي: مراعاة العلم وحفظه بالعمل، ومراعاة العمل بالاحسان والاخلاص، وحفظه من المفسدات، وصيانته.

ومراتب العلم والعمل ثلاثه «رواية» وهي مجرد النقل وحمل المروي و«دراية» وهي فهمه وتعقل معناه. و«رعاية» وهي العمل بموجب ماعلمه ومقتضاه

فالنَّقَلة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته. فقال تعالى (٥٧:٢٦ **وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها ــ ماكتبناها عليهم ــ إلا ابتغاء رضوان الله. فما رعوها حق رعايتها**) ، أي لم يفعلوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله. ثم ذمهم بترك رعايتها. إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله اياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر. كما قال ابوحنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقد ابتدع النصارى الرهبانية، زاعمين أنها من سنن عيسى بن مريم وهداه عليه السلام، وكذبهم الله. وبين أنهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم، وعيسى عليه السلام بريء منها. فإنها على خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها والله لايشرع مايضاد الفطرة، ولايحبه. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا ــ ولن يستطيعوا ــ أن يرعوها حق رعايتها. لأن سنن الله لايقدر أحد على تبديلها.

والقصد: أن الله سبحانه وتعالى ذَمَّ من لم يَرْعَ قُرْبة ً ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده. وأذن بها وحثَّ عليها؟.

ومن أهم اركان الرعاية: رعاية الاعمال وفق النمط الاوسط، مع استصغارها والقيام بها من غير نظر اليها.

فأول رعاية الاعمال: العدول بها عن طرفي التفريط بالنقص، والإفراط بالزيادة، على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها. ثم استصغارها في عينه. واستقلالها، وأن مايليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر. وأنه لم يُوفه حقه، وأنه لايرضى لربه بعمله، ولابشيء منه.

وقد قيل: علامة رضا الله عنك: إعراضك عن نفسك. وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله، وصغره في قلبك. حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثاً. وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج. ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل. وشرع النبي صلى الله عليه وسلم عقيب الطهور التوبة والاستغفار.

ممن شهد واجب ربه ومقدار عمله، وعيب نفسه. لم يجد بداً من استصغار ربه منه، واحتقاره إياه واستصغاره.

ثم القيام بها بتوفيتها حقها، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة، والصلاة القائمة، والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة، من غير ان يلتفت اليها و يعددها و يذكرها، مخافة العجب والمِنّة بها، فيسقط من عين الله، ويحبط عمله، بل اللائق أن يتهم يقينه، وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي، بل ماحصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر، و يزداد اتهاما لنفسه وتطهيراً لها من رعونة الادعاء، وتخليصا للقلب من نصيب الشيطان، بأن يقف مع كل خطوة بمقدار تصحيحها ، نية وقصداً واخلاصاً ومتابعة، فلا يخطو هجماً وهمجا، بل يقف قبل الخطو حتى يصحح الخطوة، في سمت من الاستعداد ولطف الادراك، ثم ينقل قدم عزمه، فاذا صححت له ونقل قدمه: انفصل عن نفسه. ولما كانت النفس محل الاكدار: كان انفصاله عنها محض الصفاء ونهاية الرعاية.

(٢١) منزلة المراقبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المراقبة»

قال الله تعالى (٢:٢٣٥ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) وقال تعالى (٣٣:٥٢ وكان الله على كل شيء رقيباً) وقال تعالى (٥٧:٤ وهو معكم أينما كنتم) وقال تعالى (٩٦:١٤ ألم يعلم بأن الله يرى؟) وقال تعالى (٥٢:٤٨ فإنك بأعيننا) وقال تعالى (٤٠:١٩ يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور) الى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه (سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان؟ فقال له: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك). ومن هذا الحديث يتضح أن «المراقبة» هي دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره و باطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة. وكل نَفَس وكل طرفة عين.

وقد قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لاغير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل.

وقيل: أفضل مايلزم الانسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم

وقال أبوحفص لأبي عثمان النيسابوري: اذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ونفسك، ولايغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

و «المراقبة» هي التعبد بأسمائه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة

ومن الطف ماوصفت به المراقبة انها:

مراقبة الحق تعالى في السير اليه على الدوام، بين تعظيم مُذهِل ومداناة حاملة، وسرور باعث.

فأما التعظيم المذهل فهو: امتلاء القلب من عظمة الله عز وحل، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلاينسى هذا التعظيم عند حصور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائما. فإن الحضور مع الله يوجب أنساً ومحبة، إن لم يقارنهما تعظيم، أورثاه حروجا عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لايقارنه تعظيم المحبوب: فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينه.

وبذلك تضمّن الوصف خمسة أمور: سير الى الله، واستدامة هذا السير، وحضور القلب معه، وتعظيمه، والذهول بعظمته عن غيره.

وأما المداناة الحاملة فهي: الدنو الحامل له على هذه الامور الخمسة، وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه. وعن غيره. فإنه كلما ازداد قرباً من الحق ازداد له تعظيما، وذهولا عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأما السرور الباعث فهو الفرحة والتعظيم، واللذة التي يجدها في تلك المداناة فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به. لايشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنة. حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولاريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير الى الله عز وجل، ويذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولاشيئاً منه، فَلْيَتَّهِم إيمانه وأعماله. فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الايمان.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الايمان ووَجد حلاوته. فذكر الذوق والوجد، وعلقه بالإيمان. فقال «ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا» وقال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود في الكفر ــ بعد إذ أنقذه الله منه ــ كما يكره أن يلقى في النار».

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: إدا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحا، فاتهمه. فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه. وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدحول.

ذلك أن «الثواب» هو الراجع للعامل على عمله. فللأعمال عاقبة تعود على صاحبها وتتصل بحياته وجميع شؤونه. فالصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر. وتهذب الأخلاق وتربي أعلى تربية يحبها الرب سبحانه. وهكذا الصيام يقوى العزيمة، ويكن للنفس اللوامة، وللبصيرة أن تشرق فيرى الصراط السوي فيكون من المتقين.

وهكذا كل الأعمال الصالحة فإن لها ثوابا يصلح الشؤون كلها هنا، فتسعد به الحياة في الأسرة والمجتمع، كما أن أعمال السوء لها كذلك (للذين أحسنوا الحسنى) و (للذين أساءوا السوأى).

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به، تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجد في السير إليه، والانتقال الى مراقبة اخرى تحملك على الاعراض عن الاعتراض، بصيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وخبره.

فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته. ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل محبة تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لاينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين. وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم.

و «الاعتراض» ثلاثة انواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها.

النوع الاول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبَه الباطلة، التي نفوا لأجلها ما اثبته لنفسه، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم. وأثبتوا مانفاه، ووالوا بها أعداءه. وعادوا بها أولياءه. وحرفوا بها الكلم عن مواضعه. ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذُكِّروا به وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي. فإذا سلم القلب له: رأى صحة ماجاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة. وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحربُ قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره. وأهل هذا الاعتراض انواع:

منهم: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ماحرم الله سبحانه وتعالى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ماقيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض. وحذروا منهم، ونفّروا عنهم.

ومنهم المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان.

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديناً، وقدموها على شرع الله ودينه. واغتالوا بها القلوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء: خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد. لولا أن الله ضمن أنه لايزال يقوم به من يحفظه، و يبين معالمه، ويحميه من كيد من يكيد.

ومنهم: اهل الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله. وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها و بها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: اذا تعارض العقل والنقل. قدمنا العقل.

وقال الآخرون: اذا تعارض الأثر والقياس: قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف: اذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع: قدمنا الذوق والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة. فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتا يتحاكمون اليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل. ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع. ولنا السياسة. فيالها من بلية، عَمَّت فأعْمَتْ، ورزية رَمَتْ فأصْمَتْ، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت. فصُمَّت منها الآذان، وعميت منها العيون. عطلت لها ــ والله ــ معالم الأحكام. كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام. واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله و بين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم. وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

النوع الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال. وهو مابين جلي وخفي، وهو أنواع لاتحصى.

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم. ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عيانا. فكل نفس معترضة على قَدَر الله وقَسْمه وأفعاله، إلا نفسا قد اطمأنت اليه وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر اليها. فتلك حظها التسليم والانقياد. والرضا كل الرضاء.

(٢٢) منزلة تعظيم الحرمات

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»

منزلة «تعظيم حرمات الله عز وجل»

قال الله عز وجل **(٢٢: ٣٠ ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه)** قال جماعة من المفسرين «حرمات الله» ههنا مغاضبه، وما نهى عنه، و «تعظيمها» ترك ملابستها. قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها. وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هٰهنا المناسك، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله. وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه، وحفظه: من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة، والخروج من حرج المخالفة، وجسارة الاقدام عليها، بتعظيم الامر والنهي، خوفاً من العقوبة، وظنّ المثوبة.

ويحتج في ذلك بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين، ودعائهم وسؤالهم، والثناء عليهم بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة. كما قال تعالى في حق خواص عباده الذين عبدهم المشركون: إنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ــ كما تقدم ــ وقال عن أنبيائه ورسله **(٢١: ٨٩، ٩٠ وزكريا إذ نادى ربه ــ إلى أن قال ــ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغَباً ورَهَباً. وكانوا لنا خاشعين)** أي رَغَباً فيما عندنا، ورهباً من عذابنا. والضمير في قوله «إنهم» عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

وكذلك ما في أول قصة ابراهيم (٢١: ٥١ ــ ٩٠ ولقد آتينا ابراهيم رشده ــ الآيات) فإنها في ذكر الأنبياء وما أحاط بهم من شدائد نجاهم الله بها بدعائهم ولجأهم إليه وحده رغباً ورهباً.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين.

وذكر سبحانه عباده، الذين هم خواص خلقه. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم. وجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى **(٢٥: ٦٦ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب**

جهنم. إن عذابها كان غَراما. إنها ساءت مُسْتَقَرًّا ومُقاماً) وأخبر عنهم: أنهم توسلوا اليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار. فقال تعالى (٣: ١٦ الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار.
وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولى الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته. و يتعوذون به من ناره. فقال تعالى (٣: ١٩٠ ــ ١٩٥ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأ ولى الالباب ــ الآيات إلى آخرها) ولاخلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم (٢٦: ٨٢ ــ ٨٩ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رب هَبْ لي حكماً وألحقني بالصالحين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأ بي إنه كان من الضالين. ولاتخزني يوم يبعثون. يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار. وهو الخزى يوم البعث.
وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وَعْدًا عليه مسؤولاً (٢٥: ١٦) أي يسأله إياها عباده وأولياؤه.
وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته: أن يسألوا له في وقت الإجابة ــ عقيب الأذان ــ أعلى منزلة في الجنة. وأخبر: أن من سألها له «حلت عليه شفاعته».
وقال له سليم الانصاري «أمَا إني أسأل الله الجنة. وأستعيذ به من النار، لا أحسن دَندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: أنا ومعاذ حولها نُدَنْدِن».
وفي الصحيح ــ في حديث الملائكة السيارة الفُضّل عن كتاب الناس ــ «إن الله تعالى يسألهم عن عبادِ ــ وهو أعلم تبارك وتعالى ــ فيقولون: أتيناك من عند عبادٍ لك يهللونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. فيقول عز وجل: وهل رأوني؟ فيقولون: لا. يارب . ما رأوك. فيقول عز وجل: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لورأوك لكانوا لك أشد تمجيداً. قالوا: يارب. و يسألونك جنتك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا. وعزتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا لها أشد طلباً. قالوا: و يستعيذون بك من النار، فيقول عز وجل: وهل رأوها؟ فيقولون: لا وعزتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها هرباً. فيقول: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأعذتهم مما استعاذوا».
والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار، والخوف منها.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه «استعيذوا بالله من النار» وقال لمن سأله مرافقته في الجنة «أعني على نفسك بكثرة السجود».

والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمته ليكونوا دائماً على ذكر منهما فلا ينسوهما. ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة. والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار: هو محض الإيمان.

وقد حض النبي صلى الله عليه وسلم عليها أصحابه وأمته. فوصفها وجلاّها لهم ليخطبوها، وقال «ألا مُشَمِّر للجنة؟ فإنها ــ ورب الكعبة ــ نور يتلألأ. وريحانة تهتز، وزوجة حسناء. وفاكهة نضيجة. وقصر مَشيد، ونهر مُطَّرِد ــ الحديث ــ فقال الصحابة: يارسول الله، نحن المُشَمِّرون لها. فقال: قولوا: إن شاء الله».

ولو ذهبت نذكر ما في السنة من قوله «من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة» تحريضاً على عمله لها، وأن تكون هي الباعثة على العمل: لطال ذلك جداً. وذلك في جميع الأعمال.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض، ويقول «من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية» و «من قال سبحان الله وبحمده غُرست له نَخْلة في الجنة» و «من كسا مسلماً على عرى كساه الله من حُلل الجنة» و «عائد المريض في خُرَفَة الجنة» والحديث مملوء من ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته. ويستعيذوا به من ناره. فإنه يحب أن يُسأل. ومن لم يسأله يغضب عليه. وأعظم ما سئل «الجنة» وأعظم ما استعيذ به «من النار».

فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب، مرضي له. وطلبها عبودية للرب. والقيام بعبوديته كلها أولى من تعطيل بعضها.

وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه: فترت عزائمه، وضعفت همته. ووهى باعثه، وكلما كان أشد طلباً للجنة، وعملاً لها: كان الباعث له أقوى، والهمة أشد. والسعي أتم. وهذا أمر معلوم بالذوق ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع لما وصف الجنة للعباد. وزينها لهم، وعرضها عليهم. وأخبرهم عن تفاصيل ماتصل اليه عقولهم منها، وما عداه. أخبرهم به مجملا. كل هذا تشويقاً لهم إليها. وحثاً لهم على السعي لها سعيها.

وقد قال الله عز وجل (١٠: ٢٥ والله يدعو الى دار السلام) وهذا حث على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

ثم لايخفى ان الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة. فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر الى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين

بالقرب منه و برضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدا. فأيسر يسير من رضوانه. أكبر من الجنان وما فيها من ذلك. كما قال تعالى (٧٢:٩ ورضوان من الله أكبر) وأتى به مُنكّراً في سياق الاثبات. أي أيُّ شيء كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يقنعني . ولكن قليلك لايقال له قليل

وفي الحديث الصحيح ــ حديث الرؤية ــ «فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهه».

ولاريب أن الأمر هكذا. وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. ولاسيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة. فإن المرء مع من أحب. ولاتخصيص في هذا الحكم. بل هو ثابت شاهداً وغائباً.

فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز يُداني نعيم تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها؟.

وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب، الذي لاشيء أجل منه، ولا أكمل ولا أجمل: قرة عين ألبتة؟.

وهذا ــ والله ــ هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمّه العارفون. وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها. و به طابت الجنة . وعليه قامت.

وكذلك «النار» أعاذنا الله منها. فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته، وغضبه وسخطه، والبعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم. بل التهاب هذه النار في قلوبهم. هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم. ومنها سَرَتْ إليها.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين، والشهداء والصالحين: هو الجنة. ومهربهم: من النار.

وخير العباد من يريد الله و يريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه. قال الله تعالى (٢٩:٣٣ وإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيما) فهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال الله تعالى (١٧: ٩ ومن أراد الآخرة. وسعى لها سعيها ــ وهو مؤمن ــ فأولئك كان سعيهم مشكورا) فأخبر أن السعي المشكور: سعي من أراد الآخرة. وأصرح منها: قوله لخواص أوليائه ــ وهم أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ــ في يوم أحد (٣: ١٥٢ منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة) فقسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

وقد غلط من قال: فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه. فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله.

• على معالم السنّة ... بلا تأويل

ودروة تعظيمنا لحرمات الله تعالى: إجراء الخبر على ظاهره. وهو أن تبقى اعلام التوحيد الخبرية على سواهرها، لاتتكلف لها تأويلاً، ولانتحاور ظواهرها تمثيلا.

فحفظ حرمة نصوص الاسماء والصفات: باجراء اخبارها على ظواهرها، كما قال مالك رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى (٢٠:٥ **الرحمن على العرش استوى**) كيف استوى؟ فأطرق مالك. حتى علاه الرُّحضاء. ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ففرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة. وبين «الكيف» الذي لايعقله البشر. وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شاف، عام في جميع مسائل الصفات.

فمن سأل عن قوله (٢٠:٤٦ **إنني معكما أسمع وأرى**) كيف يسمع و يرى؟ أجيب بهذا الجواب بعينه. فقيل له: السمع والبصر معلوم. والكيف غير معقول.

وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضا، والرحمة، والضحك، وغير ذلك. فمعانيها كلها مفهومة. وأما كيفيتها: فغير معقولة، إذ تعقُّل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه. وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولاتمثيل. بل تثبت له الأسماء والصفات. وتنفي عنه مشابهة المخلوقات. فيكون إثباتك منزها عن التشبيه. ونفيك منزها عن التعطيل. فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطل. ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل. ومن قال: استواء ليس كمثله شيء. فهو الموحد المنزه.

وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد، والوجه، والرضا، والغضب، والنزول والضحك، وسائر ماوصف الله به نفسه.

والمراد بالتأويل المنهي عنه هاهنا. التأويل الاصطلاحي، وهو صرف اللفظ عن ظاهره من المعنى الراجح الى المعنى المرجوح.

وقد حكى غير واحد من العلماء: إجماع السلف على تركه. وممن حكاه البغوي، وأبو المعالي الجويني في رسالته النظامية، بخلاف ماسلكه في «شامله» و«إرشاده» وممن حكاه: سعد بن علي الزنجاني.

وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لايحصيهم إلا الله.

وفي ذكر عدم تجاوز ظاهرها تمثيلا إشارة لطيفة. وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل، كما تظنه المعطلة النفاة، وأن التمثيل تَجاوز لظواهرها إلى مالا تقتضيه، كما أن تأويلها تكلف، وحمل لها على مالا تقتضيه. فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلا، ولاتحتمل تأويلا. بل إجراء على ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل. فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل.

(٢٣) منزلة الإخلاص

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخلاص»

قال الله تعالى (٩٨: ٥ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**) وقال (٣٩: ٢، ٣ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين. الا لله الدين الخالص**) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (٣٩: ١٤، ١٥ **قل الله أعبد مخلصاً له ديني، فاعبدوا ماشئتم من دونه**) وقال له (٦: ١٦٢، ١٦٣ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لاشريك له. وبذلك أمرت . وأنا أول المسلمين**) وقال (٦٧: ٢ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**) قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً. لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى (١٨: ١١٠ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً. ولايشرك بعبادة ربه أحداً**) وقال تعالى (٤: ١٢٥ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن؟**) فاسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم وسنته. وقال تعالى (٢٥: ٢٣ **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**) وهي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضى الله عنه «**إنك لن تُخلَّف، فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى: إلا ازددت به خيراً، ودرجة ورفعة**» وفي الصحيح من حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**ثلاث لايَغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر. ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» أي لايبقى فيه غِلٌّ، ولايحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثة، بل تنفى عنه غِلَّه. وتُنقيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودَغَلا. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

و «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل: يقاتل رياء، و يقاتل شجاعة. و يقاتل حمية: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وأخبر عن أول ثلاثة تُسَعَّر بهم النار: قارىء القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارىء، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء».

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «إن الله لاينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم» وقال تعالى (٢٢:٣٧ لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم).

وقد تنوعت عبارتهم في «الإخلاص» و «الصدق» والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك . و «الصدق» التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا اعجاب له. ولايتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالاخلاص. ولايتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء . والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله و بين العبد. لايعلمه ملك فيكتبه، ولاشيطان فيفسده. ولاهوى فيميله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص. لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله. ولامجازياً سواه .

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال أبوسليمان الداراني. إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

• مغزى الاخلاص: تنقية العمل من الشوائب

اما الهروي فجعل الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب.

أي لايمازج عمله مايشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقْد متفرقاتها: هو إرادة ماسوى الله بعمله، كائنا ما كان.

وأول درجاته عنده: إخراج رؤية العمل عن العمل. والخلاصُ من طلب العوض على العمل. والنزول عن الرضا بالعمل، يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته، وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به، وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية فالذي يخلصه من رؤية عمله: مشاهدته لمنة الله عليه، وفضله وتوفيقه له. وأنه بالله لابنفسه، وأنه إنما أوجب عملَه مشيئة الله لامشيئته هو، كما قال تعالى (**٨١:٩٢ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**).

فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنه آلة محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواه، وأنه ميت ــ والميت لايفعل شيئاً ــ وأنه لو خلي ونفسَه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة. فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة. وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء. وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولاهو من شأنه.

فالخير الذي يصدر منها: إنما هو من الله، و به. لامن العبد، ولابه. كما قال تعالى (**٢٤:٢١ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً، ولكن الله يزكي من يشاء**) وقال أهل الجنة (**٤٣:٧ الحمد لله الذي هدانا لهذا**) وقال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (**١٧:٧٤ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا**) وقال تعالى (**٤٩:٧ ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان. وزينه في قلوبكم ــ الآية**).

فكل خير في العبد فهو بمجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته. وهو المحمود عليه.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه : أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، ومافيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان. فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب، وإن قل. وللنفس فيه حظ. سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**».

فإذا كان هذا التفاتُ طَرْفه أو لحظه. فكيف التفات قلبه إلى ماسوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العودية.

وقال ابن مسعود «لايجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه: أن لاينصرف إلا عن يمينه» فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد. فما الظن بما فوقه؟.

وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله: من حقوق العودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لايرضى بشيء من عمله لربه، ولايرضى نفسه لله طرفة عين. ويستحيي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله: يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وقال بعضهم: آفة العبد: رضاه عن نفسه، ومن لم يتهم نفسه على دوام الاوقات فهو مغرور.

• عمل لاينفي الخجل

وقيل: لابد من الخجل من العمل، مع بذل المجهود.

فمن اخلاص العابد: «خجله» من عمله. وهو شدة حيائه من الله. إذ لم ير ذلك العمل صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى (٢٣: ٦٠ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة: أنهم إلى ربهم راجعون**) قال النبي صلى الله عليه وسلم «**هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لايقبل منه**».

فالمؤمن: جمع إحساناً في مخافة، وسوء ظن بنفسه. والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

وخلال كل ذلك: تجعل عملك تابعاً للعلم، موافقاً له مؤتماً به. تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته. نازلا منازله، مرتوياً من موارده. ناظراً الى الحكم الديني الأمرى متقيداً به، فعلا وتركا وطلبا وهرباً. وناظراً الى ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهداً للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات ولايبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته. فيكون قائما بالأمر والنهي: فعلا وتركا، سائراً بسيره، وبالقضاء والقدر: إيماناً وشهوداً وحقيقة. فهو ناظر الى الحقيقة. قائم بالشريعة.

وهذان الأمران هما عودية هاتين الآيتين (٨٩: ٢٨، ٢٩ **لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**) وقال تعالى (٧٦: ٢٩، ٣٠ **إن هذه تذكرة. فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا. وما تشاءون إلا أن يشاء الله. إنَّ الله كان عليما حكيما**).

فترك العمل يسير سير العلم: مشهد «لمن شاء منكم أن يستقيم» وسير صاحبه مشاهداً للحكم: مشهد «وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين».

وهذا هو تهذيب العمل، بأن يجنح العامل فيه الى العلم، وهو: التفاته اليه، وإصغاؤه الى مايأمر به، وتحكيمه عليه، فمتى لم يجنح اليه هذا الجنوح كان سيره مذموما، ناقصاً، مبعداً عن الله، فان كل سير لايصحبه علم: يُخاف عليه ان يكون من حدع الشيطان، وهذا القدر هو الذي أفسد على اهل الثغور ثغورهم، وشردهم عن الله كل مشرد. وطردهم عنه كل مطرد. حيث لم يحكموا العلم، وأعرضوا عنه صفحا، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الايمان، وشرائع الإسلام.

وهم الذين قال فيهم سيد الطائفة الجنيد بن محمد ــ لما قيل له: أهل المعرفة يصلون الى ترك الحركات من باب البر والتقرب الى الله ــ فقال الجنيد: إن هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح. وهو عندي عظيمة. والذي يزني و يسرق أحسن حالا من الذي يقول هذا. فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإليه رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال: من لم يحفظ القرآن، و يكتب الحديث: لايُقتدىٰ به في طريقنا هذا. لأن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واعلم ان المعرفة الصحيحة: هي روح العلم، وان العلم الصحيح والعمل المستقيم: هما ميزان المعرفة الصحيحة.

فهذه الأركان: هي أركان السير، وأصول الطريق التي من لم يَبْنِ عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع. وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيَّد، وإما سير صاحب الدابة الجموح. كلما مشت خطوة إلى قُدَّام رجعت عشرة الى خلف.

فإن عَدِمَ الإخلاصَ والمتابعة: انعكس سيره الى خلف. وإن لم يبذل جهده و يوحِّد طلبه: سار سير المقيد.

وان اجتمعت له: فذلك الذي لايجارَى في مضمار سيره. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

(٢٤) منزلة التهذيب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التهذيب، والتصفية».

وهو سبك العبودية فى كِيْر الامتحان، طلباً لإخراج ما فيها من الخبث والغش.

وأولها: تهذيب الخدمة، أن لا يخالجها جهالة. ولا يشوبها عادة، ولا يقف عندها همة.

أى: تخليص العبودية، وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة. وهى: مخالجة الجهالة، وشوب العادة، ووقوف همة الطالب عندها.

النوع الأول: مخالطة الجهال. فإن الجهالة متى خالطت العبودية، أوردها العبد غير موردها. ووضعها فى غير موضعها، وفعلها فى غير مُسْتَحَقِّها. وفعل أفعالا يعتقد أنها صلاح. وهى إفساد لخدمته وعبوديته، بأن يتحرك فى موضع السكون، أو يسكن فى موضع التحرك، أو يُقْدِم فى موضع إحجام، أو يُحْجِم فى موضع إقدام، أو يتقدم فى موضع وقوف، أو يقف فى موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات، التى هى فى حق الخدمة: كحركات الثقيل البغيض فى حقوق الناس.

فالخدمة مالم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها، غير العلم بها نفسها، كانت فى مظنة أن تُبعد صاحبها، وإن كان مراده بها التقرب. ولا يلزم حبوط ثوابهاوأجرها فهى إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة والقربة. ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره، ومحبة تامة له. ومعرفة بالنفس وما منها.

النوع الثانى: شَوْب العادة. وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم ــ مثلا ــ وتمرن عليه. فألِفَتْه النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء فيظن ان هذا التقاضي محض العبودية. وانما هو تقاضي العادة.

وعلامة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة: لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته.

فاعبد الله على مقتضى أمره. لا على ما تراه من رأيك. ولا يكون الباعث لك داعى العادة. كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرى عليه. ولو اعتاد ضده لكان كذلك.

وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأى، وموافقة هوى ومحبة وعادة. بل الباعث

مجرد الأمر. والرأيُ والمحبة والهوى والعوائد: منفذة تابعة. لا أنها مطاعة باعثة. وهذه نكتة لا يتنبه لها إلا أهل البصائر.

النوع الثالث: وقوف همته عند الخدمة. وذلك علامة ضعفها وقصورها. فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمة. بل همته أعلى من ذلك. إذ هي طالبة لرضا مخدومه. فهو دائما مستصغر خدمته له. ليس واقفا عندها. والقناعة تحمد من صاحبها إلا فى هذا الموضع. فإنها عين الحرمان. فالمحب لا يقنع بشيء دون محبوبه. فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها: سقوط فيها وحرمان.

• تهذيب القصد

و يكمل تهذيب الخدمة بتهذيب القصد، وهو تصفيته من ذل الاكراه، وحفظه من مرض الفتور، ونصرته على فضول العلم.

وهذه ثلاثة اشياء تهذب قصد العامل وتصفيه:

أحدها: تصفيته من ذل الإكراه. أى لا يسوق نفسه إلى الله كرها. كالأجير المسخر المكلف. بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلى الله طوعا ومحبة وإيثاراً. كجريان الماء فى منحدره. وهذه حال المحبين الصادقين. فإن عبادتهم طوعا ومحبة ورضا. ففيها قُرّة عيونهم، وسرور قلوبهم، ولذة أرواحهم. كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «**وجُعلت قرة عينى فى الصلاة**» وكان يقول «**يا بلال أرِحْنا بالصلاة**» .

فقرة عين المحب ولذته ونعيم روحه: فى طاعة محبوبه. بخلاف المطيع كرها، المتحمل للخدمة ثقلاً، الذي يرى انه لولا ذل قهره لما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي أذله مكرهه وقاهره. بخلاف المحب الذى يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيما، ولذة وسروراً فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه.

والثانى تحفّظه من مرض الفتور. أى توقّيه من مرض فتور قصده، وخمود نار طلبه. فإن العزم هو روح القصد، ونشاطه كالصحة له. وَفتوره مرض من أمراضه. فتهذيب قصده وتصفيته بحميّته من أسباب هذا المرض الذى هو فتوره. وإنما يتحفظ منه بالحِمْية من أسبابه. وهو أن يلهو عن الفضول من كل شيء. ويحرص على ترك مالا يعنيه. ولا يتكلم إلا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ولا يصحب إلا من يعينه على ذلك. فإن بلى بمن لا يعينه فليدرأه عنه ما استطاع، و يدفعه دفع الصائل.

الثالث: نصرة قصده على منازعات فضول العلم. ومعنى ذلك: نصرة خاطر العبودية المحضة، والاقبال على الله بكلية القلب، وابعاد القلب عن مجاذبات تفاريع مسائل العلم الخلافية وفضلاته التي تشوش عليه وتضعف انتباهه الى قواعد العلم الشرعي الجامعة التي بها حياة القلب واستقامة السير.

(٢٥) منزلة الاستقامة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاستقامة»

قال الله تعالى (٤١: ٣٠ **إن الذين قالوا: ربنا الله. ثم استقاموا، تتنزل عليهم الملائكة: أن لا تخافوا ولا تحزنوا. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**) وقال (٤٦: ١٣، ١٤ **إن الذين قالوا: ربنا الله. ثم استقاموا. فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون**) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (١١: ١١٢ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير**)

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان. وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى (٤١: ٦ **قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد. فاستقيموا إليه واستغفروه**) وقال تعالى (٧٢: ١٦ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه**)

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة ــ أبو بكر الصديق رضى الله عنه ــ عن الاستقامة؟ فقال «أن لا تشرك بالله شيئاً» يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذى يدين به الصديق. واستقام له توحيده على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها فى الأنفس والآفاق: استقام فى كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى. ولا تروغ روغان الثعلب».

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه، وابن عباس رضى الله عنهما «استقاموا أدوا الفرائض»

وقال الحسن «استقاموا على أمر الله. فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».

وقال مجاهد «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول. استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يَمْنة ولا يَسْرة.

وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت «يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم»

وفيه عن ثوبان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «استقيموا. ولن تحصوا. واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهى السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «سددوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

فجمع فى هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة. وهى السداد، والإصابة فى النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر فى حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها. فنقلهم إلى المقاربة. وهى أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذى يرمى إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة. فلا يركن أحد إلى عمله. ولا يعجب به. ولا يرى أن نجاته به. بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق، والوفاء.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله. وبالله، وعلى أمر الله.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله تعالى روحه ــ يقول: اعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

• اجتهاد على درب السنة ... في اقتصاد

وهى عند شيخ الاسلام الهروي: الاستقامة على الاجتهاد فى الاقتصاد. لا عادياً رَسْم العلم، ولا متجاوزاً حَدّ الإخلاص، ولا مخالفاً نهج السنة.

هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملا واجتهاداً فيه. وهو بذل المجهود. واقتصاد. وهو السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفوس. والتفريط بالاضاعة. ووقوفاً مع ما يرسمه العلم. وإفراد المعبود بالإرادة. وهو الإخلاص. ووقوع الأعمال على الأمر. وهو متابعة السنة.

فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم. وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجا كلياً، وإما خروجاً جزئيا.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً، وهما الاقتصاد فى الأعمال، والاعتصام بالسنة ـــ فإن الشيطان يَشُمُّ قلب العبد ويختبره. فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة: أخرجه عن الاعتصام بها. وإن رأى فيه حرصاً على السنة، وشدة طلب لها ولم يظفر به منقطعاً عنها : أمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها. قائلا له: إن هذا خير وطاعة. والزيادة والاجتهاد فيها أكمل. فلا تفتر مع أهل الفتور. ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه. حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها. فيخرج عن حدها. كما أن الأول خارج عن هذا الحد. فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر، وكلا الامرين خروج عن السُّنّة إلى البدعة. لكن هذا إلى بدعة التفريط، والإضاعة. والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط. ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما «يا عبد الله بنَ عمرو، إن لكل عامل شِرَّة. ولكل شِرَّة فترة. فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر» قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد فى العمل.

فكل الخير فى اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع. كما قال بعض الصحابة: اقتصاد فى سبيل وسنة، خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم.

وكذلك الرياء فى الأعمال يخرجه عن الاستقامة. والفتور والتوانى يخرجه عنها أيضاً.

والذي يعين العابد على هذا التمييز أن يقف في مقام الفرق، فيشهد الفرق بين الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، فهو في مقام الفرق الذي لا يحصل للعبد درجة الاسلام ـــ فضلاً عن مقام الاحسان ـــ إلاّ به.

ولا يحصل هذا إلا بالبقاء مع نور اليقظة، فهو الدوام في اليقظة، لا يطفيء نوره بظلمة الغفلة، بل يستديم يقظته، و يرى انه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه، حفظاً من الله له، لا أن هذه المواهب تحصل بتحفظه واحترازه، وليشهد أن الله هو المقيم له والمقوم، وان استقامته وقيامه بالله، لا بنفسه ولا بطلبه.

وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه «القيوم» وهو الذي قام بنفسه، فلم يحتج الى أحد، وقام كل شيءبه، فكل ما سواه محتاج اليه.

(٢٦) منزلة التوكل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التوكل»

قال الله تعالى (٥: ٢٦ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال (١٤: ١٢ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال (٦٥: ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال عن أوليائه (٦٠: ٤ ربنا عليك توكلنا. وإليك أنبنا. وإليك المصير) وقال لرسوله (٦٧: ٢٩ قل هو الرحمن. آمنا به. وعليه توكلنا) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٢٧: ٢٩ فتوكل على الله. إنك على الحق المبين) وقال له (٤: ٨١ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) وقال له (٢٥: ٥٨ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده) وقال له (٣: ١٩٥ فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين) وقال عن أنبيائه ورسله (١٤: ١٢ وما لنا ألاّ نتوكل على الله؟ وقد هدانا سُبلنا) وقال عن أصحاب نبيه (٣: ١٧٣ الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال (٨: ٢ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً. وعلى ربهم يتوكلون)

والقرآن مملوء من ذلك.

ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم «المتوكل» وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له (٢٧: ٧٩ فتوكل على الله إنك على الحق المبين) وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلا على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه (١٤: ١٢ وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا؟) فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

وفي الصحيحين — في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب — «هم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يتطيرون، ولا يَكْتَوُون، وعلى ربهم يتوكلون».

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم عليه الله عليه وسلم، حين ألقى فى النار. وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)».

وفى الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. اللهم إنى أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلنى. أنت الحى الذى لا يموت. والجن والانس يموتون» .

وفى الترمذى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بطاناً».

وفى السنن عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قال ــ يعني إذا خرج من بيته ــ بسم الله. توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت. فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدى وكفى ووقى؟».

«التوكل» نصف الدين. والنصف الثانى «الإنابة» فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هى العبادة. بل هو محض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة.

ولله در سيد القوم، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التسترى. إذ يقول: العلم كله باب من التعبد. والتعبد كله باب من الورع. والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها. ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، فأهل السموات والأرض ــ المكلفون وغيرهم ــ فى مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الايمان ، ونصرة دينه، واعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفى محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

فأفضل التوكل: التوكل فى الواجب ــ أعنى واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس ــ وأوسعه وأنفعه: التوكل فى التأثير فى الخارج فى مصلحة دينية. أو فى دفع مفسدة دينية،

وهو توكل الأنبياء فى إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين فى الأرض، وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعدُ فى التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله فى حصول الملك، ومن متوكل فى حصول رغيف.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله. فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه. إن لم يستعن به على طاعته. والله أعلم.

• معاني التوكل ودرجاته

فلنذكر معنى «التوكل» ودرجاته. وما قيل فيه

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ومعنى ذلك: أنه عمل قلبى. ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح. ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنهم: من يفسره بالسكون. وخمود حركة القلب. فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدى الرب، وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجارى الأقدار.

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضا بالمقدور.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلا بها. وكلٌّ أشار إلى واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه فى مقام التوكل.

قال شيخنا رضى الله عنه: ولذا لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف. ولا من القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون فى ملكه ما لا يشاء. ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله. ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأى توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشيئة. ولا يقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

• لانفي الاسباب

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات.

فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس مايظهر في بدوات الرأي: أن إثبات الأسباب يقدح في التوكّل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لايستقيم لهم توكل ألبتة. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً. ولاجعل دعاءه سبباً لنيل شيء، فقد وقع في الوهم الباطل، فان الله سبحانه وتعالى قضى بحصول الشبع اذا اكل المرء، والري اذا شرب ، فاذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

وقضى بحصول الحج والوصول الى مكة اذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل الى مكة.

وقضى بدخول الجنة اذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة. فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات: لم يدخلها أبداً.

وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، والقاء البذر فيها. فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

فوزان ماقاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل. و يقول: إن كان قضى لى وسبق في الأزل حصول الشبع، والرى، والحج ونحوها. فلابد أن يصل اليّ، تحركت أو سكنت، سافرت أو قعدت. وإن لم يكن قد قضى لى لم يحصل لى أيضاً، فعلت أو تركت.

فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، و يندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لابها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بر بوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولايقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.

بل التجرد من الاسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً، وما أخلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من الاسباب، وقد ظاهرّ بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانا، كما يفعله من لاعلم عنده ولامعرفة. واستأجر دليلا مشركا على دين قومه، يدله على طريق الهجرة

وقد هدى الله به العالمين. وعصمه من الناس أجمعين. وكان يدخر لأهله قوت سنه وهو سيد المتوكلين. وكان اذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد. وجميع أصحابه. وهم أولو التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثراً من غبارهم.

● التجريد اساس التوكل

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

فإنه لايستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه. فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة ، ومن هٰهنا ظن من ظن أن التوكل لايصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق لكن رفضها عن القلب لاعن الجوارح. فالتوكل لايتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلا بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

● اللجوء الى الله يمنحنا السكينة

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده اليه، وسكونه اليه.

بحيث لايبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولاسكون اليها. بل يخلع السكون اليها من قلبه. و يلبسه السكون الى مسببها.

وعلامة هذا: أنه لايبالي باقبالها وادبارها. ولايضطرب قلبه، ويخفق عند ادبار مايحب منها، واقبال مايكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه اليه، واستناده اليه، قد حصنه من خوفها ورجائها. فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لاطاقة له به. فرأى حصناً مفتوحاً، فأدخله ربه إليه. وأغلق عليه باب الحصن. فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لامعنى له.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه. وطمأنينته بثدي أمه لايعرف غيره. وليس في قلبه التفات الى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل. لايعرف شيئاً يأوي اليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لايأوي إلا الى ربه سبحانه.

• سبحانه أهل المنّ والتفضّل

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فَسَّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه الى التوكل عليه. إذ لايتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم.

• استسلام

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعني الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا في غير باب الأمر والنهي. بل فيما يفعله بك. لافيما أمرك بفعله.

فإن توكل العبد هذا التوكل: أورثه علماً بانه لايملك قبل عمله استطاعة، و يعود لايأمن مكر الله.

فاستطاعته بيد الله، لابيده. فهو مالكها دونه. فإنه إن لم يُعْطِه الاستطاعة فهو عاجز. فهو لايتحرك إلا بالله، لابنفسه. فكيف يأمن المكر. وهو محرَّك لامحرِّك؟ يحركه مَنْ حركته بيده، فإن شاء ثَبَّطه وأقعده مع القاعدين. كما قال فيمن منعه هذا التوفيق (٩:٤٦ **ولكن كَرِه الله انبعاثهم فثَبَّطهم، وقيل اقعدوا مع القاعدين**).

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توفيقه. ويخلي بينه و بين نفسه. ولايبعث دواعيه. ولايحركه الى مراضيه ومحابه. وليس هذا حقاً على الله. فيكون ظالماً بمنعه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. بل هو مجرد فضله الذي يحمده على بذله لمن بذله، وعلى منعه لمن منعه إياه. فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سر القدر، وانجلت له إشكالات كثيرة. فهو سبحانه لايريد من نفسه فعلا يفعله بعبده يقع منه مايحبه و يرضاه. فيمنعه فعل نفسه به، وهو توفيقه. لأنه يكرهه. و يقهره على فعل مساخطه. بل يَكِلُه إلى نفسه وحَوْله وقوته، و يتخلى عنه. فهذا هو المكر.

• نفوّض أمرنا الى الله

الدرجة السابعة: التفويض.

وهو روح التوكل ولبُّهُ وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها الى الله، وانزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره الى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها الى أبيه، وراحته من حمل كُلَفها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض اليه، وقدرته وشفقته.

وقد جاء التفويض في القرآن، فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون وقوله (٤٠: ٤٤ **وافوض أمري الى الله**).

والمفوض لايفوض أمره الى الله إلا لارادته أن يقضي له ماهو خير له في معاشه ومعاده. وإن كان المقضي له خلاف مايظنه خيراً. فهو راض به. لأنه يعلم أنه خير له. وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه. وهكذا حال المتوكل سواء. بل هو أرفع من المفوض . لأن معه من عمل القلب ماليس مع المفوض. فإن المتوكل مفوض وزيادة. فلايستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض. فإنه إذا فوَّض أمره اليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوض أمره الى رجل، وجعله اليه. فإنه يجد من نفسه ــ بعد تفويضه ــ اعتماداً خاصاً، وسكوناً وطمأنينة الى المفوض اليه أكثر مما كان قبل التفويض. وهذا هو حقيقة التوكل.

• الرضا ثمرة التوكل

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة. انتقل منها الى درجة «الرضا».

وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها . فانما فسره بأجلّ ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه اذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا ــ رضي الله عنه ــ يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل. ورضي بالمقضي له بعد الفعل. فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستخارة «اللهم إني أستخيرك بعلمك. وأستقدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم» فهذا توكل وتفويض. ثم قال «فإنك تعلم ولا أعلم. وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ الى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل اليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ماتوسل اليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر ان كان فيه مصلحته عاجلا، أو آجلا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلا أو آجلا، فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال «وَاقْدُرْ لِي الخيرَ حيث كان. ثم رَضِّنِي به».

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الايمانية، التي من جملتها: التوكل والتفويض، قبل وقوع المقدور. والرضا بعده. وهو ثمرة التوكل. والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل. وتثبت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله. لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به.

• أوهام بعض المتوكلين

وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة. فيضيع العبد حظه. ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لا تفويض. فالتضييع في حق الله. والتفويض في حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، والقاء حمل الكَلّ. فيظن صاحبه أنه متوكل.

ومنه: اشتباه خَلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها الحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه اليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض. والمغتر العاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: اشتباه الطمأنينة الى الله والسكون اليه، بالطمأنينة الى المعلوم، وسكون القلب اليه. لايميز بينهما إلا صاحب البصيرة. كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلا بمكة لايتناول شيئا الا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام. فقال ابوسليمان يوماً: أرأيت لو غارت زمزم، أي شيء كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً، حيث أرشدتني. فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وكثير المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم الى المعلوم. وهم يظنون انه الى الله. وعلامة ذلك: أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره همّه وبثّه وخوفه. فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن الى الله.

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل. فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله. فيظن أنه متوكل، وليس من أهل التوكل. فحال التوكل: أمرآخر من وراء العلم به. وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها. وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكمعرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك. وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوي فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

● اسماء حُسنى يتعبّد بها المتوكلون

«التوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى.

فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار، والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن» وتعلق باسم «المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه في اذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة، والارادة» وله تعلق عام بجميع الاسماء الحسنى. ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى.

● الهمّة الواطئة توقع المتوكل في الخلاء

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله. وقد توكل حقيقة التوكل وهومغبون. كمن صرف توكله الى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شيء. وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الايمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً. فهذا توكل العاجز القاصر الهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله. ودعاءه الى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، و يدع صرفه الى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الايمان، ومصالح المسلمين.

وحال النبي صلى الله عليه وسلم وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها. بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم. فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب. وأن يُعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وايماناً. وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار ايمان. وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وايماناً. فكانت هم الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي. فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله.

• لا إيمان لمن لا توكل له

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين. وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين.

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوماً.

وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال (٦٥: ٢ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) (٦٥: ٥ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته) (٦٥: ٤ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) (٤: ٦٩ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ــ الآية). ثم قال في التوكل (٦٥: ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

فانظر الى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره. وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها اليه. وليس كونه وكل الأمور الى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة الى نفسه. لأن العبد اذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعاً على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة اليه، وأن العبد لايملك شيئاً منها. فهو لايجد بدا من اعتماده عليه. وتفويضه اليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئاً ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده واليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

ولما كان الأمر كله لله عز وجل، وليس للعبد فيه شيء ألبتة، كان توكله على الله تسليم الأمر من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، الى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل، فاذا عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: عزلها عن حقيقة العبودية. وقد خاطب الله

بالتوكل في كتابه خواص خلقه، وأقربهم اليه، وأكرمهم عليه، وشرطا في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الايمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له: لا إيمان له قال الله تعالى (٥:٢٣ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**) وقال تعالى (١٤:١٣ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون**) وقال تعالى (٨:٢ **إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وَجِلَت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون**) وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال (١٠:٨٤،٨٥ **وقال موسى: ياقوم، ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين * فقالوا على الله توكلنا**).

(٢٧) منزلة الثقة

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الثقة بالله تعالى»

وهي التي لقنها الله تعالى لام موسى بقوله لها (٢٨:٧ فاذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولاتخافي ولاتحزني) فإن فعلها هذا هوعين ثقتها بالله تعالى، اذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء. تتلاعب به أمواجه، وَجَرَيانه الى حيث ينتهي أو يقف.

ومدار التفويض عليها، وهي في وسطه كحال النقطة من الدائرة. فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط اليها نسبة واحدة. وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها. كذلك «الثقة» هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

كما انها سويداء قلب التسليم، فإن القلب أشرف مافيه سويداؤه، وهي المهجة التي تكون بها الحياة، وهي في وسطه. فلو كان «التفويض» قلباً لكانت «الثقة» سويداءه. ولو كان عيناً لكانت سوادها. ولو كان دائرة لكانت نقطتها. وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسر «التوكل» بالثقة. ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض. ومنهم من يفسره بالتسليم.

فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله.

فكأن «الثقة» هي روح. و«التوكل» كالبدن الحامل لها. ونسبتها الى التوكل كنسبة الاحسان الى الايمان.

وعنوانها: أمن العبد من فوت المقدور. وانتقاض المسطور. فيظفر بروح الرضا، وإلا فبعين اليقين. وإلافبلطف الصبر.

وذلك: أن من تحقق بمعرفة الله، وأن ماقضاه الله فلا مرد له ألبتة: أمن من فوت نصيبه الذي قسمه الله له. وأمن أيضا من نقصان ما كتبه الله له، وسَطّره في الكتاب المسطور. فيظفر بروح الرضا اى براحته ولذته ونعيمه. لأن صاحب الرضا في راحة ولذة وسرور. كما في حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله ــ بعدله وقسطه ــ جعل الرَّوْح والفرح في اليقين والرضا. وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

فإن لم يقدر العبد على «روح الرضا» ظفر «بعين اليقين» وهو قوة الايمان، ومباشرته للقلب، فيكون التسليم.

وهو نوعان: تسليم لحكمه الديني الأمري. وتسليم لحكمه الكوني القدري.

فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى (٤:٦٥ **فلا وربك لايؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شَجَر بينهم. ثم لايجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ و يسلموا تسليما**).

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسَعة الصدر بانتفاء الحرج. والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام، ومَضَلّة أفهام. حَيَّر الأنام، وأوقع الخصام. وهي مسألة الرضا بالقضاء. وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية. و بينا أن التسليم للقضاء يحمد اذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه. ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لاقدرة له على دفعها.

وأما الأحكام التي أمر بدفعها: فلا يجوز له التسليم اليها، بل العبودية: مدافعتها بأحكام أخرى أحب الى الله منها.

● فطرة تلهمنا تغنينا عن طلب الادلة

وأول التسليم: ان لا تطلب على التوحيد دليلا.

فكيف تحوج وليك وحبيبك الى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة بحيث لا تسير اليه حتى يقيم لك دليلا على وجوده ووحدانيته، وقدرته ومشيئته؟

ولو أن رجلا دعاك الى داره. فقلت للرسول: لا آتي معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك، وأنه مطاع، وأنه أهل أن يغشى بابه. لكنت في دعوى الفتوة زنيما. فكيف بمن وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته وإلهيته: أظهر من كل دليل تطلبه؟ فما من دليل يستدل به، الا ووحدانية الله وكماله أظهر منه. فاقرار الفِطَر بالرب سبحانه خالق العالم: لم يوقفها عليه موقف. ولم تحتج فيه الى نظر واستدلال، ولهذا لم تدع الرسل قط الأمم الى الاقرار بالصانع سبحانه وتعالى، وانما دعوهم الى عبادته وتوحيده. وخاطبوهم خطاب من لاشبهة عنده قط في الاقرار بالله تعالى. ولاهو محتاج الى الاستدلال عليه. ولهذا (١٤:١٠ **قالت لهم رسلهم: أفي الله شك فاطر السموات والأرض؟**) وكيف يصح الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله؟ حتى قال بعضهم: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل على عدم يقينه. بل إنما يتقيد بالدليل الموصل له الى المطلوب بعد معرفته به. فإنه يحتاج ــ بعد معرفته ــ الى دليل يوصله اليه، و يدله على طريق الوصول اليه. وهذا الدليل: هو الرسول صلى الله عليه وسلم. فهو موقوف عليه يتقيد به. لايخطو خطوة إلا وراءه، فيكون علمه و يقينه ونور بصيرته مغنياً له عن كثير من الادلة التي يتكلفها المتكلفون وأرباب القال. فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها. وهو الغاية المطلوبة.

مثاله: أن المتكلم يفنى زمانه في تقرير حدوث العالم، واثبات وجود الصانع. وذلك امر مفروغ عنه عند السالك الصادق صاحب اليقين. فالذي يطلبه هذا بالاستدلال ــ الذي هو عرضة الشبه، والأسئلة، والايرادات التي لانهاية لها ــ هو كشف و يقين للسالك. فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع، وخروج عن الفتوة.

وهذا حق لاينازع فيه عارف، فترى المتكلم يبحث في الزمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان. وهمته مقصورة عليها لايعدوها ليصل منها الى المكون وعبوديته. والسالك قد جاوزها الى جمع القلب على المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته. لايلتفت الى غيره. ولايشتغل قلبه بسواه.

فالمتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان. والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعا في غير السير الى رب الزمان والمكان.

فصاحب التسليم لايتعلق في سيره بدليل.

• الشبهات والشهوات سبب الانقطاع

وتمام «التسليم» بالخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم الذي لاينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة.

والمنازعة: إما بشبهة فاسدة، تعارض الايمان بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك. فالتسليم له: ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

واما بشهوة تعارض امر الله عز وجل. فالتسليم للأمر: بالتخلص منها.

أو ارادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه ارادة تتعلق بمراد العبد من الرب. فالتسليم بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ماشرع وخلاف ماقضى وقدر. فالتسليم: التخلص من هذه المنازعات كلها.

و بهذا يتبين أنه من أجلّ مقامات الايمان، وأعلى طرق الخاصة، وأن «التسليم» هو محض الصديقية، التي هي بعد درجة النبوة، وأن أكمل الناس تسليما: أكملهم صديقية.

(٢٨) منزلة الصبر

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة الصبر.

قال الامام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً.

وهو واجب باجماع الأمة. وهو نصف الايمان. فإن الايمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى (٢:٣٥ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة**) وقوله (٢:٤٥ **واستعينوا بالصبر والصلاة**) وقوله (٣:٢٠٠ **اصبروا وصابروا**) وقوله (١٦:١٢٧ **واصبر وماصبرك إلا بالله**).

الثاني: النهي عن ضده كقوله (٤٦:٣٥ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم**) وقوله (٨:١٥ **ولا تُوَلُّوهم الأدبار**) فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة. وقوله (٤٧:٣٣ **ولا تبطلوا أعمالكم**) فإن ابطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله (٣:١٣٩ **فلا تهنوا ولا تحزنوا**) فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى (٣:١٧ **الصابرين والصادقين ـــ الآية**) وقوله (٢:١٧٦ **والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا. وأولئك هم المتقون**) وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله (٢:١٤٦ **والله يحب الصابرين**).

الخامس: ايجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله (٨:٤٧ **واصبروا. إن الله مع الصابرين**) وقوله (٢:٢٤٩و٨:٦٦ **والله مع الصابرين**).

السادس: اخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله (١٦:١٢٦ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**) وقوله (٤:٢٤ **وإن تصبروا خير لكم**).

السابع: ايجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى (١٦:٩٦ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**).

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى (٣٩:١٠ إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب).

التاسع: اطلاق البشرى لاهل الصبر. كقوله تعالى (٢:١٥٥ وَلَنبلوَنّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وبشر الصابرين).

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى (٣:١٢٥ بلى، ان تصبروا وتتقوا، ويأتوكم من فَوْرِهم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادي عشر: الاخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى (٤٢:٤٣ ولمن صبر وَغَفَرَ إن ذلك لمن عزم الأمور).

الثاني عشر: الاخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى (٢٨:٨٠ ويلكم. ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً. ولايلقاها إلا الصابرون) وقوله (٤١:٣٥ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

الثالث عشر: الإخبار أنه انما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى (١٤:٥ أن أخرج قومك من الظلمات الى النور. وذَكِّرهم بأيام الله. ان في ذلك لآيات لكل صَبَّار شكور) وقوله في أهل سبأ (٣٤:١٩ فجعلناهم أحاديث. ومزقناهم كل مُمَزَّق. إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) وقوله في سورة الشورى (٤٢:٣٣ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام. إن يشأ يُسْكِنِ الريحَ فَيَظْلَلْنَ رواكد على ظهره. إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور).

الرابع عشر: الاخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى (١٣:٢٦ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم. فنعم عقبى الدار).

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الامامة. سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى (٣٢:٢٤ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون).

السادس عشر: اقترانه بمقامات الاسلام، والايمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالايمان. و بالتقوى والتوكل. و بالشكر والعمل الصالح والرحمة.

وهذا كان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولاايمان لمن لاصبر له. كما أنه لاجسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «خير عيش ادركناه بالصبر» وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «**أنه ضياء**» وقال «**مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه الله**».

وفي الحديث الصحيح «**عجباً لأمر المؤمن! ان أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سَرَّاء شكر. فكان خيراً له. وإن أصابته ضَرَّاء صبر. فكان خيراً له**».

وأمر الأنصار ــ رضي الله تعالى عنهم ــ بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر «**أنه إنما يكون عند الصَّدمة الأولى**».

وأمر صلى الله عليه وسلم المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته، و يوفِّر أجره. والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، و يذهب الأجر.

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الصبر خير كله ، فقال «**ما أعطي أحدٌ عطاء خيراً له وأوسع : من الصبر**».

• ارفع الصبر ماكان اختيارا

و «الصبر» في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قُتل فلان صبراً. إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى (**١٨: ٢٨ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعَشِيِّ يريدون وجهه**) أي احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة انواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على مايتعلق بالكسب. والثالث: صبر على مالا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على القاء اخوته له في الجب، و بيعه وتفريقهم بينه و بين أبيه. فإن هذه امور جرت عليه بغير اختياره لاكسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس. ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شابا، وداعيةُ الشباب اليها قوية. وعَزَبا ليس له مايعوضه و يبرد شهوته. وغريباً. والغريب لايستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين

أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكاً. والمملوك ايضاً ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة. وذات منصب. وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له الى نفسها. والحريصة على ذلك اشد الحرص، ومع ذلك توعدته ان لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختياراً، وايثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ماليس من كسبه؟.

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل فان مصلحة فعل الطاعة: أحب الى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة: أبغض اليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله ــ رحمه الله ــ في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً. ليس هذا موضع ذكرها.

والمقصود: الكلام على «الصبر» وحقيقته ودرجاته ومرتبته. والله الموفق.

● مراتب الصبر

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله. وصبر لله. وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه. كما قال تعالى (١٦: ١٢٧ **واصبر وما صبرك إلا بالله**) يعني ان لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله. وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وارادة وجهه، والتقرب اليه. لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد الى الخلق، وغير ذلك من الاعراض.

والثالث: الصبر مع الله. وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع احكامه الدينية. صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها. مقيما باقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استقلّت مضاربها.

فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه. وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها. وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد: المسير من الدنيا الى الآخرة سهل هين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس الى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد.

وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبّس.

وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخرّاص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبّار. فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبار: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكمّ. والذي قبله في الوصف والكيف.

وقيل في قوله تعالى (٣: ٢٠٠ اصبروا وصابروا ورابطوا) إنه انتقال من الأدنى الى الاعلى. فـ «الصبر» دون المصابرة. و «المصابرة» دون «المرابطة» و «المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمي المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم **«ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا الى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»** وقال **«رباط يوم في سبيل الله: خير من الدنيا وما فيها»**.

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله. وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله. ورابطوا بأسراركم على الشوق الى الله.

وقيل: اصبروا في الله . وصابروا بالله. ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا في دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون في دار البقاء.

«فالصبر» مع نفسك، و«المصابرة» بينك و بين عدوك. و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب. لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يُخربه أو يُشعثه.

وقيل: تَجَرَّع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً. وإن أحياك أحياك عزيزاً.

وقيل: الصبر لله غناء و بالله تعالى بقاء. وفي الله بلاء. ومع الله وفاء. وعن الله جفاء. والصبر على الطلب عنوان الظفر وفي المحن عنوان الفرج.

وقيل: حال العبد مع الله رباطه، ومادون الله أعداؤه.

وفي كتاب الأدب للبخاري **«سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان؟ فقال: الصبر، والسماحة»** ذكره عن موسى بن اسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده ــ فذكره.

وهذا من اجمع الكلام . واعظمه برهانا وأوعه لمقامات الايمان من أولها الى آخرها.

فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ماأمرت به وإعطاؤه . فالحامل عليه: السماحه. وترك مانهيت عنه، والبعد منه. فالحامل عليه: الصبر.

وقد امر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل ، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الاسلام ابن تيميه ـ قدس الله روحه ـ يقول «الصبر الجميل» هو الذي لاشكوى فيه ولا معه. و«الصفح الجميل» هو الذي لاعتاب معه. و«الهجر الجميل» هو الذي لا أذى معه.

وقال ابن عيينة في قوله تعالى (٣٢:٢٣ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قال «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء»».

والشكوى الى الله عز وجل لا تنافي الصبر. فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ وعد بالصبر الجميل. والنبي إذا وعد لايخلف، ثم قال (١٢:٨٦ إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله) وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله (٢١:٨٣ مَسَّنِي الضر وأنت أرحم الراحمين).

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى الى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو الى آخر فاقةً وضرورة فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك الى من لايرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عَرَتْكَ بَلية فاصبر لها صبر الكريم. فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لايرحم

• الصعب ..... اللذيذ

ولكن مهما تنوعت العبارات فانه لاخلاف بين اهل العلم ان اظهر معاني الصبر: حبس النفس على المكروه، وانه من اصعب المنازل على العامة، واوحشها في طريق المحبة.

وانما كان صعباً على العامة: لأن العامي مبتدىء في الطريق وليس له دُرْبَة في السلوك، ولا تهذيب المرتاض بقطع المنازل. فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء. وعَز عليه وجدان الصّبر. لأنه ليس من أهل الرياضة. فيكون مستوطنا للصبر. ولا من أهل المحبة ، فيلتذ بالبلاء في رضا محبوبه.

وأما كونه وحشة في طريق المحبة: فلأنها تقتضي التذاذ المحب بامتحان محبوبه له. والصبر يقتضي كراهيته لذلك. وحبس نفسه عليه كرهاً. فهو وحشة في طريق المحبة.

وفي الوحشة نكتة لطيفة. لأن الالتذاذ بالمحنة في المحبة هو من موجبات أنس القلب

بالمحبوب . فإذا أحس بالألم ــ بحيث يحتاج الى الصبر ــ انتقل من الانس الى الوحشة. ولولا الوحشة لما أحس بالألم المستدعي للصبر.

والصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين . وهم أحوج الى منزلته من كل منزلة . وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها.

وحاجة المحب اليه ضرورية.

فان قيل: كيف تكون حاجة المحب اليه ضرورية، مع منافاته لكمال المحبة. فانه لايكون الا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟.

قيل: هذه هي النكتة التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها. و به يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها. فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته.

ومن هٰهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة. لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى. فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة. ولم يثبت معه إلا الصابرون. فلولا تحمل المشاق، وتجشم المكره بالصبر: لما ثبتت صحة محبتهم. وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه. فقال عن حبيبه أيوب (٣٨:٤٤ إنا وجدناه صابراً) ثم أثنى عليه. فقال (نعم العبد. إنه أواب) .

وأمر أحب الخلق اليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به .وأثنىٰ على الصابرين أحسن الثناء. وضمن لهم أعظم الجزاء. وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الاسلام، والايمان، والاحسان ــ كما تقدم ــ فجعله قرين اليقين، والتوكل، والايمان، والأعمال، والتقوى.

وأخبر أن آياته انما ينتفع بها أولو الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله. وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما تقدم ذلك.

وليس في استكراه النفوس لألم ماتصبر عليه، واحساسها به، مايقدح في محبتها ولا توحيدها. فان احساسها بالألم، ونفرتها منه: أمر طبعي لها. كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب. وتألمها بفقده. فلوازم النفس لاسبيل الى اعدامها أو تعطيلها بالكلية. وإلا لم تكن نفساً إنسانية. ولارتفعت المحنة. وكانت عالماً آخر.

و«الصبر» و«المحبة» لايتناقضان. بل يتواخيان و يتصاحبان. .. .. بلَى علة الصبر في الحقيقة: المناقضة للمحبة، المزاحمة للتوحيد ــ أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضا

المحبوب. بل إرادة غيره، أو مزاحمته بإرادة غيره، أو المراد منه. لامراده. هذه هي وحشة الصبر ونكارته.

وأما من رأى صبره بالله، وصبره لله، وصَبره مع الله، مشاهداً أن صبره به تعالى لابنفسه. فهذا لا تلحق محبته وحشة. ولا توحيده نكارة.

• الورع حياء أنبل من الورع خشيةً

والخوف من الوعيد جد مفيد في حمل المرء على الصبر عن المعاصي والبعد عنها، والبعد عنها جد مفيد بدوره في حفظ الايمان والابقاء عليه، فان المعصية تنقصه، أو تذهب به، أو تذهب رونقه و بهجته، أو تطفىء نوره، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته. هذا أمر ضروري بين المعصية و بين الإيمان. يُعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. ولايسرق حين يسرق وهو مؤمن. ولاينتهب نُهبة ذات شرف ــ يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها ــ وهو مؤمن. فإيا كم إيا كم. والتوبة معروضة بعد».

ولكن لما كان «الحياء» من شِيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الزكية: كان صاحبه أحسن حالا من أهل الخوف ومطالعة الوعيد.

لأن في الحياء من الله مايدل على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ماليس في وازع الخوف.

فمَنْ وازعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة. ومن وازعه الحياء: قلبه حاضر مع الله. والخائف مراعٍ جانب نفسه وحمايتها. والمستحي مراع جانب ربه وملاحظ عظمته. وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب الى مقام الاحسان، وألصق به، اذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله. فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

وايضا : فان فعل الطاعة آكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة ، اذ ترك المعصية انما كان لتكميل الطاعة ، وأما المنهى عنه فإنه لما كان يُضعف المأمور به و يَنْقُصه : نهى عنه حماية، وصيانة لجانب الأمر . فجانب الأمر أقوى وآكد . وهو بمنزلة الصحة والحياة والنهى بمنزلة الحمية التى تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة.

والصبر فى هذه الدرجة بثلاثة أشياء : دوام الطاعة . والاخلاص فيها . ووقوعها على مقتضى العلم . وهو تحسينها علماً .

أما ترك الاحـــلاص فيها ، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله، وإرادته والتقرب إليه. فحفظا من هذه الآفة : برعاية الاخلاص.

وأما أن لا تكون مطابقة للعلم. بحيث لا تكون على اتباع السنة . فحفظها من هذه الآفة: بتجريد المتابعة. كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والارادة.

● حلاوة أجر المحنة تنسينا شدتها

أما الصبر في المحن على اذى الظالمين، وعند النوازل والبلاء، فان العبد يستجلبهُ و يستعين عليه بثلاثة أشياء :

إحدها : « ملاحظة حسن الجزاء »، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء ، لشهود العوض. وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها . ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة. وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل . وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات.

واجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لايدرك بالنعيم. وأن من رافق الراحة : حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فان على قدر التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتي على قدر الكريم الكرائم
و يكبر في عين الصغير صغيرها	وتصغر في عين العظيم العظائم

و نقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك .

والثاني «انتظار الفرج».

أي راحته ونسيمه ولذته. فان انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة. ولاسيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج. فانه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته : ماهو من خفي الألطاف، وما هو فرج معجل . و به ــ و بغيره ــ يفهم معنى اسمه «اللطيف».

والثالث : «تهوين البلية» بأمرين.

أحدهما : أن يعد نعم الله وأياديه عنده. فاذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان

عليه ماهو فيه من البلاء ووراه ـ بالنسبة إلى أيادى الله ونعمه ـ كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التى أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضى. وتعداد أيادى المنن: يتعلق بالحال. وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل. وأحدهما فى الدنيا. والثاني يوم الجزاء.

ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت. فانقطعت اصبعها. فضحكت. فقال لها بعض من معها: أتضحكين، وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عملك. حلاوة أجرها أنستنى مرارة ذكرها. اشارة الى أن عمله لا يحتمل مافوق هذا المقام. من ملاحظة المبتلي. ومشاهدة حسن اختياره لها فى ذلك البلاء، وتلذذها بالتكر له، والرضا عنه، ومقابلة ماجاء من قبله بالحمد والشكر.

● صبر لله .. وبالله

والصبر ثلاثة أنواع:

صبر لله. أى رجاء ثوابه، وخوف عقابه. وصبر المريدين: إنما هو بالله. فهم لا يرون لأنفسهم صبراً، ولا قوة لهم عليه. بل حالهم التحقق بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» علما ومعرفة وحالا:

فالصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل. فان الصبر لله متعلق بالٰهيته. والصبر به: متعلق بربوبيته. وما تعلق بالٰهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته.

ولأن الصبر له: عبادة. والصبر به استعانة. والعبادة غاية. والاستعانة وسيلة. والغاية مرادة لنفسها. والوسيلة مرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به.

وأما الصبر له: فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين، وأصحاب مشهد «إياك نعبد وإياك نستعين».

ولأن الصبر له: صبر فيما هو حق له، محبوب له مرضي له. والصبر به: قد يكون فى ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له. وقد يكون فى مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟

والثالث: «الصبر على أحكامه».

فهذا هو الصبر على أقداره، وقد عرفت بما تقدم: أن الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته: أكمل من الصبر على اقداره ـ كما ذكرنا فى صبر يوسف عليه السلام ـ فان الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة. والصبر على احكامه الكونية: صبر ضرورة. وبينهما من البون ما قد عرفت.

وكذلك كان صبر نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم فى الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله فى الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببا عن فعله.

وكذلك كان صبر اسماعيل الذبيح. وصبر أبيه ابراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف.

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله. والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢٩) منزلة الرضا

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرضا».

وقد اجمع العلماء على انه مستحب، مؤكد استحبابه. واختلفوا في وجوبه. على قولين. وكان شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يذهب الى القول باستحبابه.

قال: ولم يجيء الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

قال: وأما مايروى من الأثر «من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ رباً سوائي» فهذا أثر اسرائيلي، ليس يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قلت: ولاسيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة، بل هو موهبة محضة. فكيف يؤمر به. وليس مقدوراً عليه؟

وقال الخراسانيون: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل. فعلى هذا: يمكن أن يتوصل العبد اليه باكتسابه. لأن الله مدح أهله، وأثنى عليهم، فدل ذلك على انه مقدور لهم.

والعراقيون قالوا: هو من جملة الاحوال، وليس كسبيا للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب.

وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين. منهم القشيري ـ صاحب الرسالة ـ وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما، بأن يقال: بداية «الرضا» مكتسبة للعبد، وهي من جملة المقامات، وأما نهايته: فهي حال من الاحوال. والله أعلم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «**ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد رسولاً**».

وقال «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد رسولا. غفرت له ذنوبه**».

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، واليهما ينتهي. وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له. ومن اجتمعت له

هذه الأربعة: فهو الصديق حقاً. وهي سهلة بالدعوى واللسان. وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. ولاسيما اذا جاء مايخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقا. فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بألهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والانابة والتبتل اليه، وانجذاب قوى الارادة والحب كلها اليه. فعلّ الراضي بمحبوبه كل الرضا. وذلك يتضمن عبادته والاخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده و يتضمن افراده بالتوكل عليه ، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه. وأن يكون راضيا بكل مايفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له. والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه. فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته. ولايحاكم إلا إليه. ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة. لافي شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله. ولافي شيء من أذواق حقائق الايمان ومقاماته. ولافي شيء من احكام ظاهرة وباطنه. لايرضى في ذلك بحكم غيره. ولايرضى الا بحكمه.

وأما الرضا بدينه: فاذا قال، أو حكم. أو أمر، أو نهى: رضي كل الرضا. ولم يبق في قلبه حرج من حكمه. وسلّم له تسليما. ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقلّدهو وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فاياك أن تستوحش من التفرد. فانه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به. والرضا به رباً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً و بالاسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وداق حلاوته، وتنسّم روحه. قال: اللهم زدني اغتراباً، ووحشة من العالم، وأنساً بك.. وكلما ذاق حلاوة هدا الاغتراب، وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذلّ عين العزّ بهم. والجهل عين الوقوف مع آرائهم. وزبالة ذهانهم ، ، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوصاعهم. فلم يؤثر بنصيبه من الله أحداً من الخلق. ولم يَبِعْ حظه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدِي عليه إلا الحرمان. وغايته: مودّة بينهم في الحياة الدنيا. فاذا انقطعت الأسباب. وَحَقَّت الحقائق، و بُعثِر ما في القبور، وَحُصِّلَ ما في الصدور، و بُليت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر. تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران . وما الذي يخفّ أو يرجح به الميزان والله المستعان ، وعليه التكلان

والتحقيق في المسألة: أن «الرضا» كسبي باعتبار سببه، مَوْهبي باعتبار حقيقته. فيمكن ان يقال بالكسب لأسبابه. فاذا تمكن في اسبابه وغرس شجرته: اجتنى منها ثمرة الرضا. فان الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض: حصل له الرضا ولابد. ولكن لعزته وعدم اجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها ـ لم يوجبه الله على خلقه، رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم. لكن ندبهم اليه. وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان ومافيها. فمن رضي عن ربه رضي الله عنه. بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه. فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضا قبله، أوجب له أن يرضى عنه. ورضا بعده. هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الاعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين.

ومن أعظم اسباب حصول الرضا: أن يلزم ماجعل الله رضاه فيه. فإنه يوصله الى مقام الرضا ولابد.

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد الى مقام الرضا؟ فقال: اذا أقام نفسه على اربعة اصول فيما يعامل به ربه، فيقول: ان اعطيتني قبلت. وان منعتني رضيت. وان تركتني عبدت. وان دعوتني اجبت.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل الى القلب. فاذا باشر القلب حقيقة العلم اداه الى الرضا.

وليس «الرضا والمحبة» كالرجاء والخوف. فان الرضا والمحبة حالان من احوال اهل الجنة. لايفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولافي البرزخ، ولافي الاخرة. بخلاف الخوف والرجاء، فإنهما يفارقان اهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه، وان كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً، لكنه ليس رجاء مشوبا بشك، بل هو رجاء واثق بوعد صادق، من حبيب قادر. فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون.

• الهمّة العالية شيمتها الرضا

وليس من شرط «الرضا» ألا يُحس بالألم والمكاره. بل ألاّ يعترض على الحكم ولا يتسخطه. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة. وانما هو الصبر، الا فكيف يجتمع الرضا والكراهية؟ وهما ضدان.

والصواب: أنه لا تناقض بينهما، وان وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا

المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظما، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جداً، موصلة الى أجل غاية. ولكن فيها مشقة. ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولافيها من العقبات والمفاوز مافيها. وانما عقبتها همة عالية . ونفس زكية، وتوطين النفس على كل مايرد عليها من الله.

و يسهل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه ورحمته به، وشفقته عليه، و بره به. فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، و يرضى به وعنه. وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها اليه. فنفسه نفس مطرودة عن الله، بعيدة عنه. ليست مؤهلة لقربه وموالاته، أو نفس ممتحَنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضا والمحبة: تُسَيِّر العبد وهومستلق على فراشه. فيصبح أمام الركب بمراحل.

وثمرة الرضا : الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.

ورأيت شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ في المنام. فذكرتُ له شيئاً من أعمال القلب. وأخذت في تعظيمه ومنفعته ــ لا أذكره الآن ـ فقال: أما أنا فطريقتي: الفرح بالله، والسرور به، أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة. يبدو ذلك على ظاهره. و ينادي به عليه حاله.

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: ان ابا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب الي من الغنى ، والسقم احب الي من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا ، فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غيرما اختار الله له.

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا. لأن الراضي لايتمنى فوق منزلته.

وسئل ابو عثمان عن قول النبي صلى الله عليه وسلم «**أسألك الرضا بعد القضاء**» فقال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا. والرضا بعد القضاء هو الرضا.

وقيل: الرضا ارتفاع الجزع في اي حكم كان.

وقيل: رفع الاختيار. وقيل : استقبال الأحكام بالفرح.

وقيل : سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وكتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى رضي الله عنهما «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا. فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»

والرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه . ورضا الخواص بما قدره وقضاه. ورضا خواص الخواص به بدلا من كل ما سواه.

• الرضا وليد الطمأنينة

والنفس انما تنال الرضا بالطمأنية والسكينة، فمن درّب نفسه على الطمأنينة حصل له الرضا عن الله تعالى، ورضي الله عنه، وذلك قوله سبحانه (٨٩:٢٧ ــ ٣٠ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي)**.

وهذا نظير قوله تعالى (١٦:٣٢ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يقولون: سلام عليكم. ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)** فإنما أوجب لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بعيد، وهو وفاتهم طيبين. فلم تبق الآية لغير الطيب سبيلا الى هذه البشارة.

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة اقوال للسلف.

أحدها: انه عند الموت. وهو الأشهر. قال الحسن : اذا أراد قبضها اطمأنت الى ربها، ورضيت عن الله، فيرضى الله عنها.

وقال آخرون: انما يقال لها ذلك عند البعث. هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة.

وقال آخرون: الكلمة الأولى ــ وهي **«ارجعي الى ربك راضية مرضية»** ــ تقال لها عند الموت. والكلمة الثانية ــ وهي **«فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»** ــ تقال لها يوم القيامة.

والصواب ان هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا، و يوم القيامة. فإن اول بعثها عند مفارقتها الدنيا . وحينئذ فهي في الرفيق الاعلى، ان كانت مطمئنة الى الله .

فأول ذلك عند الموت. وتمامه ونهايته. يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة.

• الرضا بالله رباً : أساس الايمان

وارفع الرضا : الرضا بالله رباً، وتسخط عبادة مادونه. وهذا قطب رحى الاسلام.

الرضا بالله ربا: أن لايتخذ رَبًّا غير الله تعالى يسكن الى تدبيره و ينزل به حوائجه. قال الله تعالى (٦: ١٦٤ **قل اغير الله ابغي رَبًّا، وهو رب كل شيء؟)** قال ابن عباس رضي الله عنهما «سيداً والها» يعني فكيف أطلب ربا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في اول السورة (٦: ١٤ **قل اغير الله اتخذ ولياً؟ فاطر السموات والأرض)** يعني معبودا وناصراً ومعينا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها (٦: ١١٤ **افغير الله ابتغي حَكَماً؟ وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا)** اي افغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم. فنتحاكم اليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم الى غير كتابه؟ أنزله مفصّلا، مبيناً كافياً شافياً.

وأنت اذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربا. وبالاسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، ورأيت الحديث يترحم عنها، ومشتقاً منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربا، ولايبغي ربا سواه، لكنه لايرضى به وحده ولياً وناصراً. بل يوالي من دونه أولياء. ظنا منه أنهم يقربونه الى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك . بل التوحيد: ان لايتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة انبيائه ورسله، وعباده المؤمنين به . فإن هذا من تمام الايمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما، يتحاكم اليه، ويخاصم اليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي اركان التوحيد : ان لايتخذ سواه رباً ، ولا إلها، ولاغيره حكما.

وتفسير الرضا بالله رباً: أن يسخط عبادة مادونه . هذا هو الرضا بالله الهاً. وهو من تمام الرضا بالله ربا. فمن أعطى الرضا به ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً. لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

فمدار رحى الإسلام على ان يرضى العبد بعبادة ربه وحده، وان يسخط عبادة غيره. وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل. فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله، فأنت عابد له.

● الرضا بالقضاء من مكملات الايمان

ثم يتلوه: الرضا عن الله، وبه ايضاً نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدر.

وانما كان هذا الرضا تالياً لأن الرضا بالله رباً أعلى شأناً وأرفع قدراً، ودرجته مختصة بالمؤمنين، بينما درجة الرضا عن الله مشتركة. فإن الرضا بالقضاء يصح من المؤمن والكافر. وغايته التسليم لقضاء الله وقدره. فأين هذا من الرضا به رباً والهاً ومعبوداً؟.

وأيضاً فالرضا به رباً فرض. بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة. فمن لم يرض به رباً، لم يصح له إسلام ولاعمل ولاحال.

وأما الرضا بقضائه: فأكثر الناس على أنه مستحب. وليس بواجب. وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرجتين فرق مابين الفرض والندب. وفي الحديث الإلهي الصحيح «يقول الله عز وجل: ماتقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه» فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب اليه بالنوافل.

وأيضاً: فإن الرضا به رباً يتضمن الرضا عنه، ويستلزمه. فإن الرضا بربوبيته: هو رضا العبد بما يأمره به، وينهاه عنه، ويقسمه له وَيُقَدِّره عليه، ويعطيه إياه، ويمنعه منه. فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به رباً من جميع الوجوه. وإن كان راضياً به رباً من بعضها. فالرضا به رباً من كل وجه: يستلزم الرضا عنه، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضا: فالرضا به رباً متعلق بذاته، وصفاته وأسمائه، وربوبيته العامة والخاصة. فهو الرضا به خالقاً ومدبراً، وآمراً وناهياً، وملكا ومعطياً ومانعاً، وحكماً، ووكيلاً وولياً، وناصراً ومعيناً، وكافياً وحسيباً ورقيباً، ومبتلياً ومعافياً، وقابضاً وباسطاً، الى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه. ولهذا لم يجيء إلا في الثواب والجزاء. كقوله تعالى (٨٩:٢٧، ٢٨ يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي الى ربك راضية مرضية) فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى (٩٨:٨ خالدين فيها أبداً. رضي الله عنهم، ورضوا عنه. ذلك لمن خشي ربه).

والرضا به. أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه.

وأيضاً: فإن النبي صلى الله عليه وسلم علق ذوق طعم الايمان بمن رضي بالله رباً. ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا» فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه. وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لايقوم إلا بها وعليها.

وأيضاً. فالرضا به رباً يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة اليه، والتوكل عليه. وخوفه ورجاءه ومحبته. والصبر له وبه. والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل مامنه نعمةً وإحساناً. وإن ساء عبده. فالرضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله» والرضا بمحمد رسولاً. يتضمن «شهادة أن محمداً رسول الله» والرضا بالإسلام ديناً: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته. وطاعة رسوله فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضاً: فالرضا به رباً يتضمن اتخاذه معبوداً دون ماسواه. واتخاذه ولياً ومعبوداً، وإبطال عبادة كل ما سواه. وقد قال تعالى لرسوله (٦:١١٤ أفغير الله أبتغي حكما؟) وقال (٦:١٣ أغير الله أتخذ ولياً؟) وقال (٦:١٦٤ قل: أغير الله أبغي رباً؟ وهو رب كل شيء) فهذا هو عين الرضا به رباً.

وأيضاً: فإنه جعل حقيقة الرضا به رَبًّا: أن يسخط عبادة مادونه. فمتى سخط العبد عبادة ماسوى الله من الآلهة الباطلة، حباً وخوفاً، ورجاء وتعظيماً، وإجلالاً ــ فقد تحقق بالرضا به ربًّا، الذي هو قطب رحى الإسلام.

وإنما كان قطب رحى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تنبني على توحيد الله عز وجل في العبادة، وسخط عبادة ماسواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رَحًى تدور عليه. ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرحى، ودارت على ذلك القطب. فيخرج حينئذ من دائرة الشرك الى دائرة الإسلام. فتدور رحى إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم.

وأيضاً: فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفاً على كون المرضى به ربًّا ــ سبحانه ــ أحبَّ الى العبد من كل شيء، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة. ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية، و ينتظم فروعها وشُعَبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته الى المحبوب: كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه. وكلما كان الميل أقوى: كانت الطاعة أتم، والتعظيم أوفر. وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولُبُّه. فأى شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء الى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة؟.

و بهذا يجد العبد حلاوة الإيمان. كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان: من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع الى الكفر ــ بعد إذ أنقذه الله منه ــ كما يكره أن يلقى في النار**».

فعلق ذوق الإيمان بالرضا بالله رباً. وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه. ولايتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء الى العبد هو ورسوله.

ولما كان هذا الحب التام، والإخلاص ــ الذي هو ثمرته ــ أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه: كانت ثمرته أعلى. وهي وَجْد حلاوة الإيمان. وثمرة الرضا: ذوق طعم الإيمان. فهذا وجدُ حلاوة، وذلك طعم. والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده رباً، والبراءة من عبودية ماسواه، وميل القلب بكليته اليه، وانجذاب قُوَى المحب كلها اليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به. فمن رضي بالله رباً رضيه الله له عبداً. ومن رضي عنه في عطائه ومنعه و بلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه، إن لم يرض به رباً، وبنبيه رسولاً، وبالإسلام ديناً. فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لايرضى به وحده معبوداً وإلهاً.. ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به رباً. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «**من قال كل يوم:**

رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً: إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة» وقد نطق التنزيل بهذا الرضا ايضا كقوله عز وجل (٥:١١٩ قال الله: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى في آخر سورة المجادلة (٥٨:٢٢ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها. رضي الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله. ألا إن حزب الله هم المفلحون) وقال في آخر سورة «لم يكن» (٩٨:٨ خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه).

فتضمنت هذه الآيات: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم. بأن رضي الله عنهم. فأرضاهم. فرضوا عنه. وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به رباً، وبمحمد نبياً. وبالإسلام ديناً.

• وجوب التفريق بين مشيئة الله ومحبته

واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد انكر على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمان لمحبته ورضاه، فقال سبحانه (٦:١٤٨ سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولاحرمنا من شيء. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن. وإن أنتم إلا تخرصون) وقال تعالى (١٦:٣٥ وقال الذين أشركوا: لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا، ولاحرمنا من دونه من شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم) وقال تعالى (٤٣:٢٠ وقالوا: لو شاء الرحمن ماعبدناهم. مالهم بذلك من علم) فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك. وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه. وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته عين محبته ورضاه. فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة. فنشأ من ذلك الزامهم بكونه تعالى راضياً محباً لذلك. والتزام رضاهم به.

والذي يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، ويوضح المعنى الصحيح للرضا بالقضاء. إنما هو التفريق بين مافرق الله بينه، وهو المشيئة والمحبة. فإنهما ليسا واحداً. ولا هما متلازمين. بل قد يشاء مالايحبه، ويحب مالا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده. ومشيئته العامة لجميع مافي الكون مع بغضه لبعضه

والثاني: كمحبته إيمان الكفار، وطاعات الفجار، وعدل الظالمين، وتوبة الفاسقين. ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جيعه. فإنه ماشاء كان. وما لم يشأ لم يكن.

فإذا تقرر هذا الأصل، وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضى، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه: زالت الشبهات. وانحلت الاشكالات. ولله الحمد. ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض، بحيث يظن ابطال أحدهما للآخر. بل القدر ينصر الشرع. والشرع يصدق القدر. وكل منهما يحقق الآخر.

إذا عرف هذا، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب. وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج، ولامنازعة ولامعارضة، ولا اعتراض. قال الله تعالى (٤: ٦٥ **فلا، وربك لايؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم. ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما**).

فأقسم: أنهم لايؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليما. وهذا حقيقة الرضا بحكمه.

فالتحكيم: في مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان. والتسليم: في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلبَ بشاشةُ الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحى، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضى كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

والرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه ــ من الصحة ، والغنى، والعافية، واللذة ــ أمر لازم بمقتضى الطبيعة. لأنه ملائم للعبد، محبوب له. فليس في الرضا به عبودية. بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لايعصى المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ــ مما لايلائمه. ولايدخل تحت اختياره ــ مستحب. وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان. وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجارى عليه باختياره ــ مما يكرهه الله و يسخطه، و ينهى عنه ــ كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه. وهو مخالفة لربه تعالى. فإن الله لايرضى بذلك ولا يحبه . فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء

فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لايرضاه ولايحبه؟ وكيف يشاءه و يُكوِّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له و بغضه وكراهيته؟.

فأعلم أن «المراد» نوعان: مراد لنفسه. ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير. فهو مرادٌ ارادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لايكون في نفسه مقصودا للمريد، ولافيه مصلحة له بالنظر الى ذاته. وإن كان وسيلة الى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله الى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولايتنافيان. لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة، اذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله الى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، وطويت عنه مغيبته، فكيف بمن لاتخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء و يبغضه في ذاته. ولاينافي ذلك ارادته لغيره، وكونه سببا الى ما هو أحب اليه من فوته.

مثال ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والارادات. وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى. وهو الساعي في وقوع خلاف مايحبه الله و يرضاه بكل طريق وكل حيلة. فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسخوط له. لعنه الله ومقته. وغضب عليه. ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه. وجودُها أحبُّ إليه من عدمها.

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات — التي هي أخبث الذوات وشرها. وهي سبب كل شر — في مقابلة ذات جبريل، التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها. وهي مادة كل خير. فتبارك الله خالق هذا وهذا. كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى. والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه. فإنه خلق هذه المتضادات. وقابل بعضها ببعض. وسلط بعضها على بعض. وجعلها محالّ تصرفه وتدبيره وحكمته. فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتدبير مملكته

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل «القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل» فإن هذه الأسماء والأفعال كمال. فلابد من وجود متعلقها. ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملَك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق مايكره من الأسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا بقوله **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله. فيغفر لهم»**.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق ابليس لما حصلت. ولكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية اليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه. وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة، والرجوع اليه واستغفاره. فإنه سبحانه يحب التوابين. ويحب توبتهم. فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، واغاظته فيه. وهي من أحب أنواع العبودية إليه. فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه و يراغمه و يسوءه. وهذه عبودية لايتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، و يعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة. فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى **«٦:٣٥ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا»** فاتخاذه عدوا أنفع شيء للعبد. وهو محبوب للرب.

ومنها. أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث. وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد. فخُلِقَ الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة الى الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ماق طبيعة أهل الخير من القوة الى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ماق قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه آثاره. وما في قوى أولئك من الشر، ليترتب عليه آثاره. وتظهر حكمته في الفريقين. و ينفذ حكمه فيهما. و يظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق

ومنها: هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا (٢: ٣٠ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم مالا تعلمون**) فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده و يطيعه و يعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه. فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع مالا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء (**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم**) فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل الى الابد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً، و يكسر بعضها بعضاً: هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل — وإن كان شأن الربوبية كاملا في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب — لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته. فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلٰهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق مالا يحبه ولايرضاه وتقديره ومشيئته: أحب اليه سبحانه وتعالى من فواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

قلت: هذا سؤال باطل. إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه. كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قلت: كيف يرضى لعبده شيئاً، ولايعينه عليه؟.

قلت. لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له. وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي اكره اليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، حيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة، ومفوتاً لمصلحة راجحة. وقد أشار تعالى الى ذلك في قوله (٩: ٤٦، ٤٧ **ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدَّة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبَّطهم، وقيل: اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم**

مازادوكم إلا خَبَالاً. ولأوضعوا خِلالكم، يبغونكم الفتنة وفيكم سَمَّاعُون لهم. والله عليم بالظالمين) فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله صلى الله عليه وسلم للغزو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به. فلما كرهه منهم ثَبَّطَهُمْ عنه. ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال «لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا» أي فساداً وشراً «ولأوضعوا خلالكم» أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر «يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم» أي قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتولّد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ماهو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقتضت الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج، وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال اصلا لهذا الباب. وقس عليه.

• ثمرات الرضا اليانعة

وللرضا ثمرات ايمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، يرتفع بها الراضي الى اعلى المنازل.

منها: أن تمام عبوديته في جريان مايكرهه من الاحكام عليه. ولو لم يجر عليه منها إلا مايحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه. فلا تتم له عبوديته ــ من الصبر، والتوكل، والرضا، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها ــ إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة. إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه. فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق: رضي ربه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضي عنه في جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع شيء الى رضاه إذا ترضّاه وتَمَلَّقه.

ومنها: أن السخط باب الهمّ والغَمّ والحَزَن، وشتات القلب، وكَسْف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ماهو أهله. والرضا يخلّصه من ذلك كله و يفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

فالرضا يوجب له الطمأنينة، و برْد القلب، وسكونه وقراره. والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره.

كما أن الرضا يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها. ومتى نزلت عليه السكينة: استقام، وصلحت أحواله، وصلح باله. والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحّلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدَّعة والراحة، وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده: تَنزُّل السكينة عليه. ومن أعظم أسبابها: الرضا عنه في جميع الحالات.

ومنها: أن الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته. فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

ومنها: أن حُكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاءه عدل فيه، كما في الحديث «**ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

وقوله «**عدل فِيَّ قَضَاؤُك**» يعم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته. فإن الأمرين من قضائه عز وجل. وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة: فظاهر. وأما عدله في قضائه بالذنب: فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه. وإعراض قلبه عنه. فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه: استحق أن يُضْرَب بهذه العقوبة. لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب. والعقوبات واردة عليها من كل جهة. وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره، يستحيل صدور الذنب. كما قال تعالى (**١٢:٢٤ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. إنه من عبادنا المخلصين**).

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إخلاصه: عقوبة على ماذا؟.

قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه. وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان، وعدم الإخلاص واتباع الهوى. وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام، وفوات الخيرات واللذات. كاقتضاء سائر الأسباب مسبباتها وآثارها.

فإن قلت: فهلا خلقه على غير تلك الصفة؟.

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه. هلا خلقه ملكا لا إنساناً؟.

وإن قلت: فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه، وظلمة طبعه؟

قلت: مضمون هذا السؤال: هلا سوى بين جميع خلقه؟ ولم خلق المتضادات والمختلفات؟

وهذا من أفسد الأسئلة. وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك.

ومنها: أن عدم الرضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده. وإما لإصابة مايكرهه ويسخطه. فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول مايضره.

ومنها: أن الرضا يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليما نَقِيًّا من الغش والدَّغل والغِلّ. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا. وكلَّما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم. فالخَبَث والدغل والغش: قرين السخط. وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضا. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

ومنها: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقلَّ أن يَسْلم الساخط من شك يداخل قلبه و يتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به. فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولا مدخولا. فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط قرينان. وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي ــ أو غيره «**إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصبر على ماتكره النفس خيراً كثيراً**».

ومنها: أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر: ملأ الله صدره غِنًى وأمناً وقناعة. وفرَّغ قلبه لمحبته، والإنابة اليه، والتوكل عليه. ومن فاته حظه من الرضا امتلأ قلبه بضد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

ومنها: أن الرضا يثمر الشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان. والسخط يثمر ضده. وهو كفر النعم. وربما أثمر له كفر المنعم. فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراضين الشاكرين. وإذا فاته الرضا: كان من الساخطين. وسلك سبيل الكافرين.

ومنها: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يصطاده. ولاسيما إذا استحكم سخطه. فإنه يقول مالا يرضي الرب. و يفعل مالا يرضيه. و ينوي مالا يرضيه. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ابنه ابراهيم «**يَحْزَن القلب. وتدمع العين. ولا نقول إلا ما يرضي الرب**» فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر. فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لا يقول في مثل هذا المقام ــ الذي يسخطه أكثر الناس. فيتكلمون بما لا يرضي الله. و يفعلون مالا يرضيه ــ إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى.

ومنها. أن الرضا يخرج الهوى من القلب. فالراضي هواهُ تبع لمراد ربه منه أعني المراد الذي يحبه ربه و يرضاه. فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبداً. وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه منهما.

• ندوة لطيفة في الرضا

ومنها: أن الراضي واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوة معرفته بربه تعالى. ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسفيان الثوري، و يوسف بن أسباط. فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. وأما اليوم: فوددت أني ميت .

فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء.

فقال الثوري: ولم تكره الموت؟

قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله.

فقبل الثوري بين عينيه. وقال: روحانية ورب الكعبة

فهذه حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت. وقف مع اختيار الله له منهما. وقد كان وهيب ــ رحمه الله ــ له المقام العالي من الرضا وغيره.

• رضا الله عن العبد أكبر الثواب

ومنها: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة ومافيها. لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى (٩:٧٢ ورضوان من الله أكبر) بعد قوله (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم) وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

ومنها: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل وأغناه رضاه بما يقسمه له و يقدره و يفعله به عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، و بلوغ رضاه. فهذا يُعطَى أفضل مايعطاه سائل. كما جاء في الحديث «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذي سألوه. والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولايمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا. بل صاحبه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

ومنها: أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهْلِع من أمور الدنيا، و برد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا. واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. و يذهب عنه شكوى ربه الى غيره وتبرمه بأقضيته. ولهذا سمى بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خُلقه.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أصبحت ومالى سرور إلا في مواقع القدر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه «الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر. وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

ومنها: أن الرضا بالقدر يخلص العبد من أن يُرضي الناس بسخط الله. وأن يذمهم على ما لم يؤته الله. وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله. فيكون ظالماً لهم في الأول — وهو رضاهم وذمهم — مشركا بهم في الثاني — وهو حمدهم — فإذا رضى بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم. فخلصه الرضا من ذلك كله.

• قلب الراضي بارد

ومنها: أن الرضا يفرغ قلب العبد. و يقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي — وكان من العلماء — قال: قلت لعابد: أوصني . قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهو أحرى أن يُفَرِّغ قلبك. و يقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيَحِلّ بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به. فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله «لقد تركتنى هؤلاء الدعوات، ومالى في شيء من الأمور كلها أرَب، إلا في مواقع قدر الله. وكان كثيراً ما يدعو: اللهم رضنى بقضائك، و بارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته. ولا تأخير شيء عجلته».

وقال: ما أصبح لى هوى في شيء سوى ماقضى الله عز وجل.

ومنها: أن الله تعالى نهى عن التقدم بين يديه و يدى رسوله في حكمه الديني الشرعي. وذلك عبودية هذا الأمر. فعبودية أمره الكوني القدري: أن لايتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك. فيكون التقدم أيضاً بأمره الكوني والديني. فإذا كان فرضُه الصبر أو ندبه، أو فرضه الرضا حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدى شرعه وقدره.

● ليس لأعمال القلوب نهاية

ومنها: أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب. وأما أعمال القلوب: فلا ينتهى تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حَدٌّ تنتهى إليه. وتقف عنده. فيكون جزاؤها بحسب حدها. وأما أعمال القلوب: فهى دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضى، لا تفارقه أصلا. وإن توارى حكمها. فصاحبها فى مزيد متصل. فمزيد المحب الراضى: متصل بدوام هذه الحال له. فهو فى مزيد، ولو فترت جوارحه. بل قد يكون مزيده فى حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله، وقيام غافل عن الله. فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب، والهمم والعزائم لا الى صور الأعمال. وقيمة العبد: همته وإرادته. فمن لا يرضيه غير الله — ولو أعطى الدنيا بحذافيرها — له شأن. ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن. وإن كانت أعمالهما فى الصورة واحدة. وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

● الإلحاح في الدعاء عين العبودية

والدعاء لا ينافي الرضا، بل اذا ألح العبد على الله فى سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه: فإن ذلك لا يقدح فى مقام الرضا. وفى الأثر «إن الله يحب الملحين فى الدعاء» وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه — يوم بدر — للنبى صلى الله عليه وسلم «يارسول الله، قد ألححت على ربك. كفاك بعض مناشدتك لربك» فهذا الإلحاح عين العبودية

وفى سنن ابن ماجة من حديث أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**من لم يسأل الله يغضب عليه**».

وإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه.

وحقيقة الرضا: موافقته سبحانه فى رضاه. بل الذى ينافى الرضا. أن يلح عليه متحكماً عليه متخيراً عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلح على ربه فى ولاية شخص، أو إغنائه، أو قضاء حاجته. فهذا ينافى الرضا، لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب فى ذلك.

وربما يفتح على قلبه — حال السؤال — من معرفة الله ومحبته. والذل له، والخضوع والتملق

مايسيه حاجته. و يكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته، بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته. وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك.

وقال بعض العارفين: إنه لتكون لى حاجة إلى الله. فأسأله إياها. فيفتح عليَّ من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ماأحب معه أن يؤخر عنى قضاءها. وتدوم لى تلك الحال.



ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الشكر»

وهى من أعلى المنازل. وهى فوق منزلة «الرضا» وزيادة. فالرضا مندرج فى الشكر. إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان ــ كما تقدم ــ والإيمان نصفان: نصف شكر. ونصف صبر.

وقد أمر الله به. ونهى عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه. وجعله غاية خلقه وأمره. ووعد أهله بأحسن جزائه. وجعله سبباً للمزيد من فضله. وحارساً وحافظاً لنعمته. وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. واشتق لهم اسماً من أسمائه فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده قال الله تعالى (٢: ١٧٢ **واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون**) وقال (٢: ١٥٢ **واشكروا لي ولا تكفرون**) وقال عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم (١٦: ١٢٠، ١٢١ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً. ولم يكُ من المشركين شاكراً لأنعمه**) وقال عن نوح عليه السلام (١٧: ٣ **إنه كان عبداً شكوراً**) وقال تعالى (١٦: ٧٨ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة. لعلكم تشكرون**) وقال تعالى (٢٩: ١٧ **واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون**) وقال تعالى (٣: ١٤٤ **وسيجزى الله الشاكرين**) وقال تعالى (١٤: ٧ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد**) وقال تعالى (٣١: ٣١ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور**).

وسمى نفسه «شاكراً» «وشكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه. وسماهم باسمه. وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا.

وإعادته للشاكر مشكوراً. كقوله (٧٦: ٢٢ **إن هذا كان لكم جزاء. وكان سعيكم مشكوراً**) ورضا الرب عن عبده به. كقوله (٣٩: ٧ **وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم**) وقلة أهله فى العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله (٣٤: ١٣ **وقليل من عبادى الشكور**) وفى

الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

وقال لمعاذ «والله يامعاذ، إني لأحبك. فلا تنسَ أن تقول فى دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

وفى المسند والترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان يدعو بهؤلاء الكلمات: اللهم أعنى ولا تُعِنْ علىّ. وانصرنى ولا تنصر علىّ. وامكُرْ لى ولا تمكر بي. واهدنى ويسر الهدى لى. وانصرنى على من بغى على. رب اجعلنى لك، شَكَّاراً لك. ذكَّاراً لك. رهّاباً لك. مطاوعاً لك. مخبتا إليك. أوّاها منيباً. رب تقبل توبتى. واغسل حُوبتى. وأجب دعوتى. وثبت حجتى. واهد قلبى. وسدد لسانى. واسْلُل سخيمة صدرى».

• قواعد الشكر

وأصل «الشكر» فى وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء فى أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال: شَكِرَتِ الدابة تَشْكَرُ شَكَراً على وزن سَمَنت تسمَن سمناً: إذا ظهر عليها أثر العَلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ماتأكل. وتعطى من العلف.

وفى صحيح مسلم «حتى إن الدواب لتَشْكَر من لحومهم» أى لتسمن من كثرة ماتأكل منها.

وكذلك حقيقته فى العبودية. وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً. وعلى قلبه: شهوداً ومحبة. وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. و«الشكر» مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له. واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها. وأن لايستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هى أساس الشكر. وبناؤه عليها. فمتى عُدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم فى الشكر وحَدِّه، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنة. وحفظ الحرمة

ومن لطف ماقال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا.

وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة.

هذا معنى قول حمدون «أن يرى نفسه فيها طفيليا».

وقال رويم: الشكر استفراغ الطاقة.

وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس، وقوت الأبدان.

وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال الجنيد ــ وقد سأله سري عن الشكر، وهو صبي؟ ــ الشكر: أن لايستعان بشيء من نعم الله على معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك.

وقيل: من قصرت يداه عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر.

والشكر معه المزيد أبداً. لقوله تعالى (١٤: ٧ لئن شكرتم لأزيدنكم) فمتى لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلهي: يقول الله عز وجل «أهلُ ذكرى أهل مجالستي، وأهل شكرى أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لاأقنطهم من رحمتي. إن تابوا فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب».

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وفي هذا قيل:

ومن الرزية: أن شكرى صامت عما فعلت. وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرها إني إذاً لدى الكريم لسارق

• نعرف نعمة الرب، ونقبلها، ونتحدث بها

أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن، ومشاهدتها وتمييزها.

فمعرفتها. تحصيلها ذهنا، كما حصلت له خارجاً. إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لايدرى. فلا يصح من هذا الشكر.

وقبولها: هو تلقيها من المنعم باظهار الفقر والفاقة إليها. وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بذل ثمن. بل يرى نفسه فيها كالطفيلي. فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة.

أما الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة فنوعان: عام، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمه، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى (٩٣: ١١ **وأما بنعمة ربك فحدث)**.

وفى هذا التحديث المأمور به قولان.

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا. قال مقاتل: يعنى اشكر ماذكر من النعم عليك فى هذا السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما فى حديث جابر مرفوعاً **«من صُنِع إليه معروف فليَجْز به. فإن لم يجد مايَجْزِى به فليُثْنِ. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تَحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبى زور»**.

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثنى بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلٍ بما لم يعطه.

وفى أثر آخر مرفوع **«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب»**.

والقول الثانى: أن التحدث بالنعمة المأمور به فى هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هى النبوة. قال الزجاج: أى بَلِّغ ماأرسلت به، وحدث بالنبوة التى آتاك الله. وقال الكلبى: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين. إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها. وإظهارُها من شكرها.

و «الشكر» سبيل رسل الله وأنبيائه — صلى الله عليهم وسلم أجمعين — أخصّ خلقه، وأقربهم إليه.

وليس من مقام أرفع من «الشكر» الذى يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها فإن «الشكر» لايصح إلا بعد حصولها وتالله ليس لخواص اولياء الله، وأهل القرب منه سبيل ارفع من «الشكر» ولا أعلى.

وإنعام الرب تعالى على عبده: إحسان إليه، وتفضل عليه، ومجرد امتنان. لا لحاجة منه إليه، ولا لمعاوضة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذِلّة، ولا ليقوى به من ضعف. سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضاً: إنعام آخر عليه. وإحسان منه إليه. إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة. لا إلى الله. والعبد هو الذى ينتفع بشكره. كما قال تعالى **(٣١: ١٢ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه)** فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى، فإنه إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر. لا أنه مكافىء به لنعم الرب. فالرب تعالى لايستطيع أحد أن يكافىء نعمه أبداً، ولا أقلها، ولا أدنى نعمة من نعمه. فإنه تعالى هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يُشكر عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصى ثناء عليه. فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أورعه شكرها. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه. تحتاج إلى شكر آخر. وهلم جرا.

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم بره وكرمه وجوده: محبته له على هذا الشكر. ورضاه منه به. وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد. لا تعود منفعته على الله. وهذا غاية الكرم الذى لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، و يرضى عنك. ثم يعيد إليك منفعة شكرك. ويجعله سبباً لتوالى نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

وهذا الوجه وحده يكفى اللبيب ليتنبه به على مابعده.

• شكر اعلى من شكر

والشكر على المكاره: أشد وأصعب من الشكر على المحاب. ولهذا فهو فوقه فى الدرجة. ولا يكون إلا من أحد رجلين:

إما رجل لايميز بين الحالات. بل يستوى عنده المكروه والمحبوب. فشكر هذا: إظهار منه للرضا بما نزل به. وهذا مقام الرضا.

الرجل الثانى: من يميز بين الأحوال. فهو لايحب المكروه. ولايرضى بنزوله به، فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه، فكان شكره كظما للغيظ الذى أصابه، وستراً للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوكا لمسلك العلم. فان العلم والأدب يأمران بشكر الله على السراء والضراء فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم لأنه شاكر لله شكر من رضى بقضائه، كحال الذى قبله. فالذى قبله: أرفع منه.

(٣١) منزلة الحياء

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الحياء»

قال الله تعالى (٩٦: ١٤ ألم يعلم بأن الله يرى؟) وقال تعالى (٤: ١ إن الله كان عليكم رقيباً) وقال تعالى (٤٠: ١٩ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور).

وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَرَّ برجل — وهو يعظ أخاه في الحياء — فقال: دَعْه. فإن الحياء من الإيمان».

وفيهما عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحياء لا يأتي إلا بخير».

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. أنه قال «الإيمان بضع وسبعون شعبة — أو بضع وستون شعبة — فأفضلها: قول لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان».

وفيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها. فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه».

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» وفي هذا قولان

أحدهما: أنه أمر تهديد. ومعناه الخبر، أي من لم يستح صنع ما شاء.

والثاني: أنه أمر إباحة. أي أنظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله. فإن كان مما لا يستحى منه فافعله. والأول أصح. وهو قول الأكثرين

وفي الترمذي مرفوعاً «استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إنا نستحي يارسول الله. قال: ليس ذلكم. ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى. وليذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا. فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء».

• حياة القلب في الحياء

و «الحيـاء» من الحيـاة. ومنه «الحيا» للمطر، لكن هومقصور. وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء. وقلة الحياء من موت القلب والروح. فكلما كان القلب أحيىٰ كان الحياء أتم.

قال الجنيد ــ رحمه الله: الحيـاء رؤية الآلاء. ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح. ويمنع من التفريط فى حق صاحب الحق.

وقال السرى: إن الحياء والأنس يطرقان القلب. فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا.

وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة فى القلب. وجمود العين. وقلة الحياء. والرغبة فى الدنيا. وطول الأمل.

وقال يحيىٰ بن معاذ: من استحيىٰ من الله مطيعاً استحيىٰ الله منه وهومذنب.

ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى فى حال طاعته. فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل: فإنه إذا واقع ذنباً استحيىٰ الله عز وجل من نظره إليه فى تلك الحال لكرامته عليه. فيستحي أن يرى من وليه ومن يَكْرُم عليه: مايشينه عنده.

كما انه حياء كرم و بر وجود وجلال. فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً. و يستحي أن يعذب ذا شيبة شابت فى الإسلام.

• انواع الحياء

وقد قسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جناية وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة. وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعزة. وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فرَّ هارباً فى الجنة. قال الله تعالى: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لايارب. بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الاجلال: هوحياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبى صلى الله عليه وسلم من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوَّلوا الجلوس عنده. فقام واستحيىٰ أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء علي بن طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المذي لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحقار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتقارا لشأن نفسه، واستصغارا لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل نفسه. واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسؤوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه. ولا يدري ما سببه. وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة. ومنه قولهم «جمال رائع» وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها. فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان. فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وهذا له سببان.

أحدهما: هذا. والثاني: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل. حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه. وهذا يدخل في حياء التلوم. لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه. فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

● حياء الرقابة

وأول الحياء: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه. فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة. ويحمله على استقباح الجناية. ويسكته عن الشكوى.

فإن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه. يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة.

وأرفع منه درجة: الاستقباح الحاصل عن المحبة. فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله. فيكون قد شكا الله إلى خلقه ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه. فإن الشكوى إليه سبحانه فقر، وذلة، وفاقة، وعبودية. فالحياء منه فى مثل ذلك لا ينافيها.

• الحياء من الإبطاء في التشمير

ثم ارفع منه: حياء يتولد من النظر فى علم القرب فيدعوه إلى ركوب المحبة. و يربطه بروح الأنس. و يُكَرِّه إليه ملابسة الخلق.

والنظر فى علم القرب هو تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله. فإن المعية نوعان:

عامة. وهى. معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى (٥٧: ٤ **وهو معكم أينما كنتم**) وقوله (٥٨: ٧ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا**).

وخاصة: وهى معية القرب، كقوله تعالى (١٦: ١٢٨ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**) وقوله (٢: ١٥٣ **إن الله مع الصابرين**) وقوله (٢٩: ٦٩ **وإن الله لمع المحسنين**).

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ «مع» فى لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئاً من هذا فمن سوء فهمه أُتي.

وأما القرب: فلا يقع فى القرآن إلا خاصا وهو نوعان قربه من داعيه بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى (٢: ١٨٦ **وإذا سألك عبادى عنى؟ فإنى قريب. أُجيب دعوة الداعى إذا دعان**) ولهذا نزلت جواباً للصحابة رضى الله عنهم وقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم «**ربُّنَا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية**».

والثانى: قوله صلى الله عليه وسلم «**أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد. وأقرب ما يكون الرب من عبده: فى جوف الليل**» فهذا قربه من أهل طاعته.

وفى الصحيح، عن أبى موسى رضى الله عنه قال «كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر، فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: يأيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إن الذى تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

فهذا قرب خاص بالداعى دعاء العبادة والثناء والحمد وهذا القرب لا ينافى كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه، بل يجامعه ويلازمه، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولكنه نوع آخر والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطى، ويجده أقرب إليه من جليسه.

وأهل السنة أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثته وأحبابه، الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها، يجدون نفوسهم أقرب إليه وهم فى الأقطار النائية عنه من جيران حجرته فى المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها، هذا مع عدم تأتى القرب منها، فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء، وهو مستوٍ على عرشه، وأهل الذوق لا يلتفتون فى ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله، خَلِيٍّ من محبته ومعرفته.

والقصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة، وكلما ازداد حباً ازداد قرباً، فالمحبة بين قربين: قرب قبلها، وقرب بعدها، وبين معرفتين: معرفة قبلها حملت عليها، ودعت إليها، ودلّت عليها، ومعرفة بعدها هى من نتائجها وآثارها.

وأما رابطة روح الأنس فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله، تعلقاً لازماً لا يفارقه، بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة، ولا ريب أن هذا يُجَرِّد إليه ملابسة الخلق، بل يجد الوحشة فى ملا بستهم بقدر أنسه بربه، وقرة عينه بحبه وقربه منه، فإنه ليس مع الله غيره، فإن لابسهم لابسهم برسمه دون سِرِّه وروحه وقلبه فقلبه وروحه فى ملأ، وبدنه ورسمه فى ملأ.

(٣٢) منزلة الصدق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الصدق»

وهو منزل القوم الأعظم. الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الايمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه. ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرعه. من صال به لم ترد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال. ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الايمان أن يكونوا مع الصادقين وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى (٩: ١١٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال تعالى (٤: ٦٩ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) فهم الرفيق الأعلى (وَحَسُن أولئك رفيقاً) ولايزال الله يُمدُّهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله. فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن مَنْ صَدَقَه فهو خير له. فقال (٤٧: ٢١ فإذا عَزَمَ الأمْرُ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم).

وأخبر تعالى عن أهل البِرِّ. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الايمان، والإسلام، والصدقة، والصبر. بأنهم أهل الصدق فقال (٢: ١٧٧ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين. وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. والسائلين، وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا. والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق. فقال (٣٣: ٢٤ **ليجزي الله الصادقين بصدقهم. ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم**).

والإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب. فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه. قال تعالى (٥: ١١٩ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. خالدين فيها أبداً. رضي الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم**) وقال تعالى (٣٩: ٣٤ **والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون**) فالذي جاء بالصدق: هو مَنْ شأنُهُ الصدقُ في قوله وعمله وحاله. فالصدق: في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق في الأعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص. واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصديقية، سُمي «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهي كمال الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم، مع كمال الإخلاص للمرسِل.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مَدْخَلَه وَمَخْرَجه على الصّدق. فقال (١٧: ٨٠ **وَقُلْ: رَبِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدق. وأخرجني مخْرَجَ صدق. واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً**) وأخبر عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال (٢٦: ٨٤ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين**) وبشر عباده بأن لهم عنده قَدَمَ صدق، وَمَقْعَدَ صدق. فقال تعالى (١٠: ٢ **وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَمَ صدق عند ربهم**) وقال (٥٤: ٥٤، ٥٥ **إن المتقين في جنات ونهر. في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليك مقتدر**).

فهذه خمسة أشياء: مَدْخل الصدق، ومَخْرَج الصدق. ولسان الصدق، وقَدَم الصدق، ومقعد الصدق

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته. بالظَّفَر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها. ولا له ساق ثابتة يقوم عليها. كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله صلى الله عليه وسلم المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب. فإنه لم يكن بالله، ولا لله. بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حِصْن بني قُرَيظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله. فصاحبه ضامن على الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك.

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق. ولذلك فُسِّر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه صلى الله عليه وسلم من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجَلّ مداخله ومخارجه صلى الله عليه وسلم. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق. ومخارجه مخارج صدق. إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخلاً آخر - إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

وأما لسان الصدق. فهو الثناء الحسن عليه صلى الله عليه وسلم من سائر الأمم بالصدق. ليس ثناء بالكذب. كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه (١٩: ٥٠ **وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا**) والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله. أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاء وفاقاً. وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة. كقوله تعالى (٤:١٤ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**) وقوله (٢٢:٣٠ **واختلاف ألسنتكم وألوانكم**) وقوله (١٠٣:١٦ **لسان الذي يلحدون إليه أعجمي. وهذا لسان عربي مبين**) و يراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى (١٦:٧٥ **لا تحرك به لسانك لتعجل به**).

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة. وفسر بمحمد صلى الله عليه وسلم. وفسر بالأعمال الصالحة. وحقيقة «القدم» ما قدموه وما يَقْدمون عليه يوم القيامة. وهم قَدّموا الأعمال والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، و يَقْدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يَقْدمون عليه. ومن فسره بالأعمال و بالنبي صلى الله عليه وسلم: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قَدَم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته. فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله. فهو صدق غير كذب. وحق غير باطل. ودائم غير زائل. ونافع غير ضار. وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي — مرفوعاً — من حديث الحسن بن علي رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**الصدق طمأنينة. والكذب ريبة**).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**إن الصدق يهدى إلى البرّ. وإن البر يهدي إلى الجنة. وإن الرجل ليصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صِدّيقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور. وإن الفجور يهدي إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا**) فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها. وهي غايته. فلا يَنالُ درجتها كاذبٌ ألبتة. لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله. ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، ونفي ما أثبته، أو إثبات ما نفاه عن نفسه. فليس في هؤلاء صِدّيق أبداً.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه. بتحليل ما حرمه. وتحريم مالم يحرمه. واسقاط ما اوجبه، وإيجاب مالم يوجبه، وكراهة ما أحبه، واستحباب مالم يحبه. كل ذلك مناف للصديقية.

وكذلك الكذب معه في الأعمال: بالتحلي بحلية الصادقين المخلصين، والزاهدين المتوكلين. وليس في الحقيقة منهم.

فمن كانت الصديقية: كمال الاخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر، ظاهراً وباطناً. حتى إن صدق المتبايعين يُحِلُّ البركة في بيعهما. وكذبهما يمحق بركة بيعهما كما في الصحيحين عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما. وإن كذبا وكتما: مُحقت بركة بيعهما)

• كلمات في حقيقة الصدق

قال عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل.

وقيل: موافقة السر النطق.

وقيل: استواء السر والعلانية. يعني أن الكاذب علانيته خير من سريرته كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

وقال الجنيد: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة. والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح. وقد يسبق إلى الذهن خلافه، وأن الكاذب متلون. لأن الكذب ألوان، فهو يتلون بتلونه. والصادق مستمر على حالة واحدة. فإن الصدق واحد في نفسه، وصاحبه لايتلون ولا يتغير.

لكن مراد الشيخ أبي القاسم صحيح غير هذا. فإن المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي. بل هو فارغ منها. فإنه يرد عليه من قبل الحق موارد الصادقين على الكاذبين المرائين ولا يعارضهم الشيطان. كما يعارض الصادقين فإنه لا أرب له في خربة لاشيء فيها وهذه الواردات توجب تقلب الصادق بحسب اختلافها وتنوعها. فلا ترى الا هارباً من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل. ومن حال إلى حال ومن سبب إلى سبب. لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها. ومكان وسبب أن يقطعه عن مطلوبه. فهو لا يساكن حالة ولا شيئاً دون مطلوبه. فهو كالجوّال في الآفاق في طلب الغنى الذي يفوق به الأغنياء والأحوال والأسباب تتقلب به، وتقيمه وتقعده، وتحركه وتسكنه. حتى يجد فيها ما يعينه على مطلوبه وهذا عزيز فيها فتلقه في تقلب، وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه

وعظمته وهمته أعلى من أن يقف دون مقصد على رسم أو حال. وبين كل شيئ غيره فهو كالمحب الصادق، الذي همته متفتيش على محبوبه وكذا حال الصادق في طلب العلم، وحال الصادق في طلب الدنيا فكل صادق في طلب شيء لا يستقر له قرار، ولا يدوم على حالة واحدة.

وأيضاً: فإن الصادق مطلوبه رضا ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها، ويستقل معها بين منتقلَت مضاربها فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر، ثم في غزو، ثم في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم - إن أمكن - إلى غير ذلك من أنواع القُرَب والمنافع.

فهو في تفرق دائم لله، وجمعية على الله، لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع، ولا يتقيد بقيد ولا إشارة، ولا بمكان معين يصلي فيه لا يصلي في غيره وزيّ معين لايلبس سواه، وعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها، مع فضل غيرها عليها، أو هي أعلى من غيرها في الدرجة، وبُعْد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع، وعبادة النفس، وإيثار مرادها، والاشارة إليها: كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي حبست أربابها عن السير إلى قلوبهم، فضلاً عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى، فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزيِّه وقيده وإشارته - ولو إلى أفضل منه - استهجن ذلك، ورآه نقصاً، وسقوطاً من أعين الناس، وانحطاطاً لرتبته عندهم، وهو قد انحط وسقط من عين ربه.

وقد يحسُّ أحدهم ذلك من نفسه وحاله، ولا تدَعه رسومه وأوضاعه وزيُّه وقيوده: أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه، وهذا شأن الكذاب المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه، العامل على عمارة نفسه ومرتبته، وهذا هو النفاق بعينه، ولو كان عاملا على مراد الله منه، وعلى الصدق مع الله لأثقله تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه، ولما بالى أيّ ثوب لبس، ولا أيّ عمل عمل، إذا كان على مراد الله من العبد.

فكلام أبي القاسم الجنيد حق، كلام راسخ في الصدق، عالم بتفاصيله وآفاته، ومواضع اشتباهه بالكذب.

وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلا

البيت. فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة. فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله.

وقال بعضهم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

وقال إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه.

وقال الجنيد: حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقيل: ثلاث لا تخطىء الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة.

• صدق الاستدراك

وأول الصدق: صدق القصد، وبه يتلافى كل تفريط، ويتدارك كل فائت، ويعمر كل خراب. وعلامة هذا الصادق: ان لا يتحمل داعية تدعو الى نقض عهد، ولا يصبر على صحبة ضد. ولا يقعد عن الجد بحال.

وذلك: كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك، وميل شديد يقهر السر على صحة التوجه. فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور. ولا يكون فيه قسمة بحال. ولا يصح الدخول في شأن السفر إلى الله، والاستعداد للقائه إلا به.

وهو حامل على كل سبب ينال به الوصول، وقطع كل سبب يحول بينه وبينه. فلا يترك فرصة تفوته. وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان. فيصلح من قلبه ما مزّقته يد الغفلة والشهوة. ويُعمّر منه ما خربته يد البطالة. ويوقد فيه ما أطفأته أهوية النفس. ويَلُمُّ منه ما شَعَّثته يد التفريط والإضاعة. ويسترد منه ما نهبته أكُفُّ اللصوص والسراق. ويزرع منه ما وجده بوراً من أراضيه. ويقلع ما وجده شوكا وشَبْرقا في نواحيه. ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعطب. ويداوي منه الجراحات التي أصابته من عثرات الرياء. ويغسل منه الأوساخ والحوبات التي تراكمت عليه على تقادم الأوقات، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغاً له، فيطهره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكدورات، قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم. فإنه لا يجاور الرحمن قلب دنس بأوساخ الشهوات والرياء أبداً. ولابد من طهور. فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما. والله المستعان.

والصادق حقيقة: هو الذي قد انجذبت قوى روحه كلها إلى إرادة الله وطلبه، والسير إليه، والاستعداد للقائه. ومن تكون هذه حاله: لا يحتمل سببا يدعوه إلى نقض عهده مع الله بوجه.

وكذلك لا يصبر على صحبة الضد، وهم أهل الغفلة، وقطاع طريق القلب إلى الله. وأضر

تيء على الصادق صحبتهم، بل لا تصبر نفسه على ذلك أبداً، إلا مع ضرورة. وتكون صحبتهم، له في تلك الحال بقالبه وشخصه، دون قلبه وروحه. وإن هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدق في الصادق: أحست روحه بالأجنبية التي بينه و بينهم بالمضادة فاشتدت النفرة. وقوي الهرب. و بحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها: تكون نفرته وهربه عن الأضداد. فإن هذا الضد إن نطق أحس قلب الصادق: أنه نطق بلسان الغفلة، والرياء والكبر، وطلب الجاه. ولو كان ذاكراً أو قارئاً، أو مصلياً أو حاجاً، أو غير ذلك. فنفر قلبه منه. وإن صمت أحس قلبه. أنه صمت على غير حضور وجمعية على الله، وإقبال بالقلب عليه، وعكوف السر عليه. فينفر منه أيضاً. فإن قلب الصادق قوي الإحساس.

فيجد الغيرية والأجنبية من الضد. و يشم القلبُ القلبَ كما يشم الرائحة الخبيثة. فيزوي وجهه لذلك. و يعتريه عبوس. فلا يأنس به إلا تكلفاً. ولا يصاحبه إلا ضرورة. فيأخذ من صحبته قدر الحاجة، كصحبة من يشتري منه، أو يحتاج إليه في مصالحه، كالزوجة والخادم ونحوه.

● كثيرك قليل

وهذه المنزلة تقوده الى ان لا يتمنى الحياة إلاّ للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، فهو لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه. و يقوم بعبوديته. و يستكثر من الأسباب التي تقربه إليه، وتدنيه منه. لا لعلة من علل الدنيا. ولا لشهوة من شهواتها، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما يُنتقى أطايب التمر».

يريد رضي الله عنه: الجهاد، والصلاة، والعلم النافع . وهذه درجات الفضائل. وأهلها هم أهل الزلفى، والدرجات العليا.

وقال معاذ رضي الله عنه عند موته «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَق الذكر».

وهو في ذلك لا يرى نفسه إلا مقصراً. والموجب له لهذه الرؤية· استعظام مطلوبه. واستصغار نفسه، ومعرفته بعيوبها، وقلة زاده في عينه. فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين النقصان.

وأيضاً: فإن الصادق مضطر - أشد ضرورة - إلى متابعة الأمر، والتسليم للرسول صلى الله عليه وسلم، في ظاهره وباطنه، والاقتداء به، والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون، مع إخلاص القصد لله عز وجل. فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك. وماعدا هذا فقوت النفس، ومجرد حظها، واتباع أهوائها. وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كان. فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملاً، أو يرضى به، حتى يكون على متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم، خالصاً لوجهه سبحانه.

ومن ههنا يفارق الصادق أكثر السالكين. بل يستوحش في طريقه. وذلك لقلة سالكها. فإن أكثرهم سائرون على طرق أذواقهم، وتجريد أنفاسهم لنفوسهم، والصادق في واد. وهؤلاء في واد.

(٣٣) منزلة الإيثار

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإيثار»

قال الله تعالى (٦٤: ١٦ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون).**

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شَحَّ عليه. وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (**إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا. وأمرهم بالقطيعة فقطعوا).**

فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسـ

وسمي منزل «الإيثار» لأنه أعلى

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبْقِيَ له شيئاً، أو يبقي مثل ما أعطى. فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثرة» وهي استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار رضي الله عنهم (**إنكم ستلقون بعدي أثرة. فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**) والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله (٦٤: ١٦ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**) فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفا.

وكان قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة. فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين

فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر مناديا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير — سبحانه — استئثار الناس على الأنصار بالدنيا — وهم أهل الإيثار — ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته و يغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك — مع كونك من أهل الإيثار — فاعلم أنه لخير يراد بك. والله سبحانه وتعالى أعلم.

• مراتب الجود

و «الجود» عشر مراتب.

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس، إذ ضَنَّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جودُه على امتهان رياسته، والجود بها. والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه. فيجود بها تعبا وكَدًّا في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامِرِه، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالندى، لو قال سائله: ... هب لي جميع كَرَى عينيك، لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم و بذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال. لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلا أبدا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحا.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابا شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ في ذلك أمراً عجيباً:

كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحه بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه ــ رحمه الله ــ بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المتوضىء بماء البحر؟ فقال **(هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته)** فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال **(أينقص الرطب إذا جفّ؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن)** ولم يكن يخفى عليه صلى الله عليه وسلم نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جداً في أجوبته صلى الله عليه وسلم. مثل قوله **(إن بعتَ من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يَحِلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً. بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟)** وفي لفظ **(أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟)** فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي مَنْعُ الله الثمرة التي ليس للمشترى فيها صنع.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه. كالشفاعة والمشى مع الرجل إلى ذى سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالَبُ بها العبد. كما أن التعليم وبَذْلَ العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال صلى الله عليه وسلم **(يُصْبح على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أويرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خُطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويُميط الأذى عن الطريق: صدقة)** متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضَمْضَم من الصحابة رضي الله عنهم. كان إذا أصبح قال «اللهم إنه لامال لى، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني، أو

قدسي: فهو في حل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟».

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال تعالى (٥: ٤٥ **والجروح قصاص. فمن تصدق به فهو كفارة له**) وفي هذا الجود. قال تعالى (٤٢: ٤٠ **وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها. فمن عفا وأصلح فأجره على الله. إنه لا يحب الظالمين**) فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه. ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم، وحرمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي صلى الله عليه وسلم (**لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**) وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح مافيه. والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه مافي أيدي الناس عليهم. فلا يلتفت إليه. ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم. وما في أيديهم، تَفْضُل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان.

● سعة الضيق

وبداية الارتقاء في مدارج الايثار: ان تؤثر الخلق على نفسك فيما لايخرم عليك ديناً. ولايقطع عليك طريقاً، ولايفسد عليك وقتاً. وذلك بأن تقدمهم على نفسك في مصالحهم. مثل أن تطعمهم وتجوع. وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لايؤدي ذلك الى ارتكاب إتلاف لايجوز في الدين. ومثل أن تؤثرهم بمالك وتقعد كَلّاً مضطراً، مستشرفاً للناس او سائلا.

واما أن لايقطع عليك طريقاً: فذلك طريق الطلب والمسير الى الله تعالى، مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك، وتوجهك وجمعيتك على الله. فتكون قد آثرته على الله. وآثرت نصيبك من الله مالا يستحق الإيثار. فيكون مَثَلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق. وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر الى الله تعالى فايثارهم عليه عين الغبن، الا ان تكون مجالسة ضيف او نحوه، فان ذلك من تمام الجود والايثار، كما ذكرنا.

وكذلك الايثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيح ايضاً. او يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمّه على الله. فيفرق قلبه عليه بعد جمعيته، ويشتت خاطره، فهذا ايضا ايثار غير محمود.

وكذلك الايثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك، على الفكر النافع واشتغال القلب بالله، مالم يكن نصر مظلوم واغاثة لهفان او شفاعة حسنة.

ومن هنا تكلم الفقهاء في الايثار بالقُرَب. وقالوا: إنه مكروه أو حرام. كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة.

● لاتخف في الله لومة لائم

ويظل المؤثر يرتقي حتى يؤثر رضى الله على رضى غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطَوْل والبدن.

فهو يريد ويفعل مافيه مرضاته، ولو أغضب الخلق وهي درجة الأنبياء. وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه. وأعلاها لأولي العزم منهم. وأعلاها لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم. فإنه قاوم العالم كله. وتجرد للدعوة الى الله. واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى. وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه. ولم يأخذ في إيثار رضاه لومة لائم. بل كان هَمُّه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه. حتى ظهر دين الله على كل دين. وقامت حجته على العالمين. وتمت نعمته على

المؤمنين. فبلّغ الرسالة. وأدّى الأمانة. ونصح الأمة. وجاهد في الله حق جهاده. وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه. فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال . صلوات الله وسلامه عليه

والمحنة تعظم على صاحب هذا الايثار، ليتأخر من ليس من أهله، فاذا احتملها وتقدم: انقلبت تلك المحن منحاً. وصارت تلك المؤن عوناً. وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة فإنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ماتحمل من مرضاته. فانقلبت مخاوفه أماناً، ومطان عطبه نجاة، وتعبه راحه، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضى. فيا خيبة المتخلفين، ويا ذِلّة المتهيبين.

هذا، وقد جرت سنة الله ــ التي لا تبديل لها ــ أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته. ويجعل محنته على يديه. فيعود حامده ذاماً. ومن آثر مرضاته ساخطاً. فلا على مقصوده منهم حصل. ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل. وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضى الخلق: لامقدور، ولا مأمور، ولا مأثور. فهو مستحيل. بل لابد من سخطهم عليك. فلأنْ يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب اليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض. فإذا كان سخطهم لابدّ منه ــ على التقديرين ــ فآثر سخطهم الذي ينال به رضى الله. فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضى من لاينفعك رضاه، ولايضرك سخطه في دينك، ولافي إيمانك، ولافي آخرتك. فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم. وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما. وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما. فوازن بعقلك. ثم انظر أيّ الأمرين خير فآثره، وأيهما شر فابْعُدْ عنه. فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضى الله على رضى الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه

قال الشافعي رضي الله عنه رضى الناس غاية لاتدرك فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه

ومن المعلوم أن المؤثر برضى الله متصدٍ لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم في إتلافه ولابد. هذه سنة الله في خلقه. وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من الناس والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟

فمن آثر رضى الله فلابد أن يعاديه ردالة العالم وسقطهم، وجُهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هديه. فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع الى الله، عامل على سماع خطاب (٨٩:٢٧ ـ ٣٠ **يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي الى ربك راضية مرضية**) ومَنْ إسلامه صُلب كامل لا ترعرعه الرجال. ولا تقلقله الجبال، ومَنْ عَقْد عزمه صبره مُحْكَم لا تَحُلُّه المحن والشدائد والمخاوف.

وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له. فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخرت عنه العوارض كلها. وانغمس حينئذ في العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين. صحة اليقين. وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضاً: بصدق اللجإ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى ههنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعدُ بيد من أزمة الأمور كلها بيده (٧٦: ٣٠، ٣١ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله. إن الله كان عليما حكيما. يدخل من يشاء في رحمته. والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليما**).

(٣٤) منزلة الخُلُق

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة (الخُلُق»

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٦٨:٤ وإنك لعلى خلق عظيم). قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم، لادين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه. وهو دين الإسلام.

وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. و ينهي عنه من نهى الله. والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم «سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى (٧:١٩٩ خذ العفو، وأمُرْ بالعُرْف. وأعرض عن الجاهلين) قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل (ماهذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه. فقال: إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك).

ولاريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال.

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم مايبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعادٍ معارض. وعليه في كل واحد من هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف. وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم. و ينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعت له به أنفسهم، سماحة واختياراً. ولايحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٧:١٩٩ **خذ العفو وامر بالعرف. وأعرض عن الجاهلين**) قال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما : أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ماعفا لك من أموالهم. وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى (**٢:٢١٩ ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل: العفو**).

ثم قال تعالى (**وامر بالعرف**) وهو كل معروف.وأعرفه: التوحيد. ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى (**وأعرض عن الجاهلين**) يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه. كقوله تعالى (**٢٥:٦٣ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً**) وعلى هذا فليست بمنسوخة. بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه. ولاينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم. قال أنس رضي الله عنه «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً**» وقال «**مامسستُ ديباجاً ولاحريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولاشممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين. فما قال لي قط: أف. ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟**» متفق عليهما.

وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أن البر: هو حسن الخلق**».

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال «**سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق. والإثم ماحاك في صدرك. وكرهت أن يطلع عليه الناس**».

فقابل البر بالإثم. وأخبر: أن البر حسن الخلق. والإثم: حوازُّ الصدور. وهذا يدل على أن حسن الخلق: هو الدين كله. وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام. ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر «البر: ما أطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدر» وقد فسر حسن الخلق بأنه البر. فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. والاثم حوار الصدور، وما حاك فيها، واسترابت به. وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس. كما سيأتي في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (**خياركم: أحاسنكم أخلاقاً**).

وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق. وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفيه أيضا — وصححه — عن أبي هريرة رضي الله عنه (**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله، وحسن الخلق. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج**).

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم — وصححه — «**إن من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً. وخياركم: خياركم لنسائهم**».

وفي الصحيح عن عائشة عنه صلى الله عليه وسلم «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم «**أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة: لمن ترك المراء وإن كان محقاً. وببيت في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**» رواه الطبراني وإسناده صحيح.

فجعل البيت العلوي جزءا لأعلى المقامات الثلاثة. وهي حسن الخلق. والأوسط لأوسطها. وهو ترك الكذب. والأدنى لأدناها. وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق. ولاريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وفي الترمذي عن جابر رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم (**إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً. وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يارسول الله. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون**) الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية. والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً وتطاولا، وإظهاراً لفضله على غيره. وأصله: من الفَهْق. وهو الامتلاء.

• الاخلاق الاساسية

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان. لايتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والإناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير. وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، و يكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب**) وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل. والظلم. والشهوة. والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالا.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، و يرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، و يبخل في موضع البذل، و يبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، و يقدم في موضع الإحجام، و يلين في موضع الشدة، و يشتد في موضع اللين، و يتواضع في موضع العزة، و يتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

و يتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص، والشح وسفساف الأمور والأخلاق.

و يتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.

وكل خلق محمود مكتنفٌ بخلقين ذميمين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة. والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحرفت الى احد الخلقين الذميمين ولابد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت: إما الى كبر وعلو، وإما الى ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما الى قِحّة وجرأة، وإما الى عجز وخَوَر ومهانة، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه. و يفوته كثير من مصالحه. و يزعم أن الحامل له على ذلك الحياء. وإنما هو المهانة والعجز. وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت: إما الى جزع وهلع وجشع وتسخط. وإما الى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع.

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت. إما الى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما الى الذل والمهانة والحقارة. ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، و بين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف كما قيل.

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما الى عجلة وطيش وعنف، وإما الى تفريط وإضاعة. والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما الى كبر، وإما الى ذل. والعزة المحمودة بينهما

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت إما الى تهور واقدام غير محمود، وإما الى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغبطة» انحرفت. إما الى حسد، وإما الى مهانة، وعجز وذل ورضى بالدون.

اذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: اما الى حرص وكَلَب، واما الى خِسَّة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت: إما الى قسوة، واما الى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لايقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد. و يزعم أن الرحمة تحمله على ذلك. وقد ذبح أرحمُ الخلق صلى الله عليه وسلم بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة. وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق. وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم. وكان أرحم خلق الله على الاطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود. فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطي البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهب الهيبة، و يزيل الوقار، و يطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه. وفي صفة نبينا صلى الله عليه وسلم (من رآه بديهةً هابه. ومن خالطه عِشْرة أحبه) والله أعلم.

● فضيلة المغالبة

اعلم أن أصعب ماعلى الطبيعة الانسانية. تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها. وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها. لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها. فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها. واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الاخلاق. ولايحتاج الى علاجها وإزالتها. و يكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدم قبل هذا مثلا نضربه. مطابقاً لما نريده. وهو: نهر جار في صَبَبه ومُنْحَدَره، وَمُنْتَهٍ الى تغريق أرض وعمران ودور. وأصحابها يعلمون أنه لاينتهي حتى يُخَرِّب دورهم. و يتلف أراضيهم وأموالهم. فانقسموا ثلاث فرق.

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها الى سَكْره وحَبْسه وإيقافه. فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر. فإنه يوشك أن يجتمع ثم يَحْمِل على السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة. وعلمت أنه لايغني عنها شيئاً. فقالت: لاخلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع. فرامت قطعة من أصله. فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة

السهرية عليهم ذلك أشد الإباء، فهم دائماً في قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع. فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة ثالثة، خالفت رأي الفرقتين. وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم. فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي الى العمران، فصرفوه الى موضع ينتفعون بوصوله اليه. ولايتضررون به. فصرفوه الى أرض قابلة للنبات. وسقوها به. فأنبتت أنواع العشب والكلإ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان — بل وسائر الحيوان — على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية. وشهوانية. وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها. وهما مركوزتان في جبلّة كل حيوان. فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع الى نفسه. وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها. فإذا استعمل الشهوة في طلب مايحتاج اليه: تولد منها الحرص. وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوة الحقد. وإن أعجزه وصول مايحتاج اليه، ورأى غيره مستبداً به: أورثه الحسد. فإن ظفر به. أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق الشح والبخل. وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه: أورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم. ومنه يتولد: الكبر والفخر والخيلاء. فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب.

فإذا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين. وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها الى دور القلب وعمرانه وحواصله، يخربها و يتلفها ولابد. فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه. فخرب ديار الإيمان. وقلع آثاره. وهدم عمرانه. وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حنظل وضريع وشوك وزقوم. وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الزكية الفاضلة: فإنها رأت مايؤول اليه أمر هذا النهر، فافترقوا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه. فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طبع عليه الجبلّة البشرية. ولم تنقد له الطبيعة. فاشتد القتال. ودام الحرب. وحمي الوطيس. وصارت الحرب دولا وسجالا. وهؤلاء صرفوا قواهم الى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها. وشغلوا نفوسهم بالأعمال. ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يمكّنوا نهرها من إفساد عمرانهم. بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لابد أن يصل اليه. فإذا وصل وصل الى بناء محكم فلم يهدمه. بل أخذ عنه يمينا وشمالا. فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكام

البناء . وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفا من هدم البناء.

وقد سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر. فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع. ولم يمكنه السفر قط . ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات اليها. فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله. ثم امض على سيرك

إذا تبين هذا. فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ماخلقت سُدىً ولاعبثاً. وأنها بمنزلة ماء يُسْقى به الورد، والشوك ، والثمار، والحطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية عليها. وأن ماخاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر. فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان. و يسقى به علو الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمة لأعداء الله، وقهرهم والعلو عليهم. وهذه درة في صدفته. فصرفوا مجراه الى هذا الغراس. واستخرجوا هذه الدرة من صدفته. وابقوه على حاله في نفوسهم. لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع. وقد (رأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا دُجانة يتبختر بين الصفين. فقال: إنها لَمِشْيَة يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع).

فانظر كيف خلّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجرى في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر — وأظنه في المسند — (إن من الخيلاء مايحبها الله. ومنها مايبغضها الله. فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدقة).

فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلا؟.

فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات، والخلوات: هيهات هيات، إنما يوقعه ذلك في الآفات، والشبهات، والضلالات. فإن تزكية النفوس مُسَلَّم الى الرسل. وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها. وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما و بياناً، وارشاداً، لاخلقاً ولا إلهاماً. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الامم. قال الله تعالى (٢:٦٢ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته. و يزكيهم. و يعلمهم الكتاب والحكمة. وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال تعالى (٢:١٥١، ١٥٢ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة. و يعلمكم مالم تكونوا تعلمون. فاذكروني أذكركم. واشكروا لي ولا تكفرون).

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد. فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجيء بها الرسل: فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل الى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم. وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم. والله المستعان.

• مِن كلٍّ حسب قدرته

وأساس الاخلاق: أن تعرف مقام الخلق. وأنهم بأقدارهم مربوطون. وفي طاقتهم محبوسون. وعلى الحكم موقوفون. فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك، ومحبة الخلق إياك، ونجاة الخلق بك.

فهذه الدرجة: يكون تحسين الخُلُق مع الخلق في معاملتهم. وكيفية مصاحبتهم. فانك إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدرية عليهم، وأنهم مقيدون بالقدر، لاخروج لهم عنه ألبتة، ومحبوسون في قدرتهم وطاقتهم. لايمكنهم تجاوزها الى غيرها، وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدري لايتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:

أمن الخلق منك. وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة. لم يطالبهم بما لايقدرون عليه. وامتثل فيهم أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأخذ العفو منهم. فأمنوا من تكليفه إياهم وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضاً فإنهم يأمنون لائمته. فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم. لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس. وعذرهم بما يعذر به المحبوس. وإذا بدا منهم في حقك تقصير أو إساءة أو تفريط. فلا تقابلهم به ولاتخاصمهم. بل اغفر لهم ذلك واعذرهم. نظراً الى جريان الأحكام عليهم، وأنهم آلة. وههنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنايتهم عليك، كما قال بعض العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت ظالماً فالذي سلطك عليَّ ليس بظالم.

وههنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه.

• مِن الدعاة ستة كونية قضاها الله

أحدها: هذا، وهو مشهد «القَدَر»، وأن ماجرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره. فيراه كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار. فإن الكل أوجبته مشيئة الله. فما شاء الله كان. ووجب وجوده. ومالم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح. وعلم انه كائن لامحالة. فما للجزع منه وجه. وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

• للصبر في المحن لذة

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده و يشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، ومايترتب عليه من الغبطة والسرور. ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام. فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هذا ـــ وهو محمود ـــ صبر اضطراراً على أكرمنه. وهو مذموم.

• عز العفو

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشى في بصيرته. فإنه (مازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعلم بالتجربة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل.

هذا ، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ماليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

• نرضى ليرضى

المشهد الرابع: مشهد «الرضا» وهو فوق مشهد «العفو والصفح» وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله. فإذا كان ما أصيب به في الله، وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله. وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكاره. ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلا على كذبه في محبته.

• نحسن لمن أساء

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان»، وهو أرفع مما قبله. وهو أن يقابل إساءة المسيء اليه بالإحسان. فيحسن اليه كلما أساء هو اليه. و يهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى اليه حسناته، ومحاها من صحيفته. وأثبتها في صحيفة من أساء اليه. فينبغي لك ان تشكره ، وتحسن اليه بما لانسبة له الى ما أحسن به إليك.

وههنا يسفع استحضار مسألة اقتصاء المنة الثواب. وهذا المسكين قد وهبك حسناته. فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها، لتثبت المنة. وتأمن رجوع الواهب فيها.

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم. وأهل العزائم.

و يهونه عليك أيضاً: علمك بأن الجزاء من جنس العمل. فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق اليك عفوت عنه. وأحسنت اليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذلك. فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك. يقابلها بما قابلت به إساءة عبده اليك. فهذا لابد منه.

• خواطر الثأر تستهلك القلب

المشهد السادس: مشهد «السلامة و برد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لايشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول الى درك ثأره، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. و يرى أن سلامته و برده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعون على مصالحه. فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ماهو أهم عنده، وخير له منه. فيكون بذلك مغبوناً. والرشيد لايرضى بذلك. و يرى أنه من تصرفات السفيه. فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر في ادراك الانتقام؟.

• العفو يقطع الحاح الجاهل في الظلم

المشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه اذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ماهو شر من ذلك. وإذا انتقم: واقعه الخوف ولابد. فإن ذلك يزرع العداوة. والعاقل لايأمن عدوه، ولو كان حقيراً. فكم من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو زيادتها. ولابد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه. و يكف من جزعه، بعكس الانتقام. والواقع شاهد بذلك أيضا.

• صفقة رابحة .... ثمنها: عِرض ودماء

المشهد الثامن. مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله. وأمرهم بالمعروف. ونهيهم عن المنكر. وإقامة دين الله. وإعلاء كلماته.

وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يُسلَّم اليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه. ولاشيء له قِبَله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع. فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يَرُدَّ على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار. ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم. قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم «تلك دماء وأموال ذهبت في الله. وأجورها على الله. ولا دية لشهيد» فأصفق الصحابة على قول عمر ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أُوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه (٣١:١٧ وأمُرْ بالمعروف. وانْهَ عن المنكر. واصبر على ما أصابك. إن ذلك من عزم الأمور).

● تكفير الخطايا بالمحن: نعمة

المشهد التاسع: مشهد «النعمة» وذلك من وجوه.

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر. ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ. فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين ـ ولابد من إحداهما ـ لاختار أن يكون مظلوماً.

ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه. فإنه ما أصاب المؤمن هَمٌّ ولاغم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه. فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب. ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو مغبون سفيه. فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك. فلا تنظر الى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه. وانظر الى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه اليك على يدي من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها. فإنه مامن محنة إلا وفوقها ماهو أقوى منها وأمر. فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر الى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة. وأنها في الحقيقة نعمة. والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

هـ . وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس و العرض . فالعاقل يَعُدُّ هذا ذخراً ليوم الفقر والفاقة. ولا يبطله بالانتقام الذي لايجدي عليه شيئاً.

• على الدرب .... نجدّد المثال

المشهد العاشر: مشهد «الاسوة» وهو مشهد شريف لطيف جداً. فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسُل الله، وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه. فإنهم أشد الخلق امتحاناً بالناس. وأذى الناس اليهم أسرع من السيل في الحدور. و يكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم. وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم وأذى أعدائه له بما لم يُؤذَه مَنْ قبله. وقد قال له وَرَقَة بن نوفل «لَتُكَذَّبن. ولَتُخْرَجَنَّ. ولتؤذَيَنَّ» وقال له «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم صلى الله عليه وسلم.

أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده: الأمثل فالأمثل؟.

ومن أحب معرفة ذلك فليقف على مِحَنِ العلماء، وأذى الجهال لهم . وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتاباً سماه «محن العلماء».

• السائر الى الله لا توقفه الاشواك

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجل المشاهد وأرفعها. فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله. و بالإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب اليه. وقرة العين به، والإنس به، و طمأن اليه. وسكن اليه. واشتاق الى لقائه، واتخذه ولياً دون من سواه، بحيث فوّض اليه أموره كلها . ورضي به و بأقضيته. وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه. عن كل ما سواه؛ فإنه لايبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبتة. فضلا عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بطلب الانتقام والمقابلة. فهذا لايكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك و يعوضه منه. فهو قلب جائع غير شبعان. فإذا رأى أي طعام رآه هَفَتْ اليه نوازعه. وانبعثت اليه دواعيه . وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها: فإنه لايلتفت الى مادونها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ذو الفضل العظيم.

• اطلب العذر... واشكر

ولا تتم هذه المشاهد الا بتحسين خلقك مع الحق تعالى، بأن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذراً، وان كل مايأتي من الحق سبحانه يوجب شكراً

وهذه الدرجة مبنية على قاعدتين:

إحداهما: أن تعلم أنك ناقص. وكل ما يأتي من الناقص ناقص. فهو يوجب اعتذاره منه لامحالة. فعلى العبد أن يعتذر الى ربه من كل ما يأتي به من خير وشر. أما الشر: فظاهر. وأما الخير: فيعتذر من نقصانه. ولايراه صالحاً لربه.

فهو — مع احسانه — معتذر في إحسانه. ولذلك مدح الله أولياءه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله (٢٣: ٦٠ والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (هو الرجل يصوم، ويتصدق. ويخاف أن لا يقبل منه) فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى.

والحامل له على هذا الاعتذار أمران.

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

والثاني: صدق محبته. فإن المحب الصادق يتقرب الى محبوبه بغاية إمكانه.

وهو معتذر اليه، مستحي منه: أن يواجهه بما واجهه به. وهو يرى أن قدره فوقه وأجل منه. وهذا مشاهد في محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظام كل مايصدر منه سبحانه اليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك، وأنك عاجز عن شكره. ولايتبين هذا الا في المحبة الصادقة. فإن المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله. فإذا ذكره بشيء وأعطاه اياه: كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه. أعظم عنده من سروره بذلك العطاء بل يغيب بسروره بذكره له عن سروره بالعطية.

● التجريدان المتكاملان

ومدار حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: على حرفين. ذكرهما عبدالقادر الكيلاني فقال: كن مع الحق بلا خَلْق. ومع الخلق بلا نفس.

فتأمل. ما أجل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك. ولكل خلق جميل؟ وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى. وتوسط النفس بينك وبين خلقه. فمتى عزلت الخلق — حال كونك مع الله تعالى — وعزلت النفس — حال كونك مع الخلق — فقد فزت بكل ما أشار اليه القوم. وشمروا اليه. وحاموا حوله. والله المستعان.

(٣٥) مَنْزِلَةُ التَّوَاضُعِ

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «التواضع».

قال الله تعالى (٢٥:٦٣ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونًا**) أي سكينة ووقار، متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين ولامتكبرين. قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمد ابن الحنفية. أصحاب وقار وعفة لايسفهون. وإن سُفه عليهم حلموا.

«والهون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهون» بالضم: الهوان، فالمفتوح منه. صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

وقال تعالى (٥:٥٤ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه. أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**).

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة واخبات عداه بأداة «على» تضمينا لمعاني هذه الافعال. فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل. وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول. فالمؤمن ذلول. كما في الحديث (**المؤمن كالجمل الذلول. والمنافق والفاسق ذليل**) وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب. والنمام والبخيل. والجبار

وقوله «أعزة على الكافرين» هو من عزة القوة والمنعة والغلبة. قال عطاء رضي الله عنه للمؤمنين كالوالد لولده. وعلى الكافرين كالسبع على فريسته كما قال في الآية الأخرى (٤٨:٢٩ **أشداء على الكفار رحماء بينهم**).

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**إن الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا، حتى لايفخر أحدٌ على أحد. ولايبغي أحدٌ على أحد**).

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**).

وفي الصحيحين مرفوعاً (**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلّ جَوَّاظ مستكبر**)

وفي حديث احتجاج الجنة والنار (**أن النار قالت: مالي لايدخلني إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: مالي لايدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم**) وهو في الصحيح

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**يقول الله عز وجل: العزة إزاري. والكبرياء ردائي. فمن نازعني عذبته**).

وفي جامع الترمذي مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه (**لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين. فيصيبه ما أصابهم**).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر على الصبيان فيسلم عليهم.
وكانت الأمة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم. فتنطلق به حيث شاءت.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان صلى الله عليه وسلم يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.
وكان صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، و يرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، و يعلف البعير و يأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، و يبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه. ولو الى أيسر شيء.

وكان صلى الله عليه وسلم هين المؤنة، ليّن الخلق. كريم الطبع. جميل المعاشرة. طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذِلّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيما بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، ليّن الجانب لهم.

وقال صلى الله عليه وسلم (**ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ ــ أو تحرم عليه النار ــ تحرم على كل قريب هَين لَيّن سهل**) رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

وقال (**لو دُعيت إلى ذراع ــ أو كُراع ــ لأجبت، ولو أُهدى إليَّ ذراع ــ أو كراع ــ لقبلت**) رواه البخاري.

وكان صلى الله عليه وسلم يعود المريض. ويشهد الجنازة. ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف.

● دوائر التواضع

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له. ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب. وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان. والعزُّ في التواضع. فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع . والعز في التقوى . والحرية في القناعة.

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت «يا أمير المؤمنين؛ لاينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة. فأردت أن أكسرها».

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة. فكان يحمل حُزْمة الحطب على ظهره. ويقول طرّقوا للأمير.

ومر الحسن على صبيان معهم كِسرَخبز. فاستضافوه. فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله. فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم. لأنهم لايجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه

ويذكر أن أبا ذرّ رضي الله عنه عَيَّر بلالا رضي الله عنه بسواده، ثم ندم. فألقى نفسه. فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدّي بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال.

وقال رجاء بن حيوة. قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه — وهو يخطب — باثنى عشر درهما. وكانت قباء وعمامة وقميصا وسروال ورداء وخفين وقلنسوة.

وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أن ابناً له اشترى له خاتماً بألف درهم. فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فِصًّا بألف درهم. فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم. وأشبع به ألف بطن. واتخذ خاتماً بدرهمين. واجعل فِصَّه حديداً صينياً. واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه. والله اعلم.

● الانقياد للحق روح التواضع

وروح التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق.

بأن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رِقِّه. بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك فى مملوكه. فبهذا يحصل للعبد خُلق التواضع. ولهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بضده. فقال «الكبر بَطَر الحق، وغَمْص الناس» فبطر الحق: رَدُّه وجَحْده، والدفع فى صدره. كدفع الصائل. و «غمص الناس» احتقارهم، وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم. وجحدها، واستهان بها.

ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة: كانت النفوس المتكبرة لا تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصولة التى فيها، ولا سيما النفوس المبطلة. فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها. فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها. فلا يقابلها بصولته عليها.

● لانعارض الدليل والمنقول برأي أوقياس

وركنه الأهم: التواضع للدين. وهو أن لا يعارض بمعقول منقولا. ولايتهم للدين دليلا. ولايرى إلى الخلاف سبيلا.

و «التواضع للدين» هو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والاستسلام له، والإذعان. وذلك بثلاثة أشياء.

الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية فى العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحى بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل. وعزلنا النقل.

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأى والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر، قدموا الذوق والحال. ولم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة. ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله.

الثانى: أن لايتهم دليلا من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه. كما قيل:

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وهكذا الواقع فى الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلا للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن. المأفون فى عقله، وذهنه. فالآفة من الذهن العليل. لا فى نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، و ينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك. وأن تحته كنزاً من كنوز العلم. ولم تؤت مفتاحه بعد هذا فى حق نفسك.

لأنك لم تأخذ له السبيل السوى من صدق الإخلاص والضراعة إلى الله مقلب القلوب، ولأنك لم تأخذ الأسباب المصفية لهنك المنطفة لقلبك، من صدق التوجه إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتستأهل هذا الكنز.

وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحى، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص. فما لم تفعل ذلك فلست على شيء.

قال الشافعى، قدس الله روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يحل له ان يدعها لقول أحد.

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلا ألبتة. لا بباطنه، ولا بلسانه ولا بفعله. ولا بحاله. بل إذا أحس بشيء من الخلاف: فهو كخلاف المُقْدِم على الزنا. وشُرْب الخمر، وقتل النفس. بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك. وهو داع إلى النفاق. وهو الذى خافه الكبار. والأئمة على نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص ــ لقول متبوعه وشيخه وَمُقَلَّدِه، أو لرأيه ومعقوله، وذوقه، وسياسته إن كان عند الله معذوراً، ولا والله ما هو بمعذور ــ فالمخالف لقوله لنصوص الوحى أولى بالعذر عند الله ورسوله، وملائكته. والمؤمنين من عباده.

فواعجباً إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً، أو تأو يلا، أو لغير ذلك. فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم. لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل. و بغوه الغوائل. ورموه بالعظائم. وجعلوه أسوأ حالا من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لِوَاذاً. وقذفوه بمصابهم. وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذاً لهم ومعاذاً. والله أعلم.

● ثقة . . . . على بصيرة

ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم: أن النجاة فى البصيرة، والاستقامه بعد الثقة. وأن البينة وراء الحجة.

فيعلم أولاً أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هى فى البصيرة. فمن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال فى الدنيا. والشقاء فى الآخرة.

والبصيرة نور يجعله الله فى عين القلب، يفرق به العبد بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلى العين.

وهذه «البصيرة» وهبية وكسبية. فمن أدار النظر فى أعلام الحق وأدلته، وتجرد لله من هواه: استنارت بصيرته. ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل.

ثم أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة، أى لا يتصور حصول الاستقامة فى القول والعمل والحال، إلا بعد الثقة بصحة ما معه من العلم. وأنه مقتبس من مشكاة النبوة. ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

ومبنى هذا على أن يعلم أن البينة وراء الحجة. و «البينة» هي: استبانة الحق وظهوره. وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامت استبان الحق وظهر واتضح.

وفيه معنى آخر. وهو: أن العبد إذا قبل حجة الله بمحض الإيمان والتسليم والانقياد: كان هذا القبول هو سبب تبينها وظهورها، وانكشافها لقلبه.

وفيه معنى آخر أيضاً: أنه لايتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذى هو حجة الله على العبد. فإذا عرف الحجة اتضح له بها ما كان مشكلا عليه من علومه، وما كان معيبا من أعماله.

• نؤاخي كل مسلم ونقبل عذره

ومن التواضع انما يكون بأن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخاً، وان لا ترد على عدوك حقاً، وان تقبل من المعتذر معاذيره.

فإذا كان الله قد رضي اخاك المسلم لنفسه عبداً، أفلا ترضى انت به اخاً؟ فعدم رضاك به أخاً: عين الكبر. وأي قبيح اقبح من تكبّر العبد على عبد مثله، لايرضى بأخوته، والله راض بعبوديته؟

ولا تصح لك درجة «التواضع» حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك. وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقاً له قبلك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك قبلته منه. وإذا كان له عليك حق أديته إليه. فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

وكذلك من أساء اليك ثم جاء يعتذر عن اساءته فإن «التواضع» يوجب عليك قبول معذرته. حقاً كانت أو باطلا. وتكِلُ سريرته إلى الله تعالى. كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو. فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه. فقبل أعذارهم. ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه. وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول. ولو قضي شيء لكان، والمقدور لا مدفع له. ونحو ذلك.

• انما تنجينا الرحمة

وتمام التواضع أن لايرى العابد لنفسه حقاً على الله لاجل عمله، فانه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار. فمتى رأى لنفسه على الله حقاً: فسدت عبوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت. ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه على نفسه، من إثابة عابديه وإكرامهم. فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه و بره وجوده وإحسانه. لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترق الطرق.

ولتكن إجابتك لداعي الحق خالصة، إجابة محبة ورغبة، وطلب للمحبوب ذاته، غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض، فإنه متى حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ به وكل قسم

فمن أعرض عن طلب ماسوى الله، ولم يشب طلبه له بعوض، بل كان حُبًا له، وإرادة خالصة لوجهه. فهو فى الحقيقة الذى يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلها. فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه، توفرت عليه فى حصولها. وهو محمود مشكور مقرب.

واعلم أنه لايستوجب العبد على الله بسعيه نجاة ولا فلاحا. ولا يدخل أحداً عملُه الجنة أبداً، ولا ينجيه من النار. والله تعالى ــ بفضله وكرمه، ومحض جوده وإحسانه ــ أكد إحسانه وجوده و بره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقاً بمقتضى الوعد. فان وعد الكريم إيجاب، ولو بـ «عسى، ولعل».

ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما «عسى: من الله واجب».

ووعد اللئيم خلف. ولو اقترن به العهد والحلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً على الله لاينافى ما أوجبه الله على نفسه. وجعله حقاً لعبده. قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضى الله عنه **«يامعاذ، أتدرى ماحق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً. يامعاذ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه: أن لايعذبهم بالنار».**

فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق. ولا يضيع لديه سعى. كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب	كلا. ولا سعى لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبعدله، أو نُعِّموا	فبفضله. وهو الكريم الواسع

(٣٦) منزلة الفتوة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الفتوة»

وهذه منزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس. وكف الأذى عنهم. واحتمال أذاهم. فهي استعمال حسن الخلق معهم. فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها. فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره. وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به. أو متعلق بغيره.

و «الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة» بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال».

وأصل «الفتوة» من «الفتى» وهو الشاب الحديث السن. قال الله تعالى عن أهل الكهف (١٨: ١٣ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)

قال الفضيل بن عياض: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه — في رواية ابنه عبد الله — عنه، وقد سئل عن الفتوة؟ فقال: ترك ما تهوى لما تخشى.

وقال عمرو بن عثمان المكي: الفتوة حسن الخلق.

وقال الجنيد: الفتوة كف الأذى وبذل الندى.

وقال سهل: هي اتباع السنة.

وقيل: فضيلة تأتيها، ولا ترى نفسك فيها. وقيل: أن لاتحتجب ممن قصدك.

وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل طالب المعروف. وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة. وقيل: أن لا تدخر ولا تعتذر.

• الفتى . . . أرض خير

واصلها: استرسال الناس في فضلك، فانك إذا استرسلت معهم، ولم تجذب عنهم عنانك: نالوا من فضلك. فيكون استرسالك سبباً لنيلهم لفضلك، وقبض العنان سبباً للحرمان.

ثم تسعهم بحلقك، باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة، فخذ منهم ما أمر الله نبيه أن يأخذه من أخلاق الناس. وهو العفو.

وتدعهم يطؤونك، أي يدوسونك من لينك وتواضعك، وخفض جناحك، بحيث لا تترك لنفسك بينهم رتبة تتقاضاهم أن يحترموك لأجلها.

ولكن مع قيام العلم: بأن يكون هذا الاسترسال موافقاً للشرع. غير مخرج عن حدوده وآدابه، بحيث لا تحملهم على تعدى حدود الله، وتضييع حقه وحقوق عباده، حافظاً لقلبك مع الله، ودوام إقبالك عليه، فأنت معهم مسترسل بشبحك ورسمك وصورتك فقط، ومفارقهم بقلبك وسرك، منتبهاً لسيرك في مدارج «اياك نعبد واياك نستعين» فان هذا الانتباه هو حياة القلب والروح. فاذا فات السائر وغفل عنه: علته الكآبة، وغمره الهم والغم والاحزان، وتاه قلبه في الاودية والشعاب.

• نقص . . . وإيثار

قال صاحب المنازل شيخ الاسلام الهروي رحمه الله:

«نكتة الفتوة: أن لا تشهد لك فضلا. ولا ترى لك حقاً».

يقول: قلب الفتوة، وإنسان عينها: أن تفنى بشهادة نقصك، وعيبك عن فضلك. وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.

والناس فى هذا مراتب. فأشرفها: أهل هذه المرتبة. وأخسها: عكسهم. وهم أهل الفناء فى شهود فضائلهم عن عيوبهم. وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم.

وأوسطهم: من شهد هذا وهذا. فيشهد مافى العيب والكمال. و يشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

ومن مظاهرها عنده «ترك الخصومة. والتغافل عن الزلة، ونسيان الأذية».

فلا يخاصم بلسانه. ولا ينوى الخصومة بقلبه. ولا يخطرها على باله. هذا فى حق نفسه.

وأما فى حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله وفى الله. ويحاكم إلى الله، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعاء الاستفتاح «وبك خاصمت. وإليك حاكمت» وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلى الله تعالى.

وأما «التغافل عن الزلة» فهو أنه إذا رأى من أحد زَلَّة يوجب عليه الشرع أخذه بها أظهر أنه لم يرها، لئلا يعرض صاحبها للوحشة.

وفتوة التغافل: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

وأما «نسيان الأذية» فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى، ليصفو قلبك له. ولا تستوحش منه.

وهنا نسيان آخر أيضاً. وهو من الفتوة. وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه، حتى كأنه لم يصدر منك. وهذا النسيان أكمل من الأول. وفيه قيل:

ينسى صنائعه. والله يظهرها　　　إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

• المعاكسة البنّاءة

ثم من مظاهرها عنده: «أن تُقَرِّبَ من يقصيك. وتكرم من يؤذيك. وتعتذر إلى من يجني عليك، سماحة لا كظماً، ومودة لا مصابرة»، بأن يكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين. فخطتك: الإحسان. وخطته: الإساءة.

ومن أراد فَهْم هذه الدرجة كما ينبغي. فلينظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه. ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة. وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ قدس الله روحه ـــ وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له. فنهرني وتنكر لي واسترجع. ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام . فسروا به ودعوا له. وعظموا هذه الحال منه. فرحمه الله ورضي عنه.

ومعنى الاعتذار الى من يجني عليك: انك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه، والجاني خليق بالعذر.

والذى يُشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سلط عليك بذنب، كما قال تعالى (٤٢: ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم. و يعفو عن كثير)

فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله منك على يده: كنت فى الحقيقة أولى بالاعتذار.

فالفتوة كل الفتوة: ان لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته، ولا تطوي عنه بشرك ولا برك، واذا لم تحل انت من قيامه بين يديك مقام المعتذر: لم يكن لك في الفتوة نصيب.

والذى يهون عليك هذا كله: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة. فعليك بها. فإن فيها كنوز المعرفة والبر.

وقوله «سماحة لا كظما. ومودة، لا مصابرة».

يعني: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة، وطيبة نفس، وانشراح صدر، لا عن كظم، وضيق ومصابرة. فإن ذلك دليل على أن هذا ليس فى خلقك. وإنما هو تكلف يوشك أن يزول. و يظهر حكم الخلق صريحاً فتفتضح. وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب.

وهذا الذى قاله الشيخ لايمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم. فإذا تمكن منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله. والله أعلم.

وفضيلة «المروءة» تتلازم مع فضائل الفتوة هذه.

● سمو المروءة

و «المروءة» فعولة من لفظ المرء، كالفتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التى فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم.

فإن فى النفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الإتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر، والحسد، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان. وهو داعي الشهوة.

وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بغض دينك الداعيين، وإجابة الداعي الثالث. وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع دينك الداعيين. والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة، والفتوة: كلها في عصيان الداعيين، وإجابة الداعي الثالث. كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولا بلا شهوة. وخلق البهائم شهوة بلا عقول. وخلق ابن آدم، وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلب عقله شهوته: التحق بالملائكة. ومن غلبت شهوته عقله: التحق بالبهائم.

ولهذا قيل فى حد المروءة إنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدها: هي استعمال مايجمل العبد و يزينه، وترك مايدنسه و يشينه.

وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن. واجتناب كل خلق قبيح.

وحقيقة «المروءة» تجنب للدنايا والرذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة و يسر.

ومروءة الخُلُق: سعته و بسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلا وعرفاً وشرعاً.

ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه.

فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة والمماراة، والاغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك. وترك الاستقصاء فى طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير. وهى على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه. وهى أن يحملها قَسْرًا على ما يُجَمِّل و يزين. وترك ما يدنس و يشين، ليصير لها ملكة فى العلانية. فمن أراد شيئاً فى سره وخلوته ملكه فى جهره وعلانيته. فلا يكشف عورته فى الخلوة، ولا يتجشأ بصوت مزعج ماوجد إلى خلافه سبيلا. ولا يَجْشَعَ وَ يَنْهم عند أكله وحده.

و بالجملة: فلا يفعل خالياً ما يستحى من فعله فى الملإ، إلا مالا يحظره الشرع والعقل. ولا يكون إلا فى الخلوة، كالجماع والتخلى ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل. ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه. وليتخذ الناسَ مرآة لنفسه. فكل ما كرهه ونفر عنه، من قول أو فعل أو خلق، فليجتنبه. وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطهُ وصاحبه من كامل وناقص، وسيء الخلق وحسنه. وعديم المروءة وغزيرها.

وكثير من الناس: يتعلم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روى عن بعض الأكابر: أنه كان له مملوك سيء الخلق، فَظٌّ غليظ. لا يناسبه فسئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق فى ضد أخلاقه. و يكون بتمرين النفس على مصاحبته ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه. بالاستحياء من نظره إليك، واطلاعه عليك فى كل لحظة ونَفَس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان. فإنه قد اشتراها منك. وأنت ساع فى تسليم المبيع، وتقاضى الثمن. وليس من المروءة: تسليمه على ما فيه من العيوب، وتقاضى الثمن كاملا. أو رؤية مِنَّته فى هذا الإصلاح، وأنه هو المتولى له. لا أنت. فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة. والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعالك وصلاحك.

وكل ما تقدم فى منزلة «الخلق» و «الفتوة» فإنه بعينه فى هذه المسألة.

(٣٧) منزلة الإرادة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإرادة».

قال الله تعالى (٦: ٥٢ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**) وقال تعالى (٩٢: ١٩ ـ ٢١ **وما لأحد عنده من نعمة تُجْزَى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى**) وقال تعالى (٣٣: ٢٩ **وإن كُنتن تُرِدنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيما**).

وقد تنوعت عبارات القوم عنها. وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة.

ومعنى هذا: أن عادة الناس غالباً التعريج على أوطان الغفلة، وإجابة داعي الشهوة، والإخلاد إلى أرض الطبيعة. والمريد منسلخ عن ذلك. فصار خروجه عنه: أمارة ودلالة على صحة الإرادة. فسمي انسلاخه وتركه إرادة.

وقيل: نهوض القلب في طلب الحق.

ويقال: لوعة تهون كل روعة.

قال الدقاق: الإرادة لوعة في الفؤاد، لدغة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تأجج في القلوب.

وقيل: من صفات المريد: التحبب إلى الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة. والإيثار لأمر الله تعالى، والحياء من نظره. وبذل المجهود، والتعرض لكل سبب يوصل إليه. والقناعة. وعدم قرار القلب حتى يصل الى وليه ومعبوده.

وقيل: من حكم المريد: أن يكون نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة.

وقال أبو عثمان الحيري: من لم تصح إرادته ابتداء، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارا.

وقال: المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به: صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به. وإذا تكلم انتفع به من سمعه. ومن سمع شيئاً من علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها.

وقال يحيى بن معاذ: أشد شيء على المريد: معاشرة الاضداد.

وعلم السلوك مبني على الارادة، فهي أساسه ومجمع بنائه، وهو مشتمل على تفاصيل احكام الارادة، وهي حركة القلب، كما ان علم الفقه يشتمل على تفاصيل احكام الجوارح.

فالفقيه: ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع، ونهيه وإذنه، وكراهته، ومتعلقات ذلك.

والمريد: ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده. أو قاطعة عنه، ومفسدة لقلبه، أو مصححة له.

ولا بد في ذلك من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة. لا تعوز إلا الداعي. ودعوة مستمّعة، وتخلية الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

ومن مقدماتها: الذهاب عن العادات بصحة العلم، مع صدق القصد. وخلع كل شاغل.

وهذا يوافق مَنْ حَدّ «الإرادة» بأنها: مخالفة العادة. وهي ترك عوائد النفس، وشهواتها، ورعوناتها وبطالاتها ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء وهي: صحبة العلم ومعانقته. فإنه النور الذي يُعَرِّف العبد مواقع ما ينبغي إيثار طلبه. وما ينبغي إيثار تركه. فمن لم يصحبه العلم: لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين. ولا عبرة بقطاع الطريق.

ومما يعين السالك على ترك العادة: ترك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك، من صحبة الاغيار اهل البطالة. فليس على المريد أضر من عُشَرائه القاطعين له عن سيره الى الله تعالى، فليغترب عنهم بجهده.

فإذا صحت له هذه المقدمات: أسلمته الى ترويح الانس، والسير بين القبض والبسط، فينتقل من مقام رسوم الاعمال الى مقام حقائقها وأذواقها واحوالها، فيترقى من الاسلام الى الايمان، ومن الايمان الى الاحسان، فان السالك في أول الأمر يجد تعب التكاليف ومشقة العمل. لعدم أنس قلبه بمعبوده. فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التكاليف والمشاق. فصارت قرة عين له. وقوة ولذة. فتصير الصلاة قرة عينه، بعد أن كانت عملاً عليه. ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها فله ميراث من قوله صلى الله عليه وسلم «أرحنا بالصلاة يابلال»، «وجعلت قرة عيني في الصلاة» بحسب إرادته، ومحبته، وأنسه بالله سبحانه وتعالى، ووحشته مما سواه.

وأما «السير بين القبض والبسط».

فـ «القبض» و «البسط» حالتان تعرضان لكل سالك. يتولدان من الخوف تارة، والرجاء تارة. فيقبضه الخوف. ويبسطه الرجاء.

و يتولدان من الوفاء تارة، والجفاء تارة. فوائده: يورثه البسط وبعد ... القبض.
وقد يهجم على قلب السالك قبض لا يدرى ما سببه. وحكم صاحب هذا القبض : أمران
الأول: التوبة والاستغفار. لأن ذلك القبض نتيجة جناية. أو جفوة. ولا يشعر بها.
والثاني: الاستسلام حتى يمضي عنه ذلك الوقت، ولا يتكلف دفعه. ولا يستقبل وقته مغالبة وقهراً. ولا يطلب طلوع الفجر في وسط الليل، وليَرْقُد حتى يمضي عامة الليل. ويحين طلوع الفجر، وانقشاع ظلمة الليل. بل يصبر حتى يهجم عليه الملك. فالله يقبض و يبسط.
وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط: فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز. وليحرزه بالسكون والانكماش. فالعاقل يقف على البساط، ويحذر من الانبساط، وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم: إذا ما ورد عليهم ما يسرهم و يبسطهم و يهيج أفراحهم، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار، حتى كأنه لم يهجم عليهم وقال كعب بن زهير في مدح المهاجرين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما. وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

فلا يخرجه البسط عن استقامته، ولا عن الوقوف بأدب بين يدي ربه.

(٣٨) منزلة الأدب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الأدب»

قال الله تعالى (٦٦: ٦ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**) قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم.

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع. فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من الأدب العام. والله أعلم.

● مسالك الادب

و «الأدب» ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه. وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم وشرعه. وأدب مع خلقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه: أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته: أن تتعلق بما يمقتك عليه.

قال يحيى بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله.

وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب؟ فقال: التفقه في الدين. والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك.

وقال سهل: القوم استعانوا بالله على مراد الله. وصبروا لله على آداب الله.

وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون.

وقال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف.

وقال أبو حفص — لما قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين — فقال: حسن الأدب فى الظاهر عنوان حسن الأدب فى الباطن. فالأدب مع الله حسن الصحبة معه، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء. كحال مجالس الملوك ومصاحبهم.

وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص.

وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر الناس القول فى «الأدب» ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات.

وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم. كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح عليه السلام (٥: ١١٦ **إن كنت قلته فقد علمته**) ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين فى حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره. فقال (**تعلم ما فى نفسى**) ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال (**ولا أعلم ما فى نفسك**) ثم أثنى على ربه. ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها. فقال (**إنك أنت علام الغيوب**) ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به — وهو محض التوحيد — فقال (**ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به: أن اعبدوا الله ربى وربكم**) ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم. وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم. فقال (**وكنت عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم. فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم**) ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم. فقال (**وأنت على كل شىء شهيد**) ثم قال (**إن تعذبهم فإنهم عبادك**) وهذا من أبلغ الأدب مع الله فى مثل هذا المقام. أى شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا عذبتهم — مع كونهم عبيدك — فلولا أنهم عبيد سوء من أنحس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم. لأن قربة العبودية تستدعى إحسان السيد إلى عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عُتُوِّهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله (**إنك أنت علام الغيوب**) أى هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه.

فهو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال (٥: ١١٨ **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**) ولم يقل «**الغفور الرحيم**» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال «**فإنك أنت الغفور الرحيم**» لأشعر باستعطافه رَبَّه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على مَنْ غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه. ولجهله بمقدار اساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم. وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار «**حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على عفوك بعد قدرتك**» ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى، كقوله (**والله عليم حليم**) وقوله (**وكان الله عفواً قديراً**).

وكذلك قول إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم (٢٦: ٧٨ ـ ٨٠ **الذى خلقني فهو يهدين * والذى هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين**) ولم يقل «وإذا أمرضني» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة (١٨: ٧٩ **فأردت أن أعيبها**) ولم يقل «فأراد ربك أن أعيبها» وقال في الغلامين (١٨: ٨٢ **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما**).

وكذلك قول مؤمني الجن (٧٢: ١٠ **وأنا لا ندرى: أشَرٌّ أريد بمن في الأرض**) ولم يقولوا «أراده ربهم» ثم قالوا (**أم أراد بهم ربهم رشدا**).

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام (٢٨: ٢٤ **رب إني لما أنزلتَ إليَّ من خير فقير**) ولم يقل «أطعمني».

وقول آدم عليه السلام (٧: ٢٣ **ربنا ظلمنا أنفسنا. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**) ولم يقل «رب قدرت عليَّ وقضيت عليَّ».

وقول أيوب عليه السلام (٢١: ٨٣ **مسني الضر وأنت ارحم الراحمين**) ولم يقل «**فعافني واشفني**».

وقول يوسف لأبيه وإخوته (١٢: ١٠٠ هذا تأويل رؤياى من قبل. قد جعلها ربى حقاً. وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) ولم يقل «أخرجنى من الجب» حفظاً للأدب مع إخوته، أن لا يخجلهم بما جرى فى الجب. وقال (وجاء بكم من البدو) ولم يقل «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب. ولم يضفه إلى المباشر الذى هو أقرب إليه منه. فقال (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله عليهم.

ومن هذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل: أن يستر عورته، وإن كان خالياً لايراه أحد. أدباً مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً و باطنا. فما أساء أحدٌ الأدب فى الظاهر إلا عوقب ظاهراً. وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن. ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض. ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وحقيقة «الأدب» استعمال الخلق الجميل. ولهذا كان الأدب. استخراج ما فى الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل.

وإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التى جعلها فيه كامنة كالنار فى الزناد. فألهمه ومكّنه، وعرفه وأرشده. وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه

لاستخراج تلك القوة التى أهّله بها لكماله إلى الفعل. قال الله تعالى (٩١: ٧ ــ ١٠ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام. ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأنّ ذلك نالها منه امتحاناً واختباراً. ثم خص بالفلاح من زكاها فنمّاها وعلّاها. ورفعها بآدابه التى أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهى التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها. فأخفاها وحقرها. وصغرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

• الأخلاق النبوية السامية

وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم، حين أراه ما أراه (٥٣: ١٧ مازاغ البصر وما طغى) وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانباً. ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور. فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ولا يتجاوزه.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة. وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر صلى الله عليه وسلم: تواطأ هناك بصره و بصيرته. وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطئة له. وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه وتعالى (٥٣: ١١، ١٢ ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى؟) أي ما كذّب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر «ما كذّب الفؤاد» ما رأى ــ بتشديد الذال ــ أي لم يكذّب الفؤادُ البصَر. بل صدقه وواطأه. لصحة الفؤاد والبصر. أو استقامة البصيرة والبصر. وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور «ما كذَب الفؤاد» بالتخفيف. وهو متعدّ. و «ما رأى» مفعوله: أي ما كذَب قلبُه ما رأته عيناه. بل واطأه و وافقه. فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه. و بصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر. ولم يتجاوز البصر حدّه فيطغى ولم يمل عن المرئي فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي. ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه. فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما منتف عن قلبه و بصره. فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره. ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه. ألا ترى أن موسى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟

ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أقيم فى ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة؟.

ولأجل هذا ما عاقه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه، وبكى «قيل: ما يبكيك؟ قال أبكى أن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى» ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة. ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه فى مسراه يسبق خطوه الطرف. فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلا لحال راكبه، وبُعْدِ شأوه، الذى سبق العالم أجمع فى سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه صلى الله عليه وسلم لايتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل صلى الله عليه وسلم فى خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته، حتى خرق حجب السموات. وجاوز السبع الطباق. وجاوز سدرة المنتهى. ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصباباً. وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً. وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان فى المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً، يغبطه به الأولون والآخرون. واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، مازاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه فى هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى. وأقسم بكلامه على ذلك فى الذكر الحكيم، فقال تعالى ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ فإذا كان يومُ المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

● الأدب يجمل العبادة

و «الأدب» هو الدين كله. فإن ستر العورة من الأدب. والوضوء وغسل الجنابة من الأدب. والتطهر من الخبث من الأدب. حتى يقف بين يدى الله طاهراً.

ومن الأدب: نهى النبى صلى الله عليه وسلم المصلى «أن يرفع بصره إلى السماء».

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ قدس الله روحه ـــ يقول : هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدى ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق.

ومن الأدب مع الله: أن لايستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى أيوب وسلمان وأبى هريرة، وغيرهم. رضى الله عنهم. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان. كما ذكرنا فى غير هذا الموضع.

ومنها: سكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه (٧٠: ٢٣ الذين هم على صلاتهم دائمون) قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى (الذين هم على صلاتهم دائمون) أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا . ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران. الدوام عليها والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى (٧٠: ٣٤ والذين هم على صلاتهم يحافظون) وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي. و يعظم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. و يتضاءل و يتصاغر في نفسه. حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً و باطناً.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملا وحالا. والله المستعان.

● نصف التوحيد والادب : متابعة النبي صلى الله عليه وسلم

وأما الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم: فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره. وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولا. أو يحمله شبهة أو شكا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان. كما وحد المرسل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان. لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما. توحيد المرسل. وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره. وتصديق خبره، على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه. فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه. وسمى تحريفه: تأويلا، وحملا. فقال: نؤوله ونحمله.

فلأنْ يلقى العبدُ ربه بكل ذنب على الإطلاق ـــ ما خلا الشرك بالله ـــ خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء. فقلت له: سألتك بالله. لو قُدّر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حي بين أظهرنا. وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟.

فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه.

فقلت فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟.

فوضع إصبعه على فيه. وبقي باهتاً متحيراً. وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه. لا مخالفة أمره والشرك به. ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم. وعزل كلامه عن اليقين وعن أن يستفاد منه معرفة الله، أو تلقى أحكامه منه وجعل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة. وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركا، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته **(٢٣: ٦٣ ـ ٧٤ بل قلوبهم في غمرة من هذا. ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لاتجأروا اليوم. إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم. فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به. سامراً. تهجرون * أفلم يدبروا القول؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ * أم لم يعرفوا رسولهم. فهم له منكرون؟* أم يقولون به جِنَّة؟ بل جاءهم بالحق. وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن. بل أتيناهم بذكرهم. فهم عن ذكرهم معرضون * أم تسألهم خَرْجا؟ فخراج ربك خير. وهو خير الرازقين * وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم* وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون).**

والناصح لنفسه. العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها. ويتأملها حق تأملها. وينزلها على الواقع: فيرى العجب. ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك. واسمعي ياجارة» والله المستعان.

ومن الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف. حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى **(٤٧: ١ ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله)** وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر. ولا تنهوا حتى ينهى.
ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته. فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء. ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لايجعل دعاءه كدعاء غيره. قال تعالى **(٢٤: ٦٣ لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً)** وفيه قولان للمفسرين.
أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضا، بل قولوا: يارسول الله يانبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسولَ.

الثاني: أن المعنى لاتجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً. إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة. فعلى هذا: المصدرُ مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع — من خطبة، أو جهاد، أو رباط — لم يذهب أحد منهم مذهباً في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى **(٢٤: ٦٢ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله. وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)** فإذا كان هذا مذهباً مقيداً بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ **(١٦: ٤٣ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)**.

ومن الأدب معه: أن لايستشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نَصُّه بقياس. بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه. ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ماجاء به صلى الله عليه وسلم على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم. وهو عين الجرأة.

• كل الحياة ينظمها الأدب

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم ـــ على اختلاف مراتبهم ـــ بما يليق بهم. فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص. فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به. وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوى أنسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأ كل آداب. وللشرب آداب. وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب. وللبول آداب. وللكلام آداب. وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته و بواره.

فما استُجْلِب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نَجَّى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم ـــ تأويلا وإقبالا على الصلاة ـــ كيف امتُحِن به جُريج الراهب بهدم صومعته وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟.

وتأمل أحوال كل شقى ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هى التى ساقته إلى الحرمان؟.

وانظر أدب الصديق رضى الله عنه مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة: أن يتقدم بين يديه. فقال «**ما كان ينبغى لابن أبى قحافة أن يتقدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم**» كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه ـــ وقد أومأ إليه أن: أثبت مكانك ـــ جمْزاً، وسعياً إلى قدام؟ بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام. تنقطع فيها أعناق المطى. والله أعلم.

• آداب النمط الاوسط

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء. ولم يوف الصلاة آدابها التي سَنَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها. وهي قريب من مائة أدب: مابين واجب ومستحب.

وإضاعته بالعلو: كالوسوسة في عقد النية. ورفع الصوت بها. والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سراً. وتطويل ما السنةُ تخفيفه وحذفه. كالتشهد الأول والسلام الذي حَذْفُه سنة. وزيادة التطويل على مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولاعلى ما يظنه سُرّاق الصلاة

. ســءاءرون لها و يستهويه. فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه. وقد صانه ـــ من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف و يؤمهم بالصافّات. و يأمرهم بالتخفيف. وتقام صلاة الظهر، فيذهب الذاهب الى البقيع ، فيقضي حاجته . و يأتي أهله و يتوضأ. و يدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركعة الاولى. فهذا هو التخفيف الذي أمر به. لانقر الصلاة وسرقها. ومن ذلك اختصار، بل اقتصار على مايقع عليه الاسم. و يسمى به مصليا، وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع على القول الآخر، وهو كجائع قدم اليه طعام لذيذ جداً. فأكل منه لقمة او لقمتين. فماذا يغنيان عنه؟ ولكن لو أحسّ بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهويقدرعلى ذلك. لكن القلب شبعان من شيء آخر.

نعم. والله فإن الصلاة هي غذاء الروح والقلب. فإنه محتاجة الى غذائه مما يتنزل من رحمات الله. كما أن الجسم محتاجة الى الغذاء مما تخرج الأرض . ولما كان كل منهما يهضم غذاءه، فيحتاج الى غذاء جديد تفضل الله ربنا سبحانه فجعل الصلوات خمساً مقسمة على اجزاء اليوم هذا التقسيم الحكيم ليأخذ الروح والقلب ـــ الانساني المعنوي الكريم ـــ وجبة الغذاء بعد اضطرابه في شؤون الحياة وفتنها التي هضمت غذاءه، كالجسم سواء بسواء . وهكذا العلم و بقية ماتتصل به علينا ربنا الكريم من العبادات. والأعمال الصالحات.

ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لايفرط في القيام بحقوقهم ، ولايستغرق فيها، بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، او عن تكميلها، او عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لايجفوعنها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد ، فحقيقة الأدب : هي العدل. والله اعلم

● وزن الاحوال والمقامات بالادب

ومن الادب : منع الخوف: أن يتعدى الى اليأس، وحبس الرجاء: أن يخرج الى الأمن، وضبط السرور: ان يضاهي الجرأة.

فالاديب لايدع الخوف يفضي به الى حد يوقعه في القنوط، واليأس من رحمة الله. فإن هذا الخوف مذموم.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ يقول: حد الخوف ماحجزك عن معاصي الله. فما زاد على ذلك: فهوغير محتاج اليه.

وهذا الخوف الموقع في الإياس: اساءة أدب على رحمة الله تعالى ، التي سبقت غضبه، وجهلٌ بها.

وأما حسن الرجاء: أن يخرج الى الأمن. فهو ان لايبلغ به الرجاء الى حد يأمن معه العقوبة فإنه لايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون. وهذا إغراق في الطرف الآخر.

بل حد الرجاء: ما طَيَّبَ لك العبادة، وحملك على السير. فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة. فإذا انقطعت وقفت السفينة. واذا زادت القتها الى المهالك. واذا كانت بقدر، اوصلتها الى البغية

وأما ضبط السرور فلا يقدر عليه الا الاقوياء أرباب العزائم. الذين لا تستفزهم السراء، فتغلب شكرهم. ولا تضعفهم الضراء. فتغلب صبرهم. كما قيل:

لا تغلب السراء منهم شكرهم كلا . ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته، وتشبهه في صفاته . ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح. فالنفس تسترق السمع . فإذا نزلت على القلب تلك المواهب: وثَبَتْ لتأخذ قسطها منها، وتُصَيِّره من عدتها وحواصلها. فالمسترسل معها، الجاهل بها : يدعها تستوفي ذلك. فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له، اذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها. وعددها. فصالت به وطغت. لأنها رأت غناها به. والانسان يطغى أن رآه استغنى بالمال فكيف بما هو اعظم خطراً، وأجل قدراً من المال، مما لا نسبة بينهما، من علم، او حال، او معرفة،؟ فإذا صار ذلك من حاصلها: انحرف العبد به ــ ولابد ــ الى طرف مذموم من جرأة او شطح، او ادلال. ونحو ذلك

فوالله كم ههنا من قتيل، وسليب، وجريح يقول: من اين اتيت؟ ومن اين دُهيت؟ ومن أين اصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: ان يغلق عنه باب المزيد . ولهذا كان العارفون وارباب البصائر: اذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا الى طرف الذل والانكسار، ومطالعة عيوب النفس. واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب و بين النفس. ونظروا الى اقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وادناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكة يوم الفتح. وَذَقْنه تَمَسُّ قُربوس سرجه: انخفاضاً وانكساراً، وتواضعاً لربه تعالى في مثل تلك الحال، التي عادةُ النفوس البشرية فيها: ان يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، و يرفعها الى عنان السماء.

فالرجل: من صان فتحه ونصيبه من الله. وواراه عن استراق نفسه. و بخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به. فياله من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها. والله المستعان.

(٣٩) منزلة الفقر

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «اليقين»

وهو من الايمان بمنزلة الروح من الجسد. و به تفاضل العارفون . وفيه تنافس المتنافسون. واليه شمر العاملون. وعملُ القوم انما كان عليه. واشاراتهم كلها اليه.

وخص سبحانه اهل اليقين بالانتفاع بالايات والبراهين. فقال، وهو اصدق القائلين (٥١: ٢٠ **وفي الارض آيات للموقنين**).

وخص اهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين. فقال (٢: ٤، ٥ **والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك، و بالآخرة هم يوقنون * اولئك على هدى من ربهم . واولئك هم المفلحون**).

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى (٤٥: ٣٢ **واذا قيل: ان وعد الله حق، والساعة لاريب فيها. قلتم: ما ندري ما الساعة؟ ان نظن الا ظنا. وما نحن بمستيقنين**).

فـ«اليقين» روح اعمال القلوب التي هي ارواح اعمال الجوارح. وهو حقيقة الصديقية. وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**لا تُرضينَّ أحداً بسخط الله. ولا تَحْمَدَنَّ أحداً على فضل الله، ولا تَذُمَّنَّ أحداً على مالم يؤتك الله. فإن رزق الله لايسوقه اليك حرص حريص. ولايرده عنك كراهية كاره. وان الله بعَدْله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**».

والصواب: ان التوكل ثمرته ونتيجته. ولهذا حسن اقتران الهدى به. قال الله تعالى (٢٧: ٧٩ **فتوكل على الله . انك على الحق المبين**) فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله (١٤: ١٢ **ومالنا ان لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا**)؟

ومتى وصل «اليقين» الى القلب امتلأ نوراً واشراقاً. وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وَهَمّ وغمّ. فامتلأ محبة الله، وخوفاً منه ورضى به، وشكرا له، وتوكلا عليه، وانابة اليه. فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لاينقلب ولايحول، ولايتغير في القلب.

وقال ابو بكر الوراق: اليقين ملاك القلب. و به كمال الايمان. و باليقين عُرف الله. و بالعقل عقل عن الله.

وقال ابو بكر الوراق: اليقين على ثلاثة اوجه: يقين خبر. و يقين دلالة. و يقين مشاهدة.

يريد بيقين الخبر: سكون القلب الى خبر المخبر وتوثقه به. و بيقين الدلالة: ماهو فوقه. وهو ان يقيم له — مع وثوقه بصدقه — الادلة الدالة على ما أخبر به.

وهذا كعامة أخبار الايمان والتوحيد والقرآن. فإنه سبحانه — مع كونه أصدق الصادقين — يقيم لعباده الادلة والامثال والبراهين على صدق اخباره. فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخبر، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك الى الدرجة الثالثة. وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئى لعيونهم. فنسبة الايمان بالغيب حينئذ الى القلب: كنسبة المرئى الى العين.

قال بعضهم: رأيت الجنة والنار حقيقة. قيل له: وكيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورؤيتي لهما بعينيه: آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني. فان بصري قد يطغى و يزيغ، بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم.

واركان علم اليقين: قبول ماظهر من الحق، وقبول ما غاب ، والوقوف على ما قام بالحق.

فالاول: قبول ما ظهر من الحق تعالى، والذي ظهر منه سبحانه: اوامره ونواهيه وشرعه، ودينه الذي ظهر لنا منه على ألسنة رسله ، فنتلقاه بالقبول والانقياد ، والاذعان والتسليم للربوبية. والدخول تحت رق العبودية.

الثاني «قبول ماغاب» وهو الايمان بالغيب الذي اخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من امور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وماقبل ذلك: من الصراط والميزان والحساب، وماقبل ذلك: من تشقق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونسف الجبال، وطَيّ العالم. وما قبل ذلك: من أمور البرزخ، ونعيمه وعذابه.

فقبول هذا كله — ايماناً وتصديقاً وايقاناً — هو اليقين . بحيث لايخالج القلب فيه شبهة . ولاشك ولا تناس ، ولا غفلة . فإنه ان لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه.

الثالث «الوقوف على ماقام بالحق» سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله.

وهو علم التوحيد، الذي اساسه : اثبات الأسماء والصفات

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته ، ونعوت كماله وتوحيده. وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق: علم الامر والنهي، وعلم الاسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر. والله أعلم.

• مقام الأنس بالقرآن

ومن قوي يقينه: حصل له من الانس بالقرآن مالايحصل للضعيف.

كما ان الانس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش.

فالسالك اذا كان محباً صادقاً طالباً لله ، عاملا على مرضاته: كان غذاؤه بالسماع القرآني، الذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الامة ، وأبرها قلوباً، وأصحها أحوالا. وهم الصحابة رضي الله عنهم.

وهذا السماع القرآني سماع اهل المعرفة بالله، والاستقامة على صراطه المستقيم. ويحصل للأذهان الصافية منه معان واشارات، ومعارف وعلوم. تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الانس. فيجد لها لذة روحانية. يصل نعيمها الى القلوب والارواح. وربما فاض حتى وصل الى الاجسام. فيجد من اللذة مالم يعهد مثله من اللذات الحسية.

فاذا تجردت الروح وكانت مستعدة . و باشر القلب روح المعنى. واقبل بكليته على المسموع. فالقى السمع وهو شهيد. وساعده طيب صوت القارىء: كاد القلبُ يفارق هذا العالم. و يلج عالماً آخر. ويجد له لذة وحالة لايعهدها في شيء غيره البته. وذلك رقيقة من حال اهل الجنة في الجنة.

فياله من غذاء ما أصلحه وما انفعه .

وحرام على قلب قد تربىّ على غذاء السماع الشيطاني: ان يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن.

وليس في نعيم اهل الجنة اعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عياناً، وسماع كلامه منه.

والقلب يتأثر بالسماع بحسب مافيه من المحبة. فاذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه — اي مصاحبته وحضوره في قلبه — فله من سماعه هذا شأن. ولغيره شأن آخر. والله اعلم.

● القلب الحي الة السمع

والناس في السماع على ثلاثة اقسام:

أحدها: من اتصف قلبه بصفات نفسه. بحيث صار قلبه نفساً محضه. فغلبت عليه آفات الشهوات، ودعوات الهوى. فهذا حظه من السماع: كحظ البهائم. لايسمع الا دعاء ونداء. والفرق الذي بينها و بينه : غير طائل.

القسم الثاني: من اتصفت نفسه بصفات قلبه. فصارت نفسه قلباً محضاً. فغلبت عليه المعرفة والمحبة، والعقل واللب. وعتق صفات الكمال. فاستنارت نفسه بنور القلب. واطمأنت الى ربها. وقرت عينها بعبوديته. وصار نعيمها في حبه وقربه. فهذا حظه من السماع مثل — او قريب — من حظ الملائكة. وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرة عينه ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح فيها. وحياته التي بها قوامه.

القسم الثالث: من له منزلة بين منزلتين. وقلبه باق على فطرته الاولى. ولكن ماتصرف في نفسه تصرفاً احالها اليه. وازال به رسومها. وجلا عنه ظلمتها. ولاقويت النفس على القلب باحالته اليها . وتصرفت فيه تصرفاً أزالت عنه نوره وصحته وفطرته.

فبين القلب والنفس منازلات ووقائع ، والحرب بينهما دول وسجال، تدال النفس عليه تارة، و يدال عليها تارة.

فهذا حظه من السماع: حظ بين الحظين، ونصيبه منه بين النصيبين. فإن صادفه وقت دولة القلب: كان حظه منه قوياً. وان صادفه وقت دولة النفس: كان ضعيفاً.

ومن هٰهنا يقع التفاوت في الفقه عن الله. والفهم عنه. والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذه الحال — في حال سماعه — يشتغل القلب بالحرب بينه و بين النفس، فيفوته من روح المسموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة. ولاسبيل له الى حصول ذلك بتمامه، حتى تضع الحرب اوزارها. وربما صادفه في حال السماع وارد حق، او الظفر بمعنى بديع لايقدر فكره على صيده كل وقت. فيغيب به و يستغرق فيه عما يأتي بعده. فيعجز عن صيد تلك المعاني. و يدهشه ازدحامها. فيبقى قلبه باهتاً. كما يحكي ان بعض العرب: ارسل صائداً له على صيد. فخرج الصيد عليه من امامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله، فوقف باهتا يطرق يميناً وشمالا. ولم يصطد شيئا. فقال:

تكاثرت الظباء على خِراش   فما يدري خراش ما يصيد

فوظيفته في مثل هذا الحال: أن يعلق قلبه بالمتكلم. وكأنه يسمع كلامه منه. ويجعل قلبه نهراً لجريانه معانيه و يفرغه من سوى فهم المراد. و ينصب اليه انصباباً يتلقى فيه معانيه،

كتلقي المحب للاحباب القادمين عليه. لايشغله حبيب منهم عن حبيب. بل يعطي كل قادم حقه. وكتلقي الضيوف والزوار. وهذا انما يكون مع سعة القلب، وقوة الاستعداد، وكمال الحضور.

فاذا سمع خطاب الترغيب والتشويق، واللطف والاحسان: لايفنى به عما يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل. بل يسمع الخطاب الثاني مستصحبا لحكم الخطاب الأول ويمزج هذا بهذا. و يسير بهما ومعهما جميعاً، عاكفا بقلبه على المتكلم وصفاته سبحانه.

وهذا سير في الله. وهو نوع آخر اعلى وارفع من مجرد المسير اليه. ولاينقطع بذلك سيره اليه. بل يندرج سيره. فإن سير القلب في معاني اسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكة، واشتد تعلقه به: لم تحجبه معاني المسموع، وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك. وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء هٰهنا ألبته.

وذلك: لأن هذا الانس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن اسماء الصفات التي يحصل عنها الانس. و يتعلق بها. كاسم «الجميل، والبر واللطيف، والودود، والحليم، والرحيم» ونحوها. ثم يقوى التعلق بها حتى يكون معه طيب الحياة، وقرة العين، ولذة القلب، و بهجة الروح، مع كمال العافية بلا محنة، والهداية بلا فتنة، فتخف اعباء المسير، و يزول كل فتور، و يظل القلب في ازدياد من معاني الخير دائماً.

(٤٠) منزلة الذكر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الذكر»

وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون. وفيها يتجرون. وإليها دائماً يترددون.

و «الذكر» منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً. وعمارة ديارهم. التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق. ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلهم البلاء. فإليه ملجؤهم. وإذا نزلت بهم النوازل. فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون. ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً، وعلى جنوبهم. فالقلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ قلبه للسانه في ذكره: نسي في جنب ذكره كل شيء. وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضاً من كل شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة. وفي الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم . . . وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذى لا روح فيه. والله أعلم.

وهو فى القرآن على عشرة أوجه.

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيدا.

الثانى: النهى عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

أما الأول: فكقوله تعالى (٣٣: ٤١ ــ ٤٤ ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبحوه بكرة وأصيلا * هو الذى يصلى عليكم وملائكته. ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما) وقوله تعالى (٧: ٢٠٤ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة).

وفيه قولان. أحدهما: فى سرك وقلبك. والثانى: بلسانك بحيث تسمع نفسك

وأما النهى عن ضده: فكقوله (٧: ٢٠٤ ولا تكن من الغافلين) وقوله (٥٩: ١٩ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم).

وأما تعليق الفلاح بالاكثار منه: فكقوله (٨: ٤٥، ٦٢: ١٠ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون).

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله (٣٣: ٣٥ إن المسلمين والمسلمات ــ إلى قوله ــ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات: أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما).

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى (٦٣: ٩ ياأيها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله. ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون).

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله (٢: ١٥٢ فاذكرونى أذكركم. واشكروا لى ولا تكفرون).

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى (٢٩: ٤٥ **اتْلُ ما أُوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة. ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله أكبر**) وفيها أربعة أقوال.

أحدها: ذكر الله أكبر من كل شيء. فهو أفضل الطاعات. لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول. مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر. بل إذا تمّ الذكر: مَحَقَ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول. معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين.

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ولعل في الآية معنى آخر: أن الصلاة هي أكبر الذكر. فقد قال الله تعالى (٢٠: ١٤ **أقم الصلاة لذكري**) وهي أكبر وأقوى وأشد باه عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به. فكما ختم به عمل الصيام بقوله (٢: ١٨٥ **ولتكملوا العِدَّة. ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**).

وختم الحج في قوله (٢: ٢٠٠ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً**).

وختم به الصلاة كقوله (٤: ١٠٣ **فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**).

وختم به الجمعة كقوله (٦٢: ١٠ **فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض. وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**) ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى (٣: ١٩٠، ١٩١ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم**).

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله (٢٠: ١٤ وأقم الصلاة لذكرى) وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه. بل هو روح الحج، ولبّهُ ومقصوده. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمى الجمار: لإقامة ذكر الله».

وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى (٨: ٤٥ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فِئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون).

• الذاكرون سابقون

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة. فمر على جبل يقال له جُمْدان فقال: سيروا. هذا جمدان.سَبَقَ المُفَرِّدون. قالوا: وما المفردون يارسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

«والمفردون» إما الموحدون. وإما الآحاد الفرادى.

وفي المسند ــ مرفوعاً ــ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرلكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم. فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يارسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل».

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغر قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما. أنهما شهداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حَفَّتهم الملائكة. وغشيتهم الرحمة. ونزلت عليهم السكينة. وذكرهم الله فيمن عنده» وهو في صحيح مسلم.

ويكفي في شرف الذكر: أن الله يباهي ملائكته بأهله. كما في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «خرج على حلقة من أصحابه. فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. ونحمده على ما هدانا للاسلام. ومَنَّ علينا، قال: ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آاللهِ ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل، فأخبرني: أن الله يباهي بكم الملائكة».

وسئل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم «أي الأعمال أفضل؟ فقال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله».

وقال له رجل: (إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فمرني بأمر أتشبث به. فقال: لايزال لسانك رطباً من ذكر الله)».

وفي المسند وغيره من حديث جابر. قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أيها الناس. ارتعوا في رياض الجنة. قلنا: يارسول الله: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر»

وقال «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله: فلينظر كيف منزلة الله عنده؟ فإن الله يُنزل العبد منه حيث أنزله من نفسه».

وروى النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ابراهيم صلى الله عليه وسلم — ليلة الإسراء — أنه قال له «أقرىء أمتك مني السلام. وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء. وأنها قيعان. وأن غرسها: سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر» رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره: مثل الحي والميت»

ولفظ مسلم «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه: مثل الحي والميت».

فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي. وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت. وهو القبر.

وفي اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحي في بيوت الأحياء. والغافل كالميت في بيوت الأموات. ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم. وقلوبهم فيها كالأموات في القبور. كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم   وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم   وليس لهم حتى النشور نشور

وفي الصحيح: في الأثر الذي يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وقد ذكرنا في الذكر نحو مائة فائدة في كتابنا (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب) وذكرنا هناك أسرار الذكر، وعظم نفعه، وطيب ثمرته. وذكرنا فيه: أن الذكر ثلاثة أنواع.

ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها.

وذكر الأمر والنهي. والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي وأنه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان. وهو أعلاها. وذكر بالقلب وحده. وهو في الدرجة الثانية وذكر باللسان المجرد. وهو في الدرجة الثالثة

وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذاكراً له. وذكر بعده. به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى «٢: ١٥٢ **فاذكروني أذكركم**» وقال ـ فيما يروى عنه نبيه صلى الله عليه وسلم ـ «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**».

• انواع الذكر

وانواع الذكر ثلاثة: ثناء، ودعاء، ورعاية.

فأما ذكر الثناء: فنحو «**سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر**»

وأما ذكر الدعاء فنحو «٧: ٢٣ **ربنا ظلمنا أنفسنا. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**» و «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**» ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي. الله ناظر إلي. الله شاهدي ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة. فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال، والتصريح به. كما في الحديث «**أفضل الدعاء الحمد لله**» قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية ابن الصلت لعبد الله بن جُدعان يرجو نائله:

أأذكر حاجتي، أم قد كفاني ... حباؤك؟ إن شيمتك الحباء

إذ أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

فهذا مخلوق. واكتفى من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله، فكيف برب العالمين؟.

والأذكار النبوية متضمنة أيضا لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرز من الغفلات، والاعتصام من الوسواس والشيطان، وفيها تعليم القلب مناجاة الرب، تملقاً تارة، وتضرعاً تارة، وثناء تارة، واستعظاماً تارة، وغير ذلك من انواع المناجاة بالسر والقلب.

(٤١) منزلة اليقين

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الفقر»

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة وسرها وغايتها.

وهذا انما يعرف بمعرفة حقيقة «الفقر» والذي تريد به هذه الطائفة أخص من معناه الاصلي.

فإن لفظ «الفقر» وقع في القرآن في مواضع.

أحدها: قوله تعالى (٢: ٢٧٣ **للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله. لايستطيعون ضرباً في الارض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ـــ الآية)** أي الصدقات لهؤلاء. كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة. لم يكن لهم مساكن في المدينة ولاعشائر. وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفا على كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حَبَسهم الفقر والعُدْم عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الضرب في الارض لطلب المعاش. فلا يستطيعون ضربا في الارض.

والصحيح: أنهم ـ لفقرهم وعجزهم وضعفهم ـ لايستطيعون ضربا في الارض. ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم اغنياء.

ومنها: قوله تعالى (٩: ٦١ **إنما الصدقات للفقراء ـــ الآية)**.

ومنها: قوله تعالى (٣٥: ١٥ **يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله)**.

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين خاصهم وعامهم. والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجدة، ومن ليس محصرا في سبيل الله، ومن لايكتم فقره تعففا. فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة. و يدخل فيهم المتعفف وغيره. والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث: لامقابل هم. بل الله وحده الغني. وكل ما سواه فقير اليه.

ومراد القوم بالفقر: شيء أخص من هذا كله. وهو تحقيق العبودية. والافتقار الى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقراً. بل هو حقيقة العبودية ولُبُّها. وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وحقيقة «الفقر» وكماله كما قال بعضهم — وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم «الفقر»؟ — فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه. فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له. وإذا لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنى «الفقر» الذي يشير اليه القوم. وهو أن يصير كله لله عز وجل. لايبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول.

ثم فسر ذلك بقوله «إذا كان له فليس له» أي اذا كان لنفسه فليس لله. وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة «الفقر» أن لا تكون لنفسك. ولايكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله. واذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر.

وهذا «الفقر» الذي يشيرون اليه: لا تنافيه الجدة ولا الأملاك. فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم، وملكهم، كإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم كان أبا الضيفان. وكانت له الأموال والمواشي. وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام. وكذلك كان نبينا صلى الله عليه وسلم، كان كما قال الله تعالى (٩٣:٨ ووجدك عائلا فأغنى) فكانوا أغنياء في فقرهم. فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار الى الله في كل حال، وأن يشهد العبد — في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة — فاقة تامة الى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد. وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالا، وإلا فهو حقيقة. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً   كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم اليها. كقول بعضهم: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، و يقين يحمله، وذكر يؤنسه.

وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه.

وقال ابو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد الى الله: دوام الافتقار اليه على جميع الأحوال. وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

و «الفقر» له بداية ونهاية. وظاهر و باطن، فبدايته: الذل. ونهايته: العز. وظاهره: العُدْم. و باطنه: الغنى. كما قال رجل لآخر: فقر وذل؟ فقال: لا. بل فقر وعز.

وإذا عرفت معنى «الفقر» علمت أنه عين الغنى بالله. فلا معنى لسؤال من سأل: أي الحالين أكمل؟ الافتقار الى الله، أم الاستغناء به؟.

فهذه مسألة غير صحيحة. فإن الاستغناء به هو عين الافتقار اليه.

وسئل عن ذلك محمد بن عبدالله الفرغاني؟ فقال: إذا صح الافتقار الى الله تعالى فقد صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به. فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء؟ لأنهما حالتان لا تتم احداهما إلا بالأخرى.

وأما كلامهم في مسألة «الفقير الصابر، والغني الشاكر» وترجيح أحدهما على صاحبه.

فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لايرجع الى ذات الفقر والغنى. وإنما يرجع الى الأعمال والأحوال والحقائق، فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان. لابفقر ولاغنى، كما قال تعالى (٤٩:١٣ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده. كما قال تعالى (٨٩:١٦، ١٧ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونَعَّمه، فيقول: ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقَدَر عليه رزقَه. فيقول: ربي أهانن * كلا**) أي ليس كل مَنْ وسَّعتُ عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقَتَّرت: أكون قد أهنته، فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبته ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال ــ يعني ابن تيمية ــ ولايقع التفاضل بالغنى والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ. فقال: لايوزن غداً الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

• مبدأ الفقر: التفويض

وأول قدم الفقر: الخروج عن النفس. وتسليمها لمالكها ومولاها. فلا يخاصم لها. ولايتوكل لها. ولايحاجج عنها ولاينتصر لها، بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها.

قال بندار بن الحسين: لاتخاصم لنفسك. فإنها ليست لك. دعها لمالكها يفعل بها مايريد.

• تحطيم الاصنام

ومن لوازم ذلك: نفض اليد عن الدنيا ضبطاً أو طلباً. وإسكات اللسان عنها مدحاً. والسلامة منها طلباً أو تركاً.

و«الدنيا» عند القوم: ماسوى الله تعالى ـــ من المال والجاه، والصور، والمراتب ـــ.

ولما كان لها تعلق بالجوارح والقلب واللسان، كان حقيقة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها وسلبها منها. فإذا نفض يده عن الامساك جاد بها. وإن كانت غير حاصلة له كفّ يده عن طلبها. فلا يطلب معدومها. ولايبخل بموجودها.

وأما «تعطيلها عن اللسان».

فهو أن لايمدحها. فإن اشتغاله بمدحها دليل على محبتها ورغبته فيها. فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وكما يطالب الفقير بالسلامة من آفات طلبها، فإنه يطالب بسلامة اخرى من آفات تركها، فإن لتركها آفات. ولطلبها آفات. والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك. بحيث لايحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة. لافي طلبها وأخذها ولافي تركها والرغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها. فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟ .

قلت : من وجوه شتى.

أحدها: أنه إذا تركها ـــ وهو بشر لا مَلَك ـــ تعلق قلبه بما يقيمه و يُقيته و يُعيشه. وماهو محتاج اليه. فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه. لترك معلومها وحظها من الدنيا. وهذه قلة فقه في الطريق، بل الفقيه العارف: يردها عنه بلقمة. كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة. ولايقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته، بل أعطها حظها، وطالبها بما عليها من الحق.

هذه طريقة الرسل صلى الله عليهم وسلم. وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن لنفسك عليك حقاً. ولربك عليك حقاً. ولزوجك عليك حقاً. ولضيفك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه».

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة: مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن، وقطاع الطريق على القلوب. كأهل البدع من بني العلم، وبني الإرادة، ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم. ويتقوى على حربهم باعطاء النفس حقها من المباح. ولايشتغل بها.

ومن آفات الترك: تطلعه الى مافي أيدي الناس إذا مسته الحاجة الى ماتركه، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

ومن آفات تركها، وعدم أخذها: مايداخله من الكبر والعجب والزهو. وهذا يقابل الزهد فيها وتركها.

فالفقر الصحيح: السلامة من آفات الأخذ والترك. وهذا لايحصل إلا بفقه في الفقر.

● أثمّ شيء غير الفضل؟

وايضاً، فان من قواعد هذا الفقه في الفقر: الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل. وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال. ويقطع شهود الأحوال. ويمحص من أدناس مطالعة المقامات.

والرجوع الى السبق هو الالتفات الى ماسبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنته وجوده. وأن العبد — وكُلّ ما فيه من خير — فهو محض جود الله وإحسانه. وليس للعبد من ذاته سوى العُدْم. وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه. فإذا شهد هذا وأحضره قلبه. وتحقق به: خلصه من رؤية أعماله. فإنه لايراها إلا من الله وبالله. وليست منه هو ولابه.

واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله. ويخلصه منها: شهود السبق، ومطالعة الفضل.

فإذا طالع سبق فضل الله. علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره، فهو محض جوده. فلا يشهد له حالا مع الله ولامقاماً، كما لم يشهد له عملا. فقد جعل عدته للقاء ربه: فقره من أعماله وأحواله. فهو لايقدم عليه إلا بالفقر المحض. فالفقر خير العلاقة التي بينه وبين ربه، والنسبة التي ينتسب بها اليه، والباب الذي يدخل منه عليه.

والفرق بين الحال والمقام: أن «الحال» معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له، ولا اكتساب، ولا تعمد. و«المقام» يتوصل اليه بنوع كسب وطلب.

فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب. فالمقام يحصل ببذل المجهود. وأما الحال: فمن عين الجود.

وسئل اصحاب ابي عثمان الحيري: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمر بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها.

وتلك هي الحنيفية المحضة، فانه اذا بذل الطاعة لله و بالله: صانه ذلك عن الشرك، واذا شهد تقصيره فيها: صانه عن الاعجاب، فيكون قائما بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأبو عثمان هذا: هو سعيد بن اسماعيل النيسابوري من جلة شيوخ القوم وعارفيهم. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة، لارابع لهم: أبوعثمان النيسابوري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبدالله ابن الجلاء بالشام. وله كلام رفيع عال، وكان شديد الوصية باتباع السنة، وتحكيمها ولزومها. ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصا على نفسه. ففتح ابوعثمان عينيه، وهو في السياق. فقال: يابني خلاف السنة في الظاهر، علامة رياء في الباطن.

● الفقر اغنى الغنى

ومن افتقر الى الله تعالى: اغتنى

والغنى نوعان: غنى بالله، وغنى عن غير الله، وهما حقيقة الفقر.

واستدل الهروي له بقول الله تعالى (٩٣:٨ ووجدك عائلا فأغنى).

وفي الآية ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله «عائلا»

والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.

والثاني. أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لاغنى مال. وهو حقيقة الغنى.

والثالث: — وهو الصحيح — أنه يعم النوعين: نوعي الغنى، فأغنى قلبه به. وأغناه من المال.

و يكمل غنى القلب بغنى آخر، هو: غنى النفس. وآيته: سلامتها من الحظوظ، و براءتها من المراءاة.

ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس. لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة.

وهي أن النفس من جند القلب ورعيته. وهي من أشد جنده خلافا عليه، وشقاقا له. ومن قِبَلها تتشوش عليه المملكة. و يدخل عليه الداخل. فإذا حصل له كمال بالغنى: لم يتم له إلا بغناها أيضاً. فإنها متى كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه. وتشوش عليه غناه. فكان غناها تماماً لغناه وكمالا له. وغناه أصلاً بغناها. فمنه يصل الغنى اليها. ومنها يصل الفقر والضرر والعَنَت اليه.

اذا عرفت هذا فاعلم ان غناها بشيئين:

. الاول: «سلامتها من الحظوظ» وهي تعلقاتها الظاهرة والباطنة بما سوى الله.

الثاني. «براءتها من المراءاة» وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها. فمراءاتها دليل على شدة فقرها. وتعلقها بالحظوظ من فقرها أيضاً.

(٤٢) منزلة الاجتباء

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الاجتباء».

فإن المؤمن متى بلغ دروة الايمان: اجتباه الله واصطفاه وجذبه اليه.

وقد استبد الانبياء عليهم السلام بهذه المنزلة، وكادوا ان يحتكروها، وشغلوا محلها وفناءها، إلا حيزاً اخلاه الله تعالى ووقفه وادخره، ليهبه ثلة من المؤمنين في كل جيل يصدقونه الحب، فيحبهم، و يريدونه، فيريدهم.

فمن اجتباء الانبياء: ان الله سبحانه ألقى الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كتابه، وخصه بكرامته، وأهّله لرسالته ونبوته، من غير ان يكون ذلك منه على رجاء، او ناله بكسب، او توسل اليه بعمل، بل هو أمر أريد به، كما قال الله تعالى (٨٦:٢٨ **وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب، الا رحمة من ربك**).

ومنها انه اصطفى موسى واستخلصه لنفسه. وجعله خالصاً له من غير سبب كان من موسى، ولا وسيلة. فإنه خرج ليقتبس النار. فرجع وهو كليم الواحد القهار. وأكرم الخلق عليه، ابتداء منه سبحانه. من غير سابقة استحقاق، ولا تقدم وسيلة. وفي مثل هذا قيل:

أيها العبد، كن لما لست ترجو ... من صلاح أرجى لما أنت راجِ

إن موسى أتى ليقبس ناراً ... من ضياء رآه والليل داجِ

فانثنى راجعاً ، وقد كلمه الله ، وناجاه وهو خير مناجِ

فأخذه من نفسه، واصطنعه لنفسه، واختاره من بين العالمين، وخصه بكلامه.

والانبياء عليهم السلام يتفاوتون في ذلك تفاوت اتباعهم.

فمن ذلك قصة موسى صلى الله عليه وسلم، حين ألقى الألواح ـ وفيها كلام الله ـ عن رأسه. وكسرها، وجرّ بلحية أخيه. وهو نبي مثله، ولم يعاتبه الله على ذلك؛ كما عتب على آدم عليه السلام في أكل لقمة من الشجرة.

وأما غير الانبياء، فمن انواع الاجتباء لهم: ان يعصم الله عبده وهو مستشرف للجفاء، اضطراراً، بتنغيص الشهوات، وتعويق الملاذ، وسد مسالك العطب عليه إكراهاً.

وذلك ان العبد الصادق اذا استشرفت نفسه للجفاء بينه و بين الله تعالى بموافقة شهواته، في لحظة غفلة: عصمه الله اضطراراً، بأن ينغص عليه الشهوات، فلا تصفو له البتة، بل لاينال منها إلا مشوباً بأنواع التنغيص، الذي ربما اربى على لذتها واستهلكها، بحيث تكون اللذة في جنب التنغيص كالخلسة والغفوة، ليكرهها. وكذلك يعوق الملاذ عليه بأن يحول بينه و بينها، حتى لايركن اليها، ولايطمئن اليها و يساكنها، فيحول بينه و بين اسبابها.

● محمد الكامل صلى الله عليه وسلم

وأكمل من اجتباه الله تعالى من الانبياء عليهم السلام: محمد صلى الله عليه وسلم.

فموسى عليه السلام: كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، وكان من أعظم خلق الله هيبة و وقارا، وأشدهم بأساً وغضباً لله، و بطشاً باعداء الله.

وعيسى صلى الله عليه وسلم: كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فضل واحسان. وكان لايقاتل، ولايحارب. وليس في شريعته قتال ألبتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الانجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك. فأعطه رداءك. ومن سخرك ميلاً. فامش معه ميلين» ونحو هذا.

أما نبينا صلى الله عليه وسلم. فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل ايجابا له وفرضا و بالفضل ندباً اليه واستحباباً. و بالشدة في موضع الشدة. و باللين في موضع اللين. ووضع السيف موضعه. ووضع الندى موضعه. فيذكر الظلم ويحرمه. والعدل و يوجبه. والفضل و يندب اليه في بعض آيات. كقوله تعالى (٤٢:٤٠ وجزاء سيئة سيئةٌ مثلُها) فهذا عدل (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فهذا فضل (إنه لايحب الظالمين) فهذا تحريم للظلم. وقوله (١٦:١٢٦ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) فهذا ايجاب للعدل، وتحريم للظلم (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ندب الى الفضل. وقوله (٢:٢٧٩، ٢٨٠ فإن تبتم فلكم رؤوسُ أموالكم. لاَ تَظْلِمونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ) تحريم للظلم (وإن كان ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ الى ميسرة) عدل (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) فضل

• أمة محمد الكاملة ... خير الامم

وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع. فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضَلّتْ عنه الأمم قبلهم. ووهب لهم من علمه وحلمه. وجعلهم خير أمة أُخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن مافرقه في الأمم قبلهم. كما كمل لنبيهم صلى الله عليه وسلم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله. وكمل في كتابه من المحاسن ما فرقها في الكتب قبله. وكذلك في شريعته.

فهؤلاء هم المُجتبون الأخيار. كما قال تعالى (٢٢:٧٨ **هو اجتباكم. وما جعل عليكم في الدين من حرج**) وجعلهم شهداء عَلَى الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.



(٤٣) منزلة الإحسان

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «الاحسان»

وهي لب الايمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. وكل ماقيل من أول الكتاب الى هٰهنا فهو من الإحسان.

وقد استشهد على هذه المنزلة بقوله تعالى (٥٥:٦٠ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان)، وبحديث (ان تعبد الله كأنك تراه).

وقال ابن عباس والمفسرون: هل جزاء من قال «لا إلٰه إلا الله» وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ (**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**) ثم قال «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟**».

وأما الحديث: فإشارة الى كمال الحضور مع الله عز وجل. ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة اليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الايمان.

قال شيخ الاسلام الهروي:

واول درجاته: «الإحسان في القصد بتهذيبه علما، وإبرامه عزماً».

أي أن احسان القصد يكون بشيئين:

أحدهما: تهذيبه علماً، بأن يجعله تابعاً للعلم على مقتضاه مُهَذَّبا به، مُنَقًّى من شوائب الحظوظ. فلا يقصد إلا مايجوز في العلم. و«العلم» هو اتباع الأمر والشرع.

والثاني: إبرامه عزماً. و«الابرام» الإحكام والقوة. أي يقارنه عزم يمضيه، ولايصحبه فتور وتوان يضعفه و يوهنه

● فقه العمل السري

ومن درجاته: الاحسان في الاحوال، وهو ان يستر مايهبه الله من حفظ وصيانة واجتباء، فيسترّها عن الناس ما أمكنه، لئلا يعلموا بها. ولايظهرها إلا لحجة، أو حاجة، أو مصلحة راجحة. فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة. مع تعريضها للّصوص والسراق والمغيرين والحاسدين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين: حمق وعجز. وهو من حظوظ النفس والشيطان. وأهل الصدق والعزم لها أستر، وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم.

● مهاجرون أبدا

واعلى الاحسان: الاحسان في الوقت، وهو ان تجعل هجرتك الى الحق سرمدا، إذ كل متوجه الى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من المهاجرين اليه. فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة، بل ينبغي أن يصحبها سرمدا. حتى يلحق بالله عز وجل.

فما هي الا ساعة . ثم تنقضي   ويحمد غِبَّ السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان . وهما فرض لازم له على الأنفاس.

هجرة الى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص، والانابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة الى رسوله صلى الله عليه وسلم: بالتحكيم له والتسليم والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته. فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل، ومتاهات الطريق.

فمن لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحثُ على رأسه الرماد. وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقتبس نورا، قبل أن يُحال بينه و بينه، و يقال له ذلك على الصراط من وراء السور . والله المستعان.

(٤٤) منزلة العلم

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «العلم».

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه فى الطريق إلى آخر قدم ينتهى إليه: فسلوكه على غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها. وهذا إجماع من شيوخ العارفين. ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس وشُرطه.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال: من لم يحفظ القرآن و يكتب الحديث، لا يقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

وقال أبو حفص رحمه الله: من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره. فلا يعد فى ديوان الرجال.

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء فهو عيش النفس.

وقال أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله: من عمل عملا بلا اتباع سنة، فباطل عمله.

وقال أبو عثمان النيسابورى رحمه الله: الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع الرسول صلى الله وعليه وسلم: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم. ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة. ومع الأهل: بحسن الخلق. ومع الإخوان: بدوام البشر. مالم يكن إثما. ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة.

زاد غيره: ومع الحافظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما ما يحمدانك عليه. ومع النفس: بالمخالفة. ومع الشيطان: بالعداوة .

وقال أبو عثمان أيضاً: من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا: نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلاً: نطق بالبدعة. قال الله تعالى (٢٤: ٥٤ وإن تطيعوه تهتدوا).

وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد. والخوف سائق. والنفس حَرون بين ذلك، جموح خداعة رواغة. فاحذرها وراعها بسياسة العلم. وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

● اخبرنا . . . . أول علومنا

وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه. كقول من قال «نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت».

وقول الآخر — وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ — فقال: مايصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يسمع من الخلاق؟

ونحو هذا من الكلمات: فجهل وكلام شيطاني، وإلا فلولا عبد الرزاق وامثاله من رواة الحديث لما وصل الى هذا وامثاله شيء من الاسلام.

ومن أحالك على غير «أخبرنا» و «حدثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي. أو رأي نفسي. فليس بعد القرآن و «أخبرنا» إلا الشبهات، ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل. ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم.

و «العلم» خير من «الحال» ، فنفع الحال لايتعدى صاحبه. ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام و بطون الأودية ومنابت الشجر.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه. وربما ضاقت عنه.

والعلم هاد والحال الصحيح مهتد به. والعلم تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم وورائهم، وهو حياة القلوب. ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح. وأنس المستوحشين. ودليل المتحيرين. وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يعرف الله و يعبد، و يذكر و يوحد، ويحمد ويمجد. و به اهتدى إليه السالكون. ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، و يتميز الحلال من الحرام. و به توصل الأرحام و به تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة، والأنيس فى الوحشة. والكاشف عن الشبهة. والغنى الذى لا فقر على من ظفر بكنزه. والكنف الذى لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

- مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قربة. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام بالقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضى الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب. لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.
وروينا عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.
ونص على ذلك أبو حنيفة رضى الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدى مالك رضى الله عنه. فوضعت ألواحى وقمت أصلى. فقال: ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.
ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجلّ مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفى ضمن ذلك تعديلهم. فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.

ومن هٰهنا ــ والله أعلم ــ يؤخذ الحديث المعروف «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله. ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين».

وهو حجة الله فى أرضه. ونوره بين عباده. وقائدهم ودليلهم إلى جنته. ومدنيهم من كرامته.
ويكفى فى شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلهم بها.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب فى سفرهما فى طلب العلم. حتى ظفر بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال (٢٠: ١١٤ وقل رب زدنى علماً).

• انواع العلم

والعلم نوعان:

فمنه: علم جَلِيٌّ، يدرك بالعيان، او باستفاضة صحيحة، او صحة تجربة قديمة.

اي ان هذا العلم الجلي ثلاثة انواع:

أحدها: ماوقع عن عيان. وهو البصر.

والثاني: ما استند إلى السمع. وهوعلم الاستفاضة.

والثالث: ما استند إلى العقل. وهوعلم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة ـــ وهي السمع، والبصر، والعقل ـــ هي أهم طرق العلم وابوابه، ولا تنحصر طرق العلم فيها، فان سائر الحواس توجب العلم، اذ يلحق بها مايُدرك بالباطن، وهي الوجدانيات، وكذا مايدرك بخبر المخبر الصادق، وان كان واحدا، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجربة.

ثم من العلم: علم خفي، ينبت في القلوب الطاهرة، من الابدان الزاكية، بماء الرياضة الخالصة. و يظهر لاهل الهمة العالية، في الأحايين الخالية، والاسماع الصاخية.

وهذا العلم خفي على اهل النوع الاول، وهو المسمى بالمعرفة. فهوينبت في القلوب الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها، وعلائقها التى تعوق الأ رواح عن ديار الأفراح. فإن هذه أكدار، وتنفسات فى وجه مرآة القلب والروح. فلا تنجلى فيها صور الحقائق كما يبغى. والنفس تَتَفَّس فيها دائما بالرغبة في الدنيا والرهبة من فوتها. فإذا جُليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت. وظهرت فيها الحقائق والمعارف.

ولا تحمل هذه القلوب إلا الابدان الزاكية التى زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال. فمتى خلصت الأ بدان من الحرام، وأدناس البشرية، التى ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا: زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم والمعارف. فإن سُقيت ـــ بعد ذلك ـــ بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية ـــ وهى التى لا تخرج عن علم، ولا تـعد عن واجب. ولا تعطل سنة ـ أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة وتعرف. فاجتنى منها صاحبها ومَنْ جالسه أنواعَ الطُّرَف والفوائد، والثمار مختلفة الألوان، والأذواق.

وأما «الهمم العالية» فهى التى لا تقف دون الله عز وجل. ولا تُعَرِّج فى سفرها على شيء سواه. وأعلى الهمم: ما تعلق بالعلى الأعلى. وأوسعها: ما تعلق بصلاح العباد. وهى همم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وورثتهم.

و «الاسماع الصاخية» هي التي صحت من تملقها بالباطل واللغو، واصاخت لدعوة الحق ومنادي الايمان.

وان شئت فقل ان هذا العلم الخفي هو الالهام والفهم الخاص الذي هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله، و بذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، كما قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ــ وقد سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟ ــ فقال: «لا، والذي فلق الحبة، و برأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه».

او ان شئت فقل في هذا العلم انه البصيرة، وهي التي تكون نسبة العلوم فيها الى القلب كنسبة المرئي الى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة. وهى أعلى درجات العلماء. قال تعالى **(١٢: ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)** أى أنا وأتباعى على بصيرة.

وقيل «ومن اتبعنى» عطف على المرفوع «بأدعو» أى أنا أدعو إلى الله على بصيرة. ومن اتبعنى كذلك يدعو إلى الله على بصيرة.

وعلى القولين فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة. فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

او قل: هي «الحكمة».

قال الله تعالى **(٢: ٦٩ يؤتي الحكمة من يشاء. ومن يؤت الحكمة فقد أُوتِيَ خَيْراً كثيراً)** وقال تعالى **(٤: ١١٣ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة. وعلمك مالم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيما)** وقال عن المسيح عليه السلام **(٣: ٤٨ و يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل)**.

و «الحكمة» فى كتاب الله نوعان: مفردة. ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضى الله عنهما «هى علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه. وأمثاله».

وقال الضحاك: هى القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هى القرآن والعلم والفقه. وفى رواية أخرى عنه: هى الإصابة فى القول والفعل.

وقال النخعي: هى معانى الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع فى دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهى السنة. كذلك قال الشافعى وغيره من الأئمة.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

و «الحكمة» حكمتان: علمية، وعملية. فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خَلقاً وأمراً. قدراً وشرعاً، والعملية هي وضع الشيء في موضعه.

واساس الحكمة: ان تعطيَ كل شيء حَقَّه، ولا تعديه حدّه، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه، فانه لما كانت الاشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها. ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر ــ كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاثة. بأن تعطى كل مرتبة حقها الذى أحقه الله لها بشرعه وقدره. ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة. ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة. ولا تؤخرها عنه فتفوتها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدى الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع و يفسد. وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله.

فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغى، على الوجه الذى ينبغى، في الوقت الذى ينبغى.

والله تعالى أورث الحكمة آدم و بنيه. فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل ــ كالمرأة ــ له نصف ميراث. والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وأكملهم أولو العزم. وأكملهم محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة. كما قال تعالى (٤: ١١٣ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم**) وقال تعالى (٢: ١٥١ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا، و يزكيكم، و يعلمكم الكتاب والحكمة، و يعلمكم مالم تكونوا تعلمون**).

فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود، وفي العبد فسببه: الإخلال بها. فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً. وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثاً.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول. والله أعلم.

وإنما تكمل الحكمة بأن تشهد نظر الله في وعده. وتعرف عدله في حكمه. وتلحظ بره في منعه.

أي تعرف «الحكمة» في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه في قوله (٤: ٤٠ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة. وإن تك حسنة يضاعفها. ويؤت من لدنه أجراً عظيما**) فتشهد عدله في وعيده، وإحسانه في وعده.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلائق. فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور. وإن أجراها على أيدي الظلمة. فهو أعدل العادلين. ومن جرت على يديه هو الظالم.

وكذلك «تعرف برّه في منعه».

فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه. فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة في ذلك. فإنه الجواد الحكيم. وحكمته لا تناقض جوده. فهو سبحانه لا يضع برّه وفضله إلا في موضعه ووقته. بقدر ما تقتضيه حكمته. ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا. ولو علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان، وشكراً له عليها، ومحبة له واعترافاً بها، لهداهم إلى الإيمان. ولهذا لما قالوا للمؤمنين (٦: ٥٣ **أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا؟**) أجابهم بقوله (**أليس الله بأعلم بالشاكرين؟**).

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته. ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

(٤٥) منزلة الفراسة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الفراسة».

قال الله تعالى (١٥: ٧٥ إن فى ذلك لآيات للمتوسِّمين) قال مجاهد رحمه الله: للمتفرسين: وقال ابن عباس رضى الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافى بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر فى آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالى فى حق المنافقين (٤٧: ٣٠ ولو نشاء لأريناكهم فلعرَفْتهم بسيماهم. ولتعرفنهم فى لَحْن القول) فالأول: فراسة النظر والعين. والثانى: فراسة الأذن والسمع.

و «اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان. أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض».

والثانى: التعريض والاشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه. وهو مما يشتهى السامعون يوزن وزنا

منطق صائب. وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا

والثالث: فساد المنطق فى الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفى لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما فى ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما فى وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع. وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى (١٥: ٧٥ إن في ذلك لآيات للمتوسمين)».

وفراسة المؤمنين صادقة دائماً.

وسببها: نور يقذفه الله فى قلب عبده. يفرق به بين الحق والباطل، والصادق ، والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفى ما يضاده. يثب على القلب كوثب الأسد على الفريسة. لكن «الفريسة» فعيلة بمعنى مفعولة. و بناء «الفراسة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «الفراسة» على حسب قوة الايمان. فمن كان أقوى إيماناً فهو أحَدُّ فراسة.

وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرمانى حاد الفراسة لا يخطىء و يقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال: لم تخطىء فراسته.

وقال أبو جعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه. فهو خاطر وحديث نفس.

وقال المروي: لا يصدق منها إلا فراسة تُجنى من غرس الايمان.

فشبّه الإيمان بالغرس، لأنه يزداد و ينمو، و يزكو على السقى. و يؤتى أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت فى الأرض. وفروعه فى السماء. فمن غرس الإيمان فى أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الغِرّاس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة: كان من بعض ثمره الفراسة.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز فى يوسف، حيث قال لامرأته (١٢: ٢١ **أكرمى مثواه. عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**) وابنة شعيب حين قالت لأ بيها فى موسى (٢٨: ٣٦ **استأجره**) وأبو بكر فى عمر رضى الله عنهما، حيث استخلفه. وفى رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت (٢٨: ٩ **قرة عينٍ لى ولك، لا تقتلوه. عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**).

وكان الصديق رضى الله عنه أعظم الأمة فراسة. و بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ووقائع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء «أظنه كذا» إلا كان كما قال. و يكفى فى فراسته: موافقته ربه فى المواضع المعروفة، مما كان في شأن اسرى بدر، ونحوها.

ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه. فقال «لقد أخطأ ظنى، أو أن هذا كاهن؛ أو كان يعرف الكهانة فى الجاهلية» فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر. فقال «سبحان الله، ياأمير المؤمنين، ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به. فقال له عمر رضى الله عنه: ما كنا عليه فى الجاهلية أعظم من ذلك. ولكن أخبرنى عما سألتك عنه. فقال: صدقت ياأمير المؤمنين. كنت كاهناً فى الجاهلية. ثم ذكر القصة».

وفراسة الصحابة رضى الله عنهم أصدق الفراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك، و يستنير، فلا تكاد فراسته تخطىء. قال الله (٦: ١٢٢ **أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟)** كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم. وجعل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضيء به في الناس على قصد السبيل. ويمشي به في الظلم. والله أعلم.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعينه. وأذنه. وقلبه. فعينه للسيماء والعلامات. وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه ومفهومه، وفحواه وإشارته، ولحنه وإيمائه ونحو ذلك. وقلبه للعبور: والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه. فيَعْبُرُ إلى ما وراء ظاهره، كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه: هل هو صحيح، أو زغل؟ وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّلّ، إلى باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث. فإنه يمر إسناد ظاهر كالشمس على متن مكذوب. فيخرجه ناقدهم، كما يخرج الصيرفي الزغل من تحت الظاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان. أحدهما: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والادلة على المتفَرَّس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطىء للعبد فراسة. وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة. وإذا قوى أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة. وله الوقائع المشهورة. وكذلك الشافعي رحمه الله. وقيل: إن له فيها تآليف.

(٤٦) منزلة التعظيم

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التعظيم»

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة. فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى فى القلب. وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيما وإجلالا. وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته. ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. وأقوالهم تدور على هذا. فقال تعالى **(٧١: ١٣ مالكم لا ترجون لله وقارا)** قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: مالكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة.

وقال ابن كيسان: لا ترجون فى عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً.

وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة. فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

واول التعظيم: تعظيم الامر والنهي، وهو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يُعَرَّضا لتشدد غال.

فهاهنا أمران ينافيان تعظيم الامر والنهي:

أحدهما: الترخص الذى يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذى يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافى عنه والغالي فيه. كالوادى بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافى عن الأمر: مضيع له، فالغالى فيه: مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله **(٥: ٧٧ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق)**.

و «الغلو» نوعان. نوع يخرجه عن كونه مطيعا. كمن زاد فى الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التى يرمى بها فى المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً، أو نحو ذلك عمداً.

وعدو يخاف منه الانقطاع والاستحسار كقيام الليل كله وسرد الصيام الدهر أجمع، بدون صوم ايام النهي. والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم «**إن هذا الدين يسر، ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا و يسروا. واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحَة، وشيء من الدُّلْجَة**» يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال صلى الله عليه وسلم «**لِيُصَلِّ أحدكم نَشاطَه. فإذا فَتَر فليرقد**» رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «**هلك المتنطعون ــ قالها ثلاثا ــ وهم المتعمقون المتشددون**».

وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم «**عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملوا**»

وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «**إن هذا الدين متين. فأَوْغِلْ فيه برِفق. ولا تُبَغِّضَنَّ إلى نفسك عبادة الله**» أو كما قال.

واعظم التعظيم: تعظيم الحق سبحانه، وهو ان لا يجعل دونه سبباً، ولا يرى عليه حقاً.

فهذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والاولى تتضمن تعظيم أمره.

وإنما تكون بأمرين:

أحدهما: أن لا تجعل للوصلة إليه سبباً غيره. بل هو الذي يوصل عبده إليه، فلا يوصل إلى الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه. ولا يُدْنِي إليه غيره، ولا يتوصل إلى رضاه إلا به. فما دل على الله إلا الله، ولا هدى إليه سواه. ولا أدنى إليه غيره. فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سبباً. والسبب وسببيته وإيصاله: كله خلقه وفعله.

والثاني: ان لا ترى لأحد من الخلق ــ لالك ولا لغيرك ــ حقاً على الله، بل الحق لله على خلقه.

وأما حقوق العبيد على الله تعالى: من إثابته لمطيعهم، وتوبته على تائبهم، وإجابته لسائلهم: فتلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه، بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقوها هم عليه. فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده و بره، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه.

(٤٧) مَنْزِلَةُ السَّكِينَةِ

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين، منزلة «السكينة»

هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» التي معناها الطمأنينة في خمسة مواضع.

الأول: قوله تعالى (٩:٢٧ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**).

الثاني: قوله تعالى (٩:٤١ **إذ يقول لصاحبه: لاتحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه. وأيده بجنود لم تروها**).

الثالث: قوله تعالى (٤٨:٤ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم. ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما**).

الرابع: قوله تعالى (٤٨:١٨ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة. فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم. وأثابهم فتحاً قريباً**).

الخامس: قوله تعالى (٤٨:٢٦ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حَمِيَّةَ الجاهلية. فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**) الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة.

وقد جربت أنا أيضا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هى الطمأنينة والوقار، والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه. و يوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه فى الغار والعدو فوق رأسيهما. لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حُنَين، حين وَلَّوْا مدبرين من شدة بأس الكفار، لايَلْوِى أحد منهم على أحد وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكُّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت

شروطهم التي لا تحملها النفوس. وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها ـــ وهو عمر ـــ حتى ثبته الله بالصديق رضي الله عنه.

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه. وهو يرتجز بكلمة عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا»

وفي صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة «إني باعث نبياً أمياً، ليس بفَظٍّ ولا غليظ، ولا صَخَّاب في الأسواق، ولا مُتَزَيِّن بالفحش، ولا قَوّال للخَنا. أُسَدِّده لكل جميل. وأهَبُ له كل خُلُقٍ كريم. ثمّ أجعل السكينة لباسه، والبِرَّ شِعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقولته، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته. والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمَدَ اسمه».

• لسان الحكمة تُنطقه السكينة

«السكينة» إذا نزلت على القلب اطمأن بها. وسكنت إليها الجوارح. وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل. قال ابن عباس رضي الله عنهما «كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه» .

وكثيراً ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا رواية ولا همة، ويستغربه هو من نفسه. كما يستغرب السامع له. وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة. وصدق الرغبة من السائل والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين.

• السكينة نور وقوة وروح

وقال شيخ الاسلام ابو اسماعيل الهروي رحمه الله:

«السكينة: هي التي نزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وقلوب المؤمنين. وهي شيء يجمع قوة وروحاً، يسكن إليه الخائف. و يتسلى به الحزين والضجر. و يسكن إليه العصي والجريء والأبي».

هذا من عيون كلامه وغرره الذى تثنى عليه الخناصر. وتعقد عليه القلوب.

فذكر: أن هذا الشيء الذى أنزله الله فى قلب رسوله صلى الله عليه وسلم. وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معان: النور، والقوة، والروح.

وذكر له ثلاث ثمرات: سكون الخائف إليه، وتسلي الحزين والضجر به، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه.

فبالروح الذى فيها: حياة القلب. و بالنور الذى فيها: استنارته، وضياؤه واشراقه. و بالقوة: ثباته وعزمه ونشاطه.

فالنور: يكشف له عن دلائل الايمان، وحقائق اليقين. ويميز له بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشد، والشك واليقين.

والحياة: توجب كمال يقظته وفطنته، وحضوره وانتباهه من سِنَة الغفلة. وتأهبه للقائه.

والقوة: توجب له الصدق، وصحة المعرفة، وقهر داعي الغَيِّ والعَنَت، وضبط النفس عن جزعها وهلعها، واسترسالها فى النقائص والعيوب. ولذلك ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه.

والإيمان: يثمر له النور، والحياة والقوة. وهذه الثلاثة تثمره ايضا. وتوجب زيادته. فهو محفوف بها قبلها و بعدها.

فبالنور: يكشف دلائل الإيمان. و بالحياة: ينتبه من سنة الغفلة. و يصير يقظاناً. و بالقوة: يقهر هوى النفس، والشيطان. كما قيل:

وتلك مواهب الرحمن ليست	تحصَّل باجتهاد ، أو بكسب
ولكن لا غنى عن بذل جهد	بإخلاص وجد ، لا بلعب
وفضل الله مبذول . ولكن	بحكمته ، وعن ذا النصُّ يُنْبي
فما من حكمة الرحمن وضع الـ	كواكب بين أحجار وتُرْب
فشكراً للذى أعطاك منه	فلو قُبِلَ المحلُّ لزاد ربي

فإذ حصلت هذه الثلاثة بالسكينة ــ وهي النور، والحياة، والروح ــ سكن إليها العصي.

وهو الذى سكونه إلى المعصية والمخالفة. لعدم سكينة الإيمان فى قلبه صار سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد فيها مطلوبه. وهو اللذة التى كان يطلبها من المعصية. ولم يكن له ما يعيضه عنها. فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها، ونعيمها عن لذة المعصية. فاستراحت بها نفسه. وهاج إليها قلبه. ووجد فيها من الروح والراحة واللذة مالا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذته روحانية قلبية. بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها، وحبس عنها وخلصته. فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرق نجدياً . فقلت له: ياأيها البرق ، إنى عنك مشغول

وإذا طرقته طيوفها الخيالية فى ظلام ليل الشهوات، نادى لسان حاله، وتمثل بمثل قوله:

طرقتك صائدة القلوب. وليس ذا   وقت الزيارة . فارجعى بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل، ووعدته بالموافاة، تمثل بقول الآخر:

قالت ـــ وقد عزمت على ترحالها ـــ ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجعى

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه. وهو قوله «يسكن إليها الخائف» وسلت حزنه. فإنها لا حزن معها. فهى سلوة المحزون. ومذهبة الهموم والغموم. وكذلك تذهب عنه وخم ضجره. وتبعث نشوة العزم، وتحول بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر، وتورثه وقاراً وخشوعا.

ومن معاني السكينة ايضاً: السكينة عند المعاملة، بمحاسبة النفوس، وملاطفة الخلق، ومراقبة الحق.

وهذا المعنى هو الذي يحوم عليه السالكون، والعَلَم الذي يشمّرون اليه للمعاملة التى بينهم وبين الله، وبينهم وبين خلقه . وتحصل بثلاثة أشياء.

أحدها: محاسبة النفس، حتى تعرف مالها وما عليها. ولا يدعها تسترسل فى الحقوق استرسالا، فيضيعها و يهملها.

وأيضاً فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها. فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن رضى الله عنه: إن المؤمن ـــ والله ـــ لا تراه إلا قائماً على نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت ؟. ؟ ماأردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ مالى ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا. ونحو هذا من الكلام.

فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعى فى إصلاحها.

الثانى: ملاطفة الخلق: وهى معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف. ولايعاملهم بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه. و يغريهم به. و يفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبى،

فتكسب مودته ومحبته. وأما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وأما عدو ومبغض، فتطفيء بلطفك حرته. وتستكفي شره. و يكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك ضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه. وهي المقصود لذاته. وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه. فمراقبة الحق سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

(٤٨) منزلة الطمأنينة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الطُّمَأْنينة»

قال الله تعالى (١٣: ٢٨ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب**) وقال تعالى (٨٩: ٢٧ ـ ٣٠ **ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**).

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشيء. وعدم اضطرابه وقلقه. ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع. ويجد عنده سكوناً إليه. والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «**البر ما اطمأن إليه القلب**» أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان :

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه. فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

والقول الثاني، وهو الأصح: أن ذكر الله ههنا القرآن. وهو ذكره الذي أنزله على رسوله. به طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين. ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن. فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه. واضطرابه وقلقه من شكه. والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به.

ومستحيل أن يتمتع بالقرآن وهداه: من لم يفقهه ويتدبره حق تدبره، ويتلوه حق تلاوته. ولا يمكن أن يصح ذلك ويتحقق إلا لمن كان قلبه بصيراً حاضراً مع ربه بآثار أسمائه وصفاته في سننه الكونية في نفسه وفيما حوله في كل حركة وسكنة وشأن.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى (٤٣: ٣٦ **وَمَنْ يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانا فهو له قرين**).

والصحيح: أن ذكره الذى انزله على رسوله ــ وهو كتابه ــ من أعرض عنه: قيّض له شيطانا يُضِلُّه و يصده عن السبيل. وهو يحسب أنه على هدى.

وكذلك القولان فى قوله تعالى (٢٠: ١٢٤ ــ ١٢٦ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى**).

والصحيح: أنه ذكره الذى أنزله على رسوله ــ وهو كتابه ــ ولهذا يقول المعرض عنه (**رب لِمَ حَشَرْتَنى أعمى. وقد كنت بصيرا؟ قال: كذلك. أتتك آياتنا فنسيتها. وكذلك اليوم تُنسَى**).

وجعل الله سبحانه الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة. فطوبى لهم وحسن مآب.

وفى قوله تعالى (**ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك**) دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة. فهناك ترجع اليه. وتدخل في عباده. وتدخل في جنته. وكان من دعاء بعض السلف «اللهم هَبْ لي نفساً مطمئنة إليك».

● وختامها . . . . أمن

وحاصل الطمأنينة: سكون يُقَوِّيه أمن صحيح، شبيه بالعيان.

فالطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة، وهي سكون القلب مع قوة الامن الصحيح الذى لا يكن أمن غرور. فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور. ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له. و «الطمأنينة» لا تفارقه، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال: اطمأن بالمكان والمنزل: إذا أقام به.

وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون: شبهه بالعيان. بحيث لا يبقى معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام. بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به. فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه.

وفرق ما بينها وبين السكينة: ان «السكينة» تصول على الهيبة الحاصلة فى القلب. فتخمدها فى بعض الأحيان. فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون. وذلك في بعض الأوقات. فليس حكماً دائماً مستمراً. وهذا يكون لأهل «الطمأنينة» دائما. و يصحبه الأمن والراحة بوجود الانس. فإن الاستراحة في «السكينة» قد تكون من الخوف والهيبة فقط. والاستراحة في منزل «الطمأنينة» تكون مع زيادة أنس. وذلك فوق مجرد الأمن، وقدر زائد عليه.

كذلك فإن «الطمأنينة» أعم، فإنها تكون في العلم والخبر به، واليقين والظفر بالمعلوم. ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به، ومعرفته والهداية به في ظُلَم الآراء والمذاهب. واكتفت به منها، وحكَّمته عليها وعزلتها. وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله. فبه خاصمت، وإليه حاكمت وبه صالت، وبه دفعت الشُّبَه.

وأما «السكينة» فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونه وزوال قلقه واضطرابه، كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته. والله سبحانه أعلم.

وأشد ما تكون الطمأنينة على عبد أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله — ولا سيما من أقيم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقطاع الطريق إليه — فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه. فلابد أن يدركه الضجر، ويضعف صبره. فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته. فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدري. ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته. فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم. وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان، فإن المحذور والمخوف إن لم يُقَدَّر فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره. فلا جزع حينئذ — لا مما قدر ولا مما لم يقدر.

نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة. فلا ينبغي أن يضجر عنها، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغي أن يضجر منها.

كما أنها أشد ما تكون على المبتلى، فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض. وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب. وقد تقوى ملاحظة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة، ولا تستبعد هذا. فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به. وملاحظته لنفعه تغيبه عن تألمه بمذاقه أو تخففه عنه. والعمل المعول عليه: إنما هو على البصائر. والله أعلم.



(٤٩) منزلة الهمة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الهِمّة»

و «الهِمّة» فِعْلَة من الهَمّ. وهو مبدأ الإرادة. ولكن خصوها بنهاية الإرادة. فالهَمُّ مبدؤها. والهِمّة نهايتها.

والعامة تقول: قيمة كل امرىء ما يحسن. والخاصة تقول: قيمة كل امرىء ما يطلب، فإن قيمة المرء همته ومطلبه.

والمراد : أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلباً صادقاً خالصاً محضاً. فتلك هي الهمة العالية، التي لا يقدر معها على المهلة، ولا يتمالك صبره، لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود، ولا يلتفت عنها، إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وظفره بمطلوبه. مالم تعقه العوائق وتقطعه العلائق. والله أعلم.

● هذه الدنيا . . . . موحشة

وأول درجات الهمة : همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني، وتحمله على الرغبة في الباقي، وتُصفيه من كَدَر التواني.

و «الفاني»: الدنيا وما عليها. أي يزهد القلب فيها وفي أهلها. والرغبة فيها «وحشة» لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

وأما الراغبون فيها: فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم. إذ فاتها ما خلقت له. فهي في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم. لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم. ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه. ولذلك كان من نازع الناس أموالهم، وطلبها منهم: أوحش شيء إليهم وأبغضه.

وأيضا: فالزاهدون فيها: إنما ينظرون إليها بالبصائر. والراغبون: ينظرون إليها بالأبصار. فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب. كما قيل:

وإذا أفاق القلبُ وَانْدَمَلَ الهوى   رأت القلوبُ ، ولم تر الأبصار

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة في الباقي لذاته. وهو الحق سبحانه. والباقي بإبقائه: هو الدار الآخرة.

ثم تصفيه من كدر التواني، أي تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. والله أعلم.

وتعلو الهمة حتى تورث أنَفَة من المبالاة بالعلل، والثقة بالأمل.

و «العلل» هاهنا: هي علل الاعمال: من رؤيتها ورؤية التعظيم، ونحو ذلك.

فصاحب هذه الهمة: يأنف على همته، وقلبه من أن يبالي بالعلل. فإن همته فوق ذلك. فمبالاته بها، وفكرته فيها: نزول من الهمة.

وعدم هذه المبالاة: إما لأن العلل لم تحصل له. لأن علو همته حال بينه و بينها. فلا يبالي بما لم يحصل له. وإما لأن همته وسعت مطلوبه، وعلوه يأتي على تلك العلل، و يستأصلها. فإنه إذا علق همته بما هو أعلى منها تضمنتها الهمة العالية. فاندرج حكمها في حكم الهمة العالية. وهذا موضع غريب عزيز جداً.

والهمام يأنف ان ينزل من سماء مطلبه العالي، فهو في سفر دائم بالقلب الى الله، ليحصل له و يفوز به. فإنه طالب لربه تعالى طلباً تاما بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه و يقظته، وحركته وسكونه، وعزلته وخلطته، وسائر أحواله. فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيَّماً صِبْغَة. وهذا الامر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة. وأحدهم لايقنع بمُجَرَّد رسوم الاعمال، ولايقف عند عوض ولا درجة. فإن ذلك نزول من همته. ومطلبه أعلى من ذلك. فإن صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى، الذي لاشيء أعلى منه. والأعواض والدرجات دونه، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما أنفته من الثقة بالأمل: فإن الثقة توجب الفتور والتواني. وصاحب هذه الهمة: ليس من أهل ذلك، كيف؟ وهو طائر لاسائر. والله اعلم.

(٥٠) منزلة المحبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المحبة»

وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون. وإليها شخص العاملون. وإلى عَلَمها شمر السابقون. وعليها تفانى المحبون. وبِرَوْح نسيمها تروّح العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح. وقرة العيون. وهي الحياة التي مَنْ حرمها فهو من جملة الأموات. والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات. والشفاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي سِمَة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق. وقعد من سواهم على الرسوم.

وهي عنوان طريقتهم ودليلها. فإن العنوان يدل على الكتاب، والمحبة تدل على صدق الطالب، وأنه من أهل الطريق.

كما أنها «معقد النسبة» أي النسبة التي بين الرب وبين العبد. فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد. والربوبية من الرب. وليس في العَبْد شيء من الربوبية، ولا في الرب شيء من العبودية. فالعبد عبد من كل وجه. والرب تعالى هو الإلٰه الحق من كل وجه.

ومَعْقِد نسبة العبودية هو المحبة. فالعبودية معقودة بها، بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية. والله أعلم.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال. التي متى خَلَت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بِشِقّ الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها. وتُبَوّؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائما إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله ــ يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة ــ: أن المرء مع من أحب. فيالها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السعاة ، وهم على ظهور الفرش نائمون. وقد تقدموا الركب بمراحل، وهم فى سيرهم واقفون.

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رو يدا؟ وتجي فى الأ ول

أجابوا منادى الشوق إذ نادى بهم: حَيَّ على الفلاح. و بذلوا نفوسهم فى طلب الوصول إلى محبوبهم. تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم. وإنما يحمد القوم السُّرَى عند الصباح.

فحيَّهلاً، إن كنت ذا همة. فقد	حدابك حادى الشوق فاطْو المراحلا
وقل لمنادى حبهم ورضاهم	إذا مادعا «لبيك» ألفاً كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم. فإن	نظرت إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا
ولا تنتظر بالسير رُفقة قاعد	ودَعْه. فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهمُ زاداً إليهم. وسِرْ على	طريق الهدى والفقر تصبح واصلا
وخذ قَبَساً من نورهم. ثم سِرْ به	فنورهم يهديك. ليس المشاعلا
وخُذْ: يَمْنة عنها على المنهج الذى	عليه سرى وفد المحبة آهلا
وقل: ساعدى، يانفس بالصبر ساعة	فعند اللقا ذا الكدُّ يصبح زائلا
فما هى إلا ساعة. ثم تنقضى	و يصبح ذو الأحزان فرحان حاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح. فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟

بدم المحب يباع وصلهم فمن الذى يبتاع بالثمن؟

تالله ماهُزِلت فيستامها المفلسون. ولا كَسَدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعَرض فى سوق من يزيد. فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس. فتأخر البطالون. وقام المحبون ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمناً؟ فدارت السلعة بينهم. ووقعت فى يد **(٥: ٥٤ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)**.

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى. فلو يُعْطى الناس بدعواهم لادعى الخَلِيُّ حُرقة الشَّجِيّ. فتنوع المدعون فى الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيِّنة **(٣: ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)**.

فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب فى أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البينة بتزكية **(٥: ٥٤ يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم)**.

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم.

فهلموا إلى بيعة (٩: ١١١ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة).

فمن عرفوا عظمة المشترى، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأناً. فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضى، من غير ثبوت خيار. وقالوا «والله لا نقيلك ولا نستقيلك».

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معاً (٣: ١٦٩، ١٧٠ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً. بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله).

إذا غرست شجرة المحبة فى القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار. وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت فى قرار القلب. وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعى المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء (٣٥: ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه).

• من ذاق طعم المحبة ... عرفها

لا تحد المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء. فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من «المحبة».

وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها. فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة. وتنوعت بهم العبارات. وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.

وهذه المادة تدور فى اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها. حَبَب الأسنان.

الثانى: العلو والظهور. ومنه حَبَب الماء وحُبابه. وهو ما يعلوه عند المطر الشديد. وحَبَب الكأس منه.

الثالث. اللزوم والثبات. ومنه: حَبّ البعير وأحب، إذا برك ولم يقم.

قال الشاعر:

حلت عليه بالفلاة ضربا ضرب بعير السوء إذ أحبا

الرابع: اللب. ومنه: حبة القلب، للبه وداخله. ومنه: الحَبّة لواحدة الحبوب. إذ هى أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه حِبُّ الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة. فإنها صفاء المودة. وهيجان إرادات القلب للمحبوب. وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد. وثبوت إرادة القلب للمحبوب. ولزومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لُبّه، وأشرف ما عنده. وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وهمومه على محبوبه.

آثار المحبة وشواهدها

قيل: المحبة الميل الدائم، بالقلب الهائم.

وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة. والصحيحة والمعلولة.

وقيل: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب.

وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها.

وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب.

وهذا أيضاً موجبها ومقتضاها. وهو أكمل من الحدين قبله. فانه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة. فإنه إن لم تصحبه موافقة فمحبته معلولة.

وقيل: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك.

وقيل: معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة.

وهو لسهل بن عبد الله. وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها.

وقيل: أن تهب كُلّك لمن أحببت. فلا يبقى لك منك شيء وهو لأبي عبد الله القرشي. وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها والمراد. أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك. فتأخذه منه له.

• محبة ... عراقية

ومن اجمع ما قيل فيها: ماذكره ابو بكر الكتاني، قال: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى — أيام الموسم — فتكلم الشيوخ فيها. وكان الجنيد أصغرهم سنا. فقالوا: هات ما عندك ياعراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه. ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله. وإن نطق فعن الله. وإن تحرك فبأمر الله. وإن سكن فمع الله. فهو بالله ولله ومع الله.

فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد. جزاك الله ياتاج العارفين.

• كيف تتعلم المحبة؟

في الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. وهي عشرة.

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها — انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما تنتقي أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت ان فيه مزيدا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة. ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق.

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه. وطرف محبة الرب لعبده. والذي أجمع عليه العارفون: أنه يحبهم ، و أنهم يحبونه ، على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر. ولا نسبة لسائر المحاب إليها. وهي حقيقة «لا إله إلا الله» وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتمّ نصيب.

وجميع طرق الأدلة ـــ عقلاً ونقلا وفطرة، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداً ـــ تدل على إثبات محبة العبد لربه، والرب لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريباً من مائة طريق في كتابنا «روضة المحبين»، وذكرنا فيه فوائد المحبة، وما تثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والرد على من أنكرها. وبيان فساد قوله، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر، والغاية التي وجدوا لأجلها. فإن الخلق والأمر، والثواب، والعقاب: إنما نشأ عن «المحبة» ولأجلها. وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض. وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي. وهي سر التأليه. وتوحيدها: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم المنكرون: أن «الإله» هو الرب الخالق. فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية. ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية. وهو المحبة والتعظيم، بل كانوا يُؤلهون مع الله غيره. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

قال تعالى (٢: ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ندٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم. ثم قال (والذين آمنوا أشد حبا لله) وفي تقدير الآية قولان.

أحدهما «والذين آمنوا أشد حباً لله» من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: «والذين آمنوا أشد حباً لله» من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى «يحبونهم كحب الله» فإن فيها قولان.

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى يحبون الله، كما يحب المؤمنون الله. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ يرجح القول الأول، و يقول: إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي مُحْضَرَة معهم في العذاب (٢٦: ٩٧، ٩٨ تالله إن كنا لفي ضلال مبين: إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية. وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم. وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أي يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم.

وفي الآية معنى آخر ـــ والله أعلم ـــ هو أنهم يحبون أندادهم حباً من جنس محبة المؤمنين لله، وهي محبة ممتزجة بذل وتعظيم، وتقديس يحملهم على عبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم من الدين الخرافي.

و يصح ان يقال: بل سووهم به في خصائص الربوبية. وهي التشريع. كما قال الله عنهم (٩: ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) وفي قوله (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وفي حديث عدي بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرح ذلك، والمسألة مجرد خلاف في الاصطلاح، في معاني (الرب) و (الاله).

وقال تعالى (٣: ٣١ قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وهي تسمى آية المحبة. قال أبو سليمان الداراني: لما ادَّعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محنة (قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة (قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

وقال «يحببكم الله» إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول. وفائدتها وثمرتها: محبة المرسِل لكم. فما لم تحصل المتابعة. فليست محبتكم له حاصلة. ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى (٥: ٥٤ يأيها الذين آمنوا من يرتَدَّ منكم عن دينه، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبُّونَهُ. أذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين، أعِزَّةٍ عَلَى الكافرين. يجاهدون في سبيل الله. ولا يخافون لومة لائم) فقد ذكر لهم أربع علامات.

الاول والثانية: انهم: أذلة، أعزة. قيل: معناه أرقاء، رحماء مشفقين عليهم. عاطفين

عليهم. فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على» قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (٤٨: ٢٩ **أشداء على الكفار رحماء بينهم**).

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية　　يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى (١٧: ٥٧ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب — إلى قوله — محذوراً**) فذكر المقامات الثلاث: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً: أنك لا تتنافس إلا في قرب من تحب قربه، وحُبّ قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته اوجبت محبة القرب منه، اذ فيها حياة القلوب، ونعيم الارواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

وقال تعالى (٦: ٥٢ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**). وقال أحبابه وأولياؤه (٧٦: ٨ **إنما نطعمكم لوجه الله. لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً**).

وقال تعالى (٥٢: ٢٠، ٢١ **وما لأحد عنده من نعمة تُجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**) فجعل غاية أعمال الابرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى (٣٣: ٢٩ **وإن كُنتنّ تُردنَ الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما**) فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يدعو «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد. وأسألك قرّة عين لا تنقطع. وأسألك الرضى بعد القضاء وبَرْدَ العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مُضِلَّة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين**».

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه.

وفى الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود فى الكفر ــ بعد إذ أنقذه الله منه ــ كما يكره أن يلقى فى النار».

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها. ولئن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذنى لأعيذنه» وفى الصحيحين عنه أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم «إذا أحبَّ الله العبد دعا جبريل، فقال: إنى أحب فلانا فأحبه . فيحبه جبريل. ثم ينادى فى السماء، إن الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول فى الأرض». وذكر فى البغض عكس ذلك.

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها فى حديث أمير السرية الذى كان يقرأ «قل هو الله أحد» لأصحابه فى كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن. فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أخبروه: أن الله يحبه».

وفى جامع الترمذى من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان من دعاء داود صلى الله عليه وسلم: اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك. اللهم اجعل حبك أحبَّ إلىَّ من نفسى وأهلى. ومن الماء البارد» وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمى: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه «اللهم ارزقنى حبك، وحب من ينفعنى حبه عندك. اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب».

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين. وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم.

١٤٨ والله يحب المحسنين) ('

إن الله يحب الذين يقاتلون (

فإن الله يحب المتقين).

وقوله فى ضد ذلك (٢: ٢٠٥ والله لا يحب الفساد) (٣١: ١٨ والله لا يحب كل مختال فخور) (٣: ٥٧، ١٤٠ والله لا يحب الظالمين) (٤: ٣٥ إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً).

وكم فى السنة «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا» ، «وإن الله يحب كذا وكذا» كقوله «أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد فى سبيل الله» و«أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد فى سبيل الله. ثم حج مبرور» و «وأحب العمل إلى الله: مادام عليه صاحبه» وقوله «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه».

وأضعاف أضعاف ذلك. وفرحه العظيم بتوبة عبده الذى هو أشد فرح يعلمه العباد. وهو من محبته للتوبة والتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان. ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها. بل هى حقيقة الإخلاص، بل هى نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة. بل هى حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن «الإله» هو الذى يألهه العباد حباً وذلا، وخوفاً ورجاء، وتعظيما وطاعة له. بمعنى «مألوه» وهو الذى تألهه القلوب. أى تحبه وتذل له.

والعقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد، وكلّ ما سواه. وكلُّ من لم يحكم عقله بهذا : فلا تعبأ بعقله. فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار والنظر تدعو كلها إلى محبته سبحانه. بل إلى توحيده فى المحبة. وإنما جاءت الرسل بتقرير ما فى الفطر والعقول. كما قيل:

هب الرسل لم تأت من عنده	ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس من الواجب المستحق	محبته في اللقا والمغيب؟
فمن لم يكن عقله آمراً	بذا. ماله فى الحجىّ من نصيب
وإن العقول لتدعو إلى	محبة فاطرها من قريب
أليست على ذاك مجبولة	ومفطورة لا بكسب غريب
أليس الجمال حبيب القلوب	لذات الجمال، وذات القلوب؟

فيا منكراً ذاك والله أنست عين الطريد وعين الحريب

ويا من يوحد محبوبه ويرضيه في مشهد، أو مغيب
حظيت وخابوا فلا تبتئس بكيد العدو وَفَجْرِ الرقيب

***

وأصل «التأله» التعبد. و«التعبد» : آخر مراتب الحب. يقال: عبده الحب وتيّمه: إذا ملكه وذلّله لمحبوبه.

فـ «المحبة» حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضى، والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر فى الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يُتوكل على المحبوب فى حصول محابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» فى الحقيقة: هو زهد المحبين. فإنهم يزهدون فى محبة ماسوى محبوبهم لمحبته.

وكذلك «الحياء» فى الحقيقة: إنما هو حياء المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم. وأما مالا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام «الفقر» فإنه فى الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها. وهو أعلى أنواع الفقر. فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلى من يحبه. لا سيما إذا وَحّده فى الحب، ولم يجد منه عوضاً سواه. هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك «الشوق» إلى الله تعالى ولقائه. فانه لبُّ المحبة وسرها. كما سيأتى.

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب: معطل لذلك كله. وحجابه أكثف الحجب. وقلبه أقسى القلوب، وأبعدها عن الله. وهو منكر لخُلّةِ إبراهيم عليه السلام. فإن «الخلة» كمال المحبة. وهو يتأول «الخليل» بالمحتاج. فخليل الله عنده: هو المحتاج. فكم ــ على قوله ــ لله من خليل من بَرّ وفاجر، بل مؤمن وكافر إذ كثير من الفجار والكفار من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها. ويرى نفسه أحوج شىء إلى ربه فى كل حالة.

فلا بالخلة أقرَّ المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان. ولهذا ضَحّى خالد بن عبد الله القَسْرى بمُقَدَّم هؤلاء وشيخهم جَعْدِ بن دِرْهم، وقال فى يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته «أيها الناس، ضحوا. تقبل الله ضحاياكم. فإنى مُضَحٍّ بالجعد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليما. تعالى الله عما يقول الجعد علوّاً كبيراً» ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله وتقبل منه.

● مراتب المحبة

أولها: «العلاقة» وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية «الارادة» وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة «الصبابة» وهي انصباب القلب إليه. بحيث لا يملكه صاحبه. كانصباب الماء في الحدور. فاسم الصفة منها «صَبٌّ» والفعل صَباً إليه يصبو صَباً، وصبابة، فعاقبوا بين المضاعف والمعتل، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف. و يقال: صَباً وصَبْوة، وصبابة. فالصبا: أصل الميل. والصَّبْوَة: فوقه، والصبابة: الميل اللازم. وإنصباب القلب بكليته.

الرابعة «الغرام وهو الحب اللازم للقلب، الذى لا يفارقه. بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه. ومنه سمي عذاب النار غَراماً للزومه لأهله. وعدم مفارقته لهم. قال تعالى (٢٥: ٦٥ إن عذابها كان غراماً).

الخامسة «الوداد» وهو صفو المحبة، وخالصها ولُبّها، و « الودود» من أسماء الرب تعالى. وفيه قولان.

أحدهما: أنه المودود. قال البخاري رحمه الله في صحيحه «الودود الحبيب».

والثاني: أنه الوادُّ لعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» إعلاماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، وَ يَوَدُّه. فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

وعلى القول الأول «الودود» في معنى يكون سر الاقتران. أى اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

السادسة «الشغف» يقال: شُغِفَ بكذا. فهو مشغوف به. وقد شَغَفَه المحبوب. أى وصل حبه إلى شِغَاف قلبه. كما قال النسوة عن امرأة العزيز (١٢: ٣٠ شَغَفَهاَ حبّاً) وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الحب المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره. قال الكلبي: حجب حُبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حُبُّهُ شِغَاَف قلبها، أى داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب. و «الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السدى: الشغاف جلدة رقيقة على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب

وقرأ بعض السلف «شَعَفها» بالعين المهملة. ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب. و بلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شَعَف الجبال، لرؤوسها.

السابعة «العشق» وهو الحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه.

وفى اشتقاقه قولان أحدهما: أنه من العَشَقَة ــ محركة ــ وهى نبت أصفر يلتوى على الشجر، فشبه به العاشق.

والثانى: أنه من الإفراط وعلى القولين: فلا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا العبد فى محبة ربه.

الثامنة «التتيُّم» وهو التعبد، والتذلل. يقال: تيَّمه الحبُّ أي ذلَّله وعبَّده. وتَيْمُ الله: عبد الله. و بينه و بين «اليُتْم» ــ الذى هو الانفراد ــ: تناسب فى المعنى. فإن «المتيَّم» المتفرد بحبه وشَجْوه. كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه ، وكل منهما مكسور ذليل. هذا كسره يُتْم. وهذا كسره تَتَيُّم.

التاسعة «التعبد» وهو فوق التتيم. فإن العبد هو الذى قد ملك المحبوبُ رقَّه فلم يبق له شىء من نفسه ألبتة. بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً و باطناً. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة: وصفه الله بها فى أشرف مقاماته. مقام الإسراء، كقوله (١٧: ١ سبحان الذى أسرى بعبده) ومقام الدعوة. كقوله (٧٢: ١٩ وأنه لما قام عبد الله يدعوه) ومقام التحدى كقوله (٢: ٢٣ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) و بذلك استحق التقديم على الخلائق فى الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة ــ بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ــ «اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: فحصلت له تلك المرتبة. بتكميل عبوديته لله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب «طريق معبد» أى قد ذللته الأقدام وسهلته.

العاشرة «مرتبة الخُلّة» التى انفرد بها الخليلان ــ إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ــ كما صح عنه أنه قال (إن الله اتخذنى خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا)

و «الخُلَّة» هى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

وهذا هو السر الذى لأجله ــ والله أعلم ــ أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفِلْذة كبده.

لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه. و «الخلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون فى قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وَطّن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزماً جازماً: حصل مقصود الامر. فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة. فحال بينه و بينه. وفداه بالذبح العظيم، وقيل له (٣٧:١٠٥ إنا كذلك نجزى المحسنين)، نجزي من بادر إلى طاعتنا، فنُقِرُّ عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وابقاء الولد وسلامته (إن هذا لهو البلاء المبين) وهو إختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته. فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم. فما كل أحد يجيب داعيها. ولا كل عين قريرة بها.

فما كل عين بالحبيب قريرة	ولا كل من نودى يجيب المناديا
ومن لم يجب داعي هداك فَخَلّه	يُجب كل من أضحى إلى الغى داعيا
وقل للعيون الرمد: إياك أن ترى	سنا الشمس فاستغشى ظلام اللياليا
وسامح نفوساً لم يهبها لحبهم	ودعها وما اختارت. ولا تك جافيا
وقُل للذى قد غاب: يكفى عقوبة	مغيبك عن ذا الشأن لوكنت واعيا
ألم ترآثار القطيعة قد بدت	على حاله. فارحمه إن كنت رائيا
فكن أبداً حيث استقلت ركائب الـ	محبة فى ظهر العزائم ساريا
وأدلج. ولا تخش الظلام. فإنه	سيكفيك وجه الحِبِّ فى الليل هاديا

● ومحبة ..... هروية

ولذلك كانت لشيخ الاسلام ابي اسماعيل الهروي رحمه الله طريقة اخرى في تعريفها، فقال: «المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس».

يعنى: تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب، وأنسه بالمحبوب، فى حالتى بذله ومنعه، وإفراده بذلك التعلق. بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

وإنما أشار إلى أنها «بين الهمة والأنس» لأن المحبة لما كانت هى نهاية شدة الطلب، وكان المحب شديد الرغبة والطلب: كانت «الهمة» من مقومات حبه، وجملة صفاته. ولما كان الطلب

بالهمة قد يَعْرى عن الأنس، وكان المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه، وطمعه بالوصول إليه. فمن هذين يتولد الأنس: وجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس. فصارت المحبة قائمة بين الهمة والأنس.

وبالمحبة تفنى خواطر المحب عن التعلق بالغير. وأول ما يفنى من المحب: خواطره المتعلقة بما سوى محبوبه. لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلى محبوبه انجذبت خواطره تبعاً.

• اعقلها .... وابدأ المحبة

ومباديها عند الهروي: «محبة تقطع الوساوس، وتُسَلّي عن المصائب».

فإن الوساوس والمحبة متناقضان. فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب. والوساوس تقتضي غيبته عنه، حتى توسوس له نفسه بغيره. فبين المحبة والوساوس تناقض شديد، كما بين الذكر والغفلة. فعزمة المحبة: تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره. وذلك سبب الوساوس، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير، لا ستغراق قلبه في حضوره بين يدى محبوبه. وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟.

لا كان من لسواك فيه بقية فيها يُقَسِّم فكره و يوسوس

كذلك فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولا يجد من مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق. بل يقوى سلطان المحبة، حتى يلتذ المحب بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته.

وهي محبة تنبت من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة.

أي أنها تنشأ من مطالعة العبد مِنّة الله عليه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فبقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة. فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبُغْض من أساء إليها. وليس للعبد قط إحسان إلا من الله. ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده: تأهيله لمحبته ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه. وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد. فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته: أشرقت ذاته. فرأى فيه نفسه، وما أُهِّلت له من الكمالات والمحاسن. فعَلَتْ به همته. وقويت عزمته. وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه. لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا و يطرد أحدهما صاحبه. فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبُّ إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرّبين السابقين، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين. وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُّهى.

ورسوخ هذه المحبة وثباتها في القلب إنما يكون بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أعماله، وأقواله وأخلاقه. فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها. وبحسب نقصانه يكون نقصانها، كما تقدم: أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً. ولا يتم الأمر إلا بهما. فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله. ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرا وباطناً، وصدقتهُ خَبَرا، وأطعته أمرا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعاً. وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبته غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم يكن ذلك فلا تتعن. وارجع من حيث شئت فالتمس نورا. فلست على شيء.

وتأمل قوله (٣: ٣١ فاتبعوني يحببكم الله) أي الشأن في أن الله يحبكم. لا في أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب صلى الله عليه وسلم.

وتتصاعد المحبة حتى تبعث على ايثار الحق على غيره، وتُلْهِج اللسان بذكره، فهي ـ لكمالها وقوتها :ـ تقتضي من المحب ان يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره، ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لَهِجاً بذكره، فان من أحب شيئاً: اكثر من ذكره، حتى كأنه لا يشاهد غيره.

واما تظهر هذه المحبة من مطالعة الصفات، بإثباتها اولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعا. فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة. وكلما أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها: ازدادت محبته للموصوف بها.

وتزداد تصاعداً بالنظر الى الآيات نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة وفي آياته المسموعة. وكل منهما داع قوي إلى محبته سبحانه. لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وإلهيته، وعلى حكمته وبره، وإحسانه وعفوه، وحلمه. وكذلك الارتياض بالمقامات. فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان : كانت محبته أقوى. لأن محبة الله له أتم. وإذا أحب الله عبداً أنشأ في قلبه محبته.

وهذا المقدار من المعاني هو مايسمح به التعبير، وإلا فان أوصاف المحبة لا تتناهى، اذ لها في كل مقام نسبة وتعلقاً به، وهي روح كل مقام، والحاملة له. واقدام السالكين انما تتحرك بها، فلها تعلق بكل قدم وحال ومقام، فلا تتناهى نعوتها البتة.

• الشوق ثمرة المحبة

ومن آثار المحبة : الشوق.

قال الله تعالى **(٢٩: ٥ من كان يرجو لقاء الله فإن أجلَ الله لآتٍ).**

قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليَّ. فقد أجّلتُ له أجلاً يكون عن قريب. فإنه آت لا محالة. وكل آتٍ قريب.

وفيه لطيفة أخرى. وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعلل بالرجاء لقُطّعت	نفس المحب صبابة وتشوقا
ولقد يكاد يذوب منه قلبه	مما يقاسي حسرة وتحرقا
حتى إذا رَوّحُ الرجاء أصابه	سكن الحريقُ إذا تعلل باللقا

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه **«أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك».**

و «الشوق» اثر من آثار المحبة، وحكم من احكامها. فانه سفر القلب الى المحبوب في كل حال.

وقيل: هو اهتياج القلوب، إلى لقاء المحبوب.

و «المحبة» أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى و يضعف. قال يحي بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

• الشوق الى الجنة ... حق

واول معانيه عند الهروي: «شوق العابد إلى الجنة، ليأمن الخائف. و يفرح الحزين. و يظفر الآمل».

أي ان : شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.

أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل. فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه، لا يبعث صاحبه لعمل ألبتة، إن لم يقارنه أمل. فإن تجرد عنه قُطع وصار قنوطاً.

الثاني: فرح الحزين. فإن الحزن المجرد أيضاً إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه. فلولا روح

الفرح لتعطلت قوى الحزين. وقعد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن: قام به روح الفرح.

الثالث: روح الظفر. فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر. مات أمله. والله أعلم .

● ركضاً الى الله

ومنه: الشوق الى الله عز وجل، وتعلق القلب بصفاته المقدسة.

وهذا الشوق لا ينافي الشوق الى الجنة، فان أطيب ما في الجنة: قربه تعالى، ورؤيته، وسماع كلامه، ورضاه.

نعم. الشوق الى مجرد الاكل والشرب والحور العين ناقص بالنسبة الى شوق المحبين الى الله تعالى والى صفاته المختصة بالمنن والاحسان، كالبرّ والمنان، والمحسن، والجواد، والمعطي. والغفور، والوهاب، واللطيف، ونحوها.

(٥١) منزلة الغيرة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الغيرة»

قال الله تعالى (٧: ٣٣ قل: إنما حرّم ربّيَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن) وفى الصحيح عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أحدٌ أغيَر من الله، ومن غيْرَته: حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وما أحَدٌ أحبَّ إليه المدح من الله. ومن أجل ذلك: أثنى على نفسه. وما أحَدٌ أحَبَّ إليه العذر من الله. من أجل ذلك: أرسل الرسل مبشرين ومنذرين».

وفى الصحيح أيضاً، من حديث أبى سلمة، عن أبى هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغَيرة الله: ان يأتى العبد ماحرم عليه».

وفي الصحيح ايضا: ان النبي صلى الله عليه وسلم قال «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا اغير منه. والله أغير منى».

ومما يدخل فى الغيرة قوله تعالى (١٧: ٤٥ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا).

قال السرى لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة. ولا أحد أغير من الله. إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلا لفهم كلامه، ولا أهلا لمعرفته وتوحيده ومحبته. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلا له.

«والغيرة» نوعان: غيرة من الشيء. وغيرة على الشيء

والغيرة من الشيء: هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك فى محبوبك.

والغيرة على الشيء: هى شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك فى الفوز به.

و «الغيرة» أيضاً نوعان: غيرة العبد من نفسه على نفسه، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن إعراضه على إقباله، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة. وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية. وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب. وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة.

ثم «الغيرة» أيضاً نوعان: غيرة الحق تعالى على عبده، وغيرة العبد لربه لا عليه. فأما غيرة الرب على عبده: فهي أن لا يجعله للخلق عبداً. بل يتخذه لنفسه عبداً. فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين. بل يفرده لنفسه. و يضن به على غيره. وهذه أعلى الغيرتين.

وغيرة العبد لربه، نوعان أيضا: غيرة من نفسه. وغيرة من غيره. فالتي من نفسه: أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه؛ والتي من غيره: أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون. ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

والاسلام كله حث على تأجيج هذه الغيرة وانكار المنكر، و بهذا ارسلت الرسل وانزلت الكتب.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام. حتى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل. و بالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة، حتى قال «إن الناس إذا تركوه: أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار. و يوجب تسلط الأشرار.

وأخبر أن تركه: يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه. ويحل لعنة الله. كما لعن الله بني إسرائيل على تركه.

• غيرة الاستدراك

وأول درجاتها: «غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه. و يستدرك فواته، و يتدارك قواه».

و «العابد» هو العامل ــ بمقتضى العلم النافع ــ للعمل الصالح. فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد ضياعه بأمثاله. ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب، بفعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها. فيقضي ما ينفع فيه القضاء و يعوض ما يقبل العوض. ويجبر ما يمكن جبره.

والفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يُستردّ بعينه، كما إذا فاته الحج في عام تمكّن منه. فأضاعه في ذلك العام: استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفائت: فإنما يستدرك بنظيره. كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته، أو بتوبة وندم.

وأما «تدارك قواه» فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف. فهو يغار

عليها: أن تذهب في غير طاعة الله. و يتدارك فوت العمل الذي لحقه الفتور عنه، بأن يكسوه قوة ونشاطا، غيرة له وعليه.

فهذه غيرة العباد على الأعمال. والله أعلم.

●فراغ القلب ... يقتل الفراغ

ومنها: «الغيرة على وقت فات، فان الوقت أبيُّ الجانب، بطيء الرجوع» فالوقت اعز شيء على العابد، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك. فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه ألبتة. لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه. كما في المسند مرفوعا «**من أفطر يوماً من رمضان، متعمداً من غير عذر: لم يقضه عنه صيام الدهر، وإن صامه**».

فالوقت منقض بذاته، منصرم بنفسه. فمن غفَل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته. واشتدت حسراته. فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع. وطلب الرُّجعَى فحيل بينه و بين الاسترجاع. وطلب تناول الفائت. وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد؟ «**٣٤: ٥٢ وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد؟**» ومُنع مما يحبه و يرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه و بين ما يشتهيه.

و يقال إن أصعب الأحوال المنقطعة: انقطاع الأنفاس. فإن رابعة إذا صعد النفس الواحد صعّدوه إلى نحو محبوبهم، صاعداً إليه، متلبساً بمحبته والشوق إليه. فإذا أرادوا دفعه دفعو معه نفساً آخر. فكل أنفاسهم بالله. وإلى الله، متلبسة بمحبته، والشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك. لالتباس روحه وقلبه. فيحفظ عليه أوقات نومه و يقظته. ولا تستنكر هذه الحال. فإن المحبة إذا غلبت على القلب وملكته أوجبت له ذلك لا محالة

والمقصود. أن الواردات سريعة الزوال. تمر أسرع من السحاب، و ينقضي الوقت بما فيه. فلا يعود عليك منه إلا أثره، وحكمه. فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك. فإنه عائد عليك لا محالة. لهذا يقال للسعداء (**٦٨: ٢٤ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**) و يقال للأشقياء (**٤٠: ٧٥ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تمرحون**).

(٥٢) منزلة الوجد

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الوجد»

ثبت فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لايحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود فى الكفر ـــ بعد إذ أنقذه الله منه ـــ كما يكره أن يلقى فى النار».

وقد استشهد صاحب المنازل بقوله تعالى فى أهل الكهف (١٨: ١٤ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا، فقالوا: ربنا رب السموات والأرض. لن ندعو من دونه إلها، لقد قلنا إذاً شططا) وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد. فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار فى خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق. وذاقوا حلاوته. و باشر قلوبهم. فقاموا من بين قومهم، وقالوا: «ربنا رب السماوات والأرض ـــ الآية».

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الايمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم الى الكهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان. فالخذلان: حَلُّه من رباط التوفيق. فيغفل عن ذكر ربه. و يتبع هواه، و يصير أمره فرطا.

والربط على القلب: شده برباط التوفيق. فيتصل بذكر ربه. و يتبع مرضاته. ويجتمع عليه شمله. فلهذا استشهد عليه بهذه الآية فى مقام «الوجد».

• مراتب الوجد

ومراتبه أربعة. أضعفها «التواجد» وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء.

واختلفوا فيه: هل يسلم لصاحبه أم لا؟ على قولين.

فطائفة قالت: لا يسلم لصاحبه. و ينكر عليه، لما فيه من التكلف والتصنع المباين لطريق الصادقين. وبناء هذا الأمر على الصدق المحض.

وطائفة قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التشبه بأهلها. واحتجوا بقول عمر رضى الله عنه ـــ وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر يبكيان فى شأن أسارى بدر، وما قبلوا منهم من الفداء ـــ «أخبرانى ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت».

قالوا: والتكلف والتعمل فى أوائل السير والسلوك لابد منه إذ لايطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال. ومن تأمله بنية حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لايذم.

المرتبة الثانية: المواجيد، وهى نتائج الأوراد وثمراتها.

المرتبة الثالثة: «الوجد» وهو ثمرة أعمال القلوب، من الحب فى الله والبغض فيه، كما جعله النبى صلى الله عليه وسلم ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. وثمرة الحب فيه، وكراهة عوده فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار. فهذا «الوجد» ثمرة هذه الأعمال القلبية، التى هى الحب فى الله والبغض فى الله.

المرتبة الرابعة: «الوجود» وهى أعلى ذروة مقام الإحسان. فمن مقام الإحسان يرقى إليه. فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده، حتى كأنه يراه ـــ وتمكن فى ذلك ـــ صار له ملكة أخمدت أحكام نفسه، وتبدل بها أحكاما أخر، وطبيعة ثانية، حتى كأنه أنشىء نشأة أخرى غير نشأته الأولى، وولد ولادا جديداً.

● التدبر يقود الى الوجد

و يبزغ كوجد عارض متجدد، يستفيق له شاهد السمع، او شاهد البصر، او شاهد الفكر.

وذلك يكون بانتباه السمع من سنته، اذا كان المنبه له خطاباً من خارج أو من نفسه، وبما يراه و يعاينه من آيات الله، فينتقل منها الى ما نصبت آية له وعليه. ويختلط ذلك بما يفتح له من المعانى التي اوقعه عليها فكره وتأمله.

وهذه الشواهد الثلاثة التى دعا الله سبحانه عباده إلى تنبيها والاستشهاد بها. وقبول الحق الذى تشهد به. وترتيب حكم هذه الشهادة عليها، من التوحيد والإقرار والإيمان. قال الله تعالى **(٢٢: ٤٦ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها؟ أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تعمى الأبصار. ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)** وقال **(٢٣: ٦٩ أفلم يدّبروا القول؟)** وقال **(٤٧: ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟)** وقال **(١٠: ١٠١ انظروا: ماذا فى خلق السماوات والأرض؟)** وقال **(٣٠: ٨ أفلم يتفكروا فى أنفسهم؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى)** وقال

(١٦: ٤٤ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم. ولعلهم يتفكرون) والقرآن مملوء من هذا

فإذا استفاق شاهد السمع والبصر والفكر، ووجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان: خرج من جملة النيام الغافلين.

وهذا الوجد العارض قد يبقى واجده أثراً من أحكامه بعد مفارقته. وقد لا يبقى. والظاهر: أنه لا بد أن يبقى أثراً، لكن قد يخفى، و يغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أضداده.

• آفاق الروح أعلى من أفق الفكر

وهناك وجد آخر، متعلقه أعلى من الاول، محل اليقظة فيه هو الروح، بينما محلها في الأول: السمع والبصر والفكر. والروح هي الحاملة للسمع والبصر والفكر. وهذه الأوصاف من صفاتها.

وأيضاً فلعلو وجد الروح سبب آخر. وهو علو متعلقه، فإن متعلق وجد السمع والبصر والفكر: الآيات والبصائر. ومتعلق وجد الروح: تعلقها بالمحبوب لذاته.

وقد جعل الله في قلب كل مؤمن واعظاً له يأمره و ينهاه، و يناديه ويحذره، و يبشره و ينذره. وهو الداعي الذي يدعو فوق الصراط. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. كما في المسند والترمذي من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال **«ضرب الله مثلا: صراطاً مستقيما. وعلى جنبتي الصراط سوران. وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام، والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن)** فما ثم خطاب قط الا من جهة من هاتين: اما خطاب القرآن، واما خطاب هذا الواعظ.

• كمال الحرية في وجد التجريد

و يزداد وميض شمس الوجد لمعاناً حتى يمحص العابد من دَرَن الحظ، و يسله من رق الماء والطين، فيخلص عبوديته، والتي هي حقيقته، من وسخ حظوظ نفسه وإرادتها، المزاحمة لمراد ربه منه. فإن تحقيق العبودية ــ التي هي معنى العبد ــ لا يكون إلا بفقد النفس الحاملة للحظوظ.

فمتى فقدت حظوظها محصت عبوديتها. وكلما مات منها حظ حي منها عبودية ومعنى. وكلما حى فيها حظ ماتت عبودية، حتى يعود الأمر على نفسين وروحين وقلبين: قلب حي، وروح حية بموت نفسه وحظوظها، وقلب ميت، وروح ميتة بحية نفسه وحظوطه. و بين دلك مراتب متفاوتة فى الصحة والمرض، و بين بين، لا يحصيها إلا الله عز وجل.

ثم يسلسه من رق الماء والطين، أي يعتقه ويحرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء والطين، إلى رق رب العالمين، فخادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين، كما قيل:

يا خادم الجسم، كم تشقى بخدمته؟ فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

والناس فى هذا المقام ثلاثة: عبد محض. وحر محض، و بين بين.

فالعبد المحض: عبد الماء والطين. الذى قد استعبدته نفسه وشهوته، وملكته وقهرته. فانقاد لها.

والحر المحض: هو الذى قهر شهوته ونفسه وملكها. فانقادت معه، ودلت له ودخلت تحت رقه وحكمه.

والثالث. من قد عُقد له سبب الحرية. وهو يسعى في كمالها. فهو حرٌ من وجه، وعبد من وجه، طالما بقي عليه حظ من حظوظ النفس.

فالحر من تخلص من رق الماء والطين. وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية. فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته، و يظل أبداً في ارتقاء، كلما نظر إلى مواقع لطف ربه به — حيث أهّله لما لم يؤهل له أهل البلاء، وهم أهل الغفلة والاعراض عنه — أورثه ذلك النظر تعجباً يوقعه فى مزيد وجد. قال بعض العارفين فى الأثر المروى «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية» تدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن الله.

وتقوى هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد خسة قدر نفسه. فاستصغرها أن تكون أهلا لما أُهلت له. وكذلك شهود انحطاط رتبته، وتفاهة قيمته، وخستها وقلتها.

وحاصل ذلك كله: احتقاره لنفسه، واستعظامه للطف ربه به، وتأهيله له، فيتولد من بين هذين الشهودين: محبة وحمد وشكر، وعزم واخلاص، ونصيحة فى العبودية، وسرور وفرح بربه، وأنس به.

(٥٣) منزلة البرق

ومن أنوار «إياك نعبد وإياك نستعين» نور «البرق»
الذى يبدو للعبد عند دخوله فى طريق الله
وهو لامعٌ يلمع لقلبه. يشبه لامع البرق.

قال صاحب المنازل «البرق: باكورة تلمع للعبد. فتدعوه إلى الدخول فى هذه الطريق».

واستشهد عليه بقوله تعالى (٢٠: ١٠، ١١ **وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى ناراً؟ فقال لأهله: امكثوا. إنى آنست ناراً**).

ووجه الاستشهاد: أن النار التى رآها موسى كانت مبدأ فى طريق نبوته.

و«البرق» مبدأ فى طريق الولاية التى هى وراثة النبوة.

وقوله «باكورة» الباكورة: هى أول الشيء، ومنه باكورة الثمار. وهو لما سبق نوعه فى النضج.

وهذا البرق ليس هو أول طريق أهل البدايات، بل بدايته «اليقظة» التي ذكرت كأول منزل، وانما البرق أول طريق ارباب التوسط والنهايات.

وهو نور يقذفه الله في قلب العبد، و يبديه له، فيدعوه به الى الدخول في الطريق الاعلى: طريق الصادقين.

●قليله كثير، وكثيرنا قليل

وومضته الاولى: تلمع من جانب العِدَة في أفق الرجاء فيستكثر فيه العبد القليل من العطاء، و يستقل فيه الكثير من الاعباء و يستحلي فيه مرارة القضاء.

والعِدَة: ما وعد الله أولياءه من أنواع الكرامة فى هذه الدار وعند اللقاء، من ناحيتها يضيىء البرق، فيوجب للعبد استكثار القليل، ولا قليل من الله من عطائه، والحامل له على هذا الاستكثار: أربعة أمور.

أحدها: نظره إلى جلالة معطيه وعظمته.

الثاني: احتقاره لنفسه. فإن ازدراءه لها: يوجب استكثار ما يناله.

الثالث: محبته له. فإن المحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبوبه.

الرابع: أن هذا — قبل العطاء — لم يكن له إلف به، ولا اتصال بالعطية. فلما فاجأته: استكثرها.

وأما «استقلاله الكثير من الإعياء» — وهو التعب والنصب — فلأنه لما بدا له برق الوعود من أفق الرجاء: حمله ذلك على الجد والطلب. وحمل عنه مشقة السير. فلم يجد لذلك من مَسّ الإعياء والنصب ما يجده من لم يشم ذلك.

وكذلك استحلاؤه — في هذا البرق — مرارة القضاء، وهو البلاء الذي يختبر به الله عز وجل عباده، ليبلوهم أيهم أصبر وأصدق، وأعظم إيماناً، ومحبة وتوكلا وإنابة؟ فإذا لاح للسالك هذا البرق: استحلى فيه مرارة القضاء.

● اشارة التأهب

ويسطع اخرى من جانب الوعيد في عين الحذر فيستقصر فيه العبد الطويل من الأمل، ويزهد في الخلق على القرب.

فهذا البرق أفقه: غير أفق البرق الأول. فإن هذا يلمع من أفق الحذر، وذاك من أفق الرجاء. فإذا شام هذا البرق: استقصر فيه الطويل من الأمل وتخيل في كل وقت: أن المنية تعاصفه وتفاجئه. فاشتد حذره من هجومها، مخافة أن تحل به عقوبة الله، ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء. فيلقى ربه قبل الطهر التام. فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة. كما أنه لم يؤذن له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يُذكّر العباد بالتطهر للموافاة والقدوم عليه، والدخول وقت اللقاء لمن عقل عن الله، وفهم أسرار العبادات. فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتى يستقبل بيته المحرم بوجهه، ويستر عورته، ويطهر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه. ثم يخلص له النية. فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء، لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله. ويستر عورته الباطنة بلباس التقوى. ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة. ويتطهر لله طهراً كاملا. ويتأهب للدخول أكمل تأهب. وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت: جاءه الوقت وهو متأهب. فيدخل على الله. وإذا فرط في التأهب: خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب. إذ هجوم وقت الموافاة مُضَيِّق لا يقبل

التوسعة. فلا يمكّن العبد من التطهر والتأهب عند هجوم الوقت. بل يقال له: هيهات، فات مافات، وقد بعدت بينك وبين التطهر المسافات. فمن شام برق الوعيد بقصر الأمل: لم يزل على طهارة.

وأما «تزهيده في الخلق على القرب» وإن كانوا أقاربه أو مناسبيه، أو مجاوريه وملاصفيه، أو معاشريه ومخالطيه: فلكمال حذره، واستعداده واشتغاله بما أمامه، وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذي ليس بخُلّب، بل هو أصدق بارق.

• ألوان طيف اللطف

ثم يتوهج من جانب اللطف في عين الافتقار فينشىء سحاب السرور. ويمطر مطر الطرب. ويجرى من نهر الافتخار.

فهو يلمع من أفق ملاطفة الرب تعالى لعبده بأنواع الملاطفات. ومطلع هذا البرق: في عين الافتقار، الذى هو باب السلوك إلى الله تعالى، والطريق الأعظم الذى لا يدخل عليه إلا منه. وكل طريق سواه فمسدود. ومع هذا فلا يصل العبد منه الا بالمتابعه فلا طريق الى الله البتة ابدا — ولو تَمَنّى المتمنون، وتمنى المتمنون — إلا الافتقار، ومتابعة الرسول فقط. فلا يتعب السالك نفسه في غير هذه الطريق. فإنه على غير شيء. وهو صيد الوحش والسباع.

وهذا السلوك، باستشعار الافتقار، من شأنه أن ينشىء للعبد سروراً خاصاً وفرحاً بربه لاعهد له بمثله، ولا نظير له في الدنيا، حتى لكأنه في نفحة من نفحات الجنة. فاذا نشأ له ذلك: طرب باطنه وسرَّه لما ورد عليه من عند وليّه، واذا اشتد ذلك الطرب جرى به نهر الافتخار.

فمنه: افتخار على الشيطان. وهذه مخيلة محمودة، طرباً وافتخاراً عليه. فإن الله لا يكره ذلك. ولهذا يحب المختال بين الصفين عند الحرب، لما في ذلك من مراغمة أعدائه، ويحب الخيلاء عند الصدقة — كما جاء ذلك مصرحا به في الحديث — لسر عجيب، يعرفه أولو الصدقات والبذل من نفوسهم عند ارتياحهم للعطاء، وابتهاجهم به، واحتيالهم على النفس الشحيحة الأمارة بالبخل. وعلى الشيطان المزين لها ذلك. فهذا الافتخار من تمام العبودية.

ومنه شعوره بأنه حريٌّ بالافتخار بما تميّز به عن ابناء جنسه بما خصه الله به وإن لم يفتخر به ولم يظهره، ابقاء على عبوديته وافتقاره..

وسر ذلك: أن العبد إذا لا حظ ما هو فيه من الألطاف، وشهده من عين المنة، والجود: شهد مع ذلك فقره إليه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين. فكان ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالى النعم عليه. وكلما توالت عليه النعم: أنشأت في قلبه سحائب

السرور. وإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه، وامتلأ بها أفقه: أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور. فإن لم يصبه وابل فطلٌّ. وحينئذ يجرى على لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عُجب ولا فخر، بل فرحا بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى (١٠: ٥٨ **قل: بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا**) فالافتخار على ظاهره، والافتقار والانكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر.

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه. وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به على من دونه، ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه، وإعلاما للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز(١٢: ٥٥ **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**) فإخباره عن نفسه بذلك، لما كان متضمنا لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسنا. إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يُحَسِّنها. ويُقَبِّحها. وصورته واحدة.

(٥٤) منزلة الذوق

ومنها منزلة «الذوق»

و «الذوق» مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر. ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب. قال الله تعالى (٣: ١٨١ **وذوقوا عذاب الحريق**) وقال (٣: ١٠٦ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**) وقال تعالى (٣٨: ٥٧ **هذا فليذوقوه حميم وغساق**) وقال (١٦: ١١٢ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**).

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر. فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لبسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «**ذاق طعمَ الإيمان: من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً. وبمحمد — صلى الله عليه وسلم — رسولاً**» فأخبر أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال «**ذاق طعم الإيمان**» وقال «**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع في الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار**».

ولما نهاهم عن الوصال قالوا «**إنك تواصل، قال: إني لست كهيئتكم، إني أطعَمُ وأُسقَى**» وفي لفظ «إني أظلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني» وفي لفظ «**إن لي مُطْعِماً يطعمني، وساقياً يسقيني**»

وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حِسّي للفم. ولو كان كما ظنه هذا الظان: لم كان صائماً، فضلاً عن أن يكون مواصلاً. ولما صح جوابه بقوله «إني لست كهيئتكم» فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حساً، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضاً. فلما أقرهم على قولهم «إنك تواصل» عُلم أنه صلى الله عليه

وسلم كان يمسك عن الطعام والشراب، و يكتفي بذلك بطعام والشراب العالى الروحانى، الذى يغنى عن الطعام والشراب المشترك الحسى.

وهذا الذوق هو الذى استدل به هرقل على صحة النبوة. حيث قال لأبى سفيان «فهل يرتد أحد منهم سَخطة لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان. إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب».

فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان ـــ الذى خالطت بشاشته القلوب: لم يسخطه ذلك القلب أبدا ـــ على أنه دعوة نبوة ورسالة، لا دعوى ملك ورياسة.

والمقصود: أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان، أمر يجده القلب. تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم.

فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشر. فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان: الوجد الذى هو لهيب القلب. فإن ذلك مصدر وجد بالشيء وَجْدا، وإنما هو من الوجود الذى هو الثبوت. فمصدر هذا الفعل: الوجود والوجدان، فوجَدَ الشيء يجده وجدانا: إذا حصل له وثبت. كما يجد الفاقد الشيء الذى بعد منه. ومنه قوله تعالى «(٢٤: ٣٩ ـــ ٩ ألم يجدك يتيما فآوى ● ووجدك عائلا فأغنى؟ وقوله (٣٨: ٤٤ إنا وجدناه صابرا) فهذا كله من الوجود والثبوت وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «وجد بهن حلاوة الإيمان»

● هي الأعمال .... لا الآمال

وأول ما يذوقه العابد: أن يذوق قلبُه ـــ بالتصديق ـــ طعم العِدَة، فلا يعقله ظن، ولا يقطعه أمل، ولا تعوقه أُمنية.

فإن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته: ثبت على حكم الوعد واستقام.

ولا يعقله ظن، أى لم يحبسه ظن، تقول: عقلت فلانا عن كذا، أى منعته عنه وصددته، ومنه عقال البعير، لأنه يحبسه عن الشرود. ومنه: العقل. لأنه يحبس صاحبه عن فعل مالا يحسن ولا يجمل. ومنه: عقلت الكلام، وعقلت معناه: إذا حبسته فى صدرك، وحَصَّلته فى قلبك، بعد أن لم يكن حاصلا عندك. ومنه: العقل للدية. لأنها تمنع آحدها من العدوان على الجانى وعصبته.

والمقصود: أن ذوق طعم الإيمان بوعد الله يمنع الذائق أن يحبسه ظن عن الجد فى الطلب، والسير إلى ربه. و «الظن» هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد، بحيث لا يترجح عنده جانب التصديق.

فالذائق بالتصديق طعم الوعد، لايعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب، ويحبس عزمته عن الجد فيه. وفى حديث «سيد الاستغفار» قوله «**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**» أى مقيم على التصديق بوعدك، وعلى القيام بعهدك، بحسب استطاعتى.

والحامل على هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرته للقلب. ولو كان الإيمان مجازا — لا حقيقة — لم يثبت القلب على حكم الوعد، والوفاء بالعهد. ولا يفيد فى هذا المقام إلا ذوق طعم الإيمان.

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية فى إحرامه، ثم يقول «لبيك. لو كان رياء لاضمحل» وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن ادعاه. وليس له فيه ذوق. فقال تعالى (**٤٩: ١٤ قالت الأعراب: آمنا، قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا. ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم**) فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين. لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه. وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفاراً. فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله (ولكن قولوا أسلمنا) ولم يرد: قولوا بألسنتكم، من غير مواطأة القلب. فإنه فرق بين قولهم «آمنا» وقولهم «أسلمنا» ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال «لم تؤمنوا» ووعدهم سبحانه وتعالى — مع ذلك — على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئاً.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا بالله وبرسوله. ثم لم يرتابوا فى إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب. لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدّق ذلك الذوق: بذلهم أحب شىء إليهم فى رضا ربهم تعالى. وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع: حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن «ليس الإيمان بالتمنى، ولا بالتحلى، ولكن ما وقر فى القلب، وصدقه العمل».

فالذوق والوجد: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق: أمر باطن. والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين: يثمر الجهاد، ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك: يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

ومن علامات الذوق: أن لا يقطع صاحبه عن طلبه أمل دنيا، وطمع فى غرض من أغراضها. فإن الأمل والطمع يقطعان طريق القلب فى سيره إلى مطلوبه.

ليس أن لا يكون له أمل، بل: «لا يقطعه أمل» فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه. لم يضره، عوق سيره بعض التعويق. وإنما البلاء في الأمل القاطع للقلب عن سيره إلى الله.

وعند فقهاء القلوب: أن كل ما سوى الله، وإرادته: أمل قاطع، كائناً ما كان. فمن كان أمله، ومنتهى طلبه: فليس من أهل ذوق الإيمان. فإنه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب والأنس به: لم يكن له أمل في غيره. وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعانته على مرضاته ومحابه. فهو يؤمله لأجله، لا يؤمله معه.

فإن قلت: فما الذي يقطع به العبد هذا الأمل؟.

قلت: قوة رغبته في المطلب الأعلى، الذي ليس شيء أعلى منه. ومعرفته بخسة ما يؤمّل دونه، وسرعة ذهابه. ويوشك انقطاعه. وأنه في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف. فهو ظل زائل، ونجم قد تدلّى للغروب. فهو عن قريب آفل. قال النبي صلى الله عليه وسلم «مالي وللدنيا؟ **إنما أنا كراكب قالَ في ظل شجرة ثم راح وتركها**» وقال «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدْخِلُ أحَدُكمْ إصبعه في اليَمّ، فلينظر: بم ترجع؟**» فشبه الدنيا في جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلل حين تُغْمَس في البحر.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء».

وقال مطرف بن عبد الله — أو غيره — «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة: أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حَدّق عين بصيرته في الدنيا والآخرة: علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة: أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لايزول، ولا يضمحل؟ فضلا عن أن يقطعه عن طلب مَنْ نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى (**٩: ٧٢ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر**) فيسيرٌ من رضوانه — ولا يقال له يسير — أكبر من الجنات وما فيها.

وفي حديث الرؤية «**فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه**» وفي حديث آخر «**إنهم إذا رأوه — سبحانه — لم يلتفتوا إلى شيء مما هم فيه من النعيم، حتى يتوارى عنهم**».

فمن قطعه عن هذا أمل، فقد فاز بالحرمان. ورضي لنفسه بغاية الخسران، والله المستعان. وعليه التكلان. وما شاء الله كان.

وكذلك لا تعوقه أمنية، وهي: ما يتمناه العبد من الحظوظ. وجمعها أماني. والفرق بينها وبين «الأمل» أن الأمل يتعلق بما يرجى وجوده. والأمنية: قد تتعلق بما لا يرجى حصوله. كما يتمنى العاجز المراتب العالية.

والأماني الباطلة: هي رؤوس أموال المفاليس. بها يقطعون أوقاتهم ويلتذون بها، كالتذاذ من زال عقله بالمسكر، أو بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفوع **«الكَيِّس مَنْ دَانَ نفسه، وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتَمَنَّى على الله الأماني»**.

ولا يرضى بالأماني عن الحقائق إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة. كما قيل:

واترك مُنَى النفس، لا تحسبه يشبعها ... إن المنى رأس أموال المفاليس

وأمنية الرجل تدل على علو همته وخستها.

• القلب الموزّع: يضطرب ويفزع

ثم يذوق بالإرادة طعم الأنس. فلا يعلق به شاغل ولا يفسده عارض. ولا تكدره تفرقة

و «الإرادة» وصف المريد والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها أن الأولى وصف حال العابد الذي ذاق بتصديقه طعم وعد الرب عز وجل، فجدّ في العبادة. وأعمال البر، لثقته بالوعد عليها. وصاحب هذه الدرجة: ذاقت إرادته طعم الأنس. فهي حال المريد.

والأنس به سبحانه أعلى من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة. فإذا ذاق المريد طعم الأنس جدّ في إرادته، واجتهد في حفظ أنسه، وتحصيل الأسباب المقوية له.

فيعود لا يعلق به شاغل، أي لا يتعلق به شيء يشغله عن سلوكه وسيره إلى الله، لشدة طلبه الباعث عليه أنسه، الذي قد ذاق طعمه، وتلذذ بحلاوته.

والأنس بالله. حالة وجدانية وهي من مقامات الإحسان، تقوى بثلاثة أشياء: دوام الذكر، وصدق المحبة، وإحسان العمل

وقوة الأنس وضعفه: على حسب قوة القرب. فكلما كان القلب من ربه أقرب، كان أنسه به أقوى. وكلما كان منه أبعد، كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد، ولذلك يفسده العارض.

والعارض المفسد: هو الذي يعدل المحب، ويثنيه على النشاط في رضا محبوبه وطاعته، ويدعوه إلى الالتفات إليه، والوقوف معه دون مطلبه العالي. فهو كالذي يجيء عَرَضاً يمنع المار في طريقه عن المرور، ويلفته عن جهة مقصده إلى غيرها

وكل ما سوى الله فهو عارض. وإرادة السوى: توقف السالك، وتنكس الطالب، وتحجب الواصل. فإياك وإرادة السوى وإن علا. فإنك تحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره. قال تعالى إخباراً عن عباده المقربين (٧٦: ٩ **إنما نطعمكم لوجه الله. لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً**) وقال تعالى (٦: ٥٢ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**) وقال تعالى (٩٢: ١٩، ٢٠ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**).

اما انه لا تكدره تفرقة، فلأن التفرقة ضد الجمعية، والجمعية: هى جمع القلب والهمة على الله بالحضور معه بحال الأنس، خالياً من تفرقة الخواطر. و «التفرقة» من أعظم مكدرات القلب. وهى تزيل الصفاء الذى أثمره له الإسلام والإيمان والإحسان. فإن القلب يصفو بذلك. فتجيء التفرقة. فتكدر عليه ذلك الصفاء، وتُشَعِّث القلب. فيجد الصادق ألم ذلك الشعث وأذاه. فيجتهد فى لمه، ولا يُلِمُّ شعثُ القلوب شيء غير الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فهناك يلم شعثه، و يزول كدره، و يصح سفره. ويجد روح الحياة، و يذوق طعم الحياة الملكية، وتذوق همته طعم الجمع.

وذلك انما هو أثر تجلي معاني الاسماء الحسنى على قلب العبد، فترتفع حجب الغفلة والشك والاعراض، و يتم استيلاء سلطان المعرفة على القلب.

فهو في هذه الدرجة مستغرق في شهود الاسماء والصفات، وقد استولى على قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها، ودوام ذكرها، والنظر إلى الواحد الفرد، الأول الذى ليس قبله شيء، الآخر الذى ليس بعده شيء، الظاهر الذى ليس فوقه شيء، الباطن الذى ليس دونه شيء. سبق كل شيء بأوليته. و بقى بعد كل شيء بآخريته. وعلا فوق كل شيء بظهوره. وأحاط بكل شيء ببطونه.

وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس:

احداهما: غَلَت فيه، حتى قدمت الجمعية عند حصولها على الفرائض والسنن، ورأت نزولها عنها الى القيام بالأوامر انحطاطاً من الأعلى إلى الأدنى. حتى قيل لبعض من زعم أنه ذاق ذلك: قم إلى الصلاة، فقال:

يُطالَبُ بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

وهؤلاء بين كافر وناقص.

فمن لم ير القيام بالفرائض ــ إذا حصلت له الجمعية ــ فهو كافر، منسلخ من الدين. ومن عطل لها مصلحة راجحة ــ كالسنن الرواتب، والعلم النافع، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والنفع العظيم المتعدى ــ فهو ناقص.

والطائفة الثانية: لا تعبأ بالجمعية، ولا تعمل عليها. ولعلها لا تدرى ما مسماها ولا حقيقتها.

وطريقة الأقوياء، أهل الاستقامة: القيام بالجمعية في التفرقة ما أمكن. فيقوم أحدهم بالعبادات، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، مع جمعيته على الله. فإن ضعف عن اجتماع الأمرين، وضاق عن ذلك: قام بالفرائض. ونزل عن الجمعية. ولم يلتفت إليها، إذا كان لا يقدر على تحصيلها إلا بتعطيل الفرض. فإن ربه سبحانه يريد منه أداء فرائضه. ونفسه تريد الجمعية، لما فيها من الراحة واللذة، والتخلص من ألم التفرقة وشعثها. فالفرائض حق ربه. والجمعية حظه هو.

بل الواقع : أن الصلاة صلة العبد بربه، ليرفع إليه فيها حاجاته في دنياه وآخرته وهي قرة عين المؤمن. كما كانت قرة عين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي العون على كل أمورهم. وكذلك الصيام: إنما هو حصن من أقوى أسباب الوقاية بما يربيه ربه، حال كونه معه: بقوة العزمة والإرادة الصادقة، والبصيرة النيرة، التي يكون بها المؤمن في وقاية من كل ما يخاف في أولاه، وأخراه. وكل الطاعات المفروضة: إنما هي كذلك، أسباب لسعادته ووقايته من كل ما يخاف في أولاه قبل أخراه. وكل شأن الإنسان في أهله، أو مسجده، أو مزرعته، أو مصنعه، أو ميدان حربه: فإنما هو لخيره في الأولى قبل الأخرى. وبه يسلم شأنه و يستسلم به لربه خلقاً وشرعاً. فتكون كل حركاته وسكناته في مطعمه وملبسه ومشربه، ومنامه و يقظته: عبادة بتذلل وحب صادقين. وخطوات يسعى بها حثيثاً إلى لقاء الله والمصير إليه، راضيا مرضيا في قبره وما بعده. فيسعى بها حثيثاً ليكون من عباد الرحمن. وهذا كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به. واتبعوا النور الذي أنزل معه. ثم لما دخل الدخيل وأدخل أباطيله وبدعه الخرافية، وزخرف حسها شياطين الإنس والجن: تغير الناس. فتغيرت الأعمال والموجبات، وصاروا يعتقدون أن الذكر: أن يجلس في خلوة ليعد مئات لا إله إلا الله. أو ليصلي ألف ركعة، أو ليقرأ ألف ختمة في غفلة غافلة. وأشباه هذا مما يجعل العبادات أشكالا وصوراً وتمثيلا. بخلاف ما كان سبيه الصحابة رضي الله عنهم. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه «ما كنا نجاوز الآية حفظاً حتى نتقنها عملا» أو كما قال.

فالعبودية الصحيحة: توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر . فإذا جاء إلى النوافل، وتعارض عنده الأمران: فمنهم من يرجح الجمعية.

ومنهم من يرجح النوافل. ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت.

والتحقيق ــ إن شاء الله ــ أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من الجمعية، ولا تعوضه الجمعية عنها: اشتغل بها، ولو فاتت الجمعية، كالدعوة إلى الله، وتعليم العلم النافع، وقيام وسط الليل، والذكر أول الليل وآخره، وقراءة القرآن بالتدبر. ونفل الجهاد، والإحسان إلى المضطر، وإغاثة الملهوف. ونحو ذلك. فهذا كله مصلحته أرجح من مصلحة الجمعية.

وإن كانت مصلحته دون الجمعية ــ كصلاة الضحى، وزيارة الإخوان، والغسل لحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وإجابة الدعوات، وضيافة الإخوان ونحو ذلك ــ فهذا فيه تفصيل.

فإن قويت جمعيته فظهر تأثيرها فيه: فهي أولى له، وأنفع من ذلك. وإن ضعفت الجمعية، وقوي إخلاصه في هذه الأعمال : فهي أنفع له، وأفضل من الجمعية.

والمعول عليه في ذلك كله: إيثار أحب الأمرين إلى الرب تعالى.

وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته، من زيادة الإيمان به، وترتب الغايات الحميدة عليه، وكثرة مواظبة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه، وشدة اعتنائه به، وكثرة الوصية به، وإخباره: أن الله يحب فاعله. و يباهي به الملائكة. ونحوذلك.

ونكتة المسألة وحرفها: أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربه على حظه. فإن كان رضا الله في القيام بذلك العمل، وحظه في الجمعية: خَلَّى الجمعية تذهب. وقام بما فيه رضا الله. ومتى علم الله من قلبه: أن تردده وتوقفه ــ ليعلم ــ: أيُّ الأمرين أحب الى الله وأرضى له ــ أنشأ له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة، حتى لو قدم المفضول ــلظنه أنه الأحب إلى الله ــ: ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر. و بالله التوفيق.

و «الجمع» شهود الفردانية التي تفنى فيها رسوم المشاهد، وهذا جمع في الربوبية.

وأعلى منه: الجمع في الألوهية وهوجمع قلبه وهمه وسره على محبوبه ومراضيه ومراده منه. فهو عكوف القلب بكليته على الله عز وجل. لا يلتفت عنه يَمْنة ولا يَسرة. فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع: اتصل اشتياق صاحبها، وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه. ويجد صبره عن محبوبه من أعظم كبائره. كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها　　　إلا عليك. فإنه لا يحمد

فلله همة نفس قطعت جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصى السير إلا بين يدي الرحمن. تبارك وتعالى، فسجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه. فلم تزل ساجدة حتى قيل لها **(٨٩: ٢٧، ٢٨ يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).**

فسبحان من فاوت بين الخلق في هممهم، حتى ترى بين الهمتين أبعد مما بين المشرقين والمغربين. بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين. وتلك مواهب العزيز الحكيم **(٥٧: ٢١ و ٦٢: ٤ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم)**

وهكذا يجد بهذين الجمعين لذه غامرة عند مناجاة ربه، وأنساً به، وقرباً منه، حتى يصير كأنه يخاطبه و يسامره، و يعتذر إليه تارة، و يتملقه تارة، و يثني عليه تارة، حتى يبقى القلب ناطقاً بقوله «أنت الله الذي لا إله إلا أنت» من غير تكلف له بذلك. بل يبقى هذا حالا له ومقاما، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه»**. وهكذا

مخاطبته ومناجاته له، كأنه بين يدي ربه، فيسكن جأشه، و يطمئن قلبه، فيزداد لهجاً بالدعاء والسؤال، تذللاً لله الغني سبحانه، واظهاراً لفقر العبودية بين يدي عز الربوبية، فان الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله و يرغب إليه. لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله. بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد، ولا توسط سؤاله وطلبه. بل قَدّرَ له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه، إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعترافا بعز الربوبية. وكمال غنى الرب، وتفرده بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيانَ من يعلم: أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئاً. ولكن ربه تعالى يحب أن يُسأل، و يُرغب اليه، و يُطلب منه. كما قال تعالى (٤٠: ٦٠ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) وقال تعالى (٢: ١٨٦ وإذا سألك عبادى عنى؟ فإنى قريب. أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لى، وليؤمنوا لعلهم يَرْشدون) وقال (٤: ٣١ واسألوا الله من فضله) وقال (٢٥: ٧٧ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) وقال (٧: ٥٥ ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية) وقال (٧: ٥٦ وادعوه خوفاً وطمعاً) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «ليسأل أحدُكم رَبَّه كل شيء، حتى شِسْع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر» وقال «من لم يسأل الله يغضبْ عليه» وروى الترمذى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «سَلُوا الله من فضله. فإن الله يحب أن يُسأل من فضله. » .... وقال «إن لربكم فى أيام دهركم نفَحات. فتعرضوا لنفحاته. واسألوا الله أن يستر عوراتكم، و يؤمن رَوعاتكم» وقال «ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها أحد ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها. قالوا: إذاً نكثر يارسول الله؟ قال : فالله أكثر» وقال «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

وقال تعالى — فى الحديث القدسى فيما روى عن أبى ذر رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ياعبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعمونى أطعمكم. ياعبادى، كلكم عارٍ إلا من كَسَوْته. فاستكسونى أكْسِكم. ياعبادى، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدونى أهدكم. ياعبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار. وأنا أغفر الذنوب جميعاً. ولا أبالى. فاستغفرونى. أغفر لكم» وقال صلى الله عليه وسلم «وأما السجود: فاجتهدوا فيه فى الدعاء، فقمنٌ أن يستجاب لكم» .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «إنى لا أحمل همّ الإجابة. ولكن أحمل همّ الدعاء. فإذا أُلهمت الدعاء علمتُ أن الإجابة معه».

وفي هذا يقول القائل:

لو لم تُرِدْ بَذْلَ ما أرجو وأطلبه　　من جُود كَفِّكَ ماعودتني الطلبا

والله سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم إليه، وعياذهم به منه، وفرارهم منه إليه. كما قيل:

قالوا: أتشكو إليه　　ماليس يخفى عليه؟

فقلت: ربي يرضى　　ذُلَّ العبيد لديه

• نفرح بالله تعالى، وندعوه التثبيت

فإذا تم هذا الذل للعبد: تم له العلم بأن فضل ربه سبق له ابتداء قبل أن يخلقه، مع علم الله سبحانه به وبتقصيره، وأن الله تعالى لم يمنعه علمه بتقصير عبده ان يقدر له الفضل والاحسان.

فإذا شاهد العبد ذلك: اشتد سروره بربه، وبمواقع فضله وإحسانه. وهذا فرح محمود غير مذموم. قال الله تعالى (١٠: ٥٨ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون**) فضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن. وهو يحب من عبده: أن يفرح بذلك ويُسَرَّ به. بل يحب من عبده: أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسر بها. وهو في الحقيقة فرح العبد بفضل الله حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها ويسرها له. ففي الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسرور به. فيفرح به سبحانه رباً، وإلهاً، ومنعماً ومربياً.

ولكن العاقل اللبيب يجمع الى هذا السرور حذراً من مكر الله تعالى، فان السرور يبسط النفس وينميها. وينسيها عيوبها وآفاتها ونقائصها. إذ لو شهدت وأبصرته لشغلها ذلك عن الفرح.

وأيضاً فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم. فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه. فيطفح عليه السرور، حتى يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم.

ولله كم هاهنا من مُسْتَرَدٍّ منه ما وُهِب له عزة وحكمة! وربما كان ذلك رحمة به. إذ لو استمر على تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان. كما قال تعالى (٩٦: ٦، **كلا إن الإنسان لَيَطْغَى: أن رآه استغنى**) فإذا كان هذا غِنى بالحطام الفاني، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟

و «المكر» الذى يخاف عليه منه: أن يُغَيِّب الله سبحانه عنه شهود أوليته فى ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى (١٦: ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) وقوله (٣: ١٥٤ قل: إن الأمر كله لله) وقوله (١٠: ١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله، يصيب به من يشاء من عباده. وهو الغفور الرحيم) وقوله (٢٨: ٨٦ وما كنت ترجو أن يُلقَى إليك الكتاب إلا رحمةً من ربك) وقوله (٢٤: ٢١ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً. ولكن الله يزكى من يشاء) وأمثال ذلك. فيغيبه عن شهود ذلك. ويحيله على معرفته فى كسبه وطلبه. فيحيله على نفسه التى لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحوالة على الملىء الوَفِىّ الذى له الغنى التام كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغى له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده. قال شعيب صلى الله عليه وسلم، وقد قال له قومه (٧: ٨٨، ٨٩ لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودن فى ملتنا. قال: أولو كنا كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنا فى مِلَّتكم بعد إذ نجانا الله منها — إلى قوله — على الله توكلنا) فردَّ الأمرَ إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أدبا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفاً مع حد العبودية. وكذلك قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم لقومه — وقد خوفوه بآلهتهم — فقال (٦: ٨٠ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً. وسع ربى كل شىء علماً) فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالى (٧: ٩٩ أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرين).

وقد اختلف السلف: هل يكره أن يقول العبد فى دعائه «اللهم لا تُؤَمِّنِّي مكرك»؟

فكان بعض السلف يدعو بذلك. ومراده: لا تخذلنى، حتى آمن مكرك ولا أخافه؛ وكرهه مطرف بن عبد الله بن الشخير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف: أنه كان يكره أن يقول: اللهم لا تُنسنى ذكرك، ولا تؤمنى مكرك. ولكن أقول اللهم لا تنسنى ذكرك، وأعوذ بك أن آمن مكرك، حتى تكون أنت تؤمننى.

وبالجملة: فمن أحيل على نفسه فقد مُكِر به.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد — مولى بنى هاشم — حدثنا الصلت بن طريف المعولى حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال: وجدت هذا الإنسان ملقى بين الله عز وجل و بين الشيطان. فإن يعلم الله تعالى فى قلبه خيراً: جَبَذه إليه. وإن لم يعلم فيه خيراً: وكله إلى نفسه. ومن وكله إلى نفسه هلك.

وقال جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن مطرف قال: لو أخرج قلبي فجعل في يدي هذه في اليسار. وجيء بالخير فجعل في هذه اليمنى. ثم قربت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئاً حتى يكون الله عز وجل يضعه.

ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكر، مالم يقارنه خوف: قوله تعالى (٦: ٤٤ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة. فإذا هم مبلسون) وقال قوم قارون له (٢٨: ٧٦ لا تفرح. إن الله لا يحب الفرحين) فالفرح متى كان بالله، وبما مَنَّ الله به، مقارناً للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك: ضره ولا بد.

والذي يساعده على تصفية سروره من شوائب الطغيان: ان يبالغ في الشكر، و يكثر منه، مع تيقنه انه لن يوفي شكره حقه مهما شكر، فإن شُكر العبد لربه: نعمة من الله أنعم بها عليه. فهي تستدعي شكراً آخر عليها. وذلك الشكر نعمة أيضاً. فيستدعي شكراً ثالثاً. وهَلُمَّ جرًّا. فلا سبيل إلى القيام بشكر الرب على الحقيقة. ولا يشكره على الحقيقة سواه. فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها. فهو الشكور لنفسه، وإن سمى عبده شكوراً. فمدحة الشكر في الحقيقة: راجعة إليه، وموقوفة عليه. فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده. فما شكره في الحقيقة سواه.

والشكر هو صفة الرب جل جلاله وفعله. فإنه سمى نفسه بالشكور، كما قال تعالى (٤: ١٤٦ وكان الله شاكراً عليماً) وقال أهل الجنة (٣٥: ٣٤ إن ربنا لغفور شكور). فاذا لاحظ العبد سبق الفضل من الله: علم انه سبحانه انما فعل ذلك لمحبته للشكر، فانه تعالى يحب ان يشكر، كما قال موسى صلى الله عليه وسلم «يارب، هلاَّ ساويت بين عبادك؟ قال: اني أحب ان أُشكر».

وإذا كان يحب الشكر فهو أولى أن يتصف به، كما أنه سبحانه وتر، يحب الوتر، جميل يحب الجمال، محسن يحب المحسنين، صبور يحب الصابرين، عفو يحب العفو، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف. فكذلك هو شكور يحب الشاكرين. فملاحظة العبد سبق الفضل تُشهده صفة الشكر. وتبعثه على القيام بفعل الشكر.

● ذكريات الابتداء تعيدك إلى الشكر بعد الفتور

فاذا نسي السالك نفسه، وفرح فرحاً لا يقارنه خوف، فليرجع بذاكرته الى بدايات سلوكه، وحدة طلبه، عسى ان يعود الى سابق ما كان منه من السير الحثيث الذي كانت تسوقه الخشية، فيترك الفتور الذي لابد أن ينتج عن السرور.

فتخلل الفترات للسالكين: أمر لازم لابد منه. فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم: رجي له أن يعود خيراً مما كان.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه «إن لهذه القلوب إقبالا وإدبارا. فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل. وإن أدبرت فألزموها الفرائض».

وفي هذه الفترات والغيوم والحجب، التي تعرض للسالكين: من الحكم مالا يعلم تفصيله إلا الله. و بها يتبين الصادق من الكاذب.

فالكاذب: ينقلب على عقبيه. و يعود إلى رسوم طبيعته وهواه.

والصادق: ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله. و يلقي نفسه بالباب طريحاً ذليلاً مسكيناً مستكيناً، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد ــ وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب ــ لكن ليس هو منك. بل هو الذي مَنَّ عليك به. وجردك منك. وأخلاك عنك. وهو الذي (٨: ٢٤ يحول بين المرء وقلبه) :

فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام، فاعلم. أنه يريد أن يرحمك. ويملأ إناءك فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلبٌ مضيع. فسل ربه ومَنْ هو بين أصابعه: أن يرده عليك. ويجمع شملك به.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم «إن لكل عامل شِرَّة. ولكل شِرَّة فترة».

فالطالب الجاد: لابد أن تعرض له فترة. فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد.

وربما كانت للسالك بداية ذات نشاط، كان فيها عالي الهمة، فيفيده عند فتوره ان يرجع الى ذكريات تلك البداية، فتتجدد له العزمة، و يعود الى دأبه في الشكر.

وكان الجنيد رحمه الله كثير الذكر لبداية سيره، وكان اذا ذكرها يقول: واشوقاه الى اوقات البداية!

يعني: لذة اوقات البداية، وجمع الهمة على الطلب، والسير الى الله، والاعراض عن الخلق.

وهكذا تكون للمؤمن الشاكر الصادق بدايات عديدة مباركة، لابداية واحدة، و يكون وقته عامراً مليئاً كله، لكل حين ما يناسبه، حتى ان التوفيق لكل عمل ينويه يأتيه في الوقت الذي هو أليق له، وعند اشتداد الحاجة اليه.

وذلك لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه. وكما إذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى، وجريانها في الخلق: علم أنها واقعة في أليق الأ وقات بها.
وقد استشهد الهروي لذلك بقول الله تعالى (٢٠: ٤٠ جئتَ على قدرٍ يا موسى).
و وجه واستشهاده بالآية: أن الله سبحانه قدّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه. فإن العرب تقول: جاء فلان على قَدَر، إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر   كما أتى ربه موسى على قدر

فَبَعْثُ الله سبحانه موسى: احوج ما كان الناس الى بعثته. و بعثُ عيسى كذلك.
و بَعْثُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين: أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله.
فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له: أحوج ما كان إلى عمارته.
واذا أراد الله بعبد خيراً: اعانه بالوقت، وجعل وقته مساعداً له واذا أراد به شراً: جعل وقته عليه، وناكده وقته، فكلما اراد التأهب للمسير: لم يساعده الوقت، والاول: كلما همّت نفسه بالقعود: اقامه الوقت وساعده.

● الرجاء الصافي يريك ما تأنس به

فاذا اقترن الصفاء بالشكر: صار الوقت وقت وَجْدٍ صادق، غير متكلف له، ولا متعمل في تحصيله، ومنحه هذا الوجد: الأنس بما يرى من فضل الله تعالى عليه.
قال الله تعالى (٢٨: ٢٩ **فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس من جانب الطور ناراً، قال لاهله: امكثوا، اني آنست نار**).
فليس هو مجرد الرؤية، بل رؤية مايأنس به القلب و يسكن اليه. ولا يقال لمن رأى عدوه او مخوفاً: آنسه.
والمقصود: أن هذا الوقت وقت وجدٍ، صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومنته عليه. و «الفضل» هو العطاء الذى لا يستحقه المعطى، أو يعطى فوق استحقاقه. فإذا آنس هذا الفضل، وطالعه بقلبه: أثار ذلك فيه وجداً آخر، باعثاً على محبة صاحب الفضل، والشوق إلى لقائه، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.
ودخلتُ على بعض أصحابنا، وقد حصل له وجد أبكاه. فسألته عنه؟ فقال: ذكرت ما منّ الله به عليّ من السُّنة ومعرفتها، والتخلص من شُبَه القوم، اي اهل البدع، وقواعدهم الباطلة، وموافقة العقل الصريح، والفطرة السليمة، لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فسرني ذلك حتى أبكاني.
فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومنته.

وهذا الوجد، او الايناس، او الفضل، انما يجذبه رجاء صاف غير مكدر، مقترن بشكر، والرجاء الصافي هو الذي لا يشوبه كدر توهم معاوضة منك، بل يكون رجاء محضاً لمن هو مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك، والفضل كله له ومنه، وفي يده اسبابه وغاياته ولا يستطيع العبد ان ينال شيئاً بدون توفيقه وإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى .

و بالمقابل، فان هناك من الوجد ما يبعث عليه صدق السالك في الخوف من الله تعالى، فالاول سببه الرجاء، وهذا سببه الخشية.

او تجذبه المحبة ايضاً، فان المحبة متى قويت: اشتعلت نارها في القلب، فحدث عنها لهيب الاشتياق الى لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثه: الحب، والخوف، والرجاء: هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له، وهي أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله (١٧: ٥٧ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة، أيهم أقرب. ويرجون رحمته. ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذورا**) وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية. وعليها دارت رحى الأعمال. والله أعلم.

(٥٥) منزلة الصفاء

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: «منزلة الصفاء».

قال الله عز وجل (٣٨: ٤٧ وإنهم عندنا لمن المصطفَين الاخيار).

و «الصفا» اسم للبراءة من الكدر.

ووجه الاستشهاد بالآية: أن «المصطفى» مفتعل من الصفوة. وهى خلاصة الشيء (تصفيته مما يشوبه: ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أى خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الصَّفِيُّ» وهو السهم الذى كان يصطفيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من الغنيمة ومنه: الشيء الصافى. وهو الخالص من كَدَر غيره.

● رخصة مرور ... شرطها التجريد

واساسه: صفاء علم يُهذِّب لسلوك الطريق، و يصحح همة القاصد.

وهذا العلم الصافي هو العلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الجنيد يقول دائماً: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. فمن لم يحفظ القرآن و يكتب الحديث، ولم يتفقه: لايقتدى به.

وكان يقول: علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو سليمان الدارانى: إنه لتمر بقلبى النكتة من نُكَتِ القوم. فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل، من الكتاب والسنة. وقال النصر ابادى: أصل هذا المذهب: ملازمة الكتاب والسنة. وترك الأهواء والبدع، والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون. والإقامة على ما سلكه الأولون.

فهذا العلم الصافى، المتلقَّى من مشكاة الوحى والنبوة: يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية. وحقيقتها: التأدب بآداب رسول الله صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً. وتحكيمه باطناً وظاهراً. والوقوف معه حيث وقف بك. والمسير معه حيث سار بك.

فلا تخالفه البتة، ولكن اجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لك إماماً وقدوة وحكماً، فتجيبه اذا دعاك، وتقف معه اذا استوقفك، وتسير إذا سار بك. وتقيل إذا قال، وتنزل إذا نزل. وتغضب لغضبه. وترضى لرضاه. وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك. وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك.

وبالجملة: فتجعل الرسول معلمك ومربيك ومؤدبك. وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا فى التبليغ. كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل فى العودية. ولا تثبت وساطة إلا فى وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

وهذان التجريدان: هما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه، الذى لا يستحق العبادة سواه، ورسوله: المطاع المتبع، المهتدى به، الذى لا يستحق الطاعة سواه. ومن سواه: فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته. فيطاع تبعاً للأصل.

فالعلم الحاصل بالشواهد والأدلة: هو العلم الحقيقى. وأما ما يدعى حصوله بغير شاهد ولا دليل: فلا وثوق به. وليس بعلم. نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد، بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمعاين، وعلم اليقين كعين اليقين. فيكون الأمر شعوراً أولا. ثم تجويزاً، ثم ظناً، ثم علماً. ثم معرفة. ثم علم يقين. ثم حق يقين. ثم عين يقين. ثم تضمحل كل مرتبة فى التى فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها. فهذا حق.

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال: فليس بصحيح. فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها. ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدله عليه. وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التى دلتهم على أن ما جاءهم من عند الله. ودلت أممهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله. وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأمم. فالأدلة والشواهد التى كانت لهم، ومعهم أعظم الشواهد والأدلة. والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد. فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لادليل عليها، وحكم لابرهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علماً.

وفائدة هذا التقرير تظهر في فهم حقيقة «العلم اللّدُني» الذي يدعي البعض ان الله يقذفه في قلوبهم الهاماً بلا سبب منهم ولا استدلال، فنحن نقول ان العلم اللدني: ما قام الدليل الصحيح عليه: أنه جاء من عند الله على لسان رسله. وما عداه فلدنى من لدن نفس الإنسان. منه بدأ وإليه يعود. وقد انبثق سد العلم اللدنى، ورخص سعره. حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدنى. وصار من تكلم فى حقائق الإيمان السلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويلقيه شيطانه فى قلبه: يزعم أن علمه لدنى.

وقد صدق هؤلاء وكذبوا، فإن «اللدنى» منسوب إلى «لدن» بمعنى «عند» فكأنهم قالوا: العلم العندى، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه. وقد ذم الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده، كما قال تعالى **(٣: ٧٥ ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)** وقال تعالى **(٢: ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم. ثم يقولون هذا من عند الله)** وقال تعالى **(٦: ٩٣ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب، أو قال: أوحى إلى، ولم يوح إليه شىء)** فكل من قال:

هذا العلم من عند الله — وهو كاذب فى هذه النسبة — فله نصيب وافر من هذا الذم. وهذا فى القرآن كثير. يذم الله سبحانه من أضاف إليه ما لا علم له به، ومن قال عليه ما لا يعلم. ولهذا رتب سبحانه المحرمات أربع مراتب. وجعل أشدها: القول عليه بلا علم. فجعله آخر مراتب المحرمات التى لا تباح بحال. بل هى محرمة فى كل ملة، وعلى لسان كل رسول. فالقائل «إن هذا علم لدنى» لما لا يعلم أنه من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده: كاذب مفتر على الله. وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين.

فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم، واقتدى به فى ظاهره وباطنه.

فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق. فليس حظه من سلوكه إلا التعب، وأعماله **(٢٤: ٣٩ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده. فوفاه حسابه. والله سريع الحساب)**.

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق. فإنه واصل ولو زحف زحفاً. فأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا قعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم. كما قيل:

من لى بمثل سيرك المدلل ... تمشى رويداً وتجى فى الأول

والمحرمون عن طريقه، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم: قعد بهم عدولهم عن طريقه.

بل الأعمال والاجتهادات على غير هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما هى أعمال جاهلية، مهما سماها عاملوها بأسماء إسلامية. كما كان أهل الجاهلية يسمون أعمالهم الجاهلية: إبراهيمية، وحنيفية. فلن تقوم الأعمال الجاهلية بعاملها إلا نكوصاً على الأعقاب، وانكباباً على الوجوه عمى وبكم وصمم وعداوة لله ورسوله، وموالاة للشيطان قال الله **(٢٥: ٢٣ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباء منثورا)**.

• همم الفلك السامي

وهـذا الصفاء العلمي يصحح همة القاصد، ومتى صحت الهمة علت وارتفعت. فإن سقوطها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلا فهي كالنار تطلب الصعود والارتفاع مالم تمنع.

وأعلى الهمـم: همة اتصلت بالحق سبحانه طلباً وقصداً. وأوصلت الخلق إليه دعوة ونصحاً. وهـذه همـة الرسل وأتباعهم. وصحتها: بتمييزها من انقسام طلبها، وانقسام مطلوبها، وانقسام طريقها. بل توحّد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقها بالسلوك خلف الدليل الذى نصبه الله دليلاً. لاَمَنْ نصبه هو دليلاً لنفسه.

وإذا أردت أن تـعرف مراتب الهمم، فانظر الى همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضى الله عنه — وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «سلني» — فقال «**أسألك مرافقتك فى الجنة**» وكان غيره يـسأله ما يملأ بطنه، أو يوارى جلده.

وانـظر الى همـة ابراهيـم واسماعيل، فان إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما بلغ ما بلغ — هو وولـده — فى المبـادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به: ألقاه الوالد على جبينه فى الحـال. وأخـذ الشـفرة. وأهوى الى حَلْقه — أعرض فى تلك الحال عن نفسه و ولده، وفنى بأمر الله عنهما. فتوسط بَحر جمع السر والقلب والهمّ على الله وجاوز حَدّ التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

قـولـه «**فلما أسلما**» أى استـسلما وانقادا لأمر الله. فلم يبق هناك منازعة. لامن الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف، وتـسليم محض.
قوله «**وتَلَّه للجبين**» أى صَرَعه على جبينه، وهو جانب الجبهة الذى يلى الأرض عند النوم، وتلك هى هيئة ما يراد ذبحه.

وانـظر إلى همة رسول الله صلى الله عليه وسلم — حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض — فـأباهـا. ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها فى طاعة ربه تعالى. فأبت له تلك الهمة العالية: أن يتعلق مـنهـا بشيء مما سـوى اللـه ومحـابه. وعرض عليه أن يتصرف بالملك، فأباه. واختار التصرف بـالـعـبودية المحضة. فلا إله إلا الله، خالق هذه الهمة، وخالق نفس تحملها، وخالق همم لا تعدو همم أخس الحيوانات.

ومن الصفاء: صفاء الحال.

والحال ثمرة العلم، ولا يصفو حال إلاّ بصفاء العلم المثمر له، وعلى حسب شَوْب العلم يكون شوب الحال. واذا صفا الحال: وجد العبد حلاوة المناجاة.

فهذه الدرجة تختص بصفاء الحال، كما اختصت الاولى بصفاء العلم.

فمتى صفا له حاله من الشوائب خلصت له حلاوته من مرارة الأكدار. فذاق تلك الحلاوة فى حال مناجاته. فلو كان الحال مشوباً مكدَّراً لم يجد حلاوة المناجاة. والحال المستندة إلى وارد تذاق به حلاوة المناجاة: هو من حضرة الأسماء والصفات، بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم «الودود» ـ مثلا ـ وكشف له عن معاني الاسم، ولطفه، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل له من حضرة هذا الاسم مناسباً له. فكان حال اشتغال حب وشوق، ولذة مناجاة، لا أحلى منها ولا أطيب، بحسب استغراقه فى شهود معنى هذا الاسم. وحظه من أثره.

فإن «الودود» ـ إن كان بمعنى المودود ، كما قال البخارى فى صحيحه «الودود» الحبيب ـ واستغرق العبد فى مطالعة صفات الكمال. التى تدعو العبد إلى حب الموصوف بها: أثمر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله فى تعبده بمقتضاها سروراً وبهجة.

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنى «الواد» وهو المحب: أثمرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه.

فإنه إذا شاهد بقلبه غنياً كريما جواداً، عزيزاً قادراً، كل أحد محتاج إليه بالذات. وهو غنى بالذات عن كل ما سواه. وهو ـ مع ذلك ـ يَوَدُّ عباده ويحبهم، و يتودد إليهم بإحسانه إليهم وتفضله عليهم ـ: كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب.

وكذلك سائر الأسماء والصفات. فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها.

(٥٦) منزلة الفرح

ومن منازل إياك نعبد: «السرور والفرح».

قال الله تعالى (١٠: ٥٨ قل: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون).

وتصدير الباب بهذه الآية فى غاية الحسن. فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته. وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة. فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم، محسن: يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه: أولى وأحرى.

ونذكر ما فى هذه الآية من المعنى.

قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وغيرهم «فضل الله» الإسلام. و «رحمته» القرآن. فجعلوا «رحمته» أخص من «فضله» فإن فضله الخاص: عام على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض فجعلهم مسلمين بفضله وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى (٢٨: ٨٦ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلنا من أهله».

قلت: يريد بذلك. أن هُهنا أمرين.

أحدهما: الفضل فى نفسه. والثانى: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

و «الفرح» لذة تقع فى القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى. فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور. .... وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله و برحمته عقيب قوله (١٠: ٥٧ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور، وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين.) ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التى تتضمن الموعظة ــ وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة. فأخبر سبحانه: أن ما آتى عباده من الموعظة ــ التى هى الأمر والنهى، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغى، والسفه ــ وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا. فهناك يحضرها كل مؤلم

محزن. وما آتاها من ربها الهدى الذى يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. و «الرحمة» التى تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أى هذا هو الذى ينبغى أن يُفرَح به. ومن فرح به فقد فرح بأجلّ مفروح به. لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح. لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو طيف خيال زار الصب فى المنام. ثم انقضى المنام. وولى الطيف. وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء «الفرح» فى القرآن على نوعين. مطلق ومقيد.

فالمطلق: جاء فى الذم. كقوله تعالى (٢٨: ٧٦ **لا تفرح. إن الله لا يحب الفرحين**) وقوله (١١: ١٠ **إنه لفرح فخور**).

والمقيد: نوعان أيضاً. مقيد بالدنيا. يُنسِى صاحبه فضل الله ومنته. فهو مذموم. كقوله (٦: ٤٤ **حتى إذا فرحُوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون**).

والثانى: مقيد بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضاً. فضل ورحمة بالسبب. وفضل بالمسبب. فالأول: كقوله «**قل بفضل الله وبرحمته. فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون**» والثانى: كقوله (٣: ١٧٠ **فرحين بما آتاهم الله من فضله**).

فالفرح بالله، وبرسله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى (٩: ١٢٤ **وإذا ما أُنزِلَتْ سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيمانا؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون**).

وقال (١٣: ٣٦ **والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك**).

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشىء عند حصوله له: على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة فى الشىء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته.

فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار: يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى (٣: ١٧٠ **فرحين بما آتاهم الله من فضله. ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم**).

و «الفرح» صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود: أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته و بهجته. والفرح والسرور نعيمه. والهم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضى به. فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة و بهجة وسرور. فكل فَرِح راض. وليس كل راض فرحا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام.

و «السرور» والمسرة: مصدر سَرَّه سرورا ومسرة. وكأن معنى سَرَّه: أثّر في أسارير وجهه فإنه تبرق منه أسارير الوجه. كما قال شاعر العرب:

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه   بَرَقَتْ كبرق العارض المتهلل

وأما الاستبشار: فهو من البُشْرَى. والبشارة: هي أول خبر صادق سار.

و «البشرى» يراد بها أمران أحدهما: بشارة المخبر. والثاني سرور المخبَر. قال الله تعالى (١٠: ٦٤ **لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**) فُسّرت «البشرى» بهذا وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم «**هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرَى له**» .

وقال ابن عباس «بشرى الحياة الدنيا: هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وفي الآخرة: عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله، تُزَفُّ كما تزف العروس، تبشر برضوان الله».

وقال الحسن: هي الجنة. واختاره الزجاج والفراء. وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجرى له على ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح.

فالثناء: من البشرى. والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى. والجنة من أعظم البشرى. قال الله تعالى (٢: ٢٥ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار**) وقال تعالى (٤١: ٣٠ **وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**).

قيل: وسميت بذلك لانها تؤثر في بَشَرة الوجه. ولذلك كانت نوعين «بشرى سارة» تؤثر فيه نضارة و بهجة «و بشرى محزنة» تؤثر فيه بُسوراً وعُبوساً. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

والله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة» وفي قوله تعالى لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين» وقولة تعالى «إنه لفرحُ فخور» فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألبتة. بل ما من فرحة إلا ومعها تَرْحة سابقة، أو مقارنة، أو لاحقة. ولا تتجرد الفرحة. بل لابد من ترحة تقارنها. ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه وألمه مع وجودها. و بالعكس.

ولقد نزل القرآن أيضاً بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى «فرحين بما آتاهم الله من فضله» وقوله تعالى «فبذلك فليفرحوا».

وورد اسم السرور في موضعين من القرآن في احوال الآخرة. وهما:

قوله تعالى (٨٤: ٧ ــ ٩ فأما من أوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً) والموضع الثاني: قوله (٧٦: ١١ ولقّاهم نَضْرة وسروراً) .

وورد السرور في أحوال الدنيا في مواضع على وجه الذم. كقوله تعالى (٨٤: ١٠ ــ ١٣ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبوراً. ويصلى سعيراً. وإنه كان في أهله مسروراً).

فقد رأيت ورود كل واحد من «الفرح» و «السرور» في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة.

والترجيح للفرح لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به. و يطلق عليه اسمه، دون «السرور» فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور، وأمر الله به في قوله تعالى «فبذلك فليفرحوا» وأثنى على السعداء به في قوله «فرحين بما آتاهم الله من فضله».

• الاتصال المطرب

وسرور قلب المؤمن انما تجلبه هزتان: الاولى: هزه سرور ذوق، يذهب بثلاثة احزان: حزن اورثه خوف الانقطاع. وحزن هاجته ظلمة الجهل. وحزن بعثته وحشة التفرق.

إذ لما كان «السرور» ضد الحزن. والحزن لا يجامعه: كان مُذْهِباً له. ولما كان سببه: ذوق الشيء السار. فإنه كلما كان الذوق أتم: كان السرور به أكمل.

وهذا السرور يذهب بثلاثة احزان:

الحزن الاول: حزن اورثه خوف الانقطاع، وهذا حزن المتخلفين عن ركب المحبين، ووفد المحبة: فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب، وهذا الوفد. وهم الذين (٩: ٤٧ كره الله انبعاثهم. فثبّطهم. وقيل: اقعدوا مع القاعدين) فثبط عزائمهم وهممهم: أن تسير

إليه وإلى جنته. وأمر قلوبهم أمراً كونياً قدرياً: أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلى محابه. فلو عاينت قلوبهم ـــ حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهموم، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحصرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها المسرات. ونابت عنها الأحزان ـــ لعلمت أن الابرار فى هذه الدار فى نعيم. وأن المتخلفين عن رفقتهم فى جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيذيق الصديق طعم الوعد الذى وعد به على لسان الرسول. فلا يعقله ظن. ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية ـــ كما تقدم ـــ فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى (٢٨: ٦١ **أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا. ثم هو يوم القيامة من المحضرين؟**) وقوله تعالى (٣٥: ٥ **يا أيها الناس، إن وعد الله حق. فلا تغرنكم الحياة الدنيا. ولا يغرنكم بالله الغَرور**) وقوله تعالى (٢: ٢٢٣ **وقدّموا لأنفسكم. واتقوا الله. واعلموا أنكم ملاقوه، وبشر المؤمنين**) وأمثال هذه الآيات.

• بشاشة العلم

والحزن الثانى، الذى يذهب سرور الذوق، هو حزن ظلمة الجهل.

والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة، وجهل عمل وَغَيّ. وكلاهما له ظلمة ووحشة فى القلب. وكما أن العلم يوجب نورا وأنسا. فضده يوجب ظلمة و يوقع وحشة. وقد سمى الله سبحانه وتعالى «العلم» الذى بعث به رسوله نوراً، وهدى وحياة. وسمى ضده: ظلمة وموتاً وضلالاً. قال الله تعالى (٢: ٢٥٧ **الله وَلِيُّ الذين آمنوا، يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت. يخرجونهم من النور إلى الظلمات**) وقال تعالى (٦: ١٢٢ **أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها؟**) وقال تعالى (٥: ٦٥ **قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه. ويهديهم إلى صراط مستقيم**) وقال تعالى (٤: ١٧٤ **يا أيها الناس، قد جاءكم برهان من ربكم. وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً**) وقال تعالى (٧: ١٥٧ **فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه. أولئك هم المفلحون**) وقال تعالى (٤٢: ٥٢ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان. ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا**) فجعله «روحاً» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. و «نوراً» لما يحصل به من الهدى والرشاد.

ومَثَّلَ هذا النور فى قلب المؤمن (٢٤: ٣٥ كمشكاة فيها مصباح. المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّى. يوقد من شجرة مباركة زيتونة. لا شرقية ولا غربية. يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء).
ومَثَّلَ حال مَنْ فقد هذا النور: بمن هو فى (ظلمات فى بحر لُجِّى يغشاه موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب. ظلمات بعضها فوق بعض. إذا أخرج يده لم يكد يراها. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور).

• سكينة الاجتماع

الحزن الثالث: حزن بعثه وحشة التفرق. وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل. ولهذا التفرق حزن مُمِضٌّ على فوات جمعية القلب على الله ولذاتها ونعيمها. فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل، لم يكنْ لها نسبة إلى لذة جمعية قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه. وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك ولله در القائل:

أيا صاحبى ، أما ترى نارهم؟ فقال : تريني مالا أرى
سقاك الغرام. ولم يسقني فأبصرتَ مالم أكن مبصرا

فلو لم يكن فى التفرق المذكور إلا ألم الوحشة، ونكد التشتت، وغبار التعث. لكفى به عقوبة، فكيف؟ وأقل عقوبته: أن يبتلى بصحبة المنقطعين ومعاشرتهم وخدمتهم. فتصير أوقاته ـ التى هى مادة حياته ـ ولا قيمة لها، مستغرقة فى قضاء حوائجهم، ونيل أغراضهم. وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال على الله، والجمعية عليه، والأنس به. ثم آثر على ذلك سواه. ورضى بطريقة بني جنسه، وماهم عليه. ومن له أدنى حياة فى قلبه، ونور. فإنه يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق.

ففى القلب شعث، لا يَلُمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به فى خلوته.

وفيه حزن: لا يذهبه إلا السرور بمعرفته. وصدق معاملته.

وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات: لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه، وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقة: لايسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة منه أبدا.

فالتفرق يوقع وحشة الحجاب. وألمه أشد من ألم العذاب، قال تعالى (٨٣: ١٥، ١٦ **كلا. إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم**) فاجتمع عليهم عذاب الحجاب. وعذاب الجحيم.

فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب. ليس له سبب سواه. وإن تولد من حصول مكروه، فذلك المكروه: إنما كان كذلك لما فات به من المحبوب. فلا حزن إذاً، ولا هَمّ ولا غَمّ، ولا أذى ولا كرب إلا في مفارقة المحبوب. ولهذا كان حزن الفقر والمرض، والألم والجهل، والخمول والضيق، وسوء الحال ونحو ذلك: على فراق المحبوب، من المال، والوُجْدِ والعافية، والعلم، والسعة، وحسن الحال. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالى (٣٤: ٥٤ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون، كما فُعِل بأشياعهم من قبل. إنهم كانوا في شك مريب**) فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأَمَرُّ العيش: عيش من حيل بينه و بين محبوبه.

• ياقومنا : اجيبوا داعي الله

اما هزة الطرب الثانية فهي هزة سرور سماع الاجابة، وهو سرور يمحو آثار الوحشة. وهو مقيد بكونه «سماع إجابة» فإنه السماع المنتفع به، لا مجرد سماع الإدراك. فإنه مشترك بين المجيب والمعرض. و به تقوم الحجة. و ينقطع العذر. ولهذا قال الله عن أصحابه (٤: ٤٥ **سمعنا وعصينا**) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ــ لليهودي الذي سأله عن أمور من الغيب ــ(ينفعك إن حدثتك؟) قال: أَسْمَعُ بأذني. وأما سماع الاجابة: ففي مثل قوله تعالى «٩ : ٤٧ **وفيكم سماعون لهم**» أي مستجيبون لهم. وفي قوله (٥ : ٤١ **سماعون للكذب**) أي: مستجيبون له. وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي أجاب الله حَمْدَ من حمده. وهو السمع الذي نفاه الله عز وجل عمن لم يرد به خيراً. في قوله (٨ : ٢٣ **ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**) أي لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا يكون المعنى لأسمع قلوبهم فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيراً لأفهمهم، ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه.

والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذان، وهو يزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام. فإنه على قدْر فقد ذلك: تكون الوحشة. وزوالها إنما يكون بالانقياد التام.

وقد بيّن الله سبيل حصول هذه المعرفة فقال (٥١: ٣٧ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد).

فالله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدها: أن يكون له قلب حي واع. فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغي بسمعه. فيميله كله نحو المخاطب. فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له. وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب. فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحدّق بها نحو المرئي. ولم يكن قلبه مشغولا بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه ولكن قلبه في موضع آخر: لم يدركه. فكثيرا ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره. فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء.

فإذا اجتمع الى ذلك سماع اجابة من الرب عز وجل: تم السرور، فان العبد اذا دعا ربّه فسمع ربُّه دعاءه سماع إجابة، وأعطاه ما سأله، على حسب مراده ومطلبه، أو أعطاه خيراً منه: حصل له بذلك سرور يمحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد. فإن للعطاء والإجابة سروراً وأنساً وحلاوة. وللمنع وحشة ومرارة. فإذا تكرر منه الدعاء، وتكرر من ربه سماع وإجابة لدعائه: محا عنه آثار الوحشة. وأبدله بها أنساً وحلاوة.

(٥٧) مَنْزِلَةُ السِّرِّ

ومن منازل إياك نعبد: منزلة «السّر».

قال صاحب المنازل:

«باب السر. قال الله تعالى (١١: ٣١ الله أعلم بما فى أنفسهم) أصحاب السر: هم الأخفياء، الذين ورد فيهم الخبر».

أما استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الدين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم: قد أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفى على أعداء الرسل. فنظروا إلى ظواهرهم. وعموا عن بواطنهم. فازدروهم واحتقروهم. وقالوا للرسول «اطرد هؤلاء عنك. حتى نأتيك ونسمع منك» وقالوا (٦: ٥٣ أهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا؟) فقال نوح عليه السلام لقومه (١١: ٣١ ولا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنى ملك، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم: لن يؤتيهم الله خيراً. الله أعلم بما فى أنفسهم. إنى إذاً لمن الظالمين) قال الزجاج: المعى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعونى فى بادى الرأي وظاهره، فليس عَلَيَّ ان أطلع على ما في انفسهم. فاذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم مافى نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذى يظهر من الآية: أن الله يعلم ما فى أنفسهم، إذ أهَّلَهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله. والله سبحانه وتعالى عليم حكيم. يضع العطاء فى مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى (٦: ٥٣ وكذلك فَتَنَّا بعضهم ببعض، ليقولوا: أهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا؟ أليسَ الله بأعلم بالشاكرين؟) فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلَهم للهدى والحق، وحرَمَه رؤساء الكفار وأهلَ العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر. فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

قوله «أصحاب السر: هم الأخفياء. الذين ورد فيهم الخَبر».

قد يريد به: حديث سعد بن أبي وقاص. حيث قال له ابنه «أنت ههنا والناس يتنازعون في الإمارة؟ فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي».

وقد يريد به: قوله صلى الله عليه وسلم «رُبّ أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأبَرّه»

وهم على طبقتين: الطبقة الاولى: طائفة علت هممهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم، حتى سبقوا السائرين، فلم يوقف لهم على رسم، ولم يُنسبوا الى اسم، ولم يُشَر اليهم بالأصابع.
أي ان لهم ثلاث صفات ثبوتية. وثلاثاً سلبية.

الأولى: «علو همهم» وعلو الهمة: أن لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه. ولا ترضى بغيره بدلاً منه. ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية. فالهمة العالية على الهمم: كالطائر العالي على الطيور. لايرضى بمساقطهم. ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم. فإن «الهمة» كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها. وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان. فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه. وإنما تجتذب من المكان السافل. فعلو همة المرء: عنوان فلاحه. وسفول همته: عنوان حرمانه.

العلامة الثانية: «صفاء القصد» وهو خلاصه من الشوائب التي تعوقه عن مقصوده. فصفاء القصد: تجريده لطلب المقصود له لالغيره. فهاتان آفتان في القصد. إحداهما: أن لايتجرد لمطلوبه. الثانية: أن يطلبه لغيره لالذاته.

و يراد به: خلوص القصد من كل إرادة تزاحم مراد الرب تعالى. بل يصير القصد مجرداً لمراده الديني الأمري.

وعلامته: اندراج حظ العبد في حق الرب تعالى. بحيث يصير حظه هو نفس حق ربه عليه. ولايخفى على البصير الصادق علو هذه المنزلة.

العلامة الثالثة «صحة السلوك» وهو سلامته من الآفات والعوائق والقواطع والحُجب. وهو إنما يصح بثلاثة أشياء.

أحدها أن يكون على الدرب الأعظم، الدرب النبوي المحمدي، لاعلى الجوادّ الوضعية، والرسوم الاصطلاحية. وإن زخرفوا لها القول، ودققوا لها الإشارة، وحسنوا لها العبارة. فتلك من بقايا النفوس عليهم وهم لا يشعرون.

الثاني: أن لايجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة.

الثالث: أن يكون في سلوكه ناظراً إلى المقصود. وقد تقدم بيان ذلك.

فبهذه الثلاثة يصح السلوك. والعبارة الجامعة لها: أن يكون واحداً لواحد، في طريق واحد. فلا ينقسم طلبه ولامطلوبه. ولايتلون مطلوبه، بل يسعى الى تخليص قصده من العلائق والعوائق، التماساً للحقائق، فيغيب عن عاداته، ليقطع بذلك العلائق. وهي ما يتعلق بقلبه وقالبه وحسه من المألوفات. و يسبق العوائق، حتى لا تلحقه ولا تدركه.

وهذه الغيبة إنما تكون لالتماس الحقائق. فإن «العوائق» و«العلائق» تحول بينه وبين طلبها وحصولها لمضادتها لها.

و «الحقائق» جمع حقيقة، و يراد بها: الحق تعالى وما نسب إليه. فهو الحق، وقوله الحق، ووعده الحق، ولقاؤه حق، ورسوله حق، وعبوديته وحده حق، وعبودية ما سواه الباطل. فكل شيء ما خلا الله باطل.

والمقصود: أن المريد إن لم يتخلص قصده في مطلوبه عما يعوقه من الشواغل، أو ما يدركه من المعوقات: لم يبلغ مقصوده. ولم يصل إليه، وإن وصل إليه فبعد جهد شديد ومشقة، بسبب تلك الشواغل. ولم يصل القوم إلى مطلبهم إلا بقطع العلائق، ورفض الشواغل.

وصحة السلوك لاتميت الطبيعة والنفس بالكلية، ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالم. بل قهرا بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة. والمقهور المغلوب لابد أن يتحرك أحياناً ــ وإن قلّت ــ ولكن حركة أسير مقهور، بعد أن كانت حركته حركة أمير مسلط.

فمن تمام إحسان الرب إلى عبده، وتعريفه قدر نعمته: أن أراه النفس التي كانت حاكما عليه، قاهراً له: مقهورة مغلوبة. فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليه، ومالك أمره كله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.

وأيضا فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه، أو عمله أو حاله. كما قيل: إن ركنت إلى العلم: أنسيناكه. وإن ركنت إلى الحال: سلبناك إياه. وإن ركنت إلى المعرفة: حجبناها عنك. وإن ركنت إلى قلبك: أفسدناه فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله البتة. ومتى وجد من قلبه ركوناً إلى غيره: فليعلم أنه قد أحيل على مفلس، بل معدم. وأنه قد فتح له الباب مكراً. فليحذر ولوحه.

واعلم أن كل مامنك حجاب على مطلوبك. فإن وقفت معه فأنت دون الحجاب. وإن قطعته إلى تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب. فطلبك وإرادتك وتوكلك، وحالك وعملك: كله حجاب. ان وقفت معه. او ركنت اليه. وان جاوزته الى الذي انت به وله، وفي يديه، وتحت تصرفه ومشيئته. وليس لك ذرة واحدة إلا به ومنه. ولم تقف مع طلبك في إرادتك: فقد صرت فوق حجاب الطلب.

ومن أعظم الضرّ: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذاباً من الجحيم، قال تعالى (٨٣: ١٥و١٦ كلا، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم).
فالعارف قلبه غير محجوب، بل يعيش في نور ظفره بإقبال قلبه على الله عز وجل، وجمع همه عليه، وفنائه بمراده عن مراد نفسه. فصار واحداً لما أكثر الخلق فاقد له. قد لبس قلبه نور ذلك الوجود، حتى فاض على لسانه وجوارحه، وحركاته وسكناته. فإن نطق علاه النور وإن سكت علاه النور.
والحجب عشرة: حجاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات. وهو أغلظها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه ألبتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.
الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.
الثالث: حجاب البدعة القوليّة، كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.
الرابع: حجاب البدعة العملية. كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.
الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لايتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.
السابع: حجاب أهل الصغائر.
الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.
التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.
العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.
فهذه عشر حجب بين القلب و بين الله سبحانه وتعالى، تحول بينه و بين هذا الشأن، وهذ الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقلتها.
فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصلْ إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل و بين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن جار بهم وخلّص العملُ إلى قلبه دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لايستقر دون الوصول إليه ﴿٥٣: ٤٢ وأن إلى ربك المنتهى﴾ فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيداً في إيمانه و يقينه وعقله. وَتحمّلَ به ظاهره و باطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيىء الأخلاق والأعمال. وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جنداً يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه.
فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده و بيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فأن الشيطان مع الهوى لايفارقه ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله و يتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص.
هذا كله إذا وجد العمل منفذاً من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى. وإن دار فيه ولم يجد منفذاً وَثَبَتْ عليه النفس، فأخذته وصيرته جنداً لها. فصالت به وعَلَتْ وطغت. فتراه أزهد ما يكون، وأعبد ما يكون، وأشده اجتهاداً، وهو أبعد ما يكون عن الله. وأصحاب الكبائر أقرب قلوباً إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.
فانظر إلى السجاد العباد. الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود، ذي الخويصرة التميمي الخارجي، كيف أورثه طغيان عمله: أن أنكر على النبي صلى الله عليه وسلم، وأورث أصحابه احتقار المسلمين، حتى سلوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم.
وانظر إلى الشريب السكير. الذي كان كثيراً ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيحده على الشراب، كيف قامت به قوة إيمانه و يقينه، ومحبته لله ورسوله، وتواضعه وانكساره لله. حتى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لعنته، وهو عياض بن حمار رضي الله عنه.
فظهر بهذا: أن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات.
وأما الصفات الثلاث السلبية للطبقة الأولى من أصحاب البر، فأولها: سبقهم السائرين، بحيث لم يوقف لهم على رسم، فإنهم ــ لعلو هممهم ــ قد سبقوا الناس فلم يقفوا معهم، فهم المفردون السابقون. فلسبقهم لم يوقف لهم على أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخر عنهم أين سلكوا؟ والمشمر بعدهم: قد يرى آثار نيرانهم على بعد عظيم كما يرى الكوكب، و يستخبر عمن رآهم: أين رآهم؟ فحاله كما قيل:

أسائل عنكم كل غاد ورائح وأومي الى أوطانكم، وأسلم

العلامة الثانية: انهم لم ينسبوا إلى أسم، أى لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التى صارت أعلاماً لأهل الطريق.

وأيضاً، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد، يجرى عليهم اسمه. فيعرفون به دون غيره من الأعمال. فإن هذا آفة فى العبودية. وهى عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة: فلا يعرف صاحبها باسم معين من معانى أسمائها. فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها. فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم. فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزى، ولا طريق وضعى اصطلاحى. بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الأتِّباع. وعن خِرْقته؟ قال لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال (٦: ٥٢ **يريدون وجهه**) وعن رباطه؟ قال (٢٤: ٣٦ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**) وعن نسبه؟ قال:

أبى الإسلام. لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

والعلامة الثالثة: أنهم — لخفائهم عن الناس — لم يُعرفوا بينهم، حتى يشيروا اليهم بالاصابع. اولئك ذخائر الله حيث كانوا، اذ انهم لما كانوا مستورين عن الناس باسبابهم، غير مشار اليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق، أو مذهب، أو شيخ: كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة. وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات. فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها. ولزوم الطرق الاصطلاحية، والاوضاع المتداولة الحادثة. هذه هى التى قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون. والعجب أن أهلها: هم المعروفون بالطلب والارادة، والسير الى الله. وهم — إلا الواحد بعد الواحد — المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: مالا اسم له سوى «السنة».

يعنى: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها.

فمن الناس: من يتقيد بلباس لا يلبس غيره. أو بالجلوس فى مكان لا يجلس فى غيره، أو مشية لا يمشى غيرها، أو بزى وهيئة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينةً لا يتعبد بغيرها. وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره. وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه. قد قيدتهم العوائد والرسوم، والاوضاع والاصلاحات عن تجريد المتابعة. فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل. فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة، وتفريغ القلب. و يعد العلم قاطعاً له عن الطريق. فإذا ذُكر له الموالاة

فى الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر: عدّ ذلك فضولا وشراً. واذا رأوا سينهم من يقوم بذلك: اخرجوه من بينهم. وعدوه غَيْراً عليهم. فهؤلاء أبعد الناس عن الله. وإن كانوا أكثر اشارة. والله أعلم.

• اصحاب السر الاعمق

الطبقة الثانية: طائفة أشاروا عن مرل، وهم فى غيره. ووَرَّوا بأمر، وهم لغيره. ونادوا على شأن، وهم على غيره. فهم بين غَيْرة عليهم تسترهم. وأدب فيهم يَصُونهم. وظَرْف يُهذّبهم.

أهل هذه الطبقة استسروا احتياراً وإرادة لذلك، صيانة لأحوالهم، وكمالا فى تمكنهم. فمقاماتهم عالية. لا ترمقها العيون. ولا تخالطها الظنون. يشيرون إلى ما يعرفه المخاطب من مقامات المريدين السالكين، و بدايات السلوك. ويخفون ما مَكّنهم فيه الحق سبحانه وتعالى، من أحوال المحبة ومواجيدها، وآثار المعرفة وتوحيدها. فهذه هى «التورية»

فكأنهم يظهرون للمخاطب: أنهم من أهل البدايات. وهم فى أعلى المقامات. يتكلمون معهم فى البداية والارادة والسلوك، ومقامهم فوق دلك. وهم محقون فى الحالتين. لكنهم يسترون أشرف أحوالهم ومقاماتهم عن الناس.

و بالجملة: فهم مع الناس بظواهرهم. يخاطبونهم على قدر عقولهم، ولا يخاطبونهم بما لا تصل إليه عقولهم، فينكرون عليهم. فيحسبهم المخاطب مثله. فالناس عندهم. وليسوا هم عند أحد. يشيرون الى منرل «التوبة» و «المحاسبة»، وهم في منزل «المحبة» و «الوحد» و «الذوق».

و التورية: أن يذكر لفظاً يفهم به المخاطب معى، وهويريد غيره. مثاله: أن يقول أحدهم: أنا غنى. فيوهم المخاطب له أنه غنى بالشىء. ومراده: غنى بالله عنه. كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم　　وإن الغنى العالى عن الشىء. لابه

فهم بين غيرة عليهم تسترهم، أى يغار الحق سبحانه عليهم، فيسترهم عن الخلق. و يغارون على أحوالهم ومقاماتهم. فيسترون أحوالهم عن رؤية الخلق لها. و بين ادب فيهم يصونهم، وظرف يهذبهم.

وهو أن يقوم بهم أدب يصونهم عن طلب السوء بهم، و يصونهم عن دناءة الأخلاق والأعمال. فأدبهم صوان على أحوالهم، فهمته العلية ترتفع به. وأدبه يرسو به إلى التراب. كما قيل:

أبْلَجُ سَهْل الأخلاق، ممتنع　　يُبرزه الدهر. وهو يحتجب
إذاترَقَّت به عزائمه　　إلى الثريا. رسا به الأدب

فأدب المريد والسالك: صوان له. وتاج على رأسه.

و «الظرف» فى هذه الطائفة: أحلى من كل حلو. وأزين من كل زين. فما قرن شىء إلى شىء أحسن من ظَرْف إلى صدق وإخلاص، وبِرّ مع الله وجمعية عليه. فإن أكثر من عُنى بهذا الشأن تضييق نفسه وأخلاقه عن سوى ما هو بصدده. فتثقل وطأته على أهله وحليسه. و يَغِصُّ عليه ببِشْرِه، والتبسط إليه، ولين الجانب له. ولعمر الله إنه لمعذور، وإن لم يكن فى ذلك بمشكور. فإن الخلق كلهم أغيار. إلا من أعانك على شأنك، وساعدك على مطلوبك.

فإذا تمكن العبد فى حاله. وصار له إقبال على الله، وجمعية عليه ــ ملكةً ومقاماً راسخاً ــ أنس بالخلق وأنسوا به. وانبسط إليهم وحملهم على ضَلَعهم و بطء سيرهم. فحكمت القلوب على محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ فى الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب. و يدفع عن صاحبه من الشر. و يسهل له ما توعّر على غيره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء. وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفاً. فترى الصادق فيها: من أحلى الناس، وألطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع. وصار روحانياً سمائياً، بعد أن كان حيوانياً أرضياً. فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وألطفهم قلباً وروحاً. وهذه خاصة المحبة. فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة: أن لا يظهّر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام. ولا يواجهه إذا لقيه بالحال. بل بلين الجانب، وخفض الجناح، وطلاقة الوجه. فيفرش له بساط الأنس ويجلسه عليه. فهو أحب إليه من الفُرُش الوثيرة.

و بالجملة: فهذه الطريق لا تنافى اللطف والظرف.

لكن ههنا دقيقة قاطعة. وهى الاسترسال مع هذه الأمور. فإنها أقطع شىء للمريد والسالك. فمن استرسل معها قطعته. ومن عاداها بالكلية وَعّرت عليه طريق سلوكه. ومن استعان بها أراحته فى طريقه. أو أراحت غيره به. و بالله التوفيق.

(٥٨) منزلة الغربة

ومن منازل إياك نعبد منزلة «الغربة»

قال شيخ الإسلام: «(باب الغربة) قال الله تعالى (١١: ١١٦ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض؟ إلا قليلاً ممن أنجينا منهم**)».

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب، يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن. فإن الغرباء في العالم. هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية. وهم الذين أشار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله «**بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس**» وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن زهير عن عمرو بن أبي عمرو ـ مولى المطلب بن حنطب ـ عن المطلب بن حنطب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**طوبى للغرباء. قالوا: يارسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس**».

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً ـ لم ينقلب على الراوي لفظه وهو «الذين ينقصون إذا زاد الناس» ـ فمعناه: الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتقى إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**إن الإسلام بدأ غريبا. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يارسول الله؟ قال: النُّزَّاع من القبائل**» وفي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم، ونحن عنده ـ «**طوبى للغرباء. قيل ومن الغرباء، يارسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**».

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**إن أحب شيء إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة**».

وفي حديث آخر «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يارسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي. و يعلمونها الناس».

وقال نافع عن مالك «دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يبكي. فقال له عمر: ما يبكيك، ياأبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي صلى الله عليه وسلم، وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة».

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جداً: سموا «غرباء» فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة ــ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ــ فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً. فلا غربة عليهم. وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم (٦: ١١٦ وإن تُطعْ أكثر من في الأرض يُضِلوك عن سبيل الله) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتهم هي الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً من تناءت دياره　　ولكنَّ من تنأين عنه غريب

فالغربة: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلها. وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «بدأ غريباً» وأنه «سيعود غريباً كما بدأ» وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، و بين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقاً. فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله صلى الله عليه وسلم. ولم يدعوا إلى غير ماجاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

فهذه «الغربة» لاوحشة على صاحبها. بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس. وأشد ماتكون وحشته إذا استأنسوا. فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس فى حديثه عن النبى صلى الله عليه وسلم «رُبَّ أشعثَ أغبر، ذى طِمْرَين لايؤبَهُ له. لو أقسم على الله لأ برّه».

وفى حديث أبى إدريس الخولانى عن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى، يارسول الله. قال: كل ضعيف أغبر، ذى طمرين لا يؤبه له. لو أقسم على الله لأ بره» وقال الحسن: المؤمن فى الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولاينافس فى عزها، للناس حال. وله حال. الناس منه فى راحة. وهو من نفسه فى تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء — الذين غبطهم النبى صلى الله عليه وسلم —: التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريد التوحيد. وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً. وأكثر الناس — بل كلهم — لائمٌ لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ و بدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبى صلى الله عليه وسلم «هم النزاع من القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهلُ الأرض على أديان مختلفة. فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، و يهود وصابئة وفلاسفة. وكان الإسلام فى أول ظهوره غريباً. وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله: غريباً فى حَيِّهِ وقبيلته. وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعاً من القبائل. بل آحاداً منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم. ودخلوا فى الإسلام. فكانوا هم الغرباء حقاً. حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته. ودخل الناس فيه أفواجاً. فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ فى الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق — الذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه — هو اليوم أشد غربة منه فى أول ظهوره. وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة فالاسلام الحقيقى غريب جداً. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به: يضاد أهواءهم ولذاتهم، وماهم عليه من الشبهات والبدع التى هى منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التى هى غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شُحَّهم، وأعجب كل منهم برأيه؟

ولهذا جعل للمسلم الصادق فى هذا الوقت ـ إذا تمسك بدينه ـ: أجر خمسين من الصحابة. ففى سنن أبى داود والترمذي ـ من حديث أبي ثعلبة الخُشَنى ـ قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (١٥:٥ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم. لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال: بل ائتمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام. فإن من ورائكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله. قلت يارسول الله أجر خمسين منهم؟ قال أجر خمسين رجلا منكم» وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذى قد رزقه الله بصيرة فى دينه، وفقهاً فى سنة رسوله، وفهما فى كتابه، وأراه ما الناسُ فيه: من الاهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وازرائهم به. وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه صلى الله عليه وسلم.

فهو غريب فى دينه لفساد أديانهم، غريب فى تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع. غريب فى اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب فى صلاته، لسوء صلاتهم. غريب فى طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب فى نسبته، لمخالفة نِسَبهم. غريب فى معاشرته لهم. لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب فى أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين جهال. صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع. آمر بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروفُ لديهم منكر والمنكر معروف.

ثم إن الناس كلهم فى هذه الدار غرباء. فإنها ليست لهم بدار مقام. ولا هى الدار التى خلقوا لها. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما «كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» وهكذا هو فى نفس الأمر. لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه.

و يعرفه حق المعرفة. ولى من أبيات فى هذا المعنى:

وحَىَّ على جنـات عدن. فإنها — منازلك الأولى. وفيها المخيَّم

ولكننا سَبْىُ العدو. فهل ترى — نعود إلى أوطاننا، ونُسَلَّم؟

وأىُّ اغتراب فوق غربتنا التى — لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّم؟

وقد زعموا: أن الغريب إذا نأى — وشَطَّت به أوطانه. ليس يَنْعَمَ

فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة — من العمر، إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون العبد فى هذه الدار غريباً، وهو على جناح سفر. لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر فى صورة قاعد. وقد قيل:

وما هـذه الأيام إلا مراحل — يَحُثُّ بها داع إلى الموت قاصد

وأعجب شىء ـ لو تأملت ـ أنها — منازل تُطْوَى. والمسافر قاعد

(٥٩) منزلة التمكن

ومن منازل إياك نعبد منزلة «التمكن»

قال صاحب المنازل:

«(باب التمكن) قال الله تعالى (٣٠: ٦٠ ولا يستخفنّك الذين لايوقنون)».

وجه استدلاله بالآية: في غاية الظهور. وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل. ولا بمخالفة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات. بل قد تمكن بصبره و يقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له. ولهذا قال تعالى (٣٠: ٦٠ فاصبر إن وعد الله حق) فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق: لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لايوقنون. ومتى ضعف صبره و يقينه ـــ أو كلاهما ـــ استفزه هؤلاء. واستخفه هؤلاء. فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره و يقينه. فكلما ضعف ذلك منه: قوي جذبهم له. وكلما قوي صبره و يقينه: قوي انجذابه منهم وجذبه لهم.

و «التمكن» هو القدرة على التصرف في الفعل والترك. و يسمى «مكانة» أيضاً، قال الله تعالى (٦: ١٣٥ و ١١: ٣٩ و ٣٩: ٣٩ قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ـــ الآية).

وهو فوق «الطمأنينة» لأنها تكون مع نوع من المنازعة. فيطمئن القلب إلى ما يسكنه. وقد يتمكن فيه وقد لا يتمكن. ولذلك كان «التمكن» هو غاية الاستقرار. وهو تَفَعُّل من المكان. فكأنه قد صار مقامه مكاناً لقلبه قد تبوأه منزلا ومستقراً، وصار معتصماً به، كما قال الله تعالى (٢٢: ٧٨ واعتصموا بالله هو مولاكم. فنعم المولى ونعم النصير) وقال تعالى (٣: ١٠١ ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (٤: ١٤٦ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله. وأخلصوا دينهم لله) وقال (٣: ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً).

فالاعتصام به نوعان: اعتصام توكل واستعانة وتفويض وعياذ ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوحيه. وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم. فمن لم يكن كذلك فهو منسلّ من هذا الاعتصام. فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاصاً واستعانة، ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة. وتلك هي حقيقة التمكن.

• إخلاص ... في الطريق الواسع

فمن التمكن: تمكن المريد، وهو ان يجتمع له صحة قصد يُسَيِّره، وسعة طريق تُرَوِّحه.

فبصحة القصد: يصح سيره، وبصحة العلم: تنكشف له الطريق. وبسعة الطريق: يهون عليه السير. وكل طالب أمر من الأمور فلا بد له من تعين مطلوبه. وهو المقصود. ومعرفة الطريق الموصل إليه، والأخذ في السلوك. فمتى فاته واحد من هذه الثلاث: لم يصح طلبه ولا سيره. فالأمر دائر بين مطلوب يتعين إيثاره على غيره، وطلب يقوم بقصد من يقصده، وطريق توصل إليه.

فإذا تحقق العبد بطلب ربه وحده: تعين مطلوبه. فإذا بذل جهده في طلبه: صح له طلبه. فإذا تحقق باتباع أوامره، واجتناب نواهيه: صح له طريقه. وصحة القصد والطريق موقوفة على صحة المطلوب وتعينه.

فحكم القصد يُتَلَقّى من حكم المقصود. فمتى كان المقصود أهلا للإيثار: كان القصد المتعلق به كذلك. فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

وتمام العبودية: أن يوافق الرسول صلى الله عليه وسلم في مقصوده وقصده وطريقه. فمقصوده: الله وحده. وقصده: تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلقه. وطريقه: اتباع ما أُوحِيَ إليه. فَصَحِبَه الصحابة رضي الله عنهم على ذلك حتى لحقوا به. ثم جاء التابعون لهم بإحسان، فمضوا على آثارهم.

ثم تفرقت الطرق بالناس، فخيار الناس: من وافقه في المقصود والطريق. وأبعدهم عن الله ورسوله: مَن خالفه في المقصود والطريق. وهم اهل الشرك بالمعبود والبدعة في العبادة. ومنهم من وافقه في المقصود، وخالفه في الطريق. ومنهم من وافقه في الطريق وخالفه في المقصود.

فمن كان مراده الله، والدار الآخرة: فقد وافقه في المقصود. فإن عبد الله بما به أمر على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: فقد وافقه في الطريق. وان عبده بغير ذلك: فقد خالفه في الطريق.

ومن كان مقصوده ــ من أهل العلم، والعبادة، والزهد في الدنيا ــ الرياسة، فقد خالفه في المقصود. وإن تقيد بالأمر.

فإن لم يتقيد به، فقد خالفه في المقصود والطريق.

اما سعة الطريق، فـأمرين:

بسعتها حتى لا تضيق عليه، فيعجز عن سلوكها. و باستقامتها حتى لا يزيغ عنها إلى غيرها. فإن طريق الحق واسعة مستقيمة، وطريق الباطل ضيقة معوجة.

● بازالة حجاب العلائق تدخل الانوار

ومنه: تمكن السالك. وهو أن يجتمع له صحة القطاع و برق كشف. وضياء حال.

وهذه الدرجة أتم مما قبلها. فإن تلك تمكن في تصحيح قصد الأعمال. وهذه تمكن في حال التمكن. والتمكن في الحال أبلغ من التمكن في القصد.

والمراد بصحة الانقطاع: انقطاع قلبه عن الأغيار. والتواغل الموجبة للأكدار.

ومع ذلك فحاله مع الله صاف من معارضات السوى، فلا يعارض همته إرادة، بل متمكن في انقطاعه، ولحاله نور وضياء.

وسبب هذا الضياء: أنه قد فاض على قلبه نور اليقين بالأسماء والصفات. فصار لقلبه من معرفتها والإيمان بها، وذوق حلاوة ذلك: نور خاص، غير مجرد نور العبادة، والإرادة والسلوك.

وإذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال، ونعوت الجلال. وأحست روحه بالقرب الخاص الذي ليس هو كقرب المحسوس من المحسوس، حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه و بين ربه. فإنه حجابه هو نفسه. وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته: أفضى القلب والروح حينئذ إلى الرب. فصار يعبده كأنه يراه.

والله سبحانه جعل شهود الاسماء والصفات طريقاً لهذه المعرفة، ومَن شاهد الصفة فلابد ان يشاهد متعلقاتها، فان النظر في متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها.

فمَن شاهد صفة الكلام مثلاً: زادته تعظيماً لله تعالى ولا بد، اذ لو ان البحر يُمِدّه من بعده سبعة أبحر، واشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله، لفنيت البحار، ونفدت الاقلام، وكلام الله عز وجل لا ينفد ولا يفنى.

فمن شاهد الصفات الاخرى بمثل هذه المشاهدة، من العلم، والقدرة، ونحوها، وحال قلبه في عظمتها: ازداد معرفة وتعظيماً، وزاد نور قلبه، وضياء روحه.

فكلما كان بصفات الله اعرف، ولها أثبت، ومعارض الإثبات منتف عنده ــ كان أكمل شهوداً. ولهذا أكمل الخلق شهوداً من قال «لا أحصى ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك» ولكمال معرفته بالأسماء والصفات: استدل بما عرفه منها على أن الأمر فوق ما أحصاه وعلمه.

فمشهد الصفات: مشهد الرسل والأنبياء وورثتهم، وكل من كان بها أعرف كان بالله أعلم. وكان مشهده بحسب ما عرف منها، فان التائب الصادق فى توبته إذا تاب إليه وجده غفوراً رحيما. والمتوكل إذا صدق فى التوكل عليه: وجده حسباً كافياً. والداعي إذا صدق فى الرغبة إليه: وجده قريباً مجيباً. والمحب إذا صدق فى محبته: وجده ودوداً حبيباً. والملهوف إذا صدق فى الاستغاثة به: وجده كاشفا للكرب مخلصاً منه. والمضطر إذا صدق فى الاضطرار إليه: وجده رحيماً مغيثاً. والخائف إذا صدق فى اللجإ إليه: وجده مؤمناً من الخوف. والراجى إذا صدق فى الرجاء: وجده عند ظنه به.

فمحبه وطالبه ومريده الذى لا يبغى به بدلا. ولا يرضى بسواه عوضاً، إذا صدق فى محبته وإرادته: وجده أيضاً وجوداً أخص من تلك الوجودات. فإنه إذا كان المريد منه يجده. فكيف بمريده ومحبه؟ فيظفر هذا الواحد بنفسه وبربه.

أما ظفره بنفسه: فتصير منقادة له، مطيعة له، تابعة لمرضاته غير آبية، ولا أمارة. بل تصير خادمة له مملوكة، بعد أن كانت مخدومة مالكة.

وأما ظفره بربه: فقربه منه، وأنسه به، وعمارة سره به. وفرحه وسروره به أعظم فرح وسرور.

فالموحد يشاهد ــ بإيمانه ويقينه ــ ذاتاً جامعة للأسماء الحسنى، والصفات العلى، لها كل صفة كمال، وكل اسم حسن. وذلك يجذبه إلى نفس اجتماع همه على الله، وعلى القيام بفرائضه.

والطريق ــ بمجموعها ــ لا تخرج عن هذين السببين، وإن طولوا العبارات، ودققوا الإشارات. فالأمر كله دائر على جمع الهمة على الله، واستفراغ الوسع بغاية النصيحة فى التقرب إليه بالنوافل، بعد تكميل الفرائض. فلا تُطوّل ولا يُطوّل عليك.

(٦٠) منزلة المعاينة

ومن منازل «اياك نعبد واياك نستعين» منزلة «المعاينة»

والمعاينة نوعان. معاينة بصر، ومعاينة بصيرة. فمعاينة البصر: وقوعه على نفس المرئي، أو مثاله الخارجي، كرؤية مثال الصوره في المرآة والماء ومعاينة البصيرة وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي فيكون ادراكه له بمنزلة ادراك العين للصورة الخارجية . وقد يقوى سلطان هذا الادراك الباطن، بحيث يصير الحكم له، و يقوى استحضار القوة العاقلة لمدركها، بحيث يستغرق فيه فيغلب حكم القلب على حكم الحس والمشاهدة. فيستولي على السمع والبصر. بحيث يراه، و يسمع خطابه في الخارج. وهو في النفس والذهن. لكن لغلبة الشهود، وقوة الاستحضار، وتمكن حكم القلب واستيلائه على القوى. صار كأنه مرئي بالعين، مسموع بالاذن. بحيث لايشك المدرك ولايرتاب في ذلك البتة. ولايقبل عذلا

وحقيقة الامر: ان ذلك كله شواهد وأمثلة علمية، تابعة للمعتقد. فذلك الذي ادرك بعين القلب والروح: انما هو شاهد دال على الحقيقة وليس هو نفس الحقيقة فإن شاهد نور جلال الذات في قلب العبد ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السموات والارض. فإنه لوظهر لهما لتدكدكت، ولأصابها ما أصاب الجبل وكذلك شاهدُ نور العصمة في القلب: إنما هو نور التعظيم والاجلال، لانور نفس المعظَّم ذي الجلال والاكرام.

وليس مع القوم الا الشواهد، والامثلة العلمية، والرقائق التي هي ثمرة قرب القلب من الرب، وانسه به،واستغراقه في محبته وذكره ، واستيلاء سلطان معرفته عليه. والرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله منزه مقدس عن اطلاع البشر على ذاته، او انوار ذاته. او صفاته، او انوار صفاته. وانما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهد من الجنة والنار، واما رؤيته سبحانه عيانا، او رؤيتهما ، فمستحيل في هذه الدار الدنيا

وهذا هو الذي وجده عبد الله بن حرام الانصاري يوم احد، لما قال «واها لريح الجنة! اني اجد والله ريحها دون احد» ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم «اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلق الذكر». ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم «الجنة تحت ظلال السيوف»

فالعمل: انما هو على الشواهد. وعلى حسب شاهد العبدَ يكون عمله.

ونحن نشير بعون الله وتوفيقه الى الشواهد، اشارة يعلم بها حقيقته الامر.

فأول شواهد السائر الى اليه والدار الآخرة: ان يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها. و يرى اهلها وعشاقها صرعى حولها، قد عذبتهم بأنواع العذاب، واذاقتهم امر الشراب. أضحكتهم قليلا، وابكتهم طو يلا. سقتهم كؤوس سمها، بعد كؤوس خرها. فسكروا بحبها. وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها: ترحل قلبه عنها. وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وانها هي الحيوان حقاً. فأهلها لايرتحلون منها. ولايظعنون عنها. بل هي دار القرار، ومحط الرحال، ومنتهى السير. وان الدنيا بالنسبة اليها ــ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ــ «ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل احدُكم إصبعه في اليَمّ، فلينظر بِمَ ترجع؟» وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة الا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها. و بُعْد قَعْرها، وشدة حرها، وعظيم عــذاب أهلها. فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سُودَ الوجوه، زُرْق العيون، والسلاسل والاغلال في اعناقهم. فلما انتهوا اليها: فُتّحت في وجوههم ابوابها. فشاهدوا ذلك المنظر المطيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفاً (١٨:٥٣ ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها. ولم يجدوا عنها مَصْرِفا).

ثم اتى النداء من قبل رب العالمين : (١٤:٥٢ ــ ١٦ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ اصْلَوْها فاصبروا، أوْلا تصبروا سواء عليكم. إنما تجزون ما كنتم تعملون) فيراهم وهم اليها يُدفعون و في الحميم، على وجوههم يُسْحَبون. وفي النار كالحطب يُسْجَرون (٤١:٧ لهم من جهنم مِهاد ومن فوقهم غَواشٍ) فبئس اللحاف وبئس الفراش. وإن استغاثوا من شدة العطش (١٨:٢٩ يغاثوا بماء كالمُهْلِ يشْوِي الوجوه) فإذا شربوه قَطّع أمعاءهم في أجوافهم. وصَهَر ما في بطونهم. شرابهم الحميم. وطعامهم الزقوم (٣٥:٣٦،٣٧ لايُقْضَى عليهم فيموتوا. ولايُخَفّفُ عنهم من عذابها. كذلك نجزى كل كَفور * وهم يَصْطَرِخون فيها: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، أو لم نُعَمِّركم ما يتذكر فيه مَنْ تذكر؟ وجاءكم النذير. فذوقوا فما للظالمين من نصير).

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: انخلع من الذنوب والمعاصي، وأتباع الشهوات. ولبس ثياب الخوف والحذر. وأخصب قلبه من مطر أجفانه. وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات. فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات، والمواد المهلكة، و ينضجها ثم يخرجها . فيجد القلبُ لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك: شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لاعين رأت ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر، فضلا عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل، الكفيل باعلى انواع اللذة، من المطاعم المشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور. فيقوم بقلبه شاهد دارقد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها. تربتها المسك، وحصباؤها الدُّرُّ و بناؤها لَبِن الذهب والفضة، وقَصَب اللؤلؤ. وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل. ونساؤها لو برز وجه احداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس. ولباسهم الحرير من السندس والاستبرق. وخدمهم وُلْدان كاللؤلؤ المنثور. وفاكهتهم دائمة، لامقطوعة ولاممنوعة، وفُرُش مرفوعة. وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون. وشرابهم عليه خمرة لافيها غوْل ولاهم عنها يُنْزفون. وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون. وازواجهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون. فهم على الأ رائك متكئون، وفي تلك الرياض يُحْبَرون. وفيها ماتشتهي الأنفس وتلذ الأعين. وهم فيها خالدون.

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التى قبله: فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح فى مهابّها، فلا يلتفت فى طريقه يميناً ولا شمالا .

هذا. وفوق ذلك: شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، و يغيب به العبد عنها كلها. وهو شاهد جلال الرب تعالى، وجاله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيوماً قاهراً فوق عباده، مستو ياً على عرشه، منفرداً بتدبير مملكته، آمراً ناهياً، مرسلا رسله، ومنزلا كتبه. يرضى و يغضب، و يثيب و يعاقب و يعطي ويمنع و يعز و يذل. و يغضب. و يرحم إذا استُرْحِم، و يغفر إذا اسْتُغْفِر، و يعطى إذا سئل، ويجيب إذا دُعي، و يقيل إذا استقيل. أكبر من كل شيء. وأعظم من كل شيء. وأعزمن كل شيء. وأقدر من كل شيء. وأعلم من كل شيء، يسمع ضجيج الاصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. فلا يشغله سمع عن سمع. ولا تُغْلِطه المسائل. ولا يتبرم بإلحاح الملحين سواء عنده من أسَرَّ القول ومن جهر به. فالسر عنده علانية. والغيب عنده شهادة. يرى دبيب النملة

السوداء على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء. و يرى نياط عروقها، ومجارى القوت في أعضائها.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة، من غير أن تعدم. بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد. وتندرج فيه الشواهد كلها. ومن هذا شاهده: فله سلوك وسير خاص. ليس لغيره ممن هو عن هذا فى غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد: سائر إلى الله فى يقظته ومنامه، وحركته وسكونه وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن. هو فى واد والناس فى واد.

والمقصود: أن العيان والكشف والمشاهدة فى هذه الدار: إنما تقع على الشواهد والأمثلة العلمية. وهو المثل الأعلى الذى ذكره سبحانه فى ثلاثة مواضع من كتابه: فى سورة النحل. وسورة الروم. وسورة الشورى.

وذلك قوله تعالى في سورة النحل: ٦٠ (ولله المثل الاعلى، وهو العزيز الحكيم).

وقوله في سورة الروم: ٢٧ (وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم).

وقوله في سورة الشورى: ١١ (ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير).

وهذا المثل الاعلى هو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبيه، والمنيبين اليه من هذا الشاهد وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة والخشية والإنابة. وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه. فكل منهم له مقام معلوم لا يتعداه. وأعظم الناس حظاً فى ذلك معترف بأنه لا يحصى ثناء عليه سبحانه، وأنه فوق ما يثنى عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مِدْحة	وإن أطنبوا، إن الذى فيك أعظم
لك الحمد كل الحمد. لا مبدا له	ولا منتهى. والله بالحمد أعلم

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف المذمومة، والإرادات السفلية، وخلوه وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه: هو كرسى هذا الشاهد، الذى يجلس عليه. ومقعده الذى يتمكن فيه. فحرام على قلب متلوث بالخبائث والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة، متعلق بالمرادات السافلة: أن يقوم به هذا الشاهد، وأن يكون من أهله.

نزه فؤادك عن سوانا. والقنا	فجنابنا حِلٌّ لكل مُنَزَّه
والصبر طِلَّسم لكنز لقائنا	مَنْ حَلَّ ذا الطلسم فاز بكنزه

إذا طلعت شمس التوحيد، و باشرت جوانبها الأرواح، ونورها البصائر، تجلت بها ظلمات النفس والطبع. وتحركت بها الأرواح فى طلب من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فسافر القلبُ فى بيداء الأمر. ونزل منازل العبودية، منزلاً منزلاً. فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مُقيم على معبود واحد. فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد. إن قام بقلبه شاهدٌ من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله. ليس لأحد معه من الأمر شيء. (٣٥: ٢، ٣ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمسك لها. وما يُمسِك فلا مُرْسِل له من بعده. وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس، اذكروا نعمة الله عليكم. هل من خالق غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض؟ لا إلهَ إلا هو. فأنّى تؤفكون؟) (١٠: ١٠٧ وإن يمسَسْك الله بضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو. وإن يُرِدْكَ بخير فلا رَادَّ لِفَضْله. يصيب به من يشاء من عباده. وهو الغفور الرحيم) (٣٩: ٣٨ ولَئِن سَألتهم: من خَلق السموات والأرض؟ ليَقُولُنَّ: الله، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله؟ إن أرادنى الله بضُرّ هل هُنَّ كاشفاتُ ضره؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكاتُ رحمته؟ قل: حسبى الله. عليه يتوكل المتوكلون) (٢٣: ٨٤ — ٨٩ قل: لمن الأرض ومن فيها، إن كنتم تعلمون؟ * سيقولون: لله. قل: أفلا تذكرون؟ * قل: من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ * سيقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ * قل: من بيده مَلَكوت كلّ شيء، وهو يُجير ولا يجار عليه، إن كنتم تعلمون؟ * سيقولون: لله، قل: فأنى تُسْحَرون؟).

وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية: رأى فى ذلك الشاهد الأمر والنهى، والنبوات، والكتب والشرائع، والمحبة والرضا والكراهة والبغض، والثواب والعقاب. وشاهد الأمر نازلا ممن هو مستوٍ على عرشه، وأعمالُ العباد صاعدة اليه، ومعروضة عليه. يَجزى بالإحسان منها فى هذه الدار وفى العقبى نَضْرة وسروراً، و يَقْدِم إلى مالم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثوراً.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة: رأى الوجود كله قائما بهذه الصفة. قد وَسِع مَنْ هى صفته كُلَّ شيء رحمة وعلماً. وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه. فاستوى على عرشه برحمته. لتسع كل شيء. كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العِزّة والكبرياء، والعظمة والجبروت: فله شأن آخر

وهكذا جميع شواهد الصفات. فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيه عليها. فالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز الشواهد ألبتة.

(٦١) مَنزلَةُ الحَيَاة

قال صاحب المنازل:

«(باب الحياة) قال الله تعالى (٦: ١٢٢ أوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه)».

استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب ظاهر جداً. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان. فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التى أحيا بها بَدَنه. وهى روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك. وإلا فهى فى جملة الأموات. ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عَدِم ذلك بالموت، فقال (أو من كان ميتاً فأحييناه) وقال تعالى (٢٧: ٨٠ إنك لا تسمع الموتى. ولا تسمع الصُّمَّ الدعاء) وسمى وحيه روحاً. لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالى (٤٢: ٥٢ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. ما كانت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان. ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة. وقال تعالى (١٦: ٢ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا انه لا اله الا انا فاتقون) وقال تعالى (٤٠: ١٥ رفيع الدرجات ذو العرش، يلقى الروحَ من أمره على من يشاء من عباده. لِيُنْذِرَ يوم التلاق) فالوحى حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقَد الحياة النافعة فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك. وأما فى الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته. فقال تعالى (١٦: ٩٧ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن. فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضا والرزق الحسن وغير ذلك. والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، و بهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لَتَمُرُّ بى أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب. وقال غيره. إنه ليمر بالقلب أوقات يرقُص فيها طَرَبا

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح، فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنك لمن أعرض عن ذكره، وهى عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون فى الدور الثلاث، أعنى: دار الدنيا، ودار البَرْزخ، ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضاً تكون فى الدور الثلاث. فالأبرار فى النعيم هنا وهنالك. والفجار فى الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى (١٦: ٣٠ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) وقال تعالى (١١: ٣ وأنِ استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه، يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى. ويؤتِ كل ذى فَضْل فضله) فذكرُ الله سبحانه وتعالى، ومحبته وطاعته، والإقبال عليه: ضامن لأطيب الحياة فى الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك فى الدنيا والآخرة.

• ارتواء العلماء

والحياة مراتب:

منها: حياة العلم من موت الجهل، فان الجهل موت لاصحابه، كما قيل:

وفى الجهل — قبل الموت — موت لأهله	وأجسامهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم فى وَحْشة من جسومهم	فليس لهم حتى النشور نشورُ

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشى به على وجه الأرض. قال الله تعالى (٦: ١٢٢ أومن كان ميتاً فأحييناه. وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس. كمن مثله فى الظلمات، ليس بخارج منها؟) وقال تعالى (٣٦: ٦٩، ٧٠ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حَيًّا. ويحقّ القول على الكافرين) وقال تعالى (٣٠: ٥٢ إنك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصم الدعاء) وقال تعالى (٣٥: ٢٢ إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من فى القبور) وشبههم — فى موت قلوبهم — بأهل القبور. فإنهم قد ماتت أرواحهم. وصارت أجسامهم قبوراً لها. فكما أنه لا يسمع اصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة، وملزومها. فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له: كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح.

وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب الزهد من كلام لقمان، أنه قال لابنه «يابنى جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك. فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة، كما يحيى الأرض بوابل القطر» وقال معاذ بن جبل «تعلموا العلم. فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وَبَذْله لأهله قُرْبة. لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سُبل أهل الجنة. وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخِلاَّء. يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم فى الخير قادة، وأئمة تُقْتَصُّ آثارهم، وَ يُقْتَدَى بأفعالهم، وَ يُنْتَهى إلى رأيهم. ترغب الملائكة فى خُلّتهم، بأجنحتها تمسحهم. يستغفر لهم كل رطب و يابس، وحيتان البحر وَهَوَامُّه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأ بصار من الظُّلَم. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة. التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام. به توصل الأ رحام. و به يعرف الحلال من الحرام. وهو إمام العمل. والعمل تابع له. يُلْهَمُه السعداء. وَ يُحْرَمُه الأشقياء» رواه الطبرانى وابن عبد البر وغيرهما. وقد روى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم. والوقف أصح.

● الهمم نابضات

ومنها: حياة الإرادة والهمة. وضعف الإرادة، والطلب: من ضعف حياة القلب. وكلما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى. فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب. وسلامة القلب من الآفة التى تحول بينه و بين طلبه وإرادته. فضعف الطلب، وفتور الهمة: إما من نقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة. فقوة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوة الحياة. وضعفها دليل على ضعفها. وكما أن علو الهمة، وصدق الإرادة، والطلب من كمال الحياة: فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها. فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة. وأخَسُّ الناس حياة أخسهم همة. وأضعفهم محبة وطلبا، وحياة البهائم خير من حياته. كما قيل:

نهارك، يامغرور سهوٌ وغفلة ... وَلَيْلُكَ نومٌ وَالرَّدَى لك لازم

وتكدح فيما سوف تنكر غِبَّه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

تُسَرُّ بما يفْنَى. وتفرح بالمُنَى ... كما غُرَّ باللذات ــ فى النوم ــ حالم

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة. والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل. قالوا: هو حَيُّ القلب، وحياة القلب بدوام الذكر، وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك. رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك، وأحبار سوء ورُهبانها؟
وباعوا النفوس، ولم يربحوا ... ولم يَغْلُ في البيع أثمانها
فقد رتَعَ القوم في جيفة ... يبين لذى اللب خسرانها

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب. فحياة القلب: بدوام الذكر، والإنابة إلى الله، وترك الذنوب، والغفلة الجاثمة على القلب. والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة. ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت. وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفاً. ولا ينكر منكراً. كما قال عبد الله بن مسعود «أتدرون من ميت القلب، الذى قيل فيه:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء؟

قالوا: ومن هو؟ قال: الذى لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً».

والرجل: هو الذى يخاف موت قلبه، لاموت بدنه. إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم. ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية. وذلك من موت القلب والروح. فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذى يخيل كأنه حقيقة. فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالا. كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «لو أن الحياة الدنيا ـــ من أولها إلى آخرها ـــ أوتيها رجل واحد. ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى فى منامه ما يَسُرُّه، ثم استيقظ. فإذا ليس فى يده شىء» وقد قيل «إن الموت موتان: موت إرادى، وموت طبيعى. فمن أمات نفسه موتاً إرادياً كان موته الطبيعى حياة له» ومعنى هذا: أن الموت الإرادى: هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة. فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، ومعرفته، والاشتغال به. ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسر الخسران. فأما إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مؤثرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة. فالقلب حينئذ: إما أن يكون أسيراً ذليلا، أو مهزوماً مُخْرَجاً عن وطنه ومستقره الذى لاقرار له إلا فيه، أو

قتيلا ميتاً وما لجرح به إيلام. وأحسن أحواله: أن يكون في حرب، يدال له فيها مرة، و يدال عليه مرة. فإذا مات العبد موته الطبيعي: كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه. فتكون حياته هُهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهمه إلا ألبّاء الناس وعقلاؤهم. ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية، والنفوس الزكية الأبية.

• الحياء حركة

ومن مراتب الحياة:

حياة الأخلاق، والصفات المحمودة، التي هي حياة راسخة للموصوف بها. فهو لا يتكلف الترقي في درجات الكمال. ولا يشق عليه. لا قتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته. فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجود والسخاء، والمروءة والصدق والوفاء ونحوها. أتم من حياة من يقهر نفسه، و يغالب طبعه، حتى يكون كذلك. فإن هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها و يقهرها بأضدادها. وذلك بمنزلة من قد عوفي من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. ولهذا كان خُلُق «الحياء» مشتقاً من «الحياة» اسماً وحقيقة. فأكمل الناس حياة: أكملهم حياء. ونقصان حياء المرء من نقصان حياته. فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح. فلا تستحي منها. فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه. وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة. ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان. وحياة السخي أكمل من حياة البخيل. وحياة الفطن الذكي أكمل من حياة الفَدْم البليد. ولهذا لما كان الأنبياء ـــ صلوات الله وسلامه عليهم ـــ أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلي أجسامهم ـــ كانوا أكمل الناس في هذه الأخلاق. ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلى حياة حلاّف مهين همّاز مشّاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم. عُتُل بعد ذلك زنيم. وحياة جواد شجاع، بَرّ عادل عفيف محسن ـــ تجد الأول ميتاً بالنسبة إلى الثاني.

و «البسط» من أجلّ هذه الأخلاق. وأقواها في صفة الحياة، وهو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وأهله. ومع الغريب والقريب. وهي سعة الصدر، ودوام البشر،

وحسن الخلق، والسلام على من لقيه. والوقوف مع من استوقفه، والمزاح بالحق مع الصغير والكبير أحياناً. وإجابة الدعوة. ولين الجانب. حتى يظن كل واحد من أصحابه: أنه أحبهم إليه. وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجباً، أو مستحباً، أو مباحاً يعين عليهما.

ومن العباد مَن وفقه الله تعالى فنال حظاً من هذا البسط النبوي الكريم وجعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم. كما قال تعالى (٣: ١٥٩ فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم، ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانْفَضُّوا من حولك) فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه. ليقتدى بهم السالك. و يهتدى بهم الحيران. و يُشفَى بهم العليل. و يستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم فى ظلمات دياجى الطبع والهوى. فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا. و ينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا. فإن حركتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله، وعلى أمر الله: جذبت قلوب الصادقين إليهم، فيهتدي بهم الحائر، و يسير بهم الواقف، و يستقيم بهم المائد، و يُقبل بهم المعرض، و يكمل بهم الناقص، و يرجع بهم الناكص، و يتقوى بهم الضعيف.

وهؤلاء هم خلفاء الرسل حقاً، وهم اولو البصر واليقين، فجمعوا بين البصيرة والبصر. قال الله تعالى (٣٢: ٢٤ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون)، فنالوا إمامة الدين، بالصبر واليقين.

والعلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره. واستنار به الناس. فهذا من خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء. وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره. فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصراً على نفسه. فبينه و بين الأول ما بينهما. وعالم لم يستنر بنوره، ولا استنار به غيره. فهذا علمه و بال عليه. و بسطته للناس فتنة لهم. و بسطة الأول رحمة لهم.

كل ذلك و «سرائرهم مصونة» مستورة لم يكشفوها لمن انبسطوا إليه. وإن كان البسط يقتضى الإلف، وإطلاع كل من المتباسطين على سر صاحبه. فإياك ثم إياك أن تُطلع من باسطته على سرك مع الله، ولكن اجذبه وشوقه. واحفظ وديعة الله عندك، لا تعرضها للاسترجاع.

• لذة الوصول تدعو الى استئناف السير

ومن مراتب الحياة: حياة الفرح والسرور، وقرة العين بالله. وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب، الذى تَقَرّ به عين طالبه. فلا حياة نافعة له بدونه. وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم. وكلهم قد أخطأ طريقها. وسلك طرقاً لا تفضى إليها. بل تقطعه عنها، إلا أقل القليل.

فدار طلب الكل حول هذه الحياة. وحُرِمَها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إياها: ضعف العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة. فإن

سادتها بصيرة وقادة، وهمة نقادة. والبصيرة كالبصر تكون عمىً وعَوراً وعَمَشاً ورمداً، وتامة النور والضياء وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل. وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية.

والمقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكنْ كيف يصل إليها مَنْ عقله مُشتّتٌ في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات؟!.

فهو في الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم. فلو أنه تجرد من نفسه. ورغب عن مشاركة أبناء جنسه. وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم. ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس، إلى طهارة القدس: لرأى الإلف الذي نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوي بقوته، وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله قذى في عين بصيرته، وشجا في حلق إيمانه، ومرضاً مترامياً إلى هلاكه؟.

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء. فهل يمكنك وصف طريقها، لأصِلَ إلى شيء من أذواقها. فقد بان لي أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية. ربما زادت علينا فيها البهائم بخلوها عن المنكرات والمنغصات وسلامة العاقبة؟.

قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها: لدليل على حياتك. وأنك لست من جملة الأموات.

فأول طريقها: أن تعرف الله، وتهتدي إليه طريقاً يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة. فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة. فينجذب اليها بكليته. و يزهد في التعلقات الفانية. و يدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. ثم يقوم حارساً على قلبه. فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه. فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس و وسواسها. فيُفْدَى من أسرها. و يصير طليقاً. فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه. ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت، لعلني   أحدث عنك النفس في السر خالياً

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، واستولت روحانيته على قلبه. فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه. فيطالع سيرته

ومبادىء أمره، وكيفية نزول الوحي عليه و يعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، و يقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها. وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة. فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف. وشاهد حظه من الصفات والأفعال الممدوحة. فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك: انفتح في قلبه عين أخرى يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه. فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبه رباً قاهراً فوق عباده، آمراً ناهياً، باعثاً لرسله، منزلا لكتبه، معبوداً مطاعاً. لا شريك له. ولا مثيل، ولا عدل له. ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له. فيشهد ربه سبحانه قائماً بالملك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال. وهي «الحياة» التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمال. وصفة «القيومية» الصحيحة المصـــــــحة لجميع الأفعال. فالحي القيوم: من له كل صفة كمال. وهو الفعال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح له مشهد «القرب» و «المعية» فيشهده سبحانه معه، غير غائب عنه، قريباً غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، بائنا من خلقه، قائماً بالصنع والتدبير، والخلق والأمر. فيحصل له ـــ مع التعظيم والإجلال ـــ الأنس بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن ر يفرح به بعد أن كان حزيناً. ويجد بعد أن

كان فاقدا. فحينئذ يجد طعم قوله «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. و بصره الذي يبصر به. و يده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه. ولئن استعاذني لأعيذنه».

فأطيب الحياة على الاطلاق: حياة هذا العبد. فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه، وربه قريب منه. قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه، ولهجه بذكره. وعكوف همته على

مرضاته، بمنزلة سمعه و بصره و يده ورجله. وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه. فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به. وإن بطش بطش به. وان مشى مشى به.

فإن صعب عليك فهم هذا المعنى، وكونُ المحب الكامل المحبة يسمع و يبصر و يبطش ويمشي بمحبو به. وذاتُه غائبة عنه. فاضرب عنه صفحا. وخَلِّ هذا الشأن لأهله.

خل الهوى لأناس يُعْرَفون به   قد كابدوا الحب حتى لانَ أصْعبه

فإن السالك إلى ربه لا تزال همته عاكفة على أمرين: استفراغ القلب في صدق الحب، و بذل الجهد في امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه. ولكن يتوارى عنه ذلك أحياناً. و يبدو أحياناً. يبدو من عين الجود. و يتوارى بحكم الفترة. والفترات أمر لازم للعبد. فكل عامل له شِرَّة، ولكل شرة فترة. فأعلاها فترة الوحي. وهي للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين. وفترة العمل للعابدين. وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة. وتجديد الشوق إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد، حتى تستقر، و ينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له. بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحاً وتنفيساً عنه.

فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه، عاكفاً على مزيد محبته، وأسباب قوتها. فهو يعمل على هذا. ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له. فيعمل على حصول ذلك. ولا يعدم الطلب الأول، ولا يفارقه البتة. بل يندرج في هذا الطلب الثاني. فتتعلق همته بالأمرين جميعاً. فإنه إنما يحصل له منزلة «كنت سمعه الذي يسمع به، و بصره الذي يبصر به» بهذا الأمر الثاني. وهو كونه محبوباً لحبيبه. كما قال في الحديث «فإذا أحببتُه كنت سمعه و بصره الخ» فهو يتقربُ إلى ربه، حفظاً لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يَشُدُّ مِئْزر الجِدّ في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرّب إليه. فقلبه: للمحبة والانابة والتوكل، والخوف والرجاء ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحه: للطاعات. فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضي الى هذه الغاية التي لا تنال الا به. ولايتوصل اليها إلاّ من هذا الباب، وهذه الطريق. وحينئذ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع ـــ أولا ـــ في التقربات بالأعمال الظاهرة. وهي ظاهر التقرب. ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب. وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله و بدنه. ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان. فيعبد الله كأنه يراه. فيتقربُ إليه حينئذ من باطنه بأعمال

القلوب: من المحبة والانابة، والتعظيم والاجلال والخشية. فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود فى محبة حبيبه بلا تكلف. فيجود بروحه ونفسه، وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالا، لا تكلفا. فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره و باطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط. فليدم على ذلك. وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام. فعساه أن يحظى بحال القرب.

ووراء هذا «القرب الباطن» أمرٌ آخر أيضاً. وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى. حيث يقول حاكياً عن ربه تبارك وتعالى «من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعاً. ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً. ومن أتانى يمشى أتيته هرولة» فيجد هذا المحب فى باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقاً حقيقياً.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة. ونبه بها على ما دونها وما فوقها. فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعاً. فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع. فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعاً. فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثانى: أسرع المشى حينئذ إلى ربه. فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة. وههنا منتهى الحديث، منبها على أنه إذا هرّول عبده اليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد اليه. فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل فى الجزاء الذى لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر. أو إحالةً له على المراتب المتقدمة. فكأنه قيل له: وقس على هذا. فعلى قدر ما تبذل منك متقرباً إلى ربك: يتقرب إليك بأكثر منه. وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور فى مراتبه. أى من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله: تقرب الرب منه سبحانه بنفسه فى مقابلة تقرب عبده إليه.

وليس القرب فى هذه المراتب كلها قرب مسافة حسية، ولا مماسة. بل الرب تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبد فى الأرض.

وهذا الموضع هو سر السلوك، وحقيقة العبودية. وهو معنى الوصول الذى يدندن حوله القوم.

وملاك هذا الأمر: هو قصد التقرب أولا. ثم التقرب ثانياً. ثم حال القرب ثالثاً. وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أن تفنى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك. بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك. وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جوزى على ذلك بقرب هو أضعافه. وعرفت أن أعلى أنواع التقرب: تقرب العبد بجملته ـ بظاهره و باطنه، و بوجوده، إلى حبيبه. فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله ولم تبق منه بقية لغير حبيبه. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه العُذَّل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطى أضعاف أضعاف ما تقرب به. فما الظن بمن أعطى حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمه، وأقواله وأعماله؟.

وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يُجاد عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضاً عن كل شيء، جزاءاً وفاقاً. فإن الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى (٦٥: ٣،٢ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ففرق بين الجزائين كما ترى. وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئاً أعاضه الله خيراً منه.

ومنها: قوله تعالى (٢: ١٥٢ فاذكروني أذكركم، واشكروا لى ولا تكفرون).

ومنها: قوله فى الحديث القدسي «من ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسي، ومن ذكرني فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منه».

ومنها: قوله «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» الحديث.

فالعبد لا يزال رابحاً على ربه أفضل مما قدّم له. وهذا المتقرب، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناسُ فيه من أنواع الحياة. بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته: كحياة الجنين فى بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها. بل أعظم من ذلك.

فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها. وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة. فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالا ملازماً لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة: هى حياة الدنيا ونعيمها فى الحقيقة. فمن فقدها ففقده لحياته الطبيعية أولى به.

هذه حياة الفتى. فإن فُقدت ففقـده للحيـاة اليـق بـه

فلا عيش إلا عيش المحبين، الذين قرّت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بحبه. ففي القلب فاقة لا يسدُّها إلا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يَلُمّ شَعَثَه بغير ذلك البتة. ومن لم يظفر بذلك: فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات. فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. فإن همته لا ترضى فيها بالدون وإن كان مهينا خسيساً فعيشه كعيش أخس الحيوانات. فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول.

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى	ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى	وحنينه أبداً لأول منزل

بل ان المعرض الصاد يعاقبه الله تعالى بمثل هذه الهموم والحسرات، كما قال الله سبحانه (٣: ٢٨ **ويحذركم الله نفسه**).

ووجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه المقرب المبعد. فليحذر القريب من الإبعاد والمتصل من الانفصال. فإن الحق جل جلاله غيور لا يرضى ممن عرفه ووجد حلاوة معرفته، واتصل قلبه بمحبته والأنس به، وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى ـ أن يكون له التفات إلى غيره البتة.

ومن غيرته سبحانه: حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. والله سبحانه يغار أشد الغيرة على عبده: أن يلتفت إلى سواه. فإذا أذاقه حلاوة محبته، ولذة الشوق إليه، وأنس معرفته. ثم ساكن غيره: باعده من قربه. وقطعه من وصله. وأوحش سره. وشتت قلبه. ونغص عيشه. وألبسه رداء الذل والصغار والهوان. فنادى عليه حاله، إن لم يصرح به قاله: هذا جزاء من تعوض عن وليه وإلهه وفاطره، ومن لا حياة له إلا به: بغيره وآثر غيره عليه. فاتخذ سواه حبيباً، ورضي بغيره أنيساً، واتخذ سواه ولياً. قال الله تعالى (١٨: ٥٠ **وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس. كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني، وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بدلا**).

فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، ومُلِئ من الهموم والغموم والأحزان، وبُدّل بالأنس وحشة، وبالعز ذلاً، وبالقناعة حرصاً، وبالقرب بعداً طرداً، وبالجمع شتاتا وتفرقة ـ كان هذا بعض جزائه. فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات. وتعتريه وفود الأحزان والهموم بعد وفود المسرات.

وإذا اردت ان تعرف ما حل بك من بلاء الانفصال، فانظر أين يبيت قلبك اذا احدت مضجعك؟ والى اين يطير اذا استيقظت من منامك؟

لا إله إلا الله! ما أشد غبن من باع أطيب الحياة في هذه الدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك، والنعيم المقيم بالحياة المنغصة المنكدة المتصلة بالعذاب الأليم. والمدة ساعة من نهار، أو عشية أو ضحاها، أو يوم أو بعض يوم. فيه ربح الأبد أو خسارة الأبد.

● الموت مرحلة وليس نهاية

ومن مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه. فإن من ورائه روحاً وريحانا وراحة. نسبة هذه الدار إليه: كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك. قال بعض العارفين: لِتَكُنْ مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم فى البساتين المونقة. قال الله تعالى فى هذه الحياة (٥٦: ٨٨، ٨٩ **فأما إن كان من المقربين: فروح وريحان وجنة نعيم**).

و يكفى فى طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذى المنكد، الذى تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلا عن مخالطته وعشرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فى جوار الرب الرحمن الرحيم.

ولو لم يكن فى الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجسر يُعْبَر منه إليها: لكفى به تحفة للمؤمن.

جزى الله عنا الموت خيراً. فإنه	أبَرُّ بنا من كل بَرٍّ وألطف
يُعَجِّل تخليص النفوس من الأذى	و يُدْنِى إلى الدار التى هى أشرف

فالاجتهاد فى هذا العمر القصير، والمدة القليلة، والسعى والكدح، وتحمل الأثقال، والتعب والمشقة: إنما هو لهذه الحياة. والعلوم والأعمال: وسيلة إليها. وهى يَقَظة. وما قبلها من الحياة نوم. وهى عين، وما قبلها أثر. وهى حياة جامعة بين فقد المكروه، وحصول المحبوب فى مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب. حيث الطمأنينة والراحة والبهجة والسرور. حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها. لأنها فى بلد لا عهد لنا به. ولا إلف بيننا و بين ساكنه. فالنفس — لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زمانا طو يلا — تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد. وتستوحش إذا استشعرت مفارقته.

وحصول العلم بهذه الحياة: إنما وصل إلينا بخبر إلهى، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم صلى الله عليه وسلم. فقامت شواهدها فى قلوب أهل الإيمان. حتى صارت لهم بمنزلة العيان. ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفانى المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة فى هذه الحياة، وشوقاً إلى ذلك الملكوت، و وجدا بهذا السرور وطر با على هذا الحد، واشتياقاً لهذا النسيم، الوارد من محل النعيم المقيم.

ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخِصْب، والأمن والسرور: صَبَرَ فى طريقه على كل مشقة، وإعواز وجدب. وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب المنادى إذا نادى به: حى على الفلاح. و بَذَل نفسَه فى الوصول بَذْل المحب بالرضى والسماح، و واصل السيرَ بالغدوِّ والرواح. فحمد عندَ الوصول مَسْراه، وإنما يحمد المسافر السُّرَى عند الصباح.

عند الصباح يحمد القوم السُّرَى   وفى الممات يحمد القوم اللقا

وما هذا ـ والله ـ بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذى هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار (٤٦: ٣٥ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) (١٠: ٤٥ و يوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) (٧٩: ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) (٣٠: ٥٥ و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) (٢٣: ١١٢ ـ ١١٤ قال: كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ * قالوا: لبثنا يوما، أو بعض يوم. فاسأل العادين * قال: إن لبثتم إلا قليلا. لو أنكم كنتم تعلمون).

فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى. وما ذاك إلا بتوفيق مَنْ أزمّة الأمور بيديه. ومنه ابتداء كل شىء وانتهاؤه إليه، أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار، وجذب قلوب من سَبَقَت لهم منه الحسنى. وأقامهم فى الطريق، وسَهّل عليهم ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين. وعُقِدت الغَبَرة وثار العَجاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون. وسينجلى عن قريب. فيفوز العاملون. ويخسر المبطلون.

ومن طيب هذه الحياة ولذتها: قال النبى صلى الله عليه وسلم «ما من نفس تموت ـ لها عند الله خير ـ يسرها أن ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد. فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا. لما يرى من كرامة الله له» يعنى ليقتل فيه مرة أخرى. وسمع بعض العارفين منشدا ينشد:

إنما العيش فى بهيمية اللـ   ـذّة، وهو ما يقوله الفلسفي

حُكم كأس المنون: أن يتساوى   فى حساها البليد والألمعيُّ

و يصير الغَبِيُّ تحت ثرى الأر   ض . كما صارت تحتها اللَّوْذعيُّ

فَسَلِ الأرضَ عنهما إن أزالَ الشـ   ـكَّ والشبهة السؤالُ الجليُّ

فقال: قاتله الله، ما أشد معاندته للدين والعقل! هذا نَفَس عدو الفطرة، والشريعة، والعقل والإيمان والحكمة. يا مسكين: أمن أجل أن الموت تساوى فيه الصالح والطالح، والعالم والجاهل، وصاروا جميعاً تحت أطباق الثرى: يجب أن يتساووا فى العاقبة؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد فى الطريق؟ فلما بلغوا القصد نزل كل واحد فى مكان كان مُعدّاً له، وتُلُقّى بغير ما تلقيّ به رفيقه في الطريق. أمَا لكل قوم دار فأُجْلِس كل واحد منهم حيث يليق به؟ وقول هذا بشيء، وهذا بضده؟ أما قدم على الملك من جاءه بما يحبه. فأكرمه عليه، ومن جاءه بما يسخطه، فعاقبه عليه؟ أما قدم ركب المدينة. فنزل بعضهم فى قصورها و بساتينها وأماكنها الفاضلة. ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب؟ أما قدم اثنان من بطن الأم الواحدة. فصار هذا إلى المُلْكِ، وهذا إلى الأسر والعناء؟.

وقولك «سل الأرض عنهما» أما إنا قد سألناها، فأخبرتنا: أنها قد ضمت أجسادهم وجثثهم وأوصالهم، لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حلمهم وسفههم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا يقينهم وشكهم، ولا توحيدهم وشركهم، ولا جورهم وعدلهم، ولا علمهم وجهلهم. فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتمزقة، وقالت: هذا خبر ما عندى.

وأما خبر تلك الأرواح، وما صارت إليه: فسلوا عنها كتب رب العالمين، ورسله الصادقين، وخلفاءهم الوارثين. سلوا القرآن، فعنده الخبر اليقين. وسلوا من جاء به، فهو بذلك أعرف العارفين. وسلوا العلم والإيمان، فهما الشاهدان المقبولان. وسلوا العقول والفطر، فعندها حقيقة الخبر (٤٥: ٢١ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات: أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات. سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون**) تعالى الله — أحكم الحاكمين — عن هذا الظن والحسبان. الذى لا يليق إلا بأجهل الجاهلين.

ثم قال: الناظر فى هذا الباب رجلان. رجل ينظر إلى الأشياء، ورجل ينظر فى الأشياء. فالأول: يحار فيها. فإن صورها وأشكالها وتخاطيطها تستفرغ ذهنه وحسه، وتبدد فكره وقلبه. فنظره إليها بعين حِسّه، لا يفيده منها ثمرة الاعتبار. ولا زُبدة الاختبار. لأنه لما فقد الاعتبار أولاً، فإنه فقد الاختيار ثانياً.

وأما الناظر فى الأشياء: فإن نظره يبعثه على العبور من صورها إلى حقائقها والمراد بها. وما اقتضى وجودها من الحكمة البالغة، والعلم التام. فيفيده هذا النظر تمييز مراتبها، ومعرفة نافعها من ضارها، وصحيحها من سقيمها، و باقيها من فانيها، وقشرها من لُبِّها. وميز بين الوسيلة والغاية، و بين وسيلة الشيء ووسيلة ضده. فيعرف حينئذ أن الدنيا قِشْر والآخرة لُبُّهُ وأن الدنيا محل الزرع، والآخرة وقت الحصاد. وأن الدنيا معبر وممر، والآخرة دار مستقر.

وإذا عرف أن الدنيا طريق وممر: كان حَرِيًّا بتهيئة الزاد لقراره، و يعلم حينئذ أنه لم ينشأ في هذه الدار للاستيطان والخلود. ولكن للجواز إلى مكان آخر، هو المنزل والمتبوَّأ. وأن الإنسان دُعي إلى ذلك بكل شريعة، وعلى لسان كل نبي، و بكل اشارة ودليل. ونُصب له على ذلك علَم، وضرب لأجله كل مثل. ونبه عليه بنشأته الأولى ومبادئه، وسائر أحواله، طعامه وشرابه، وأرضه وسمائه. بحيث أزيلت عنه الشبهة، وأوضحت له المحجة، وأقيمت عليه الحجة. وأعذر إليه غاية الإعذار، وأُمهل أتم الإمهال. فاستبان لذى العقل الصحيح والفطرة السليمة: أن الظعن عن هذا المكان ضرورى، والانتقال عنه حق لامِرْية فيه. وأن له محلا آخر. له قد أُنْشيء. ولأجله قد خلق. وله هُيِّيء. فمصيره إليه. وقدومه بلا ريب عليه. وأن داره هذه: منزل عبور، لا منزل قرار.

و بالجملة: من نظر في الموجودات، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها: وحدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة. وكالظل بالنسبة إلى الشخص. وسمعها كلها تنادى بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها (٣٥: ٤ ياأيها الناس، إن وعد الله حق. فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور) وتنادى بلسان الحال؛ بما نادى به ربها بصريح المقال (١٨: ٤٥ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء. فاختلط به نباتُ الأرض. فأصبح هشيماً تذروهُ الرياحُ. وكان الله على كل شيء مقتدراً) وقال تعالى (١٠: ٢٤ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام. حتى إذا أخذت الأرض زُخْرُفَها وَازَّيَّنتْ، وَظَنَّ أهلها أنهم قادرون عليها: أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً. فجعلناها حَصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقال تعالى (٥٧: ٢٠ اعلموا أنَّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد. كمثل غَيْثٍ أعجب الكفار نباته. ثم يهيج، فتراه مُصْفَرًّا. ثم يكون حُطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد. ومغفرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التى لا زوال لها. فقال (٥٧: ٢١ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجَنَّةٍ عرضها كعرض السماء والأرض. أُعِدَّتْ للذين آمنوا بالله ورسله. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم).

وسمع بعض العارفين منشداً ينشد عن بعض الزنادقة عند موته — وهومحمد ابن زكريا الرازى المتطبب —:

لعمرى ما أدرى — وقد أذن البِلَى	بعاجل تِرْ حالى — إلى أين ترحالي؟
وأين محل الروح بعد خروجه	عن الهيكل المنحل والجسد البالى؟

فقال. وما علينا من جهله. إذا لم يدر أين ترحاله؟ ولكننا ندرى إلى أين ترحالنا وترحاله.
أما ترحاله: فإلى دار الأشقياء، ومحل المنكرين لقدرة الله وحكمته، والمكذبين بما اتفقت عليه كلمة المرسلين عن ربهم (١٣: ٥ **أولئك الذين كفروا بربهم. وأولئك الاغلال فى أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٣٢: ١٠ ــ ١٢ وقالوا: أئذا ضَلَلْنا فى الأرض أئنَّا لفى خَلْق جديد؟ بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل: يَتَوفّاكم ملك الموت الذى وُكّلَ بكم. ثم إلى ربكم ترجعون. ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رُؤسهم عند ربهم. ربنا أبْصَرْنا وسمعنا. فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون).**

وأما ترحالنا، أيها المسلمون، المصدقون بلقاء ربهم، وكتبه ورسله: فإلى نعيم دائم، وخلود متصل، ومقام كريم، وجنة عرضها السموات والأرض فى جوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذى له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الأول بالحق، الموجود بالضرورة، المعروف بالفطرة، الذى أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات، وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات، وأقرت بها الفطر. المشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون، بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون. الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنْبَتَ به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات، وبث به فى الأرض جميع الحيوانات (٢٧: ٦١ **أمن جعل الأرض قراراً. وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً**) الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه. ويكشف السوء ويفرج الكربات. ويقيل العثرات. الذى يهدى خلقه فى ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بُشْراً بين يدى رحمته. فيحيى الأرض بوابل المطر. الذى يبدأ الخلق ثم يعيده. ويرزق من فى السماوات والأرض من خلقه وعبيده. الذى يملك السمع والأبصار والأفئدة. ويخرج الحى من الميت. ويخرج الميت من الحى، ويدبر الأمر (٢٣: ٨٨ **الذى بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه**) (٢٥: ٢، ٣ **الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك. وخلق كل شىء فقدره تقديراً**) المستعان به على كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل بر وكرامة. الذى عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، وسبَّحت بحمده الأرض والسموات، وجميع الموجودات. الذى لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يُدْرَكُ النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه، ولا يقع أمر إلا بإذنه، ولا يهتدى ضال إلا بهدايته، ولا يستقيم ذو أَوَد إلا بتقويمه، ولا يفهم أحد إلا بتفهيمه. ولا يُتخلص من مكروه إلا برحمته، ولا يُحْفَظ شىء إلا بكلاءته، ولا يُفتتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يُدْرَكُ مأمول إلا

بتيسيره، ولا تنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته، ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته. الذى وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق فضلا و براً

فهو الإله الحق. والرب الحق.

والملك الحق. والمنفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه. المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه. لا يبلغ المثنون — وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء — ثناء عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه. هذا الجار.

وأما الدار: فلا تعلم نفس حسنها و بهاءها، وسعتها ونعيمها. و بهجتها وروحها وراحتها. فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر. فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين. فهي الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرات، الخالية من جميع المنكدات والمنغصات، ريحانة تهتز، وقصر مشيد، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة

فترحالنا أيها — الصادقون المصدقون — إلى هذه الدار بإذن ربنا وتوفيقه وإحسانه

وترحال الكاذبين إلى الدار التى أعدت لمن كفر بالله ولقائه، وكتبه ورسله

ولن يجمع الله بين الموحدين له — الطالبين لمرضاته، الساعين فى طاعته، الدائبين فى خدمته، المجاهدين فى سبيله — و بين الملحدين، الساعين فى مساخطه، الدائبين فى معصيته، المستفرغين جهدهم فى أهوائهم وشهواتهم: فى دار واحدة، إلا على سبيل الجواز والعبور. كما جمع بينهما فى هذه الدنيا. ويجمع بينهم فى موقف القيامة. فحاشاه من هذا الظن السيىء الذى لا يليق بكماله وحكمته.

وفى هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم فى هذه الدنيا، وأتم وأطيب. وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة. وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة. فليس العمل على الطَّلل، إنما الشأن فى الساكن. قال الله تعالى (٣: ١٦٨ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً. بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال تعالى (٢: ١٥٤ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء. ولكن لا تشعرون) وإذ كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم فما الظن بحياة الرسل فى البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيش نوم. والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة — التى هى يقظة من نوم الدنيا — أكملها وأتمها. وعلى قدر حياة العبد فى هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها. والله المستعان.

• التمام هنالك، والوفاء ثَمَّ

ثُم من مراتب الحياة:

الحيـاة الدائـمة البـاقية بعد طيِّ هذا العالم. وذهاب الدنيا وأهلها فى دار الحيوان. وهى الحيـاة الـتى شمر إليها المشمرون. وسابق إليها المتسابقون. ونافس فيها المتنافسون. وهى التى أجرينـا الكلام إليها. ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها. وهى التى يقول من فاته الاستعداد لها (٨٩: ٢١ ــ ٢٦ **إذا دُكَّت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجىء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان. وأنَّى له الذكرى؟ * يقول: ياليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لا يُعَذِّب عذابه أحد. ولا يُوثِق وثاقه أحد**) وهى التى قال الله عز وجل فيـها (٢٩: ٦٤ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون**).

والحيـاة المتـقدمة كالنوم بالنسبة إليها. وكل ما تقدم ــ من وصف السير ومنازله، وأحوال السـائرين، وعـوديتهم الظاهرة والباطنة ــ فوسيلة إلى هذه الحياة. وإنما الحياة الدنيا، بالنسبة إلـيهـا، كـمـا قـال النبى صلى الله عليه وسلم «**ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يُدخِل أحدُكم إصبعه فى اليَمّ فلينظر بم ترجع؟**».

وكـمـا قـيل: تنفست الآخرة. فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها. فأصاب أهل السعادة نَفَس نعيمـهـا. فهـم على هـذا النـفس يعملون. وأصاب أهلَ الشقاوة نفس عذابها. فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كـانـت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح فى هذه الدار حياة طيبة. فما الظن بحياتهم فى الـبرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها؟ فما الظن بحياتهم فى دار النعيم المقيم الذى لا يزول. وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بُكْرَة وعَشِيًّا و يسمعون خطابه؟.

فـإن قـلـت ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التى لاخَطَر لها، وما الذى زَهَّدها فيها؟ وما سبب رغبتها فى الحياة الفانية المضمحلة، التى هى كالخيال والمنام؟ أفسادٌ فى تصورها وشعـورهـا؟ أم تـكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة فى العقل، وعمى هناك؟ أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسـبـاب فى ذلك: ضعف الإيمان. فـإن الإيمان هو روح الأعمال. وهو الباعث عـلـيهـا، والآمر بأحسنها، والناهى عن أقبحها. وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائـتـمـار صـاحـبـه وانتهاؤه. قال الله تعالى (٢: ٩٣ **قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**).

و بالجملة: فإذا قوى الإيمان قوى الشوق إلى هذه الحياة. واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جُثوم الغفلة على القلب. فإن الغفلة نوم القلب. ولهذا تجد كثيراً من الأ يقاظ فى الحس نياماً فى الواقع. فتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن. وكمال هذه الحياة كان لنبينا صلى الله عليه وسلم. ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهما.

فالغفلة واليقظة يكونان فى الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه. وكما أن يقظة الحس على نوعين. فكذلك يقظة القلب على نوعين.

فالنوع الأ ول من يقظة الحس: أن صاحبها ينفذ فى الأمور الحسية. و يتوغل فيها بكسبه وفطانته، واحتياله وحسن تأتيه.

والنوع الثاني: أن يُقبل على نفسه وقلبه وذاته. فيعتنى بتحصيل كماله. فيلحظ عوالى الأمور وسفسافها. فيؤثر الأعلى على الأدنى. و يقدم خير الخيرين بتفويت أدناهما. و يرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما. و يتحلى بمكارم الأخلاق ومعالى الشِّيَم. فيكون ظاهره جميلاً، و باطنه أجمل من ظاهره. وسريرته خيراً من علانيته. فيراحم أصحاب المعالى عليها كما يتزاحم أهل الدينار والدرهم عليهما. فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما.

أحدهما: يقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التى لا خَطَر لها، من هذه الحياة الزائلة الفانية، التى لا قيمة لها.

فإن قلت: مَثِّل لي، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإنى لا أفهمه.

قلت. وهذا أيضاً من نوم القلب، بل من موته. وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذا الحياة الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء. فيتَّقد الثانى و يضىء غاية الإضاءة، و يتصل ضوءه. و ينطفىء الأ ول. والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة: إنما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية. وقد توسط الموت بين الدارين. فهو قنطرة لا يعبر إلى تلك الدار إلا عليها، و باب لا يدخل إليها إلا منه. فهما حياتان فى دارين بينهما موت؛ وكما أن نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، فحياتها كذلك مقتبسة من حياتها. فعلى قدر نور الإيمان فى هذه الدار يكون نور العبد فى تلك الدار. وعلى قدر حياته فى هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم هذا النور والحياة، الذى يقتبس منه ذلك النور والحياة، لا ينقطع. بل يضىء للعبد فى البرزخ، وفى موقف القيامة، وعلى الصراط. فلا يفارقه إلى دار الحيوان. يطفأ نور الشمس وهذا النور لا يطفأ. وتبطل الحياة المحسوسة وهذه الحياة لا تبطل. هذا أحد نوعى يقظة القلب.

النوع الثاني: يقظة تبعث على حياة. لا تدركها العبارة. ولا ينالها التوهم. ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه البتة. والذى يشار به إليها: حياة المحب مع حبيبه، الذى لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به ولا غنى له عنه طرفة عين. ولا قرة لعينه، ولا طمأنينة لقلبه، ولا سكون لروحه، إلا به. فهو أحوج إليه من سمعه و بصره وقوته .... وعذاب حجابه عنه: أعظم من العذاب الآخر. كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب: أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتمتع بالحور العين. فهكذا عذاب الحجاب: أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين فى قوله (١٠: ٢٦ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**) فالحسنى الجنة. والزيادة: رؤية وجهه الكريم فى جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين فى قوله (٨٣: ١٥ **كلا. إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم**).

والمقصود: أن الغفلة هى نوم القلب عن طلب هذه الحياة. وهى حجاب عليه. وإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لا يفيد. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صغار تبعده عن الله. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب كبائر توجب مقت الرب تعالى له، وغضبه ولعنته. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه. ولا تجدى عليه شيئاً. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية. تتضمن الكذب على الله ورسوله. والتكذيب بالحق الذى جاء به الرسول. وإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب. يقدح فى أصول الإيمان الخمس. وهى: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه. فلغلظ حجابه وكثافته، وظلمته وسواده: لا يرى حقائق الإيمان. و يتمكن منه الشيطان، يعده و يمنيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهى. وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان. فأسره وسجنه، إن لم يهلكه. وتولى تدبير المملكة واستخدم جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التى جرى عليها العمل. وأغلق باب اليقظة. وأقام عليه بواب الغفلة. وقال: إياك أن نؤتى من قبلك. وأتخذ حاجبا من الهوى، وقال: إياك أن تمكن أحداً يدخل عليّ إلا معك. فأمرُ هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب. فيا بواب الغفلة، و يا حاجب الهوى ليلزم كل منكما ثغره، فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الخزى والهوان. ولا نفرح بهذه المدينة أبداً.

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر، مع رقة الإيمان، وقلة الأعوان، والاعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط فى سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان

أن آثر العاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد عليّ هذه الاكوان. فالله المستعان وعليه التكلان.

ولما كان كل حيوان متنفساً، فإن التنفس موجب الحياة وعلامتها: كانت أنفاس الحياة خمسة أنفاس: نفس الخوف. ومصدره: مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة. والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغى على الرشاد.

ونفس الرجاء، ومصدره: مطالعة الوعد، وحسن الظن بالرب تعالى. وما الله أعد لمن آثر الله ورسوله، والدار الآخرة، وحكّم الهدى على الهوى، والوحي على الآراء، والسنة على البدعة، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على عوائد الخلق.

ونفس بالمحبة. مصدره: مطالعة الأسماء والصفات، ومشاهدة النعماء والآلاء.

فإذا ذكر ذنوبه: تنفس بالخوف. وإذا ذكر رحمة ربه، وسعة مغفرته وعفوه: تنفس بالرجاء. وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه: تنفس بالحب. فالنفس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة: أشرف أنفاس العبد على الاطلاق. فأين نفس المشتاق المحب الصادق إلى نفس الخائف الراجي؟ ولكن لا يحصل له هذا النفس إلا بتحصيل ذينك النفسين، فإن أحدهما ثمرة تركه للمخالفات. والثاني: ثمرة فعله للطاعات. فمن هذه النفسين يصل إلى النفس الثالث.

ثم نفس الاضطرار، وذلك لا نقطاع أمله مما سوى الله. فيضطر حينئذ ـــ بقلبه وروحه ونفسه وبدنه ـــ إلى ربه ضرورة تامة. بحيث يجد في كل منبت شعرة منه فاقة تامة إلى ربه ومعبوده. فهذا النفس نفس مضطر إلى مالا غنى له عنه طرفة عين. وضرورته إليه من جهة كونه ربه، وخالقه وفاطره وناصره، وحافظه ومعينه ورازقه، وهاديه ومعافيه، والقائم بجميع مصالحه ومن جهة كونه: معبوده وإلهه، وحبيبه الذى لا تكمل حياته ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحده أحب شيء إليه، وأشوق شيء إليه.

فإذا علت هذه الانفاس: حصل له القرب من ربه والأنس به، والفرح به، وبالخلع التي خلعها ربه على قلبه وروحه، مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بحذافيرها، فحينئذ يتنفس نفساً آخر يقال له: نفس الافتخار، يجد به من التفريج والترويح والراحة والانشراح ما يشبه ـــ من بعض الوجوه ـــ بنفس مَنْ جُعل في عنقه حبل ليحنق به حتى يموت. ثم كشف عنه وقد حبس نفسه. فتنفس نفس من أعيدت عليه حياته. وتخلص من أسباب الموت.

فإن قلت: ماللعبد والافتخار؟ وأين العبودية من نفس الافتخار؟.

قلنا: لانريد بذلك: أن العبد يفتخر بذلك. ويختال على بني جنسه. بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه. ومنحه إياه، وخصه به. وأول ما فرح به العبد: فضل ربه

عليه. فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. ويحب الفرح بذلك. لأنه من الشكر. ومن لا يفرح بنعمة المنعم لا يعد شكوراً. فهو افتخار بما هو محض منة الله ونعمته على عبده، لا افتخار بما من العبد. فهذا هو الذى ينافى العبودية لاذاك.

وهنا سر لطيف. وهو أن هذا النفس يفخر على أنفاسه التى ليست كذلك. كما تفخر الحياة على الموت، والعلم على الجهل، والسمع على الصمم، والبصر على العمى. فيكون الافتخار للنفس على النفس، لا للمتنفس على الناس. والله أعلم.

(٦٢) منزلة المعرفة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المعرفة»

قال الله تعالى (٥: ٨٦ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**).

وقد تكلموا على «المعرفة» بآثارها وشواهدها. فقال بعضهم: من إمارات المعرفة بالله: حصول الهيبة منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته.

وقال أيضاً: المعرفة توجب السكون. فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

وقال لى بعض أصحابنا: ما علامة المعرفة التى يشيرون إليها؟ فقلت له: أنس القلب بالله. قال لى: علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله. فيجده قريباً منه.

وقال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف: كان له أخوف. ويدل على هذا قوله تعالى (**٣٥: ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء**) وقول النبى صلى الله عليه وسلم «**أنا أعرفكم بالله. وأشدكم له خشية**».

وقال آخر: من عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها.

وقال غيره: من عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق.

ولا تنافى بين هذين الأمرين. فإنه يضيق عليه كل مكان لا يساعد فيه على شأنه ومطلوبه. ويتسع عليه ما ضاق على غيره. لأنه ليس فيه، ولا هو مساكن له بقلبه. فقلبه غير محبوس فيه.

والأول: فى بداية المعرفة. والثانى: فى نهايتها التى يصل إليها العبد.

وقال آخر: من عرف الله تعالى صفا له العيش. فطابت له الحياة. وهابه كل شىء وذهب عنه خوف المخلوقين. وأنس بالله.

وقال غيره: من عرف الله قرت عينه بالله. وقرت عينه بالموت. وقرت به كل عين. ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات. ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه. ومن ادعى معرفة الله — وهو راغب فى غيره —: كذَّبت رغبته معرفته. ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به. وخافه ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه. ولهج بذكره. واشتاق إلى لقائه. واستحيا منه. وأجلّه وعظمه على قدر معرفته به.

ومن علامات المعرفة: أن يبدو لك الشاهد، وتفنى الشواهد. وتنحل العلائق. وتنقطع العوائق. وتجلس بين يدي الرب تعالى، وتقوم وتضطجع على التأهب للقائه، كما يجلس الذى شدّ أحماله وأزمع السفر على التأهب له. و يقوم على ذلك و يضطجع عليه. كما ينزل المسافر ق المنزل. فهوقائم وجالس ومضطجع على التأهب.

وقيل للجنيد: إن أقواما يدعون المعرفة، يقولون: إنهم يصلون بترك الحركات من باب البر والتقوى؟ فقال الجنيد: هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيم. والذى يسرق و يزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا. إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإلى الله رجعوا فيها. ولوبقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بيني وبينها.

ومن علامات العارف: أنه لا يطالب ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرى له على أحد فضلا. ولا يرى له على أحد حقا.

ومن علاماته: أنه لا يأسف على فائت. ولايفرح بآت: لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال. لأنها فى الحقيقة كالظلال والخيال. وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يُظِلّ كل شيء، وكالمطر يسقى ما يحب ومالا يحب. وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاه على نفسه، وثناه على ربه. وهذا من أحسن الكلام. فإنه يدل على معرفته بنفسه، وعيوبه وآفاته، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله ،فهوشديد الازراء على نفسه، لهج بالثناء على ربه.

وقال آخر: لا يكون العارف عارفا حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين. وهذا يحتاج إلى شرح. فإن ماهو دون ذلك يشغل القلب، لكن يكون اشتغاله بغير الله لله. فذلك اشتغال به سبحانه. لأنه اشتغل بغيره لأجله لم يشتغل عنه.

ومن علاماته: أنه مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه. ولهذا قيل: العارف من أنس بالله، فأوحشه من الخلق، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم. وذل لله فأعزه فيهم. وتواضع لله فرفعه بينهم. واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

قيل: والعارف يتلون بتلون أقسام العبودية. فبينا تراه مصليا إذ رأيته ذاكراً، أو قارئاً، أو معلماً، أو مجاهداً، أو حاجاً، أو مساعداً للضعيف، أو مغيثاً للملهوف. فيضرب فى كل غنيمة من الغنائم بسهم. فهو مع المتعلمين متعلم، ومع الغزاة غاز، ومع المصلين مصل، ، ومع المتصدقين متصدق. فهوينتقل فى منازل العبودية من عبودية إلى عبودية. وهومقيم على معبود واحد. لا ينتقل فى منازل العبودية إلى غيره.

وقال يحيى بن معاذ: العارف كائن بائن. وهذا يفسر على وجوه.

منها: أنه كائن مع الخلق بظاهره. بائن عنهم بسره وقلبه.

ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا.

ومنها أنه كائن مع الله بموافقته. بائن عن الناس فى مخالفته.

وقيل: ان من علامة العارف: «ان لا يعتقد باطناً من العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم. ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله».

وهذا من أحسن الكلام الذى قيل فى المعرفة.

قوله «باطن العلم الذى ينقضه ظاهر الحكم» فإنه يشير به إلى ما عليه المنحرفون، ممن ينسب إلى السلوك. فإنهم يقع لهم أذواق ومواجيد، وواردات تخالف الحكم الشرعى. وتكون تلك معلومة لهم لا يمكنهم جحدها. فيعتقدونها و يتركون بها ظاهر الحكم. وهذا كثير جداً. وهو الذى انتقد أئمة الطريق على هؤلاء. وصاحوا بهم من كل ناحية. و بدعوهم وضللوهم به.

قوله «ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله» كثرة النعم تطغى العبد، وتحمله على أن يصرفها فى وجوهها وغير وجوهها. وهى تدعوا إلى أن يتناول العبد بها ماحل ومالا يحل. وأكثر المنعم عليهم لا يقتصرون فى صرف النعمة على القدر الحلال. بل يتعداه إلى غيره، وَتُسَوِّلُ له نفسه أن معرفته بالله ترد عليه ما انتهبته منهم أيدى الشهوات والمخالفات. و يقول: العارف لا تضره الذنوب، كما تضر الجاهل. وربما يُسَوِّلُ له أن ذنوبه خير من طاعات الجهال. وهذا من أعظم المكر. والأمر بضد ذلك. فيحتمل من الجاهل مالا يحتمل من العارف وإذا عوقب الجاهل ضعفا عوقب العارف ضعفين. وقد دل على هذا شرع الله . ... قال تعالى فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم (٣٣: ٣٧ يانساء النبى مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بفاحشة مبينة. يُضَاعَفْ لها العذاب ضعفين) فإذا أكملت النعمة على العبد، فقابلها بالإساءة والعصيان: كانت عقوبته أعظم. فدرجته أعلى وعقوبته أشد.

وقيل: مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين. ومن الرياء إلى الإخلاص. ومن الغفلة إلى الذكر. ومن الرغبة فى الدنيا إلى الرغبة فى الآخرة. ومن الكبر إلى التواضع. ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

• نثبت صفات الله تعالى بلا تأويل ولا تشبيه

وقال شيخ الاسلام الهروي:

«المعرفة: معرفة الصفات التي وردت أساميها بالرسالة، وظهرت شواهدها في الصنعة. وهي على أربعة اركان: إثبات الصفات باسمها من غير تشبيه، ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل، والإياس من ادراك كنهها وابتغاء تأويلها، مع اسقاط التفريق بين الصفات والذات».

وهذا من جيد الكلام، و يدل على علو كعب المروي.

وذلك أنه لا يستقر للعبد قدم فى المعرفة ــ بل ولا فى الإيمان ــ حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، و يعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بر به. فالإيمان بالصفات وتعرُّفها: هو أساس الإسلام، والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام، وقاعدة الايمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلا عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به. وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. فقال تعالى (٤١: ٢٢، ٢٣ **وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم، ولا أبصاركم، ولا جلودكم. ولكن ظننتم: أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم. فأصبحتم من الخاسرين**) فأخبر سبحانه: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به. وأنه هو الذى أهلكهم. وقد قال فى الظانين به ظن السوء (٤٨: ٦ **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم. وأعد لهم جهنم. وساءت مصيرا**) ولم يجيء مثل هذا الوعيد فى غير من ظن السوء به سبحانه. وجحدُ صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله: كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به. وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من المشرك. فإنه لا يستوى جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن فى أوصافه هو، والتشريك بينه و بين غيره فى الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك فى العالم فأصله التعطيل. فإنه لولا تعطيل كماله ــ أو بعضه ــ وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه (٣٧: ٨٦ و ٨٧ **أئفكاً آلهة دون الله تريدون؟ * فما ظنكم برب العالمين؟**) أى فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذى ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟

أظننتم: أنه محتاج إلى شركاء يُعينونه كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس. فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل، فيحتاج إلى ولى يتكثر به من القِلّة، و يتعزز به من الذّلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجد معطلا إلا وشركه على حسب تعطيله. فمستقل ومستكثر.

● معرفة الصفات: روح السلوك

والرسل من أولهم إلى خاتمهم ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ أُرسلوا بالدعوة إلى الله. وبيان الطريق الموصل إليه. وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل مِلّة على لسان كل رسول. فعرَّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه. وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أعمالهم وحركاتهم. ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى. ويرضى ويغضب. ويحب ويسخط. ويضحك من قنوطهم وقرب عفوه. ويجيب دعوة مضطرهم. ويغيث ملهفهم. ويعين محتاجهم. ويجبر كسيرهم. ويغني فقيرهم. ويميت ويحيي. ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء. مالك الملك. يؤتي الملك من يشاء. وينزع الملك ممن يشاء. ويعز من يشاء ويذل من يشاء. بيده الخير. وهو على كل شيء قدير. كل يوم هو في شأن. يغفر ذنباً. ويفرج كرباً. ويفك عانياً. وينصر مظلوماً. ويقصم ظالماً. ويرحم مسكيناً. ويغيث ملهوفاً. ويسوق الأقدار إلى مواقيتها. ويجريها على نظامها. ويقدم ما يشاء تقديمه. ويؤخر ما يشاء تأخيره فأزمّة الأمور كلها بيده. ومدار الممالك كلها عليه. وهذا مقصود الدعوة، وزُبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه. وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول. وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار. وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط.

فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين. وحاديهم إلى الوصول. ومحرك عزماتهم إذا فتروا. ومُثير هممهم إذا قصروا. فإن سيرهم إنما هو على الشواهد. فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العَلَمُ الذي رُفع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها «من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً. لم يضع لَبِنة على لبنة، ولكن رُفع له عَلَم فشمر إليه» ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل له ــ بفضله ومنّه ــ عَلَماً يشاهده بقلبه. فيشمر إليه. ويعمل عليه.

فإن عُطِّلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القَدَر: أن

اقعدى مع القاعدين. فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هى الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه. وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضُرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها ـ بعد ذلك ـ ما هو مشروط بالمعرفة، وملزم لها. إذ وجود الملزم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع.

فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان ممتنع على المعطل كل الامتناع، إذ كيف يألهُ القلوب من لا يسمع كلامها. ولا يرى مكانها. ولا يحب ولا يحب. ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم. ولا يقرب من شىء ولا يقرب منه شىء. ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية يفعل و يأمر لأجلها؟.

فكيف يتصور على ذلك، ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ورؤية وجهه الكريم فى جنات النعيم. وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله القلوب من لا يحب ولا يحب، ولا يرضى ولا يغضب. ولا يفرح ولا يضحك؟.

فسبحان من حال بين المعطلة و بين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه فى محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلا لذلك لمنّ عليها به. وأكرمها به. إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. و يضع نعمته (٦: ٥٣ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض، ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟) (٦: ١٢٤ وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٤٣: ٣٢ أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا. ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات. ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرياً. ورحمة ربك خير مما يجمعون)** وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: فى الحقيقة تنزيهاً. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيها. كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها. وزين لهم سوء أعمالهم. فرأوها حسنة.

وهذه الصفات دل عليها الوحى الذى جاء من عند الله على لسان رسوله. والحس الذى شاهد به البصير آثار الصنعة. فاستدل بها على صفات صانعها. والعقل الذى طابت حياته بزرع الفكر، والقلب الذى يحيا بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار.

فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتاً مفصلا على وجه أزال الشبهة. وكشف الغطاء. وحصّل العلم اليقينى. ورفع الشك والريب فثلجت له الصدور. واطمأنت به القلوب. واستقر به الإيمان فى نصابه. ففصلت الرسالة الصفات والافعال اعظم من تفصيل الامر والنهى.

وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنعه من قبول التأويل. وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره. بل أبعد منه لوجوه كثيرة. ذكرتها في كتاب «الصواعق المرسلة، على الجهمية والمعطلة» بل تأويل آيات الصفات ـ بما يخرجها عن حقائقها ـ كتأويل آيات الأمر والنهي سواء. فالباب كله باب واحد. ومصدره واحد. ومقصوده واحد. وهو إثبات حقائقه والإيمان بها.

وكذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم، وقالوا: فعلنا فيها كفعل المتكلمين في آيات الصفات. بل نحن أعذر. فإن اشتمال الكتب الإلهية على الصفات والعلو وقيام الأفعال: أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير. فإذا ساغ لكم تأويلها، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟

وكذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الأمر والنهي، وقالوا: فعلنا فيها كفعل أولئك في آيات الصفات، مع كثرتها وتنوعها. وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة على خمسمائة آية.

قالوا: وما يظن أنه معارض من العقليات لنصوص الصفات. فعندنا معارض عقلي لنصوص المعاد، من جنسه أو أقوى منه.

وقال متأولو آيات الأحكام على خلاف حقائقها وظواهرها: الذي سوغ لنا هذا التأويل: القواعد التي اصطلحتموها لنا. وجعلتموها أصلا نرجع إليه. فلما طردناها كان طردها: أن الله ما تكلم بشيء قط، ولا يتكلم. ولا يأمر ولا ينهى ولا له صفة تقوم به. ولا يفعل شيئاً. وطرد هذا الأصل: لزوم تأويل آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب.

وقد ذكرنا في كتاب «الصواعق» أن تأويل آيات الصفات وأخبارها ـ بما يخرجها عن حقائقها ـ هو أصل الفساد وزوال الممالك. وتسليط أعداء الإسلام عليه: إنما كان بسبب التأويل، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم. ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته. لأنه سبب لفساد العالم، وتعطيل الشرائع.

ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة: علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها. فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه.

فانظر إلى قوله تعالى (٦: ١٥٨ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك**) هل يحتمل هذا التقسيم والتنويع: تأويل إتيان الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلا: أنه إتيانه بنفسه؟ وكذلك قوله (٤: ١٦٣، ١٦٤ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ـ إلى أن قال ـ وكلم الله موسى تكليما**) ففرق بين الإيحاء العام، والتكليم الخاص. وجعلهما نوعين. ثم أكد

فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون. وكذلك قوله (٤٣: ٥١ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا**) فنوع تكليمه إلى تكليم بواسطة، وتكليم بغير واسطة. وكذلك قوله لموسى عليه السلام (٧: ١٤٤ **إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**) ففرق بين الرسالة والكلام. والرسالة إنما هي بكلامه. وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «**إنكم ترون ربكم عياناً. كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو، ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب**» . ومعلوم أن هذا البيان والكشف والاحتراز: ينافي إرادة التأويل قطعاً. ولا يرتاب في هذا من له عقل ودين.

أما الطريق الثاني من طرق إثبات الصفات، فهو دلالة الصنعة عليها. فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، على حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيئته. فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاماً ضرورياً. وما فيه من الإتقان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه: يدل على حكمة فاعله وعنايته. وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده.

وآثار الكمال: تدل على أن خالقه أكمل منه. فمعطي الكمال أحق بالكمال. وخالق الأسماع والأبصار والنطق : أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلما. وخالق الحياة والعلوم، والقُدَر والإرادات: أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه. فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات: هو من أدل شيء على إرادة الرب سبحانه، ومشيئته وحكمته، التي اقتضت التخصيص.

وحصولُ الإجابة عقيب سؤال الطالب، على الوجه المطلوب: دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات. وعلى سمعه لسؤال عبيده. وعلى قدرته على قضاء حوائجهم. وعلى رأفته ورحمته بهم.

والإحسانُ إلى المطيعين، والتقرب إليهم والإكرام، وإعلاء درجاتهم: يدل على محبته ورضاه. وعقوبته للعصاة والظلمة، وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة: تدل على صفة «الغضب والسخط» والإبعاد. والطردُ والإقصاء: يدل على المقت والبغض.

فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل. ولهذا دعا سبحانه في كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته. فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته المشهودة. والقرآن مملوء بذلك.

فيظهر شاهد اسم «الخالق» من نفس المخلوق. وشاهد اسم «الرزاق» من وجود الرزق والمرزوق. وشاهد اسم «الرحيم» من شهود الرحمة المبثوثة في العالم. واسم «المعطي» من وجود العطاء الذي هو مدار لا ينقطع لحظة واحدة. واسم «الحليم» من حلمه عن الجناة والعصاة وعدم

معـاجلتهم. واسم «الغفور» و «التواب» من مغفرة الذنوب، وقبول التوبة. و يظهر شاهد اسمه «الحكيم» من العلم بما في خلقه وأمره من الحِكَم والمصالح و وجوه المنافع. وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد في خلقه وأمره. يعرفه من عرفه ويجهله من جهله. فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته.

وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحِذْقه وتبريزه على غيره، وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره: من مشاهدة صنعته، فكيف لا تعرف صفات مَنْ هذا العالم العلوى والسفلى وهذه المخلوقات : من بعض صنعه؟

وإذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات. وجدتها بأسرها كلها دالة على الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى. وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة. و يكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة. كما قال تعالى (٥١: ٢١ **وفى أنفسكم. أفلا تبصرون؟**) فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه. فهى كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها. وتنادى عليها. وتدل عليها. وتخبر بها بلسان النطق والحال. كما قيل:

تأمّل سطور الكائنات. فإنها	من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خطّ فيها ــ لو تأملت خطها ــ	ألاَ كُلُّ شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها	فصامتها يَهْدِى، ومَنْ هو قائل

فلست ترى شيئاً أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه. وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها. فهى تدل عقلا وحسا، وفطرة ونظراً، واعتباراً.

وكلما قوى النور فى قلب العبد: كان بصره أتم وأكمل، وكلما قَلَّ نصيبه من النور، وطفىء مصباحه فى قلبه: طفىء نور التصديق بالصفات وإثباتها فى قلبه. فإنه يشاهدها بذلك النور. فإذا فقده لم يشاهدها. وجاءت الشبه الباطلة مع تلك الظلمة. فلم يكن له نصيب منها سوى الإنكار.

والتفكر يساعد على هذا الادراك. ولذلك كان من صفات المؤمنين انهم يتفكرون في الآيات، فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه. و يتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وشرفها. و بذلك وصفهم الله تعالى إذ قال (٣٠: ٢١ **ومن آياته: أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها. وجعل بينكم مودة ورحمة. إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**) فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب،

ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال وأما فكرٌ مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة: فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها. و ينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل: حياة القلب بحسن النظر، الدائر بين تعظيم الخالق ــ جل جلاله ــ وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه. فلا بد من الأمرين. فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار: لم يحصل له الاستدلال على الصفات. وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه: لم يستفد به إثبات الصفات. فإذا اجتمع له تعظيم وحسن النظر في صنعه: أثمر له إثبات صفات كماله ولا بد، مع انه يستحيل ان يصح للقلب تعظيمه لربه من خلال تدبر آثار اسمائه وصفاته وتدبر آياته القرآنية، ثم يغفل به عن حسن الاعتبار، ولا أن يحصل له اعتبار من غير تعظيم.

و «الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع. ومن الدليل إلى المدلول. فينتقل إليه بسرعة لطائف إدراك. فينتقل ذهنه من الملزم إلى لازمه. قال الله تعالى (٥٩: ٢ فاعتبروا يا أولى الأبصار) و «الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه. ومن النظير إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف و يقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره. وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك. قد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه. فقال تعالى في الطريق الأولى (٤١: ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم: أنه الحق) ثم قال في الطريق الثانية (أو لم يكفِ بربك: أنه على كل شيء شهيد؟) فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله و يأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به.

مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً. واسمه «الغني» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. واسمه «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، و بثّ رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذى هو عرشه المجيد. فمتى قام بالعبد تعظيم الحق ــ جل جلاله ــ وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قِبْلةً له.

وأما اركان هذه المعرفة:

فأحدها: إثبات تلك الصفة. فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

الثاني: أنه لا يتعدى بها اسمها الخاص الذى سماها الله به. بل يحترم الاسم كما يحترم

الصفة. فلا يعطل الصفة. ولا يغير اسمها و يعيرها اسماً آخر. كما تسمي الجهمية والمعطلة سمعه و بصره، وقدرته وحياته، وكلامه: أعراضاً. و يسمون وجهه و يديه وقدمه ــ سبحانه ــ : جوارح وابعاضا و يسمون حكمته وغاية فعله المطلوبة: عللاً وأغراضاً. و يسمون أفعاله القائمة به: حوادث. و يسمون علوّه على خلقه، واستواءه على عرشه: تَحَيُّزاً. و يتواصَوْن بهذا المكر الكُبَّار إلى نفى مادل عليه الوحي، والعقل والفطرة، وآثار الصنعة من صفاته. فَيَسْطُون ــ بهذه الأسماء التى سموها هم وآباؤهم ــ على نفى صفاته وحقائق أسمائه.

واعلم ان الله تعالى قد أطلق على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و «الشائى» و «المحدث»، كما لم يسم نفسه «بالصانع» و «الفاعل» و «المتقن» وغير ذلك من الأسماء التى أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ ــ أقبح خطأ ــ من اشتق له من كل فعل اسما. و بلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر ، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك . وكذلك باب الاخبار عنه بالاسم اوسع من تسميته به . فانه يخبر عنه بأنه «شيء وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجيء تسميته به إلا فى حديث تعداد الأسماء الحسنى. والصحيح: أنه ليس من كلام النبى صلى الله عليه وسلم. ومعناه صحيح. فإنه ذو الوُجد والغنى. فهو أولى بأن يسمى به من «الموجود» ومن «الموجد» أما «الموجد» فإنه منقسم إلى كامل وناقص، وخير وشر. وما كان مسماه منقسما لم يدخل اسمه فى الأسماء الحسنى. كالشيء والمعلوم. ولذلك لم يسم بالمريد، ولا بالمتكلم. وإن كان له الإرادة والكلام، لانقسام مسمى «المريد» و «المتكلم» وأما «الموجد» فقد سمى نفسه بأكمل أنواعه. وهو «الخالق، البارىء، المصور» فالموجد كالمحدث والفاعل والصانع.

وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنى. فتأمله.

الثالث: عدم تشبيهها بما للمخلوق. فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، لا فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله. فالعارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكماله: يثبتون له الأسماء والصفات . و ينفون عنه مشابهة المخلوقات. فيجمعون بين الإثبات ونفى التشبيه، و بين التنزيه وعدم التعطيل. فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدى بين ضلالتين. فصراطهم صراط المنعم عليهم. وصراط غيرهم صراط المغضوب عليهم والضالين. قال الامام احمد رحمه الله «لا نزيل عن الله صفة من صفاته. لأجل شناعة المشنعين» وقال «التشبيه: أن تقول يد كيدى» تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فإن العقل قد ييئس من تعرف كُنه الصفة وكيفيتها. فإنه لا

يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول السلف «بلا كيف» أى بلا كيف يعقله البشر. فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف نعوته وصفاته؟ ولايقدح ذلك في الايمان بها، ومعرفة معانيها. فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معانى ما أخبر الله به من حقائق ما فى اليوم الآخر. ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق. فَعَجْزُنَا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود فى معرفة من له الكمال كله، والجمال كله، والعلم كله، والقدرة كلها، والعظمة كلها، والكبرياء كلها؟ من لو كُشِف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته السموات والأرض وما فيها وما بينهما. وما وراء ذلك؟ الذى يقبض سمواته بيده. فتغيب كما تغيب الخردلة فى كف أحدنا. الذى نسبة علوم الخلائق كلها إلى علمه أقل من نسبة نقْرَة عصفور من بحار العالم الذي لو أن البحر ــ يُمِدُّهُ من بعده سبعة أبحر ــ مداد وأشجار الأرض ــ من حين خلقت إلى قيام الساعة ــ أقلام: لفنى المداد وفنيت الأقلام، ولم تَنفَدْ كلماته.

فقاتل الله الجهمية والمعطلة! أين التشبيه هٰهنا ؟ وأين التمثيل لقد اضمحل هٰهنا كل موجود سواه. فضلا عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال، و يشابهه فيه. فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته، وولَّاها ما تولَّت من وقوفها مع الألفاظ التى لا حرمة لها، والمعانى التى لاحقائق لها.

ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الالهية ما تفهمه من صفات المخلوقين، فَرَّتْ الى انكار حقائقها وابتغاء تحريفها، وسَمَّتْهُ تأويلاً. فشبهت اولا. وعطلت ثانياً. وأساءت الظن بربها وبكتابه وبنبيه وبأتباعه.

أما إساءة الظن بالرب: فإنها عطلت صفات كماله. ونسبته إلى أنه أنزل كتاباً مشتملا على ماظاهره كفر و باطل، وأن ظاهره وحقائقه غير مرادة.

وأما إساءة ظنها بالرسول: فلأنه تكلم بذلك وقرره وأكده. ولم يبين للأمة أن الحق فى خلافه وتأويله.

وأما إساءة ظنها بأتباعه: فبنسبتهم لهم إلى التشبيه والتمثيل، والجهل والحشو.

الرابع: اسقاط التفريق بين الصفات والذات، اذ التفريق بين الصفات والذات فى الوجود مستحيل. وهو ممكن فى الشهود بأن يشهد الصفة وَ يَذْهَلُ عن شهود الموصوف، أو يشهد الموصوف و يذهل عن شهود الصفة. فتجريد الذات أو الصفات: إنما يمكن فى الذهن. فالمعرفة فى هذه الدرجة: تعلقت بالذات والصفات جميعاً. فلم يفرق العلم والشهود بينهما. ولا ريب أن ذلك أكمل من شهود مجرد الصفة، أو مجرد الذات

وليس المراد أنك تسقط التفريق بين الذات والصفات فى الخارج والعلم، بحيث تكون الصفات هى نفس الذات. فهذا لا يقوله موحد، وإن كان كثير من أرباب الكلام يقولون: إنما الصفات هى الذات. فليس مرادهم : ان الذات نفسها صفة. فهذا لا يقوله عاقل . وانما مرادهم : ان صفاتها شيئاً غيرها. فإن أراد هؤلاء أن مفهوم الصفة هو مفهوم الذات: فهذه مكابرة. وإن أرادوا أنه ليس هٰهنا أشياء غير الذات انضمت إليها وقامت بها: فهذا حق.

والتحقيق: أن صفات الرب ــ جل جلاله ــ داخلة فى مسمى اسمه. فليس اسمه «الله، والرب، والإلٰه» أسماء لذات مجردة، لا صفة لها البتة. فإن هذه الذات المجردة وجودها مستحيل. وإنما يفرضها الذهن فرض الممتنعات. ثم يحكم عليها. واسم «الله» سبحانه «والرب، والإله» اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال. كالعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع والبصر، والبقاء، والقدم، وسائر الكمال الذى يستحقه الله لذاته. فصفاته داخلة فى مسمى اسمه. فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات: فرض وخيال ذهنى لا حقيقة له. وهو أمر اعتبارى لا فائدة فيه. ولا يترتب عليه معرفة. ولا إيمان، ولا هو علم فى نفسه. و بهذا أجاب السلف الجهمية لما استدلوا على خلق القرآن. بقوله تعالى (٣٩: ٦٢ الله خالق كل شىء) قالوا: والقرآن شىء.

فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه، وكلامه من صفاته. وصفاته داخلة فى مسمى اسمه، كعلمه وقدرته وحياته، وسمعه و بصره، ووجهه و يديه ــ فليس «الله» اسما لذات لانعت لها، ولا صفة، ولا فعل، ولا وجه، ولا يدين. ذلك إلٰه معدوم مفروض فى الأذهان. لا وجود له فى الأعيان، كإله الجهمية. الذى فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا محايث له ولا مباين. وكإله الفلاسفة الذى فرضوه وجوداً مطلقاً لا يتخصص بصفة ولا نعت، ولا له مشيئة ولا قدرة، ولا إرادة ولا كلام. وكإله الاتحادية الذى فرضوه وجوداً سارياً فى الموجودات ظاهراً فيها. هو عين وجودها. وكإله النصارى الذى فرضوه قد اتخذ صاحبة وولداً. وتدرع بناسوت ولده. واتخذ منه حجاباً. فكل هذه الآلهة مما عملته أيدى أفكارها. وإله العالمين الحق: هو الذى دعت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، موصوف بكل كمال، منزه عن كل نقص. لا مثال له. ولا شريك. ولا ظهير. ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه (٥٧: ٣ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) غنى بذاته عن كل ما سواه. وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

فاذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزل والبقاء والفعل، وعَجْزَ مَنْ سواه عن القدرة على إيجاد ذرة أو جزء من ذرة. وأنه لا وجود له من نفسه. فوجوده ليس له، ولا به ولا منه. وتوالى هذا العلم عن القلب: يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر. كما سقط غناه وربوبيته

وملكه وقدرته. فصار الرب سبحانه وحده: هو المعبود والمشهود والمذكور، كما كان وحده: هو الخالق المالك، الغني الموجود بنفسه أزلا وأبداً. وأما ما سواه: فوجوده ـــ وتوابع وجوده ـــ عارية ليست له. وكلما فني العبد عن ذكر غيره وشهوده: صفت هذه المعرفة في قلبه، وانجذبت روحه إلى الواحد القهار. فهي تجول في ميدان أوسع من السماوات والأرض، بعد أن كانت مسجونة في سجون المخلوقات. فإذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه، ونظر قلبه إليه كأنه يراه، ورؤية تفرده بالخلق والأمر، والنفع والضر. كملت وتمت معرفته، فان الرب سبحانه اذا رقى عبده بالتدريج: نوّر باطنه وعقله بالعلم. فرأى أنه لاخالق سواه، ولارب غيره. ولايملك الضر والنفع والعطاء والمنع غيره. وأنه لايستحق أن يعبد ـــ بنهاية الخضوع والحب ـــ سواه. وكل معبود سوى وجهه الكريم فباطل. فهذا توحيد العلم.

ثم إذا رقاه الحق سبحانه درجة أخرى فوق هذه: أشهده عَوْد المفعولات إلى أفعاله سبحانه. وعود أفعاله إلى أسمائه وصفاته. وقيام صفاته بذاته. فيضمحل شهود غيره من قلبه.

ثم اذا رقّاه درجة اخرى: اشهده قيام العوالم كلها به وحده، اى باقامته لها وامساكه لها، فانه سبحانه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك البحار أن تفيض أو تغيض على العالم. ويمسك السماء أن تقع على الأرض. ويمسك الطير في الهواء صافّات و يقبضن. ويمسك القلوب المؤقتة أن تزيغ عن الإيمان. ويمسك حياة الحيوان أن تفارقه إلى الأجل المحدود. ويمسك على الموجدات وجودها. ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت. والكل قائم بأفعاله وصفاته التى هى من لوازم ذاته. فليس الوجود الحقيقى إلاّ له. أعنى الوجود الذى هو مستغن فيه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بالذات، لا قيام له بنفسه طرفة عين، وكلما اسرع العبد في اقباله على ربه: اسرع ربه بهالارتقاء، لأن العبد اذا أقبل على ربه، وتفقد احواله، وتمكن من شهود قيام ربه عليه. فإنه يكون في أول أمره: مكابداً وصابراً ومرابطا. فإذا صبر وصابر ورابط ـــ صبر في نفسه وصابر عدوه. ورابط على ثغر قلبه أن يدخل فيه خاطر لا يحبه وَلِيُّه الحق ـــ وقطع كلاليب الشهوات والشبهات ، فحينئذ يصفوله اقباله على ربه، فيستولي نور المراقبه على أجزاله باطنه. فيمتلئ قلبه من نور التوجه، بحيث يغمر قلبه، و يستره عما سواه. ثم يسرى ذلك النور من باطنه فيعم أجزاء ظاهره. فيتشابه الظاهر والباطن فيه. فيجد آثار الجلال والجمال المقدس فى قلبه وروحه. ويجد العبودية والمحبة، والدعاء والافتقار، والتوكل والخوف والرجاء، وسائر الأعمال القلبية: قائمة بقلبه. لا تشغله عن مشهد الروح. ولا تستغرق مشهد الروح عنه. ويجد ملاحظته للأوامر والنواهى حاضراً فى جِذرقلبه حيث نزلت الأمانة. فلا يشغله مشهد الروح المستغرق، ولا مشهد القلب عن ملاحظة مراضى الرب تعالى ومحابه، وحقه على عبده. ويجد ترك

التدبير والاختيار وصحة التفويض موجوداً في محل نفسه. فيعامل الله سبحانه بذلك. بحيث لا تشغله مشاهدة الأول عنه. و يقوم بملاحظة عقله لأسرار حكمة الله في خلقه وأمره. ولا يحجبه ذلك كله عن ملاحظة عبوديته. فيبقى معمور الروح بملاحظة الفردانية وجلالها وكمالها وجمالها. قد استغرقته محبته والشوق إليه. معمور القلب بعبادات القلوب معمور القلب بملاحظة الحكمة ومعاني الخطاب. طاهر القلب عن سفساف الأخلاق، مع الله تعالى ومع الخلق. قد صار عبداً محضاً لربه بروحه وقلبه وعقله، ونفسه و بدنه وجوارحه. قد قام كلٌ بما عليه من العبودية. بحيث لا تحجبه عبودية بعضه عن عبودية البعض الآخر.

● نوحده تعالى رباً وإلهاً

فاهل التوحيد والاستقامة يرتقون الى هذه المنازل اذن بأمرين، احدهما ارفع من الآخر.

الأمر الأول: شهود الربوبية والقيومية. فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير، والخلق والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعلة. وماله منها فعل فهو منفعل في فعله، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه. لا يملك شيئاً منها لنفسه ولا لغيره، فلا يملك ضراً ولا نفعاً. فإذا تحقق العبد بهذا المشهد: خدت منه الخواطر والإرادات. نظراً إلى القيوم الذى بيده تدبير الأمور، وشخوصاً منه إلى مشيئته وحكمته فهو ناظر منه به إليه. فانٍ بشهوده عن شهود ما سواه. ومع هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه. قائماً بالواجبات والنوافل.

الأمر الثاني: شهود الالهية، وحقيقته: إرادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجائه، فيغنى بحبه عن حب ما سواه، و بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. فحقيقة هذا الشهود: الاستغناء بالعظمة، والخوف والرجاء، والتعظيم والإجلال. ونحن نشير إلى مبادىء ذلك وتوسطه وغايته. فنقول:

اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة أو صورة. وتعلقَ بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العُدَّة، والتأهب للقدوم على الله عز وجل: فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره. فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه. فيفعله و يتقرب به إليه. وما يسخطه منه، فيجتنبه. وهذا عنوان صدق إرادته. فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين ــ يسأل عنهما الأولون والآخرون ــ ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لابد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه. فإذا تمكن في ذلك: فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التى تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك. فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته. وتسد عليه الأبواب التى تفرق همه وتشتت قلبه. فيأنس بها و يستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها. ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات. بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ودّ أن لا يخرج منها. ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله، فلا يشبع منه. وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطى ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه. ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله. وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يُريه ذلك النور: أنه واقف بين يدى ربه عز وجل. فيستحي منه في خلواته. وجلواته. و يرزق عند ذلك: دوام المراقبة للرقيب. ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه و يشاهده فوق سمواته، مستويا على عرشه، ناظراً إلى خلقه، سامعاً لأصواتهم، مشاهداً لبواطنهم. فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيراً من الهموم بالدنيا وما فيها. فهو في وجود والناس في وجود آخر. هو في وجود بين يدى ربه ووليه، ناظراً إليه بقلبه والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا. فهو يراهم وهم لا يرونه. ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية. فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده. فيشهده مالكَ الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة. فيتخذه وحده وكيلا. ويرضى به رباً ومدبراً وكافيا. وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه و بارئه، وصفات كماله ونعوت جلاله. فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه. بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه. فأنا صنع الله الذى أتقن كل شيء.

فإذا استمر له ذلك: يُطوى الكون عن قلبه بحيث لا يبقى فيه إلا الله الواحد القهار. وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه، كما يفيض نور الشمس عن جرمها. فيغرق حينئذ في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر. وذلك إنما يكون في الرياضة والمجاهدة، وزوال أحكام الطبيعة، وطول الوقوف في الباب.

فإن استمر على حاله وقفاً بباب مولاه. لا يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً. ولا يجيب غير من يدعوه إليه. و يعلم أن الأمر وراء ذلك، وأنه لم يصل بعد. ومتى توهم أنه قد وصل: انقطع عنه المزيد ــ رجى أن يفتح له فتح آخر. هو فوق ما كان فيه. مستغرقا قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق، فيبقى قلبه سابحاً في بحر من انوار آثار الجلال، ويجد قلبه عالياً

على ذلك كله، صاعداً إلى من ليس فوقه شيء. ثم يرقيه الله سبحانه. فيشهد، أنوار الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال. فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجمال. وفي هذا المشهد يذوق المحبة الخاصة الملهبة للأرواح والقلوب. فيبقى القلب مأسوراً في يد حبيبه ووليه، ممتحناً بحبه.

فياله من قلب ممتحن مغمور مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأحدى. والناس مفتونون ممتحنون بما يفنى من المال والصور والرياسة. معذبون بذلك قبل حصوله، وحال حصوله، وبعد حصوله. وأعلاهم مرتبة: من يكون مفتونا بالحور العين، أو عاملا على تمتعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح. وهذا المحب قد ترقى في درجات المحبة على أهل المقامات، ينظرون إليه في الجنة كما ينظرون إلى الكوكب الدرى الغابر في الأفق لعلو درجته وقرب منزله من حبيبه، فإن المرء مع من أحب. ولكل عمل جزاء. وجزاء المحبة : المحبة والاصطناع والقرب. فهذا هو الذي يصلح. وكفى بذلك شرفاً وفخراً في عاجل الدنيا. فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مليك مقتدر؟ فكيف إذا رأيتهم في موقف القيامة، وقد أسمعهم المنادى «لينطلق كل قوم مع ما كانوا يعبدون» فيبقون في مكانهم ينتظرون معبودهم وحبيبهم الذي هو أحب شيء إليهم. حتى يأتيهم، فينظرون إليه و يتجلى لهم ضاحكا.

والمقصود: أن هذا العبد لايزال الله يرقيه طبقاً بعد طبق، ومنزلاً بعد منزل، إلى أن يوصله إليه. ويمكن له بين يديه، أو يموت في الطريق. فيقع أجره على الله. فالسعيد كل السعيد، والموفق كل الموفق: من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يميناً ولا شمالاً. ولا اتخذ سواه رباً ولا وكيلاً. ولا حبيباً ولا مدبراً. ولا حاكماً ولا ناصراً ولا رازقا.

وجميع ما تقدم من مراتب الوصول: إنما هي شواهد وأمثلة إذا تجلت له الحقائق في الغيب — بحسب استعداده ولطفه ورقته من حيث لا يراها — ظهر من تجليها شاهد في قلبه. وذلك الشاهد دال عليها ليس هو عينها. فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذى الجلال في الخارج. فإن ذلك لا تقوم له السماوات والأرض. ولو ظهر للوجود لتدكدك. لكنه شاهد دال على ذلك، كما أن المثل الأعلى شاهد على الذات. والحق وراء ذلك كله، منزه عن حلول واتحاد، وممازجة لخلقه. وإنما تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف. تدل على قرب الالطاف منه في عالم الغيب حيث يراها.

فالوصول حق. يجد الواصل آثار تجلى الصفات في قلبه. وآثار تجلى الحق في قلبه. و يوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدى الرب تعالى. وهو على عرشه. ومن هناك يكاشف بآثار الجلال والاكرام. فيجد العرش والكرسى تحت مشهد قلبه حكما. وليس الذى يجده تحت قلبه حقيقة: العرش والكرسى. بل شاهد ومثال علمى، يدل على قرب قلبه من ربه، وقرب ربه من قلبه. وبين الذوقين تفاوت. فإذا قرب الرب تعالى من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت

مشهد قلبه. وحينئذ يطلع في أفقه شمس التوحيد، وينال التحقيق، بتخليص مصحوبه من الحق، بالحق في الحق، كما قال الهروي، واستشهد بقوله تعالى (٢: ٢٦٠ أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي).

ووجه إشارة الآية: أن إبراهيم — صلى الله عليه وسلم — طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية تحقيقه عيانا. فطلب — بعد حصول العلم الذهني — تحقيق الوجود الخارجي. فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب. ولما كان بين «العلم» و «العيان» منزلة أخرى. قال النبي صلى الله عليه وسلم «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال (رب أرني كيف تحيي الموتى) وإبراهيم لم يشك صلى الله عليه. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشك. ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني — قبل مشاهدة معلومه — ظنا. قال تعالى (٢: ٤٦ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، وأنهم إليه راجعون) وقال تعالى (٢: ٢٤٩ الذين يظنون أنهم ملاقو الله) وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى (٢: ٢٢٣ واعلموا أنكم ملاقوه) لكن بين الخبر والعيان فرق. وفي المسند مرفوعا «ليس الخبر كالعيان» ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم: لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك.

• التحقيق ميزان الموحد

اذا عرفنا هذا: كان سهلاً ان شاء الله ان تعرف هذا التعريف للتحقيق.

فلفظ «التحقيق» هو تفعيل. من حقق الشيء تحقيقاً، فهو مصدر، فعله: حقق الشيء، اي اثبته وخلصه من غيره.

أما «المصحوب» فهو ما يصحب الانسان في قصده ومعرفته من معلوم ومراد.

و «الحق» هو الله سبحانه، وما كان موصلاً اليه، مُدنياً للعبد من رضاه.

إذا عرف هذا، فمصحوب العبد من الحق: هو معرفته ومحبته، وإرادة وجهه الكريم، وما يستعين به على الوصول إليه، وما هو محتاج إليه في سلوكه فـ «التحقيق» هو تخليصه من المفسدات القاطعة عنه، الحائلة بين القلب وبين الوصل إليه. وتصفيته من المخالطات. وتخليصه من المشوشات. فإن تلك قواطع له عن مصحوبه الحق.

فصاحب مقام التحقيق: لا يقف مع العوارض، فإنها قواطع، ويتغافل عنها ما أمكنه، فانها تمر — بالتغافل — مراً سريعاً، لا يوسع دوائرها، فانه كلما وسعها اتسعت، ووجدت مجالا

فسيحا. فصالت فيه وجالت. ولو ضيقها -بالإعراض عنها والتغافل- لاضمحلت وتلاشت فصاحب مقام التحقيق ينساها و يطمس آثارها. و يعلم أنها جاءت بحكم المقادير في دا المحن والآفات.

قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمة الله — مرة: العوارض والمحن هي كالحر والبرد. فإذا علم العبد أنه لا بد منهما لم يغضب لورودهما. ولم يغتم لذلك ولم يحزن.

فإذا صبر العبد على هذه العوارض ولم ينقطع بها: رجي له أن يصل إلى مقام التحقيق. فيبقى مع مصحوبه الحق وحده. فتهذب نفسه. وتطمئن مع الله وتنفطم عن عوائد السوء، حتى تغمر محبة الله قلبه وروحه. وتعود جوارحه متابعة للأوامر. فيحس قلبه حينئذ بأن معية الله معه وتوليه له. فيبقى في حركاته وسكناته بالله لا بنفسه. وترد على قلبه التعريفات الإلهية، و يشهد الإلهية والقيومية والفردانية. فإن على هذه المشاهد الثلاثة مدار المعرفة والوصول.

والمقصود: أن صاحب مقام «التحقيق» يعرف الحق، ويميز بينه و بين الباطل. فيمسك بالحق. و يلغى الباطل. فهذه مرتبة. ثم يتبين له: أن ذلك ليس به، بل بالله وحده. فيبرأ حينئذ من حوله وقوته. و يعلم أن ذلك بالحق، ثم يتمكن في ذلك المقام. و يرسخ فيه قلبه. فيصير تحقيقه بالله وفي الله.

ففي الأول: يخلص له مطلوبه من غيره، و يتجرد له من سواه.

وفي الثاني: يخلص له إضافته إلى غيره، وأن يكون سواه سبحانه.

وفي الثالث: تجرد له شهوده وقصوره، بحيث صارت في مطلوبه.

فالأول: سفر إلى الله. والثاني،: سفر بالله. والثالث: سفر في الله.

وإن أشكل عليك معنى «السفر فيه» والفرق بينه و بين «السفر إليه» ففرق بين حال العارف الزاهد السائر إلى الله -الذي لم يفتح له في الأسماء والصفات والمعرفة الخاصة، و بين حال العارف الذي قد كشف له في معرفة الأسماء والصفات والفقه فيها ما حجب عن غيره.

وانك إن كنت تنسب العلم إلى نفسك قبل وصولك إلى مقام «التحقيق» ففي حالة «التحقيق» تعود نسبته إلى معلمه ومعطيه الحق. ولعل هذا معنى قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. إذ جمعهم الرب تبارك وتعالى وقال (٥: ١٠٩ ماذا أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا) قيل: قالوه تأدباً معه سبحانه. إذ ردوا العلم إليه. وقيل: معناه لا علم لنا بحقيقة الباطن. وإنما أجابنا من أجابنا ظاهراً والباطن غيب. وأنت علام الغيوب.

والتحقيق — إن شاء الله — أن علومهم تلاشت في علمه سبحانه واضمحلت. فصارت بالنسبة إليه كلا علم. فردوا العلم كله إلى وليه وأهله، ومن هو أولى به. فعلومهم وعلوم الخلائق جميعهم في جنب علمه تعالى كنقرة عصفور في بحر من بحار العالم.

(٦٣) منزلة رعاية الأسباب

ومن منازل إياك نعبد: منزلة رعاية الاسباب.

ذلك ان التوحيد يقتضي القيام بالاسباب الظاهرة، كالحركات والاعمال، واعتبارها، وعدم اهمالها وتعطيلها، ولكن يقوم بها وقد عزلها عن ولاية النجاح والنجاة، كما قال صلى الله عليه وسلم «اعملوا، واعلموا ان احداً منكم لن ينجيه عمله».

وكذلك يقتضي القيام بالاسباب الباطنة، كالايمان والتصديق، ومحبة الله ورسوله، فان النجاة معلقة بها، بل التوحيد نفسه من الاسباب، بل هو اعظم الاسباب الباطنة.

فالقيام بالاسباب واعتبارها وانزالها منازلها التي انزلها الله فيها: هو محض التوحيد والعبودية، بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي. كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار. قالوا: يارسول الله، أفلا ندع العمل ونَتَّكلُ على الكتاب؟ فقال: لا. اعملوا. فكُلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له» وفي الصحيح عنه أيضاً أنه قيل له «يارسول الله، أرأيت ما يَكْدَحُ الناسُ فيه اليوم ويعملون: أمرٌ قُضي عليهم ومَضَى، أم فيما يستقبلون مما آتاهم فيه الحجة؟ فقال: بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم. قالوا: يارسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا؟ قال: لا. اعملوا. فكل ميسر لما خلق له» وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قيل له «أرأيت أدويةً نتداوى بها، ورُقىً نَسْتَرقي بها، وتُقاةً نتقي بها، هل ترد من قَدَر الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله» وكذلك قول عمر لأبي عبيدة رضي الله عنهما، وقد قال أبو عبيدة لعمر «أتفِرُّ من قدر الله؟ — يعني من الطاعون — قال —: أفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

وذلك في سفرة عمر إلى الشام. فكان طاعون عمواس. فرجع عمر. فقال له أبو عبيدة «أتفر من قدر الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ أفر من قدر الله إلى قدر الله. ثم نادى في الجيش: هل فيهم من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعون شيئاً؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف من أخريات الجيش. فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن كان في بلد وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإن سمعتم به في بلد وأنتم خارجون عنها فلا تدخلوها» ومعنى قوله تعالى (١٥: ٢١ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه. وما ننزله

إلا بقدر معلوم) مثل قوله فى الآية قبلها (١٥: ١٩ وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) ومثل قوله (٥٤: ٤٩ إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقوله (٣٦: ٣٩ والقمر قدرناه منازل) وقوله (٧٣: ٢٠ والله يقدر الليل والنهار) وقوله (٦٥: ٣ قد جعل الله لكل شىء قدرا) وقوله (٢٥: ٢ وخلق كل شىء فقدره تقديرا) وقوله (٨٠: ١٨، ١٩ من أى شىء خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره) وقوله (٢٣: ١٨ وأنزلنا من السماء ماء بقدر) وقوله (٤٢: ٧ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض. ولكن ينزل بقدر ما يشاء) والمعنى فى كل ذلك واضح: أنه خلقه بنظام وترتيب جعلت فيه المسببات بقدر الأسباب. ولم يخلق شيئاً أنفاً بالمصادفة التى تشبه العبث سبحانه، و بغير تقدير سابق فى العلم والحكمة. فالمرض بقدر أسبابه والشفاء بقدر أسبابه. ومنها الدواء وقوة المزاج، ولا شىء بالمصادفة ولا بالخلق الأنف، كما يزعم الجاهليون الذين لا يعرفون الله بأسمائه وصفاته و بآثار علمه وحكمته ورحمته.

وقد قال الله تعالى فى السحاب (٧: ٥٧ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من الثمرات) وقال تعالى (٤٥: ٥ فأحيا به الأرض بعد موتها) وقال تعالى (٥: ١٦ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقال تعالى (بما كنتم تعملون) (وبما كنتم تكسبون) (٨: ٥١ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) والقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة. فيأتي بباء السببية تارة، و باللام تارة، و بأنْ تارة، و بكى تارة، و يذكر الوصف المقتضى تارة، و يذكر صريح التعليل تارة، كقوله: ذلك بأنهم قالوا كذا، وقالوا كذا. و يذكر الجزاء تارة. كقوله (٥: ٣٢ و ٥٩: ١٧ وذلك جزاء الظالمين) وقوله (٥: ٨٨ و ٣٩: ٣٤ وذلك جزاء المحسنين) وقوله (٣٤: ١٧ وهل نجازى إلا الكفور؟) و يذكر المقتضى للحكم والمانع منه، كقوله (١٧: ٥٩ وما منعنا أن نرسل بالآيات، إلا أن كذب بها الأولون) وعند منكرى الأسباب والحِكَم: لم يمنعه إلا محض مشيئته ليس إلا، وقال (١٠: ٥ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) وقال (١٤: ١٥ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) وقال (٦٩: ٢٤ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) وقال (٦٥: ٢، ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب) وقال (٦٥: ٥ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجرا) وقال (٨: ٢٩ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وقال (٢: ١٢٠ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وقال تعالى (٤: ١٦٠ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحِلَّت لهم، وبصدِّهم عن سبيل الله كثيراً، وأَخْذِهم الربا وقد نُهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل).

• نلتفت الى الاسباب دون الركون إليها

والموحد المتوكل لا يطمئن الى الاسباب، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن اليها، ولكن يكون قائماً بها، ملتفتاً اليها، ناظراً الى مسببها سبحانه ومجريها. فلا يصح التوكل ـ شرعا وعقلا ـ إلا عليه سبحانه وحده. فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده. فهو الذى سبب الأسباب. وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سبباً يقتضى وحده أثره: بل لابد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسبابا تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه. فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر. ولا فى الأسباب الحادثة ما يبطلها و يضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته. فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله. والجميع بمشيئته واختياره. فلا يصح التوكل إلا عليه، والالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا فى رحمته، كما قال أعرف الخلق به صلى الله عليه وسلم **«أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»** وقال **«لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك»**.

فإذا جمعت بين التوحيد وبين إثبات الأسباب: استقام قلبك على السير إلى الله. ووضح لك الطريق الأعظم الذى مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم. وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق.

وما سبق به علم الله وحكمه حق. وهو لا ينافى إثبات الأسباب. ولا يقتضى إسقاطها. فإنه سبحانه قد علم وحكم: أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه. فإسقاط الاسباب خلاف موجب علمه وحكمه. فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب: لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق، بل كان شهوده غَيبةً، ونظره عمى. فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها. فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هى عليه فى علمه وحكمه وخلقه وأمره؟

والعلل التى تتقى فى الأسباب نوعان. أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق و يغلظ. وبين ذلك.

الثانى: ترك ما أمر الله به من الأسباب. وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً. وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، و يتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله. سبق به علمه وحكمه. وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطى ولا يمنع، ولا يقضى ولا يحكم. ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية. ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم. فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. و يتوكل على الله

توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحَصِّلُ له فلاحاً، ولا توصله إلى المقصود. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، وَيُفَرِّغُ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، تجريداً للتوكل، واعتماداً على الله وحده. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح. حيث يقول «احرِصْ على ماينفعك، واستعن بالله. ولا تَعْجِزْ» فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها. فالدين كله ــ ظاهره و باطنه، شرائعه وحقائقه ــ تحت هذه الكلمات النبوية.

فالأسباب والوسائط والعلل محل اعتبار الناظرين، ومعارف المستدلين (١٥: ٧٥ إن في ذلك لآيات للمتوسمين) وكم في القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها، والتفكر فيها: وذم من أعرض عنها. والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال: يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله؟ فهو آيات كونية مشاهدة تصدق الآيات القرآنية؟!!.

فما علق بها آثارها سُدًى. ولا رتب عليها مقتضياتها وأحكامها باطلا، بل ذلك موجب كماله وكمال نعوته وصفاته. و بها عرفت ربوبيته وإلهيته، وملكه وصفاته وأسماؤه.

هذا ولم يخلقها سبحانه عن حاجة منه إليها، ولا توقفاً لكماله المقدس عليها. فلم يتكثر بها من قلة. ولم يتعزز بها من ذلة. بل اقتضى كماله: أن يفعل ما يشاء، و يأمر و يتصرف و يدبر كما يشاء، وأن يحمد و يعرف، و يذكر و يعبد. و يعرِّف الخلق صفات كماله ونعوت جلاله. ولذلك خلق خلقاً يعصونه ويخالفون أمره، لتعرف ملائكته وأنبياؤه ورسله، وأولياؤه: كمال مغفرته، وعفوه، وحلمه وإمهاله. ثم أقبل بقلوب من شاء منهم إليه، فظهر كرمه في قبول تو بته، و بره ولطفه في العود عليه بعد الإعراض عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم» فلمن كانت تكون مغفرته لو لم يخلق الأسباب التي يعفو عنها و يغفرها؟ والعبد الذي له يغفر؟ فخلق العبد المغفور له، وتقدير الذنب الذي يغفر. والتوبة التي يغفر بها: هو نفس مقتضى العزة والحكمة. وموجب الأسماء الحسنى، والصفات العلا.

فتعليق الكوائن بالأسباب كتعليق الثواب والعقاب بالأسباب، وهو محض الحكمة وموجب الكمال الإلهي. ومقتضى الحمد التام، ومظهر صفة العزة، والقدرة والملك، والشرائع كلها ــ من أولها إلى آخرها ــ مبنية على تعليق الأحكام بالعلل، والقضايا بالحجج، والثواب بالطاعة، والعقوبات بالجرائم.

(٦٤) منزلة استئناف التوبة

ومن منازل إياك نعبد: منزلة استئناف التوبة

وهو تمكن يؤدي الى استئناف التوبة من التقصير الذي رافق نزوله المنازل السابقة، وجمع القلب على المعبود وحده، وتمحيض الهمة على تنفيذ اوامر الله في الخلق دعوة وجهاداً، فإنه ان كان في باطنه مقبوضاً، لما هو فيه من جمعيته على الله، فانه في ظاهره مبسوط مع الخلق، مظهراً لقوته، قصداً لهدايتهم الى الحق سبحانه ودعوتهم اليه، فهو كائن بائن، داخل خارج، متصل منفصل.

وكما ان التوبة بداية منازل السائرين، وأول مدرج من مدارج السالكين، فانها نهاية ايضا.

ولعل سمعك ينفر من هذا غاية النفور، وتقول: هذا كلام من لم يعرف شيئاً من طريق القوم. ولا نزل في منازل الطريق. ولعمر الله إن كثيراً من الناس ليوافقك على هذا، ويقول: أين كنا؟ وأين صرنا؟ نحن قد قطعنا منزلة «التوبة» و بيننا و بينها مائة مقام. فنرجع من مائة مقام إليها. ونجعلها غاية مقام السالكين؟.

فاسمع الآن وعهْ، ولا تعجل بالإنكار. ولا تبادر بالرد. وافتح ذهنك لمعرفة نفسك، وحقوق ربك، وما ينبغي له منك، وماله من الحق عليك. ثم أنسب أعمالك وأحوالك وتلك المنازل التى نزلتها والمقامات التى قمت فيها ــ لله و بالله ــ إلى عظيم جلاله، وما يستحقه وما هو له أهل. فإن رأيتها وافية بذلك مكافئة له فلا حاجة حينئذ إلى التوبة. والرجوع إليها رجوع عن المقامات العلية، وانحطاط من علو إلى سفل، ورجوع من غاية إلى بداية. وما ذلك ببعيد من كثير من المنتسبين إلى هذا الشأن، المغرورين بأحوالهم ومعارفهم وإشاراتهم. وإن رأيت أن أضعاف أضعاف ما قمت به ــ من صدق وإخلاص، وإنابة وتوكل، وزهد وعبادة ــ لايفي بأيسر حق له عليك، ولا يكافىء نعمة من نعمه عندك. وأن ما يستحقه ــ لجلاله وعظمته ــ أعظم وأجل وأكبر مما يقوم به الخلق، رأيت ضرورة التوبة في النهاية.

فاعلم الآن: أن التوبة نهاية كل عارف. وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهى نهاية. والحاجة إليها فى النهاية أشد من الحاجة إليها فى البداية. بل هى فى النهاية فى محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله فى آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر حياته أشد ما كان استغفاراً وأكثره، قال الله تعالى (٩: ١١٧ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. ثم تاب الله عليهم. إنه بهم رؤوف رحيم) وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك. وهى آخر الغزوات التى غزاها صلى الله عليه وسلم بنفسه. فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكراناً لما تقدم من تلك الأعمال. وذلك الجهاد. وقال تعالى فى آخر ما أنزل على رسوله (إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وفى الصحيح «أنه صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة ــ بعد ما نزلت عليه هذه السورة ــ إلا قال فيها: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لى» وذلك فى نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا فهم منها علماء الصحابة ــ كعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، رضى الله عنهم ــ: أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه الله إياه. فأمره سبحانه بالاستغفار فى نهاية أحواله، وآخر ما سُمع من كلامه عند قدومه على ربه «اللهم اغفر لى. وألحقنى بالرفيق الأعلى» وكان صلى الله عليه وسلم يختم كل عمل صالح بالاستغفار. كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد. فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال «آيبون، تائبون، لربنا حامدون» وشرع أن يُختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة، وشرع أن يختم العبد عمل يومه بالاستغفار. فيقول عند النوم «أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه» وأن ينام على سيد الاستغفار.

والعارف بالله وأسمائه وصفاته وحقوقه يعلم أن العبد أحوج ما يكون إلى التوبة فى نهايته.

فبهذا الاستئناف يكون تحقيق العبودية، والقيام باعبائها، واحتمال فرائضها وسننها واداتها، والجهاد لاعداء الله، والدعوة الى الله، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحمل الاذى في الله، ومعرفة الاسماء والصفات، ومعرفة ما يحبه الله تعالى و يكرهه، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين، والعلم بمراتب العبودية ومنازلها.

فالحق أن نهاية السالكين: تكميل مرتبة العبودية صرفاً. وهذا مما لاسبيل إليه لبنى الطبيعة. وإنما خص بذلك الخليلان ــ عليهما الصلاة والسلام ــ من بين سائر الخلق. أما إبراهيم الخليل ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فإن الله عز وجل شهد له بأنه وَفّى. وأما سيد ولد آدم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فإنه كمل مرتبة العبودية. فاستحق التقديم على سائر الخلائق. فكان صاحب الوسيلة والشفاعة التى يتأخر عنها جميع الرسل، و يقول هو «أنا لها» ولهذا ذكره الله سبحانه وتعالى بالعبودية فى أعلى مقاماته، وأشرف أحواله. كقوله تعالى (١٧: ١ سبحان الذى اسرى بعبده ليلا) وقوله (٧٢: ١٩ وأنه لما قام عبد الله يدعوه) وقوله (٢: ٢٣ وإن كنتم

فى ريب مما نزّلنا على عبدنا) وقوله (٢٥: ١ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) ولهذا يقول المسيح، حين يُرغّب إليه فى الشفاعة «اذهبوا إلى محمد، عبدٍ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» فاستحق تلك الرتبة العليا بتكميل عبوديته لله، و بكمال مغفرة الله له. اما اتباع الرسل فالأمثل ثم الامثل.

والحال الذى يحصل لمن قام بذلك: هو حال الرسل وخلفائهم. وهو جمع الهمة على الله سبحانه: محبة وإنابة وتوكلا، وخوفاً ورجاء ومراقبة. وجمع الهمة على تنفيذ أوامر الله فى الخلق دعوة وجهاداً. فهما حالان: جمع القلب على المعبود وحده. وجمع الهمّ له على محض عبوديته.

فإن قلت: فأين شاهد هذين الجمعين؟ قلت: فى القرآن كله، فخذه من فاتحة الكتاب فى قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وتأمل فى قوله «إياك» التخصص لذاته المقدسة بالعبادة والاستعانة، وما فى قوله «نعبد» الذى هو للحال والاستقبال، وللعبادة الظاهرة والباطنة: من استيفاء أنواع العبادة، حالا واستقبالا قولا وعملا، ظاهراً و باطنا. والاستعانة على ذلك به لابغيره. ولهذا كانت الطريق كلها فى هاتين الكلمتين. وهى معنى قولهم «الطريق فى: إياك أريد بما تريد» فجمع المراد فى واحد، والإرادة فى مراده الذى يحبه و يرضاه. فالى هذا دعت الرسل من أولهم إلى آخرهم. وإليه شَخَص العاملون والمتوجهون. وكل الأحوال والمقامات ــ من أولها إلى آخرها ــ مندرجة فى ضمن ذلك، ومن ثمراته وموجباته.

فالعبودية تجمع كمال الحب فى كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضى المحبوب وأوامره. فهى الغاية التى ليس فوقها غاية. وإذا لم يكن إلى القيام بحقيقتها ــ كما يجب ــ سبيل، فعلى التوبة المعوّل، وقد عرفت ــ بهذا وبغيره ــ أن الحاجة إليها فى النهاية أشد من الحاجة إليها فى البداية. ولولا تنسم روحها لحال اليأس بين ابن الماء والطين و بين الوصول إلى رب العالمين، هذا لو قام بما ينبغى عليه أن يقوم به لسيده من حقوقه. فكيف والغفلة والتقصير والتفريط والتهاون، وإيثار حظوظه فى كثير من الأوقات على حقوق ربه لا يكاد يتخلص منها ؟

٦٥) منزل استئناف التوحيد

ومن المنازل: منزلة استئناف التوحيد

وهو ظفر السالك في النهاية بحقيقة التوحيد المحض، كما ظفر به في البداية.

ان «التوحيد» أول دعوة الرسل. وأول منازل الطريق. وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى. قال تعالى (٧: ٥٥ **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه. فقال: ياقوم اعبدوا الله. مالكم من إله غيره**) وقال هود لقومه (٧: ٦٥ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره**) وقال صالح لقومه (٧:٥٣ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره**) وقال شعيب لقومه (٧:٥٨ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره**) وقال تعالى (١٦:٢٦ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً: أن اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت**).

فالتوحيد: مفتاح دعوة الرسل. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لرسوله معاذ بن جبل رضي الله عنه ـــ وقد بعثه إلى اليمن ـــ «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب. فليكن أولَ ما تدعوهُمْ إليه: عبادةُ الله وحده. فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله. وأن محمداً رسول الله. فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ـــ وذكر الحديث**» وقال صلى الله عليه وسلم «أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة ان لا إله الا الله.

ولكن كما أن التوحيد: أول مايدخل به في الإسلام فإنه آخر ما يخرج به من الدنيا. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: دخل الجنة**» فهو أول واجب، وآخر واجب. فالتوحيد: أول الأمر وآخره.

ومجرد تنزيه الله عن الحدث لا يدل على التوحيد الذى بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه. و ينجو به العبد من النار. و يدخل به الجنة. ويخرج من الشرك، فإنه مشترك بين جميع الفرق. وكل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقر به. فعباد الأصنام والمجوس، والنصارى، واليهود، والمشركون ـــ على اختلاف نحلهم ـــ كلهم ينزهون الله عن الحدث، و يثبتون قدمه. حتى أعظم الطوائف على الإطلاق شركا، وكفراً، وإلحاداً. وهم طائفة الاتحادية. فإنهم يقولون: هو

الوجود المطلق. وهو قديم لم يزل. وهو منزه عن الحدث. ولم تزل المحدثات تكتسى وجوده. تلبسه وتخلعه.

والفلاسفة ــ الذين هم أبعد الخلق عن الشرائع وما جاءت به الأنبياء ــ يثبتون واجب الوجود قديماً منزهاً عن الحدث.

والمشركون ــ عباد الأصنام الذين يعبدون معه آلهة أخرى ــ يثبتون قديما منزهاً عن الحدث.

فالتنزيه عن الحدث حق. لكن لا يعطى إسلاماً ولا إيمانا. ولا يُدخل فى شرائع الأنبياء. ولا يُخرج من نحل أهل الكفر ومللهم ألبتة.

ومع هذا فقد سُئل سيد الطائفة الجنيد عن التوحيد؟ فقال: هو إفراد القديم عن المحدث. والجنيد: أشار إلى أنه لا تصح دعوى التوحيد. ولا مقامه ولا حاله، ولا يكون العبد موحداً إلا إذا أفرد القديم عن المحدث. فإن كثيراً ممن ادعى التوحيد لم يفرده سبحانه من المحدثات. فإن من نفى مباينته لخلقه فوق سمواته على عرشه، وجعله فى كل مكان بذاته.: لم يفرده عن المحدث. بل جعله حالاً فى المحدثات مخالفاً لها. موجوداً فيها بذاته.

قال الأشعرى فى كتاب المقالات: هذه حكاية قول قوم من النساك. وفى الأمة قوم ينتحلون النسك، يزعمون أنه جائز على الله تعالى الحلول فى الأجسام. وإذا رأوا شيئاً يستحسنونه قالوا: لا ندرى! لعله ربنا.

قلت: وهذه الفرقه طائفتان. إحداهما: تزعم أنه سبحانه يحل فى الصورة الجميلة المستحسنة. والثانية: تزعم أنه سبحانه يحل فى الكُمَّل من الناس. وهم الذين تجردت نفوسهم عن الشهوات. واتصفوا بالفضائل، وتنزهوا عن الرذائل. والنصارى تزعم أنه حل فى بدن المسيح وتدرع به. والاتحادية تزعم أنه وجود مطلق اكتسته الماهيات. فهو عين وجودها.

فكل هؤلاء لم يفردوا القديم عن المحدث.

● هو الله الخالق ... له الاسماء الحسنى

وهذا الإفراد ــ الذى أشار إليه الجنيد ــ نوعان. أحدهما: إفراد فى الاعتقاد والخبر. وذلك نوعان أيضاً. أحدهما: إثبات مباينة الرب تعالى للمخلوقات، وعلوه فوق سبع سماوات . كما نطقت به الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها. وأخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم. والثانى: إفراده سبحانه بصفات كماله، وإثباتها له على وجه التفصيل، كما أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسله، منزهة عن التعطيل والتحريف والتمثيل، والتكييف والتشبيه. بل تثبت له سبحانه حقائق الأسماء والصفات. وتنفى عنه فيها مماثلة المخلوقات، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تحريف ولا تعطيل (٤٢: ١١ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير).

وفى هذا النوع يكون إفراده سبحانه بعموم قضائه وقدره لجميع المخلوقات ــ أعيانها وصفاتها وأفعالها ــ وأنها كلها واقعة بمشيئته وقدرته، وعلمه وحكمته. فيباين صاحب هذا الإفراد سائر فرق أهل الباطل: من الاتحادية، والحلولية، والجهمية الفرعونية ــ الذين يقولون: ليس فوق السماوات رب يعبد. ولا على العرش إله يصلى له و يسجد ــ والقدرية ــ الذين يقولون: إن الله لا يقدر على أفعال العباد، من الملائكة والإنس والجن، ولا على أفعال سائر الحيوانات ــ بل يقع فى ملكه مالا يريد. و يريد ما لا يكون. فيريد شيئاً لا يكون. و يكون شيء بغير إرادته ومشيئته. والله سبحانه أعلم.

● وهو الله المعبود ... سبحانه

والنوع الثانى من الافراد: إفراد القديم عن المحدث بالعبادة ــ من التأله، والحب، والخوف، والرجاء والتعظيم، والإنابة والتوكل، والاستعانة وابتغاء الوسيلة إليه ــ فهذا الإفراد، وذلك الإفراد: لهما بعثت الرسل، وأنزلت الكتب. وشرعت الشرائع. ولأجل ذلك خلقت السماوات والأرض. والجنة والنار. وقام سوق الثواب والعقاب. فتفريد القديم سبحانه عن المحدث: فى ذاته وصفاته وأفعاله. وفى إرادته وحده ومحبته وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والاستعانة والحلف به، والنذر له، والتوبة إليه، والسجود له، والتعظيم والإجلال، وتوابع ذلك. ولذلك كانت عبارة الجنيد عن التوحيد عبارة سادة مسددة.

و «التوحيد» هو الغاية المطلوبة من جميع المقامات والأعمال والأحوال. فغايتها كلها التوحيد. وإنما كلام العلماء والمحققين من أهل السلوك كله لقصد تصحيحه. وهذا بين من أول المقامات إلى آخرها. فإنها تشير إلى تصحيحه وتجريده.

فالتوكل مثلاً هو حقيقة التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به. وفي «باب التوكل» بيان ذلك، وانه من مقامات الرسل.

● مَن ظنّ نفسه متوكلاً وهو واهم

للتوكل ثلاث علل تؤثر في كمال التوحيد، وتنشأ عن أوهام تجعل العبادة ناقصة:

إحداها: أن يترك ما أمر به من الأسباب، استغناء بالتوكل عنها. فهذا توكل عجز وتفريط وإضاعة. لا توكل عبودية وتوحيد. كمن يترك الأعمال التى هى سبب النجاة، و يتوكل فى حصولها. و يترك القيام بأسباب الرزق ــ من العمل والحراثة والتجارة ونحوها ــ و يتوكل فى

حصوله. ويترك طلب العلم، ويتوكل في حصوله. فهذا توكله عجز وتفريط. كما قال بعض السلف: لا تكن ممن يجعل توكله عجزاً. وعجزه توكلا.

العلة الثانية: أن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه. كمن يتوكل في حصول مال أو زوجة أو رياسة. وأما التوكل في نصرة دين الله، وإعلاء كلمته وإظهار سنة رسوله، وجهاد أعدائه: فليس فيه علة. بل هو مزيل للعلل.

العلة الثالثة: أن يرى توكله منه. و يغيب بذلك عن مطالعة المنة وشهود الفضل، وإقامة الله له في مقام التوكل. وليس مجرد رؤية التوكل علة، كما يظنه، بل عليه ان يرى ان توكله من عين الجود، ومحض المنة، وانه توفيق الله تعالى.

فهذه العلل الثلاث هي التي تعرض في مقام التوكل وغيره من المقامات. وهي التي يعمل العارفون بالله وأمره على قطعها. وهكذا الكلام في سائر علل المقامات. وإنما ذكرنا هذا مثالا لما يذكر من عللها. فعلل كل مقام هي هذه الثلاثة المذكورة: ان يترك بها ما هو أعلى منها، وان يعلقها بحظه، والانقطاع بها عن المقصود، وان لايراها توفيقاً ربانياً وجوداً وكرما.

• كمال التوحيد شرط الامامة

لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم ــ علماً ومعرفة وحالا ــ تفاوتاً لا يحصيه إلا الله. فأكمل الناس توحيداً: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. والمرسلون منهم أكمل في ذلك. وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً. وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، ومحمد. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأكملهم توحيداً: الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما. فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما ــ علماً ومعرفة وحالا، ودعوة للخلق وجهاداً ــ فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم فيه. كما قال سبحانه ــ بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته ــ ثم قال (٦: ٨٩، ٩٠ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة. فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله. فبهداهم اقتده) فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم.

ولما قاموا بحقيقته ــ علما وعملا ودعوة وجهاداً ــ جعلهم الله أئمة للخلائق. يهدون بأمره. و يدعون إليه. وجعل الخلائق تبعاً لهم. يأتمون بأمرهم. و ينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده. وخص

بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم. وبالشقاء والضلال مخالفيهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله (٢: ١٢٤ **إنى جاعلك للناس إماما، قال: ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدى الظالمين)** أى لا ينال عهدى بالإمامة مشرك. ولهذا أوصى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم **أن يتبع ملة إبراهيم**. وكان يُعَلِّم أصحابه، إذا أصبحوا: أن يقولوا «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وملّة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلما. وما كان من المشركين**» فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد: ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقاداً. وكلمة الإخلاص: هى شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام: هى ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلا، وانقيادا وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء. قال تعالى (٢: ١٣٠ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا. وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ۞ إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين**).

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيها لا أسفه منه. ورشيداً. فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشيد: من تبرأ من الشرك قولا وعملا وحالا. فكان قوله توحيداً. وعمله توحيداً. وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين — من أولهم إلى آخرهم — قال تعالى (٢٣: ٥١، ٥٢ **يا أيها الرسل، كلوا من الطيبات. واعملوا صالحا. إنى بما تعملون عليم ۞ وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون**) وقال تعالى (٢١: ٢٥ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**) وقال تعالى (٤٣: ٤٥ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟**) وقال تعالى (٢١: ٢١ — ٢٤ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنْشِرون ۞ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ۞ لا يُسألُ عما يفعل. وهم يُسئلون ۞ أم اتخذوا من دونه آلهة؟ قل هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معى وذكر من قبلى**) أى هذا الكتاب الذى أُنْزِل علىَّ. وهذه كتب الأنبياء كلهم: هل وجدتم فى شىء منها اتخاذ آلهة مع الله؟ أم كلها ناطقة بالتوحيد آمرة به؟ وقال تعالى (١٦: ٣٦ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا: أن اعبدوا الله. واجتنبوا الطاغوت**) و «الطاغوت» اسم لكل ما عبدوه من دون الله. فكل مشرك إلهه طاغوته.

وقد تكلم شيخ الاسلام ابن تيمية على التوحيد الذى جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم، ونزلت به الكتب كلها. وبه أمر الله الأولين والآخرين. وذكر الآيات الواردة بذلك.

ثم قال: وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وهذه أول دعوة الرسل وآخرها. قال النبي صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. وأني رسول الله» وقال «من مات وهو يعلم: أن لا إله إلا الله، دخل الجنة» والقرآن مملوء من هذا التوحيد، والدعوة إليه. وتعليق النجاة والسعادة في الآخرة به. وحقيقته: إخلاص الدين كله لله. والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء. وهو أن تثبت إلهية الحق تعالى في قلبك. وتنفي إلهية ما سواه. فتجمع بين النفي والإثبات. فالنفي هو الفناء. والإثبات هو البقاء. وحقيقته: أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ماسواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ماسواه. وبطاعته عن طاعة ماسواه. وكذلك بموالاته وسؤاله، والاستغناء به، والتوكل عليه. ورجائه ودعائه، والتفويض إليه. والتحاكم إليه، واللجإ إليه، والرغبة فيما عنده. قال تعالى (٦: ١٤ قل: أغير الله أتخذ وليا، فاطر السموات والأرض؟) وقال تعالى (٦: ١١٤ أفغير الله أبتغي حكما؟) وقال تعالى (٦: ١٦٤ قل: أغير الله أبغي رباً؟ وهو رب كل شيء) وقال تعالى (٣٩: ٦٤ — ٦٦ قل: أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون؟ * ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك: لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد. وكن من الشاكرين) وقال تعالى (٦: ١٦١ — ١٦٣ قل: إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين * قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له — الآية) وقال تعالى (٢٦: ٢١٣ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقال تعالى (١٧: ٢٢ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا) وقال تعالى (٢٨: ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر. لا إله إلا هو. كل شيء هالك إلا وجهه) وقال تعالى (٣٩: ٣٨ قل: أفرأيتم ما تدعون من دون الله؟ إن أرادني الله بضر: هل هن كاشفات ضره؟ أو أرادني برحمة: هل هن ممسكات رحمته؟ قل: حسبي الله. عليه يتوكل المتوكلون) وقال (١٠: ١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقال تعالى (٣٩: ٣ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق. فاعبد الله مخلصا له الدين) . وقال عن أصحاب الكهف (١٨: ١٤ قالوا: ربنا رب السموات والأرض. لن ندعو من دونه إلها. لقد قلنا إذاً شططا) وقال عن صاحب يس (٣٦: ٢٢، ٢٣ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون؟) وقال تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء؟ فالله هو الولي) .

وقال تعالى (٣٩: ٤٣، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون؟ * قل لله الشفاعة جميعاً. له ملك السموات والأرض ثم إليه

ترجعون) وقال تعالى (٢٢: ٧٣، ٧٤ يا أيها الناس، ضرب مثل. فاستمعوا له. ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا، ولو اجتمعوا له. وإن يَسْلُبْهُم الذباب شيئاً لا يستنقِذوه منهُ. ضعف الطالب والمطلوب. ماقدروا الله حق قدره. إن الله لقوى عزيز). وقال تعالى (٤: ٣٦ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا).

وهذا فى القرآن كثير. بل هو أكثر من أن يذكر. وهو أول الدين وآخره و باطنه وظاهره، وذروة سنامه، وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد فى نفيه وإثباته، كما قال تعالى (٦٠: ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه. إذ قالوا لقومهم: إنا بُرآء منكم ومما تعبدون من دون الله. كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال تعالى (٤٣: ٢٦، ٢٧ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى بَراء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى، فإنه سيهْدين) وقال تعالى (٢٦: ٦٩ ــ ٨٢ واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه: ما تعبدون؟! قالوا: نعبد أصناماً، فنظل لها عاكفين. قال: هل يسمعونكم إذ تدعون؟* أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون؟* فإنهم عَدُوٌّ لى إلا ربَّ العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى و يسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) وإذا تدبرت القرآن ــ من أوله إلى آخره ــ رأيته يدور على هذا التوحيد، وتقريره وحقوقه.

قال شيخنا: والخليلان هم أكمل خاصة الخاصة توحيداً. ولا يجوز أن يكون فى الأمة من هو أكمل توحيداً من نبى من الأنبياء. فضلاً عن الرسل، فضلاً عن أولى العزم، فضلاً عن الخليلين. وكمال هذا التوحيد: هو أن لا يبقى فى القلب شىء لغير الله أصلاً. بل يبقى العبد موالياً لربه فى كل شىء. يحب من أحب وما أحب، و يبغض من أبغض وما أبغض، و يوالى من يوالي، و يعادى من يعادي، و يأمر بما يأمر به، و ينهى عما نهى عنه.

ولعمرو الله: انه لظهوره وجلائه: ارسل الله به رسله، وانزل به كتبه، وأمر الله به الاولين والآخرين من عباده.

فظهور هذا التوحيد واجلاؤه ووضوحه. وشهادة الفطر والعقول به: من أعظم الأدلة أنه أعلى مراتب التوحيد، وذروة سنامه. ولذلك قوى على نفى الشرك الأعظم. فإن الشيء كلما عظم لا يدفعه إلا العظيم. فلو كان شىء أعظم من هذا التوحيد لدفع الله به الشرك الاعظم. ولعظمته وشرفه: نصبت عليه القبلة واسست عليه الملة، ووجبت به الذمة. وانفصلت به دار الكفر من دار الإسلام. وانقسم به الناس إلى سعيد وشقى، ومهتدٍ وغوى. ونادت عليه الكتب والرسل.

• التوحيد فقه قلبي لا بلاغة لسان

وهذا التوحيد مستتر في قلوب أهله وإن كان أكثرهم لا يحسن الاستدلال عليه تقريراً وإيضاحاً، وجواباً عن المعارض، ودفاعاً لشبه المعاند. ولا ريب أن أكثر الناس لايحسنون ذلك وهذا قدر زائد على وجود التوحيد في قلوبهم. فما كل من وجد شيئاً وعلمه وتيقنه: أحسن أن يستدل عليه. و يقرره، و يدفع الشبه القادحة فيه. فهذا لون و وجوده لون.

فاستدلال كل أحد بحسبه، ولا يحصى أنواع الاستدلال و وجوهه ومراتبه إلا الله. فلكل قوم هاد، ولكل علم صحيح و يقين: دليل يوجبه، وشاهد يصح به. وقد لا يمكن صاحبه التعبير عنه عجزاً وعياً. وإن عبر عنه فقد لا يمكنه التعبير عنه باصطلاح أهل العلم وألفاظهم. بل من استقرأ أحوال الناس رأى أن كثيراً من أهل الإسلام ــ أو أكثرهم ــ أعظم توحيداً، وأكثر معرفة، وأرسخ إيماناً من أكثر المتكلمين، وأرباب النظر والجدال. ويجد عندهم من أنواع الأدلة والآيات التي يصح بها إيمانهم ما هو أظهر وأوضح وأصح مما عند المتكلمين. وهذه الآيات التي ندب الله عباده إلى النظر فيها، والاستدلال بها على توحيده، وثبوت صفاته وأفعاله، وصدق رسله: هي آيات مشهودة بالحسّ، معلومة بالعقل، مستقرة في الفطر. لا يحتاج الناظر فيها إلى أوضاع أهل الكلام والجدل، واصطلاحهم، وطرقهم ألبتة. وكل من له حس سليم، وعقل يميز به: يعرفها و يُقِرُّ بها، و ينتقل من العلم بها إلى العلم بالمدلول. وفي القرآن ما يزيد على عشرات ألوف من هذه الآيات البينات. ومن لم يحفظ القرآن فإنه إذا سمعها وفهمها وعقلها انتقل ذهنه منها إلى المدلول أسرع انتقال وأقربه.

وبالجملة: فما كل من علم شيئاً أمكنه أن يستدل عليه. ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره، والجواب عن المعارض.

• بذرة التوحيد نامية

قال شيخ الاسلام الهروي:

«ويجب التوحيد بالعقل والسمع، و يوجد بتوفيق الله بعد تبصيره، و ينمو باجابة داعي الحق والتبصر في الشواهد».

هذه ثلاث مسائل. إحداها: مايجب به. والثانية: ما يوجد به. والثالثة: ما ينمو به.

فأما المسألة الأولى: فاختلف فيها الناس. فقالت طائفة: يجب بالعقل. و يعاقب على تركه. والسمع مقرر لما وجب بالعقل مؤكد له. فجعلوا وجوبه والعقاب على تركه ثابتين بالعقل.

والسمع مبين ومقرر للوجوب والعقاب. وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم من أتباع الأئمة في مسألة التحسين والتقبيح العقليين

وقالت طائفة: لا يثبت بالعقل. لا هذا ولا هذا. بل لا يجب بالعقل فيها شيء. وإنما الوجوب بالشرع. ولذلك لا يستحق العقاب على تركه. وهذا قول الأشعرية ومن وافقهم على نفي التحسين والتقبيح.

والحق: أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع، والقرآن على هذا يدل. فإنه يذكر الأدلة والبراهين العقلية على التوحيد. و يبين حسنه وقبح الشرك عقلا وفطرة. و يأمر بالتوحيد و ينهى عن الشرك. ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال. وهي الأدلة العقلية. وخاطب العباد بذلك خطاب من استقر في عقولهم وفطرهم حسن التوحيد ووجوبه. وقبح الشرك وذمه. والقرآن مملوء بالبراهين العقلية الدالة على ذلك. كقوله (٣٩: ٢٩ ضرب الله مثلا. رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل، هل يستويان مثلا؟ الحمد لله. بل أكثرهم لايعلمون) وقوله (١٦: ٧٥، ٧٦ ضرب الله مثلا: عبداً مملوكا لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوون؟ الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلا رجلين: أحدهما أبكم لا يقدر على شيء. وهو كلٌ على مولاه. أينما يوجهه لايأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم؟) وقوله (٢٢: ٧٣، ٧٤ يا أيها الناس، ضرب مثل. فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) إلى أضعاف ذلك من براهين التوحيد العقلية التي أرشد إليها القرآن ونبه عليها.

ولكن ههنا أمر آخر. وهو أن العقاب على ترك هذا الواجب يتأخر إلى حين ورود الشرع. كما دل عليه قوله تعالى (١٧: ١٥ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (٦٧: ٨، ٩ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها: ألم يأتكم نذير؟* قالوا: بلى! قد جاءنا نذير فكذبنا) وقوله (٢٨: ٥٩ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وقوله (٦: ١٣١ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) فهذا يدل على أنهم ظالمون قبل إرسال الرسل. وأنه لا يهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم. فالآية رد على الطائفتين معاً، من يقول: إنه لا يثبت الظلم والقبح إلا بالسمع، ومن يقول: إنهم معذبون على ظلمهم بدون السمع. فالقرآن يبطل قول هؤلاء وقول هؤلاء. كما قال تعالى (٢٨: ٤٧ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم، فيقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا؟ فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين؟) فأخبر.

أن ما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل سبب لإصابتهم بالمصيبة. ولكن لم يفعل سبحانه ذلك قبل إرسال الرسول الذى يقيم به حجته عليهم، كما قال تعالى **(٤: ١٦٥ رسلا مبشرين ومنذرين. لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)** وقال تعالى **(٦: ١٥٥ ـ ١٥٧ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم. فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة)** وقوله **(٣٩: ٥٦ ـ ٥٩ أن تقول نفس: ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله. وإن كنت لمن الساخرين * ـ إلى قوله ـ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)** وهذا فى القرآن كثير. يخبر أن الحجة إنما قامت عليهم بكتابه ورسوله، كما نبههم بما فى عقولهم وفطرهم: من حسن التوحيد والشكر، وقبح الشرك والكفر.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاة فى كتاب «مفتاح دار السعادة» وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً. تبطل قول من نفى القبح العقلى، وزعم أنه ليس فى الأفعال ما يقتضى حسنها ولا قبحها. وأنه يجوز أن يأمر الله بعين ما نهى عنه. و ينهى عن عين ما أمر به. وأن ذلك جائز عليه. وإنما الفرق بين المأمور والمنهى بمجرد الأمر والنهى، لا بحسن هذا وقبح هذا. وأنه لو نهى عن التوحيد والإيمان والشكر لكان قبيحاً. ولو أمر بالشرك والكفر والظلم والفواحش لكان حسناً. و بينا أن هذا القول مخالف للعقول والفطر، والقرآن والسنة.

والمقصود: وجوبه بالسمع والعقل. وإن اختلفت جهة الإيجاب. فالعقل يوجبه: بمعنى اقتضائه لفعله، وذمه على تركه، وتقبيحه لضده. والسمع يوجبه بهذا المعنى. و يزيد: إثبات العقاب على تركه، والإخبار عن مقت الرب تعالى لتاركه، و بغضه له. وهذا قد يعلم بالعقل. فإنه إذا تقرر قبح الشيء وفحشه بالعقل، وعلم ثبوت كمال الرب جل جلاله بالعقل أيضاً: اقتضى ثبوت هذين الأمرين: علم العقل بمقت الرب تعالى لمرتكبه. وأما تفاصيل العقاب، وما يوجبه مقت الرب منه: فإنما يعلم بالسمع.

واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً فى الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله فى العقول والفطر. ولهذا يقول سبحانه عقيب تقرير ذلك **(أفلا تعقلون؟ أفلا تذكرون؟)** و ينفى العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم فى النار: انهم لم يكونوا يسمعون ولايعقلون. وانهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وأخبر عنهم: أنهم **(٢: ١٧١ صم بكم عمي فهم لا يعقلون)** وأخبر عنهم **(٤٦: ٢٦)** أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئاً. ولو لم يكن فى صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن فى قوله تعالى «انظروا» و «اعتبروا» و «سيروا فى الأرض، فانظروا» فائدة. فإنهم يقولون: عقولنا لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما

هذا النظر والتفكر والاعتبار والسير فى الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانية؟ أفليس فى ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر فى العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حى، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى (٣٩:٢٧ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) وقال تعالى (٢٩:٤٣ وتلك الأمثال نضربها للناس. وما يعقلها إلا العالمون) وقال تعالى (٥٠:٣٧ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقال تعالى (٢٢:٤٦ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تعمى الأبصار. ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (٢:٢٤٣ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) وقال تعالى (١٠:١٠١ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض. وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟) وقال تعالى (١٤:٢٥ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالى (٢٩:٣٨ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم) وقال فى ثمود (٢٧: ٥٢، ٥٣ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال فى قوم لوط (٢٩: ٣٤،٣٥ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) وقال تعالى (١٥:٧٥ — ٧١ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين. وإنها لبسبيل مقيم * ان فى ذلك لآية للمؤمنين * وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم. وإنهما لبإمام مبين) وقال تعالى فى قوم لوط (٢٧:١٣٧،١٣٨ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل. أفلا تعقلون؟) وهو سبحانه يذكر فى سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد. ثم يقول (إن فى ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة. ثم يخبر أن فى ذلك آية وبرهاناً للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته. فصدور هذا الأهلاك عن عزته. وذلك الإنجاء عن رحمته. ثم يقرر فى آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير. ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب. وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية. فضرب الأمثال والأقيسة، فدلالة القرآن سمعية عقلية.

المسألة الثانية: قوله «و يوجد بتبصير الحق» وجوب الشيء شرعاً لا يستلزم وجوده حساً. فلذلك ذكر ما يوجد به بعد ذكر ما يجب به. وهو تبصير الحق تعالى. ومراده: التبصير التام الذى

لا تختلف عنه الهداية، وإلا فقد يبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية. كما قال تعالى (١٧:٤١ **وأما ثمود: فهديناهم. فاستحبوا العمى على الهدى**) فهو ــ سبحانه ــ بصَّرهم. فآثروا الضلال على الهدى. وقال تعالى (١١٥:٩ **وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون**) وقال تعالى عن قوم فرعون (٢٧:١٤ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً**) فهذا التبصير لم يوجب وجود الهداية. لأنه سبحانه لم يرد وجودها وإنما أراد وجود مجرد البصيرة. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما التبصير التام: فإنه يستلزم وجود الهداية. وهو الذى أمرنا أن نسأله إياه فى كل صلاة. وقال فيه أهل الجنة (٤٣:٧ **الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله**) وقال تعالى (٢٥:١٠ **والله يدعو إلى دار السلام، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**) فعَمَّ بدعوته البيان والدلالة. وخص بهدايته التوفيق والإلهام.

المسألة الثالثة: قوله: «و ينمو باجابة داعي الحق» إذ لا يكفى مجرد مشاهدة الشواهد فى نموه (١٠٥:١٢ **وكأيّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون؟**) يمر عليها العبد ولا ينتفع بها ولا يزيد بل ينقص إيمانه وتوحيده. فإذا أجاب الداعي وتبصَّر فى الشواهد نما توحيده، وقوى إيمانه. وقال تعالى (١٧:٤٧ **والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم**) وقال تعالى (٧٦:١٩ **و يزيد الله الذين اهتدوا هدى**). وقال تعالى (١٢٤:٩ **فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا**).

وقد تضمن كلام الشيخ مادلت عليه النصوص، واتفق عليه الصحابة والتابعون: أن الإيمان والتوحيد ينموان و يتزايدان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة الذى فارقوا به الجهمية والمرجئة.

• تعلّق الهداية بالتوفيق الرباني لا ينفي وجوب الدعوة

وتعلق العبد بالشواهد، وهي الادلة والآيات: من التوحيد. فإن الله سبحانه نصب الادلة على التوحيد، وأقام البراهين وأظهر الآيات، وأمرنا أن نشهد الادلة والآيات، وننظر فيها ونستدل بها، ولا يجتمع هذا الاثبات وذلك النفي البتة. والمخلوقات كلها آيات للتوحيد، وكذلك الآيات المتلوة ادلة عليه.

فالتوحيد ــ كل التوحيد ــ ان يشهد كل شيء دليلاً عليه، مرشداً اليه، والرسل هم ادلة للتوحيد، وقد قال الله تعالى لرسوله (٥٢:٤٢ **وإنك لتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**) وقال تعالى (٧:١٣ **ولكل قوم هاد**) والهادى: هو الدليل الذى يدل بهم فى الطريق إلى الله، والدار الآخرة. ولا يناقض هذا قوله (٥٦:٢٨ **إنك لا تهدى من أحببت**) وقوله (٨:٣٥ **فإن**

الله يضل من يشاء و يهدى من يشاء) فإن الله سبحانه تكلم بهذا وهذا. فرسله الهداة هداية الدلالة والبيان. وهو الهادى هداية التوفيق والالهام فالرسل هم الأدلة حقاً. والله سبحانه هو الموفق الملهم، الخالق للهدى فى القلوب.

ومن محض التوحيد: أن تشهد العبودية وقيامك بها، وتشهد انها من عين المنة والفضل، وتشهد فقرك وفاقتك، فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً على حلقة من أصحابه، وهم يتذاكرون. فقال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر مامنَّ الله به علينا، وهدانا بك إلى الإسلام. فقال: آللهِ، ماأجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آللهِ ما أجلسنا إلا ذلك؟ فقال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم. ولكن الله يباهى بكم الملائكة».

فكان من أسباب مباهاة الله بهم الملائكة: شهودهم سبب التوحيد، ووسيلة النجاة. وأنهم من مَنّ الله عليهم، كما قال تعالى (٣: ١٦٤ لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم. و يعلمهم الكتاب والحكمة).

ولا يصادم هذا الشعور بالفقر ان يفتخر المؤمن بما كان من منّة الله تعالى عليه، اذا كان قصده ذكرها ونشرها تعليماً وتربية للآخرين

فالافتخار نوعان: مذموم، ومحمود. فالمذموم: إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعا عليهم. وهذا غير مراد. والمحمود: إظهار الأحوال السنية، والمقامات الشريفة، بَوْحاً بها. أى تصريحاً وإعلاناً، لا على وجه الفخر. بل على وجه تعظيم النعمة. والفرح بها، وذكرها ونشرها، والتحدث بها، والترغيب فيها وغير ذلك من المقاصد فى إظهارها. كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» و «أنا أول من تنشق عنه الأ رض يوم القيامة ولا فخر» و « أنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر» وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه «أنا أول من رَمَى بسهم فى سبيل الله» وقال أبو ذر رضي الله عنه «لقد أتى عليّ كذا وكذا واني لثالث الاسلام» وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه «إنه لعهد النبى الأمى إليّ: أنه لا يحبنى إلا مؤمن. ولا يبغضنى إلا منافق» وقال عمر رضى الله عنه «وافقت ربى فى ثلاث» وقال علي رضى الله عنه ــ وأشار إلى صدره ــ «إن هُهنا علماً جماً. لو أصبت له حَمَلة» وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة. وإن زيداً ليلعب مع الغلمان» وقال أيضا «ما من كتاب الله آية إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وماذا أريد بها؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الابل لرحلت إليه» وقال بعض الصحابة «لأن تختلف فيّ الأسنة أحب إليّ من أن أحدث نفسى فى الصلاة بغير ما أنا فيه» وهذا أكثر من أن يذكر.

• الاسلام فرق

ومن تمام التوحيد: أن يكون العبد صاحب جمع وفرق.

و«الجمع» في اللغة الضم. والاجتماع الانضمام، والتفريق: ضده. وفي اصطلاح الصوفية: هــو شخوص البصيرة إلى من صدرت عنه المتفرقات كلها.

وأما «الفرق» الإسلامي: فهو الفرق بين ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه، وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله. وهذا الفرق من لم يكن من أهله لم يشم رائحة الاسلام البتة. وقد حكى الله سبحانه عن أهل الشهوات: أنهم أنكروا هذا الفرق. فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور إذ قالوا (٢: ١٧٥ إنما البيع مثل الربا) لا فرق بينهما. وقالوا: الميتة مثل المذكاة. لا فرق بينهما، وقالوا: الحلال والحرام شيء واحد. فهذا جمعهم وذلك فرقهم.

• وعبادتنا جمع

اما الجمع فجمعان:

جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية. فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده. فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة ــ ظاهراً و باطناً ــ غيره. فما شاء كان. ومالم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه. وأحاطت بها قدرته. ونفذت بها مشيئته. واقتضتها حكمته. فهذا جمع توحيد الربوبية.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وهمهُ وعزمه على الله. وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه. فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.

وهذان الجمعان: هما حقيقة (إياك نعبد وإياك نستعين) فإن العبد يشهد من قوله «إياك» الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى. ثم يشهد من قوله «نعبد» جميع أنواع العبادة ظاهراً و باطناً. قصداً وقولا وعملا وحالا واستقبالا. ثم يشهد من قوله «وإياك نستعين» جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض. فيشهد منه جميع الربوبية. و يشهد من «إياك نعبد» جمع الإلهية. و يشهد من «إياك» الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من «اهدنا» عشر مراتب. إذا اجتمعت حصلت له الهداية.

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان. فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.

الثانية: أن يُقْدِرَه عليه. وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريداً له.

الرابعة: أن يجعله فاعلا له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك. ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة. أخص من الأولى. فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالا. وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلا.

الثامنة: أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه. فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه، غير محجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها. وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً. وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلا وضلالا. ثم يشهد جمع «الصراط المستقيم» في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل له هذا الجمع. فهو على الصراط المستقيم. والله أعلم.

(٦٦) منزلة الشهادة

وهي نهاية رحلة هجرة المؤمن إلى الله ورسوله وتقوده إلى تكرار السير والانعطاف نحو باب البداية

وآخر منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»: منزلة «الشهادة»

واعلم ان التوحيد الذي دعت اليه رسل الله، ونزلت به كتبه: نوعان: توحيد في المعرفة والاثبات، وتوحيد في المطلب والمقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح. كما في أول سورة الحديد، وسورة طه وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها. وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ماتضمنه سورة (قل: يا أيها الكافرون) وقوله (٣: ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ــ الآية) وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام» وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد.

بل نقول قولا كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله. فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره. فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب. فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ (الحمد لله) توحيد (رب العالمين) توحيد (الرحمن الرحيم) توحيد (مالك يوم الدين) توحيد (إياك نعبد) توحيد (وإياك نستعين) توحيد (اهدنا الصراط المستقيم) توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الذين فارقوا

التوحيد. ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد. وشهد له به ملائكته، وأنبياؤه ورسله. قال (٣:١٨، ١٩ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَالْمَلَائِكَةُ، وَأُولُوا الْعِلْمِ. قَائِمًا بِالْقِسْطِ. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ).

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم. وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية: أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به. وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار. قال مجاهد: حَكَمَ، وقضى. وقال الزجاج: بَيَّنَ. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن «الشهادة» تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله. وتتضمن إعلامه، وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب. مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره. بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له. ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك. وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال الله تعالى (٤٣: ٨٦ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (على مثلها فاشهد) وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة. قال تعالى(٦: ١٥٠ قل: هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا. فإن شهدوا فلا تشهد معهم) وقال تعالى (٤٣: ١٩ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويُسألون). فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم «عَدَلَتْ شهادةُ الزور الإشراكَ بالله» وشهادة الزور هي قول الزور. كما قال تعالى (٢٢: ٣١ واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به) وعند نزول هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» فسمى قول الزور شهادة. وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة. قال تعالى (٤: ١٣٥ يا أيها الذين آمنوا، كونوا قوامين بالقسط شهداء لله.

ولو على أنفسكم) فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي «فلما شهد على نفسه أربع مرات. رجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقال تعالى (٦: ١٣٠ قالوا: شهدنا على أنفسنا. وغرتهم الحياة الدنيا. وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين).

وهذا — وأضعافه — يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره: لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة. كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة. وظاهر كلام أحمد. ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس «شهد عندي رجال مرضيون — وأرضاهم عندي عمر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الصبح، حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس» ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة. بل قال «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام. وشهد شهادة الحق. ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة وأنه قد دخل في قوله «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» وفي لفظ آخر «حتى يقولوا لا إله إلا الله» فدل على أن مجرد قولهم «لا إله إلا الله» شهادة منهم. وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة. فليس مع من اشترط لفظ الشهادة. دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

• آيات الله تعالى في الآفاق تشهد

وأما مرتبة الإعلام والإخبار، فنوعان: إعلام بالقول. وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله. وتارة بفعله.

فشهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه. يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى. فالقول: هو ما أرسل به رسله. وأنزل به كتبه. ومما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله: أنه شهد لنفسه «بأنه لا إله إلا هو» وأخبر بذلك. وأمر عباده أن يشهدوا به. وشهادته سبحانه «أن لا إله إلا هو» معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة. وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان. فإن الدليل يبين المدلول عليه و يظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر. بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولا وكلاماً. لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

وقالت له العينان: سمعاً وطاعة ... وحدرتا بالدر لما يثقب

وقال الآخر:

شكا إلى جملي طول السرى ... صبراً جميلى، فكلانا مبتلى

و يسمى هذا شهادة أيضاً، كما في قوله تعالى (٩: ١٧ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله، شاهدين على أنفسهم بالكفر) فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله. فهي شهادة بكفرهم. وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به.

والمقصود: أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله. و يشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية. فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل. كما قال تعالى (٤١: ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أي أن القرآن حق. فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية. وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير. قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما المرتبة الرابعة ــ وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه ــ فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به. كما قال تعالى (١٧: ٢٣ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) وقال تعالى (١٦: ٥١ وقال الله: لا تتخذوا إلهين اثنين. إنما هو إله واحد) وقال تعالى (٩٨: ٥ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال تعالى (١٧: ٢٢، ٣٩ لا تجعل مع الله إلهاً آخر) وقال الله سبحانه وتعالى (٢٨: ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر) والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر، وبيّن وأعلم، وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله. وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه. كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلهاً. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات. كما إذا رأيت رجلا يستفتي أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلا لذلك، و يدع من هو أهل له. فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب. المفتى فلان. والشاهد فلان. والطبيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهى.

وأيضاً فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة. فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار: أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم. وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. فإذا شهد سبحانه أنه «لا إله إلا هو» تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضاً فلفظ «الحكم» و «القضاء» يستعمل في الجمل الخبرية. فيقال للجملة الخبرية «قضية» و «حكم». وقد حُكم فيها بكيت وكيت، قال تعالى (٣٧: ١٥١ ـ ١٥٤ ألا إنهم من إفكهم ليقولون: وَلَدَ اللهُ، وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين؟ مالكم؟ كيف تحكمون؟) فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكما. وقال في موضع آخر (٦٨: ٣٥، ٣٦ أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ مالكم؟ كيف تحكمون؟) لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو: متضمن للالزام. والله سبحانه أعلم.

• قيام الله بالقسط يقتضي الثواب والعقاب

وقوله تعالى «قائماً بالقسط» القسط: هو العدل. فشهد الله سبحانه: أنه قائم بالعدل في توحيده. وبالوحدانية في عدله. و «التوحيد» و «العدل» هما جماع صفات الكمال. فإن «التوحيد» يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذى لا ينبغي لأحد سواه. و «العدل» يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات الصفات، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. وإثبات القدر والحِكَم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره. لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذى هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذى هو: التكذيب بالقدر، أو نفى الحِكَم والغايات والعواقب الحميدة التى يفعل الله لأجلها و يأمر. وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمن أموراً.

أحدها: أنه قائم بالقسط فى هذه الشهادة التى هى أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكاره وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق. فلا أعدل من التوحيد ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل فى هذه الشهادة قولا وفعلا، حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عباده. و بين لهم تحقيقها وصحتها. وألزمهم بمقتضاها. وحكم به. وجعل الثواب والعقاب عليها. وجعل الأمر والنهى من حقوقها وواجباتها. فالدين كله من حقوقها. والثواب كله عليها. والعقاب كله على تركها.

وهذا هو العدل الذى قام به الرب تعالى فى هذه الشهادة. فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها. ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها و يضادها. وثوابه كله عليه. وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها. وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها. وهى الحق الذى خلقت به. وضدها هو الباطل والعبث الذى نزه نفسه عنه. وأخبر: أنه لم يخلق به السماوات والأرض، قال تعالى ــ رداً على المشركين المنكرين لهذه الشهادة ــ (٣٨: ٢٧ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا. فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (٤٦: ١ ــ ٣ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. والذين كفروا عما أنذروا معرضون) وقال (١٠: ٥ وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً. وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وقال (٣٠: ٨ أولم يتفكروا فى أنفسهم؟ ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) وقال (٤٤: ٣٨ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لا عبين * ما خلقناهما إلا بالحق) وهذا كثير فى القرآن. والحق الذى خلقت به السماوات والأرض ولأجله: هو التوحيد. وحقوقه من الأمر والنهى، والثواب والعقاب. فالشرع والقدر، والخلق والأمر، والثواب والعقاب قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنها. وهذا هو الصراط المستقيم الذى عليه الرب سبحانه وتعالى. قال تعالى ــ حكاية عن نبيه هود ــ (١١: ٥٦ إنى توكلت على الله ربى وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربى على صراط مستقيم) فهو سبحانه على صراط مستقيم فى قوله وفعله. فهو يقول الحق. و يفعل العدل (٦: ١١٥ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً. لامبدل لكلماته. وهو السميع العليم) (٣٣: ٤ والله يقول الحق. وهو يهدى السبيل).

والمقصود: أن قوله تعالى «قائماً بالقسط» هو كقوله (إن ربي على صراط مستقيم) وقوله «قائماً بالقسط» نصب على الحال. وفيه وجهان. أحدهما: أنه حال من الفاعل فى «شهد الله» والعامل فيها الفعل. والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إله إلا هو. والثانى: أنه حال من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفى. أى لا إله إلا هو، والثانى: أنه حال

من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفي. أي لا إله إلا هو، حال كونه قائماً بالقسط. وبين التقديرين فرق ظاهر. فإن التقدير الأول: يتضمن أن المعنى: شهد الله ــ متكلما بالعدل، مخبراً به، آمراً به، فاعلاً له، مجازياً به ــ أنه لا إله إلا هو. فإن العدل يكون في القول والفعل. و «المقسط» هو العادل في قوله وفعله. فشهد الله قائماً بالعدل ــ قولاً وفعلاً ــ أنه لا إله إلا هو. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهي أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل شيء وأصحه.

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به، لا بالظلم. فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً. فإنها تضمنت: أنه هو الذي يستحق العبادة وحده دون غيره. وأن الذين عبدوه وحده: هم المفلحون السعداء. وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائماً بالعدل ــ المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار ــ: كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها. وكان قوله «قائما بالقسط» تنبيها على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

● واحد ... وذو عدل ... سبحانه

وأما التقدير الثاني ــ وهو أن يكون قوله «قائماً» حالا مما بعد «إلا» ــ فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائما بالعدل. فهو وحده المستحق الإلهية، مع كونه قائما بالقسط.

قال شيخنا ابن تيمية: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن: أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو، وأنه قائما بالقسط.

قلت: مراده أنه إذا كان قوله «قائماً بالقسط» حالاً من المشهود به. فهو كالصفة له. فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها كان كلاهما مشهوداً به. فيكون «الملائكة وأولو العلم» قد شهدوا بأنه قائم بالقسط. كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو. والتقدير الأول لا يتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله ــ قائماً بالقسط ــ أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو: كان القيام بالقسط حالاً من اسم «الله» وحده.

وأيضا فكونه قائما بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة.

فإن قيل: فإذا كان حالاً من «هو» فهلا اقترن به؟ ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسطا بين صاحب الحال وبينها؟

قلت: فائدته ظاهرة. فإنه لو قال «شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط والملائكة وأولو العلم» لأ وهم عطف الملائكة وأولى العلم على الضمير في قوله «قائما بالقسط» ولا يحسن العطف لأجل الفصل. وليس المعنى على ذلك قطعا. وإنما المعنى على خلافه. وهو أن قيامه بالقسط مختص به، كما أنه مختص بالإلهية. فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة. وهو وحده المجازى المثيب المعاقب بالعدل.

قوله «لا إله إلا هو» ذكر محمد بن جعفر أنه قال: الأولى وصف وتوحيد، والثانية: رسم وتعليم، أى قولوا «لا إله إلا هو» ومعنى هذا: أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والتالى للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو. وليس فى ذلك شهادة من التالى نفسه. فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالى. فيكون شاهدا هو أيضاً.

وأيضاً فالأولى: خبر عن شهادة بالتوحيد. والثانية: خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله «العزيز الحكيم» فتضمنت الآية توحيده وعدله، وعزته وحكمته. فالتوحيد: يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها وعبادته وحده لا شريك له. و «العدل» يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك. وأنه لا يعاقب من لايستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذى جعله مستحقا. و «العزة» تتضمن كمال قدرته وقوته وقهره. و «الحكمة» تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى وخلق وقدر، لما له فى ذلك من الحكم والغايات الحميدة التى يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه «العزيز» يتضمن الملك. واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد. وأول الآية يتضمن التوحيد. وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد. وهو على

ل الله صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله. و

. وإذا نهى عن شىء كان قبيحا فى نفسه. وإذا

إيا. وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك. وعدله المنافى للظلم. وعزته المنافية للعجز. وحكمته المنافية للجهل والعيب. ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدرة والعلم والحكمة. ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة. وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

فهذه الشهادة العظيمة: متضمنة لإبطال ماهم عليه ورده. كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورده. وهي مبطلة لقول طائفتي الشرك والتعطيل. ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. و ينفون عنه مماثلة المخلوقات. • يعبدونه وحده لا يشركون به شيئا.

• شهادته سبحانه لنفسه أتم من شهادة المتدعة

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد، ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به. فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها: لم ينتفعوا. ولم يقم عليهم بها الحجة. كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها. لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة. وإذا كان لا يُنتفع بها إلا ببيانها. فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سبع سماواته، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده تكلما وتكليما. حقيقة لا مجازا.

وفي هذا إبطال لقول من قال: إنه لم يرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها وحقائقها التي وضعت لها ألفاظها. فإن هذا ضد البيان والإعلام. و يعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان. وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله. وأخبر أنه من أظلم الظالمين. فإذا كانت [illegible]

الرسل، وأن إبراهيم واهل بي

الظالمين ـــ كما فعله أعداء رسول الله ﷺ

يعرفون أبنائهم ـــ فكيف يظن بالله سبحانه أنه [illegible] شهادة الحق التي يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة. ولا يشهد بها لنفسه. ثم يشهد لنفسه بما يضادها و يناقضها، ولا يجامعها بوجه ما؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش، و بأنه القاهر فوق عباده، و بأن ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر. وتنزل من عنده به. وأن العمل الصالح يصعد إليه، وأنه يأتي ويجيء، و يتكلم، و يرضى و يغضب، ويحب و يكره، و يفرح و يضحك، وأنه يسمع و يبصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه. إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه، وشهد له به رسله. وشهدت له الجهمية بضد ذلك، وقالوا: شهادتنا أصح، وأعدل من شهادة النصوص. فإن النصوص تضمنت كتمان الحق و إظهار خلافه.

فشهادة الرب تعالى: تكذب هؤلاء أشد التكذيب. وتتضمن أن الذى شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره، حتى جعله فى أعلى مراتب الظهور والبيان. وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه. فإن الحق فى نفس الأمر ـــ عندهم ـــ لم يشهد به لنفسه. والذى شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه: فليس بحق. ولا يجوز أن يستفاد منه الحق واليقين.

وأما آياته العيانية الخلقية، والنظر فيها والاستدلال بها: فإنها تدل على ماتدل عليه آياته القولية السمعية. وآيات الرب: هى دلائله و براهينه التى بها يعرفه العباد، و بها يعرفون أسماءه وصفاته. وتوحيده، وأمره ونهيه. فالرسل تخبر عنه بكلامه الذى تكلم به. وهو آياته القولية. و يستدلون على ذلك بمفعولاته التى تشهد على صحة ذلك. وهى آياته العيانية. والعقل يجمع بين هذه وهذه. فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل. فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة. وهو سبحانه ـــ لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، ومحبته للعذر، وإقامته للحجة ـــ لم يبعث نبيا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به. قال تعالى (٥٧: ٢٥ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقال تعالى (١٦: ٤٣، ٤٤ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم. فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر) وقال تعالى (٣: ١٨٣: ١٨٤ قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات و بالذى قلتم. فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين؟ فإن كذبوك فقد كُذّب رسلٌ من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) وقال تعالى (٣٥: ٤ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) وقال تعالى (٣٥: ٢٥ وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات و بالزبر و بالكتاب المنير).

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام. حتى قال له قومه (١١: ٥٣ ياهود ما جئتنا ببينة) ومع هذا فبينته من أظهر البينات. وقد أشار إليها بقوله (١١: ٥٤ ـــ ٥٦ إنى أشهد الله. واشهدوا: أنى برىء مما تشركون من دونه. فكيدونى جميعاً ثم لا تُنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربى على صراط مستقيم) فهذا من أعظم الآيات: أن رجلا واحدا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم ـــ إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة ـــ: أنه برىء من دينهم وآلهتهم، التى يوالون عليها و يعادون. و يبذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يُمهلونه: لايستطيعون، فانهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك .

ثم قرر دعوته أحسن تقرير. وبين أن ربه تعالى وربهم، الذى نواصيهم بيده: هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم. فلا يخذل من توكل عليه وآمن به. ولا يُشمت به أعدائه. ولا يكون معهم عليه. فإن صراطه المستقيم الذى هو عليه ـــ فى قوله وفعله ـــ يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم: أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه. وينزل به بأسه. فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذى عليه الرب تعالى. ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام. ونصره أوليائه ورسله على أعدائهم. وأنه يذهب بهم، ويستخلف قوماً غيرهم. ولا يضره ذلك شيئاً. وأنه القائم سبحانه على كل شىء حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاءً.

فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم. بيَّنها لعباده غاية البيان. وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «**ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**».

ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهو ـــ فى أحد التفسيرين ـــ المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذى صَدَّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التى دل بها على صدقهم قضاء وخلْقا. فإنه سبحانه أخبر ـــ وخبره الصدق. وقوله الحق ـــ أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحى الذى بلغته رسله حق. فقال تعالى (٤١: ٥٣ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم. حتى يتبين لهم أنه الحق**) أى القرآن. فإنه هو المتقدم فى قوله (٤١: ٥٢ **قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به؟**) ثم قال (**أولم يَكْفِ بربك: أنه على كل شىء شهيد؟**) فشهد سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق. ووعدَه أن يُرىَ العباد من آياته الفعلية الخَلْقية: ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شىء. فإن من أسمائه «الشهيد» الذى لا يغيب عنه شىء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، بل هو مطلع على كل شىء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فبين لى كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته. فإن ذلك أمر لا عهد لنا به فى تخاطبنا وكتبنا.

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت. وشأنه أجل وأعلى. فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هى الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه فى الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده فى الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع فى الفطر التى لم تتنجس بالتعطيل والجحود: أنه سبحانه الكامل فى أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص. فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء: كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له. والعلم كله له، والقدرة كلها له. والسمع والبصر والإرادة. والمشيئة والرحمة والغنى، والجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفى على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه. بل لانسبة لما عرفوه من ذلك إلى مالم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شىء. وشهادته عليه. بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنا وظاهراً. ومَنْ هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به. وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يَكذِبُ عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه. ثم ينصره على ذلك و يؤيده، و يعلى كلمته. و يرفع شأنه. ويجيب دعوته، و يهلك عدوه، و يظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر. وهو ــ مع ذلك ــ كاذب عليه مفتر، ساع فى الأرض بالفساد؟؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شىء وقدرته على كل شىء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الاباء ومن ظن ذلك به، وجَوَّزَه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة، وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق. وهى طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله. وما يليق به أن يفعله ومالا يفعله.

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادى على ذلك. فيبديه و يعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله.

قال الله تعالى (٦٩: ٤٤ ــ ٤٧ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ٭ لأخذنا منه باليمين ٭ ثم لقطعنا منه الوتين ٭ فما منكم من أحد عنه حاجزين) أفلا تراه كيف يخبر سبحانه: أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يُقِرَّ من تَقَوَّل عليه بعض الأقاو يل؟ بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه. وقال تعالى (٤٢: ٢٤ أم يقولون افترى على الله كذبا؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك) هٰهنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر جازما غير

معلق: أنه (يمحو الله الباطل. ويحق الحق) وقال تعالى (٦: ٩١ وما قدروا الله حق قدره، إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء) فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقْدُره حق قدره. ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق. فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفترى عليه و يؤيده؟ و يظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا فى القرآن كثير جداً. يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله على صدق رسله، وعلى وعده ووعيده. و يدعوا عباده إلى ذلك. كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعلى بطلان الشرك. كما فى قوله (٥٩: ٢٢، ٢٣ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو. الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون) وأضعاف أضعاف ذلك فى القرآن.

و يستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان مانُسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها، كقوله (٧: ٢٨ وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا. والله أمرنا بها. قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون؟) وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم (١٧: ٣٩ كلُّ ذلك كان سَيِّئُه عند ربك مكروهاً) فأعلمك أن ما كان سيئة فى نفسه فهو يكرهه. وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له وديناً. فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله و يأمر به، وما يحبه و يبغضه، و يثيب عليه و يعاقب عليه. ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة. فلذلك كانت طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة فإنها أوسع وأسهل تناولا. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض. و يرفع درجات من يشاء. وهو العليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع فى غيره. فإنه هو الدعوة والحجة. وهو الدليل والمدلول عليه. وهو الشاهد والمشهود له. وهو الحكم والدليل. وهو الدعوى والبينة. قال الله تعالى (١١: ١٧ أفمن كان على بينة من ربه و يتلوه شاهد منه؟) أى من ربه. وهو القرآن. وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله (٢٩: ٥١، ٥٢ أولم يكْفِهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل: كفى بالله بينى وبينكم شهيداً. يعلم ما فى السموات والأرض. والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) فأخبر سبحانه أن الكتاب الذى أنزله على رسوله يكفى عن كل آية. ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله. وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، و ينجيه من العذاب. ثم قال (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم ما فى السموات والأرض) فإذا كان الله سبحانه عالماً بجميع الأشياء: كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها. فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به. فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم.

وهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله. وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم. وسمعه عند ذكر دعائهم ومسألته. وعزته وعلمه عند قضائه وقدره.

فتأمل ورود أسمائه الحسنى فى كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

• يظاهر الله رسله بشهادته لنفسه

ومن هذا قوله تعالى (١٣: ٤٣ ويقول الذين كفروا: لست مرسلاً. قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم. ومن عنده علم الكتاب) فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. ولا بد أن تعلم هذه الشهادة. وتقوم بها الحجة على المكذبين له. وكذلك قوله (٦: ١٩ أى شيء أكبر شهادة؟ قل: الله شهيد بيني وبينكم) وكذلك قوله (٤: ١٦٦ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه. والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً) وكذلك قوله (يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين) وقوله (٢: ٢٥٢ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. وإنك لمن المرسلين) وقوله (٦٣: ١ والله يعلم أنك لرسوله) وقوله (٤٨: ٢٨ محمد رسول الله) فهذا كله شهادة منه لرسوله. قد أظهرها وبينها. وبيّن صحتها غاية البيان. بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهداً لرسوله: معلوم بسائر أنواع الادلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر فى ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة. وأعدلها وأظهرها. وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذى أقام البراهين على صدقه فيه، وبعمله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به. وفى كل وقت ويُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم له الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزى والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة (٤٨: ٢٨ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وكفى بالله شهيداً) فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

وقوله (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون) فما فيه من الخبر عن علم الله الذى لا يعلمه غيره: من أعظم الشهادة بأنه هو الذى أنزله. كما قال فى الآية الأخرى (١١: ١٣، أم يقولون افتراه. قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات. وادعوا من

استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله. وأن لا إله إلا هو. فهل أنتم مسلمون؟) وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـــ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل ـــ وإنما المعنى: أنزله مشتملا على علمه. فنزوله مشتملا على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق ونظير هذا قوله (٢٥: ٦ قل: أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) ذكر ذلك سبحانه تكذيباً ورداً على من قال (٢٥: ٤ افتراه).

● الفِطر السليمة شهادة ربانية

ومن شهادته أيضاً: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك. وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر ـــ التي فطر عليها الحيوان ـــ الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذي. كالأبوال والأنتان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته. وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه.

ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه. ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبُّره علماً ضرورياً ويقيناً جازماً: أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى (٤: ٨٢ أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وقال تعالى (٤٧: ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟) فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية ـــ من الفرح والألم، والحب، والخوف ـــ أنه من عند الله. تكلم به حقاً. وبلّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد.

فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له «فهل يرتدُّ أحد منهم سَخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد» وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله (٢٩: ٤٩ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) وقوله (٢٢: ٥٤ ويرى الذين أوتوا العلم أنه

الحق من ربك فيؤمنوا به) وقوله (٣٤: ٦ و يرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك: هو الحق) وقوله (١٣: ٢١٩ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟) وقوله (١٣: ٢٧ و يقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه، قل إن الله يضل من يشاء و يهدى من أناب) يعنى: أن الآية التى يقترحونها لا توجب هداية. بل الله هو الذى يهدى و يضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهى: طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذى أنزله. فقال (١٣: ٢٨ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى بكتابه وكلامه (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به؛ وسكونها إليه: من أعظم الآيات. إذ يستحيل فى العادة: أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

• ذكر شهادة العلماء تغني عن ذكر شهادة الرسل

فإن قيل: فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة، فيقول: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل، وهم أعظم شهادة من أولى العلم؟

قيل: فى ذلك عدة فوائد.

إحداها: أن أولى العلم أعم منّ الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن فى ذكر «أولى العلم» فى هذه الشهادة، وتعليقها بهم: ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته. وأن من كان من أولى العلم: فإنه يشهد بهذه الشهادة. كما يقال إذا طلع الهلال واتضح. فإن كل من كان من أهل النظر يراه. وإذا فاحت رائحة ظاهرة. فكلٌّ من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة قال تعالى (٣٩: ٣٦ وبُرِّزت الجحيم لمن يرى) أى كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا. ففى هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة: فهو من أعظم الجهال. وإن علم من أمور الدنيا مالم يعلمه غيره. فهو من أولى الجهل، لا من أولى العلم. وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة، و يؤديها على وجهها: إلا أتباع الرسل أهل الإثبات. فهم أولو العلم. وسائر من عداهم: أولو الجهل. وإن وَسَّعوا القول وأكثروا الجدال.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة: أنهم «أولو العلم» فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهال. وأنهم حشوية، وأنهم مشبهة، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب. فكفاهم أصدق الصادقين لهم بأنهم من «أولي العلم» إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل. وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها. وخصومهم نفوا عنه حقائقها. وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها.

وفى ضمن هذه الشهادة الإلٰهية: الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم. فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. واستشهد بهم ـــ جل وعلا ـــ على أجل مشهود به. وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة. كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق. فالحجة على من أنكر هذه الشهادة. كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق. فالحجة قامت بالرسل على الخلق. وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم حجج الله على العباد.

وقد فسرت «شهادة أولى العلم» بالإقرار. وفسرت بالتبيين والإظهار، والصحيح: أنها تتضمن الأمرين. فشهادتهم إقرار، وإظهار وإعلام. وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى **(٢: ١٤٣ وكذلك جعلناكم أمة وسطا. لتكونوا شهداء على الناس. ويكون الرسول عليكم شهيدا)** وقال تعالى **(٢٢: ٧٨ هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس).**

أى: سماكم المسلمين فيما أنزل على الرسل من قبل وفى هذا القرآن الذى أنزله على رسولكم.

فأخبر: أنه جعلهم عدولا خياراً. ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم، لما سبق فى علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة. فمن لم يقم بهذه الشهادة ـــ علماً وعملاً، ومعرفة واقراراً، ودعوة وتعليما، وإرشادا ـــ فليس من شهداء الله. والله المستعان.

● لا دين سوى الاسلام

وأما قوله تعالى **(٣: ١٩ إن الدين عند الله الإسلام)** اختلف المفسرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة؟ فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبنى على القراءتين فى كسر «إن» وفتحها. فالأكثرون على كسرها على الاستئناف. وفتحها الكسائى وحده. والوجه: هو الكسر. لأن الكلام الذى قبله قد تم. فالجملة الثانية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها وهذا أبلغ فى التقرير، وأذهب فى المدح والثناء. ولهذا كان كسر **(٥٢:٢٨ إنا كنا من قبل ندعوه، إنه هو البر الرحيم)** أحسن من الفتح. وكان الكسر فى قول الملبي «لبيك. إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح.

وارجح ما ذكر في توجيه قراءة الكسائي بالفتح: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معاً، كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام. فتكون جملة استغنى فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه. كما وقع الاستغناء

عنها في قوله (١٨: ٢٢ ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم) فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما حذفت هنا. وذكرت في قوله (١٨: ٢٢ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم).

وقد دل قوله «إن الدين عند الله الإسلام» على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه. قال أول الرسل نوح (١٠: ٧٢ فإن توليتم فما سألتكم من أجر. إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال إبراهيم وإسماعيل (٢: ١٢٨ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) (٢: ١٣٢ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يابَنِيّ، إن الله اصطفى لكم الدين. فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون) وقال يعقوب: لبنيه عند الموت (٢: ١٣٢ ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلٰهك ـ إلى قوله ـ ونحن له مسلمون) وقال موسى لقومه (١٠: ٨٤ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٣: ٥٢ فلما أحس عيسى منهم الكفر، قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله. آمنا بالله. واشهد بأنا مسلمون) وقالت ملكة سبأ (٢٦: ٤٤ رب إني ظلمت نفسي. وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض. لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان. فدين الرحمن: هو الاسلام. والتي للشيطان: اليهودية. والنصرانية، والمجوسية. والصابئة. ودين المشركين.

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف.

ويدخول السالك ضمن اولي العلم المذكورين خلالها، وشهادته معهم بقيومية الله سبحانه، وعزته وحكمته: يبلغ مقصده، ويعتلي الذروة، فيقف على القمة، شامخاً، اذ يرى بين يديه منظراً شاملاً للمنازل التي مرّ بها، متناثرة في وديان الاخبات والمحبة، ومجموعة على سفوح التوكل والصبر، فيخر ساجداً، حامداً اذ وصل سالماً ثابتا، شاكراً خاشعا.

خاتمة

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين)

فنختم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهله. وبما أثنى به على نفسه.

والحمد لله رب العالمين حمداً طيبا مباركاً فيه. كما يحب ربنا و يرضى. وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزّ جلاله. غير مَكْفِيّ ولا مكفور، ولا مُوَدَّع، ولا مستغنىً عنه ربنا.

ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه. وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته. وأن يجعل ما قصدنا له ــ في هذا الكتاب وفي غيره ــ خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القارىء له:

ما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله ولا تلتفت إلى قائله. بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال. وقد ذم الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به مَنْ يبغضه. و يقبله إذا قاله مَنْ يحبه. فهذا خُلُق الأمة الغضبية. قال بعض الصحابة «اقبل الحق ممن قاله، وإن كان بغيضاً. ورد الباطل على من قاله، وإن كان حبيباً» وما وجدت فيه من خطأ: فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة. و يأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال. كما قيل:

والنقص في أصل الطبيعة كامن   فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلق ظَلوماً جهولاً؟ ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته.

وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره: أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق. وغايته: النصيحة لله، ولكتابه ولرسوله، ولإخوانه المسلمين. وإن جعل الحق تبعاً للهوى: فسد القلب والعمل والحال والطريق. قال الله تعالى **(٢٣: ٧١ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت الأرض ومن فيهن)** وقال النبي صلى الله عليه وسلم **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»** فالعلم والعدل: أصل كل خير. والظلم والجهل: أصل كل شر. والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأمره أن يعدل بين الطوائف. ولا يتبع هوى أحد منهم. فقال تعالى **(٤٢: ١٥ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم. وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب. وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بيننا وإليه المصير)**.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين.

الفهرست

	صفحة المدارج	الاصل
• صغائر دون الكبائر	٣١٥/١	١٨١
• أجناس المحرمات	٣٣٥/١	١٩١
• مشاهد المعصية	٣٩٩/١	٢١١
(٧) منزلة الانابة	٤٣٣/١	٢٣١
(٨) منزلة التذكّر	٤٤١/١	٢٣٧
(٩) منزلة الاعتصام	٤٦٠/١	٢٥١
(١٠) منزلة الفرار	٤٦٩/١	٢٥٥
(١١) منزلة السماع	٤٨١/١	٢٥٩
(١٢) منزلة الخوف	٥١١/١	٢٦٩
(١٣) منزلة الاشفاق	٥١٧/١	٢٧٣
(١٤) منزلة الخشوع	٥٢٠/١	٢٧٥
(١٥) منزلة الاخبات	٤/٢	٢٧٩
(١٦) منزلة الزهد	٨/٢	٢٨٣
(١٧) منزلة الورع	٢٠/٢	٢٨٩
(١٨) منزلة التبتّل	٢٩/٢	٢٩٥
(١٩) منزلة الرجاء	٣٥/٢	٢٩٧
(٢٠) منزلة الرغبة	٥٥/٢	٣٠٧
(٢١) منزلة المراقبة	٦٥/٢	٣١١
(٢٢) منزلة تعظيم الحرمات	٧٤/٢	٣١٥
(٢٣) منزلة الاخلاص	٨٩/٢	٣٢١
(٢٤) منزلة التهذيب	٩٧/٢	٣٢٧
(٢٥) منزلة الاستقامة	١٠٣/٢	٣٣١

